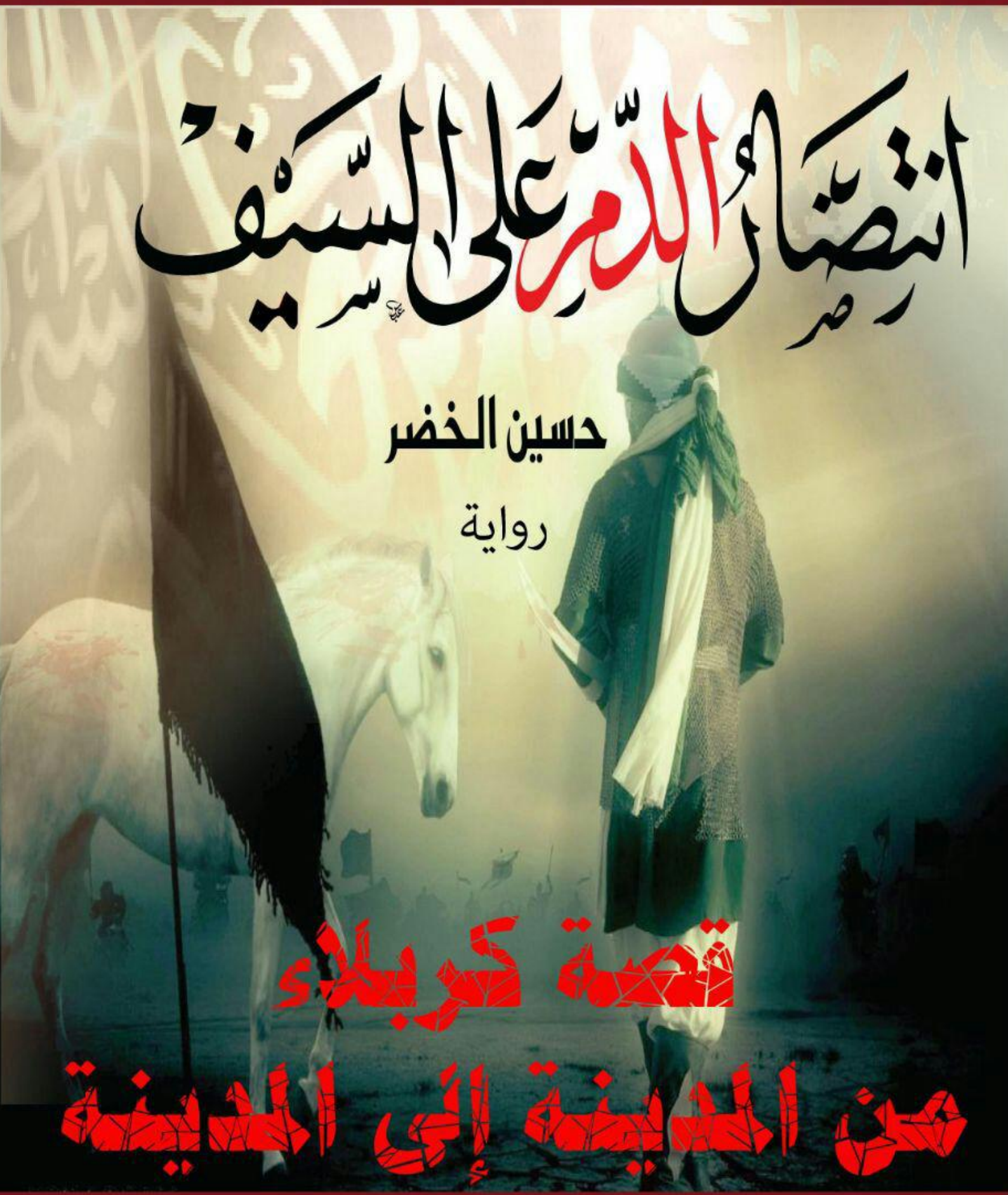

انتصار الدم على السيف
حسين الخضر
رواية
قصة كربلاء
من المدينة إلى المدينة

انتصار الدم على السيف

حقوق النشر محفوظة



المقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه المخلصين.

لعلّه لم تحظ معركة في التاريخ بما حظيت به معركة كربلاء من اهتمام يتجسّد بآلاف بل مئات الآلاف من الكتب والدراسات والمحاضرات والمشاعر الدينيّة والطقوس العباديّة وغير ذلك من المناهج والأساليب التي تعدّدت بتعدّد الثقافات.

ومنذ أن كنت طفلا وأنا أسمع في المجالس العاشورائية، والتي تقام في شهر محرم من كلّ عام، شذرات من تفاصيل هذه المعركة، بوجوهها الدّامية، وجوانبها المفجعة، وظلاماتها الصارخة، وفضولي يزداد لمعرفة المزيد، ومن هنا ولدت فكرة هذا الكتاب في نفسي وظلّ فضولي يزداد يوما بعد يوم، ووضعت نفسي في موضع الكثير من البشر الذين يرغبون بمعرفة المزيد ولكن ليس لديهم الجلَد أو الوقت الكافي لقراءة الكتب التاريخية

وإجابة لنداء "ألا من ناصر ينصرنا" والذي بدأ في معركة كربلاء ولن يتوقف إلى اليوم المعلوم وضعت على عاتقي كتابة رواية قصصيّة تتضمّن كافّة التفاصيل التي جرت منذ يوم ولادة الطفل عبد الله الرضيع إلى اليوم التي عادت به السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب والإمام السجّاد عليهم السلام إلى المدينة المنوّرة في الحجاز فخضت في غمار أهمّ المصادر التاريخية التي تحوي تفاصيل معركة كربلاء الدامية، ونقلت الروايات بدون ذكر الراوي ولكنني أضفت المصادر لتلك الأحداث في الهوامش، كما أنّني ذكرت قائمة من المصادر التاريخية المعروفة والتي تضمّ كافّة تفاصيل المعركة لمن يريد التبحّر. وأرجو الانتباه بأنّ هذا الكتاب مكتوب بأسلوب حيادي، وقد تجنّبت ذكر الكرامات التي جرت في معركة كربلاء ولا يعني أن تلك الكرامات لم تحدث، ولكنّ الهدف منه هو تعريف النّاس العاديين مثلي من كافّة الأديان والطوائف بما جرى خلال هذه المعركة وهذه الحياديّة ليس الهدف منها التقليل من قيمة شهداء معركة كربلاء، أو التقليل من هول وفجاعة ما حصل لحفيد الرسول وأهل بيته عليهم السلام في ذلك اليوم، فمن شهد المعركة، أو سمع بأحداثها الحقيقيّة، لن يتعجب لو رأى الغيوم تقطر دما حزنا وأسفا فما نراه من آثار هذه المعركة منذ أكثر من ألف وثلاثمئة سنة إلى اليوم، يدلّ ويشير إلى سموّ هدف المعركة ومكانة شهدائها الراقية. وقد اعتمدت في سبك أحداث الرواية على التنقّل بين الأمكنة المرتبطة بالحادثة بين المدينة المنورة ومكة والكوفة وكربلاء والشام مراعيا التسلسل الزمني للأحداث المتشابكة التي شكّلت بمجموعها أروع ملحمة لانتصار المبادئ على المصالح وفي هذا الإصدار اضفت بعض التفاصيل عن استراتيجية القتال والأسلحة المستخدمة من قبل الجيوش في المعركة بالإضافة الى إعادة ترتيب بعض الأحداث خلال المعركة، واضافة بعض التفاصيل عن بعض الاصحاب.

والله وليّ التوفيق

حسين يحيى الخضر

الكتاب الأول

المدينة المنوّرة

9 رجب 60 هجري

15 أبريل 680 ميلادي

تغمر الرضيعَ عبد الله الطمأنينةُ على صدر أمّه، والتي لا تزال مستلقية على الفراش مرهقة من أثر الولادة، ينظر إلى عيني أبيه الجالس إلى جانب الفراش، والذي تكاد لا تسعه الفرحة، وكأنّ بينهما لغة لا يفهم معانيها سوى كل رضيع خرج إلى الحياة حديثاً، جسده الصغير ببشرته الحريريّة النضرة، ملفوف بخرقة بيضاء، ينتظر الوجبة الأولى من ثدي أمّه لينهل منها الغذاء الممزوج بحنانها، أبوه الحسين بن علي حفيد رسول الله محمّد بن عبد الله، وأُمّه الرباب بنت امرئ القيس بن عدي الكلبي، ينظران إلى قطعة من روحهما، ويتبادلان نظرات الحب والمودّة فيما بينهما، وقد كان عبد الله الوليد الثاني للرباب بعد أخته سكينة.

الحسين بن علي كان يسكن في مدينة يثرب في شبه الجزيرة العربية، والتي غيّر اسمها جدُّه رسول الله محمّد بن عبد الله إلى مدينة طيبة بعد أن هاجر إليها من مكّة وصارت عاصمة الإسلام، ثمّ قام ببناء المسجد بمركزها، ودُفن فيه بعد إحدى عشرة عام من هجرته إليها، وقد مضى على ذلك تسعة وأربعون سنة.

دمشق

15 رجب 60 هجري

21 أبريل 680 ميلادي

في صباح يوم السبت، في السّكك الضيقة لمدينة دمشق، مدينة البذخ والرخاء في عهد الدولة الأموية، وبين بيوتها الأسطورية، والتي كانت تسمى مدينة الياسمين لانتشار أشجار الياسمين الواسع، بزهورها البيضاء، وعبقها المنعش، إمّا مزروعة خارج البيوت، أو مطلّة من خلف أسوارها كالفتيات المنتظرات لمحبوبهن على الشرفات، لتؤنس الماشي برائحتها العبقة ومنظرها الجميل.

انتشر موظفو قصر الخضراء، في أيديهم الطبول، وفي أفواههم المزامير، يعلنون لزوم التوجه إلى المسجد الجامع فوراً دون مماطلة أو تأخير، المسجد ملاصق لكنيسة يوحنا المعمدان خلف قصر الخضراء، والذي أصبح مكتظّاً بالناس جلوساً ووقوفاً، أصواتهم ملأت جنباته، ليس بسبب الصّلاة أو الدعاء، بل بسبب كلامهم وجدالهم فيما بينهم، محاولين تخمين سبب جمعهم في هذا اليوم، وفي هذه الساعة، على غير ما اقتضت عليه الطقوس العبادية في دين الإسلام. أنظارهم شاخصة إلى باب الخضراء الذي يصل المسجد بقصر الخضراء، مكان إقامة الخليفة، منتظرين خروجه ليصعد المنبر، ويقول ما لديه من أمر في غاية الأهمية.

وقف حشد من المسيحيين خارج المسجد، والذين خرجوا من الكنيسة عند رؤيتهم للمسلمين يتدفقون من كافة السكك باتجاه المسجد، لا يقل فضولهم عن فضول المسلمين عن سبب دعوة النّاس للتجمع.

غمرت موجة من الدهشة وجوه كل من كان داخل المسجد، وساد السكون فجأة، عندما لم يظهر معاوية بن أبي سفيان من باب الخضراء، بل خرج الضحّاك بن قيس مرتدياً السواد، ومعمّماً بالسواد، وتحت إبطه قماش أبيض ملفوف أسطوانياً.

تسلق المنبر بعد أن ألقى السلام، جلس ونظر إلى الموجودين متسمّرين كأنهم تماثيل لا تتحرك أو تنطق، عيونهم شاخصة إليه، منتظرين منه أن يتكلم ويعلن عن سبب اعتلائه المنبر بدل الخليفة لكنّه ظلّ صامتاً وكأنّه مستمتعٌ بالسكون الذي غمر المسجد. نظر إليه قائد الشرطة الذي كان واقفاً على يمين المنبر، وأصدر حمحمة مفتعلة من حلقه، فأرجعه إلى فضاء المسجد بعد أن كان شارد الذهن، ثمّ بدأ بحمد الله والثناء عليه، وقال "إنّ معاوية بن أبي سفيان سور العرب وعونهم وجدهم، قطع الله به الفتنة، وملّكه على العباد، وفتح به البلاد، ألا أنّه قد مات، وهذه أكفانه فنحن مدرجوه فيها، ومُدخِلوه قبره، ومخلّون بينه وبين عمله، ثمّ هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهد فليحضر" ثمّ نزل وأعلن أنّ صلاة الجنازة ستكون في المسجد بعد صلاة ظهر اليوم التالي.

تمّت صلاة الجنازة بإمامة الضحّاك بن قيس في اليوم التالي بعد صلاة الظهر، وخرج النّاس يشيّعونها وصولاً إلى المقبرة، وتمّ الدفن بمراسم مهيبة يحضرها أعيان الدولة الأموية، وأفراد الشرطة، والوزراء، بملابسهم السوداء، وعيونهم حمراء من البكاء، وخدودهم رطبة من الدموع، حزناً على ملك حكمهم سنوات طوال استطاع أن يستميل قلوبهم ببريق الذهب والفضّة، حتى صاروا طوع بنانه، وأضحى يختال بينهم مزهوّاً بأتباع مطيعين لا يفرّقون بين الناقة والجمل.

وصول يزيد بن معاوية إلى دمشق

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، كان في الثالثة والثلاثين من العمر عندما أتاه خبر وفاة أبيه، كان آنذاك في قصره في حوارين في أطراف حمص، كان يقضي فيه الكثير من أوقاته لقربه من البادية ليمارس الصّيد، وقد كان مولعاً بالبادية والصّيد كأخواله، فأمّه ميسون من عائلة اشتهرت ببراعتها بالصّيد، وعشقها للبادية. انعكس ولعه بالبادية على لسانه فكان من الشعراء المعروفين بفصاحتهم، وانعكس ولعه بالصيد على شخصيته، فاشتهر بحبه الشديد للحيوانات، فكان يهتم بتربية الكلاب ويدلّلها، ولديه في قصره قرد لطالما دخل عليه في مجلسه وهو مع أصحابه. كان يزيد بن معاوية شاباً طويلاً، أسمر البشرة، مجعّد الشّعر، شديد سواد العينين، له لحية سوداء متوسطة الكثافة، على وجهه آثار خفيفة من الجدري الذي أصابه في صباه.

وصل إلى دمشق بعد ثلاثة أيّام من دفن أبيه معاوية بن أبي سفيان، كان الضحّاك في انتظاره خارج أسوار دمشق، استقبله مع حشود من آلاف النّاس مرتدين السواد.

وجدَ يزيد بن معاوية دمشق المدينة المليئة بالبهجة والسعادة، مكسوّة بالسّواد، غارقة بالحزن، فالأعلام منكّسة والأسواق مغلقة، ومجالس العزاء مقامة، والناس يرتدون السواد حزناً على فقد معاوية بن أبي سفيان.

توجّه الضحّاك مع يزيد بن معاوية فور لقائه إلى المقبرة وذلك ليصلي على أبيه، وفي هذه الأثناء اتّجه النّاس أفواجاً إلى المسجد للترحيب به وتجديد البيعة له.

دخل يزيد بن معاوية المسجد، وصعد ليخطب بهم قبل دخوله إلى قصر الخضراء ليستريح من عناء السفر، وقال: "أيّها النّاس، كان معاوية عبداً من عبيد الله، أنعم الله عليه، ثمّ قبضه إليه، وهو خير ممّن كان بعده، ودون من كان قبله، ولا أزكّيه على الله عز وجل، فإنّه أعلم به مني، إن عفا عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه وقد ولّيت هذا الأمر من بعده، ولست أقصّر على طلب حق، ولا أعتذر عن تفريط باطل، وإذا أراد الله شيئا كان، ولقد كان معاوية يغزو بكم في البحر، وإنّي لست حاملاً أحداً من المسلمين في البحر، وكان يشتيكم بأرض الروم، ولست مشتياً أحداً بأرض الروم، وكان يخرج عطاءكم أثلاثاً، وأنا أجمعه كله لكم."

ثمّ نزل من على المنبر، وسار بين الجموع التي تدافعت نحوه لتقبل يديه أو تصافحه أو حتّى تلمس رداءه فقط، ولكنّ الحرس أحاطوا به من كل جانب، مانعين أحداً من الوصول إليه أو حتّى لمسه وسرعان ما دخل القصر من باب الخضراء ولم يخرج إلى النّاس مرة أخرى إلى ثلاثة أيّام.

خرج وقد تعمّم بعمّة سوداء، وتقلّد بسيف، وخطب في أهل الشام خطاباً أعلن فيه سياسة حكمه فقال "يا أهل الشام فإنّ الخير لم يزل فيكم، وستكون بيني وبين أهل العراق ملحمة وحرب شديد، وقد رأيت في منامي كأن نهراً يجري بيني وبينهم دماً عبيطاً، وجعلت أجهد في منامي أن أجوز في ذلك النهر فلم أقدر على ذلك، حتّى جاءني عبيد الله بن زياد، فجازه بين يدي وأنا أنظر إليه."

قال له جمعٌ من الحاضرين "يا أمير المؤمنين امض بنا حيث شئت، وأقدم بنا على من أحببت، فنحن بين يديك، معك سيوفنا التي عرفها أهل العراق في صِفّين" وقبل أنّ يتفرقوا فرّق فيهم أموالاً كثيرة.

كتب يزيد بن معاوية إلى الوليد بن عتبة، واليه على المدينة المنورة في الحجاز، "أمّا بعد: فإنّ معاوية كان عبداً من عباد الله، أكرمه، واستخلصه، ومكّن له، ثمّ قبضه إلى روحه وريحانه، ورحمته وعقابه، عاش بقدر، ومات بأجل، وقد كان عَهِدَ إليّ وأوصاني بالحذر من آل أبي تراب لجرأتهم على سفك الدماء، وقد

علمت يا وليد إنّ الله تبارك وتعالى منتقم للمظلوم عثمان بآل أبي سفيان لأنهم أنصار الحق وطلاّب العدل، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة على أهل المدينة."

وأرفق مع الكتاب صحيفة مستقلة وكتب فيها "خذ الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الرّحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصة، ومن أبى فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه!" وأرسلَ الكتاب مع ابن أبي زريق.

المدينة المنورة

رسالة يزيد بن معاوية إلى الوليد بن عتبة

حين أنهى الوليد بن عتبه قراءة كتاب يزيد بن معاوية، تنهّد، وقال محدثا نفسه بصوت مسموع "إنّا لله وإنّا إليه راجعون، يا ويح الوليد! ممن أدخله في هذه الإمارة؟ مالي وللحسين ابن فاطمة؟"

كان متربّعا على كرسيّ من الذهب، مرصعاً بالأحجار الكريمة، يرتدي ثوباً من الحرير بلون الرمل، على رأسه عمامة سوداء عليها زمرّدة بلون الدم، ما الذي سيفعله الآن؟ وكيف سيحل هذه المعضلة التي وضعه بها يزيد؟ ثمّ أرسل في طلب مروان بن الحكم، والذي كان أميراً على المدينة قبله، ولكن معاوية كان قد عزل مروان بن الحكم وعيّنه هو مكانه، ولذلك كان مروان يتكاره أن يحضر في مجلسه إلى حدِّ الانقطاع عنه، ولكن خبر موت معاوية بن أبي سفيان جعل مروان بن الحكم يحضر بلا تردد أو مماطلة.

كانت العتمة كست بيوت المدينة عندما حضر مروان بن الحكم الى مجلس الوليد بن عتبه، قال "يرحم الله أمير المؤمنين معاوية."

أعطى الوليد بن عتبة كتاب يزيد بن معاوية لمروان بن الحكم، وتأمّله وهو يقرأ ما فيه، أهي علامات حزن على وجهه بسبب موت معاوية أم هي علامات فرح لكرهه الشديد للحسين بن علي وأخيه وأبيه، قال له بعد أنهى القراءة ونظر اليه "أشر عليّ برأيك في أمر هؤلاء القوم."

قال مروان بن الحكم "أرى أن تبعث إليهم الساعة فتدعوهم إلى البيعة والدخول في طاعة يزيد بن معاوية، فإن فعلوا قبلت ذلك منهم، وكففت عنهم، وإن أبوا قدمتهم وضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنّهم إن علموا بذلك، وثب كل واحد منهم، وأظهر الخلاف، ودعا إلى نفسه، فعند ذلك أخاف أن يأتيك من قبلهم مالا قبل لك به ومالا تقوم به، إلّا عبد الله بن عمر، فإنّه لا ينازع في هذا الأمر أحداً، مع أنّي أعلم أن الحسين بن علي خاصّة لا يجيبك إلى بيعة يزيد بن معاوية، ولا يرى له عليه طاعة، والله لو كنت موضعك لم أراجع الحسين بكلمة واحدة حتّى أضرب عنقه، كائناً في ذلك ما كان."

أطرق الوليد بن عتبه برأسه وقال "ليت الوليد لم يولد، ولم يكن شيئاً مذكوراً" وقد كان يهاب لقاء الحسين بن علي لما له من هيبة ومكانة في قلوب المسلمين.

قال مروان بن الحكم "أيّها الأمير لا تجزع مما ذكرت لك، فإنّ آل أبي تراب هم الأعداء من قديم الدهر، ولا يزالون، وهم الذين قتلوا عثمان، وهم الذين ساروا إلى أمير المؤمنين معاوية فحاربوه، وبعد فإنّي لست آمن أيّها الأمير إن لم تعاجل الحسين بن علي خاصة أن تسقط منزلتك من أمير المؤمنين يزيد."

قال الوليد بن عتبه "مهلاً، ويحك دعني من كلامك هذا، وأحسن القول في الحسين ابن فاطمة فإنّه بقية ولد النبيّين."

خلع عبد الرّحمن بن عمرو بن عثمّان نعليه وخطى داخل المسجد بلا عجلة، الوقت عشاء والقمر هلال أيّام رجب الأخيرة، مشاعل المسجد مخمده إلّا اثنان قرب المحراب، أنوارهما غير قادرة على اختراق الظلمة الغليظة الوليد ابن عتبة قد أرسله إلى المسجد ليوصل رسالة إلى الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير.

نظر إلى قبر الرسول، عليه قماش أخضر ولكن في ظلمة الليل يبدو أنّه أسود، كان الحسين بن علي جالس بقرب القبر يقرأ القرآن.

وقف بلا حراك ولا يزال ناظراً إلى وجه الحسين بن علي، وهو يحاول معرفة سبب وضوح ملامح وجهه، على عكس باقي الموجودين والذي غابت ملامح وجوههم في ظلمة الليل، فهي مع أجسادهم كتل

سوداء تتحرك إذا كان صاحبها يصلّي، وساكنة إذا كان صاحبها جالس بلا حراك. نظر إلى المشعلين الوحيدين في المسجد ولاحظ أنّ الحسين بن علي أبعد الجالسين عنهما أفاق من غفلته عندما صاح أحد الجالسين به "يا فتى ما عندك لماذا تقف هكذا كالنخلة؟"

اقترب وسلّم على الحسين بن علي، وأخبره بأن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان يريد لقاءه على الحال الذي يجده فيها دون تأخير ثمّ اقترب من عبد الله بن الزبير، وأخبره بنفس الرسالة، وغادر المسجد عائداً ليخبر الوليد بن عتبة بأنّه أدّى المهمة.

عبد الله بن الزبير استقبل الأمر بريبة، فما هذا الوقت بوقت لقاء النّاس للأمير، اقترب من مكان جلوس الحسين بن علي، وأطلعه على ما في قلبه من شكٍ وريبة قائلاً "يا أبا عبد الله، إنّ هذه ساعة لم يكن الوليد بن عتبة يجلس فيها للناس، وإنّي قد أنكرت بعثه إلينا ودعاءه إيّانا في مثل هذا الوقت، أفترى لماذا بعث إلينا؟"

فقال الحسين بن علي "أظنّ أن معاوية قد مات ولم نُطلب إلّا لبيعة يزيد، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشوا في النّاس الخبر."

قال عبد الله بن الزبير والارتباك واضح في كلماته "وأنا ما أظن غير ذلك، فكيف نصنع؟ والله، ما أبايع يزيد أبداً."

قال الحسين بن علي "لا بدّ لي من الدخول على الوليد في هذه الساعة لأنظر ما يقول."

قال عبد الله بن الزبير "فإنّي أخاف عليك إذا دخلت عليه."

قال الحسين بن علي "لا آتيه إلّا وأنا قادر على الامتناع، أجمع فتياني الساعة ثمّ أمشي إليه وأجلسهم على الباب وأدخل عليه."

خرج عبد الله بن الزبير من المسجد، وتوجّه إلى منزله دون أن يلبي نداء الوليد.

أرسل الوليد بن عتبة بعض مواليه إلى عبد الله بن الزبير وقالوا له "يا بن الكاهلية لتأتين الأمير أو ليقتلنك."

أجاب عبد الله بن الزبير "والله لقد ارتبت لكثرة ارسال الأمير في طلبي، لا تعجلوني حتى أبعث إليه من يأتيني برأيه،" ثم بعث أخاه جعفر.

حضر جعفر بن الزبير مجلس الوليد بن عتبه وقال "يرحمك الله كف عن عبد الله فقد أفزعته وذعرته وهو يأتيك غدا ان شاء الله تعالى فمر مواليك فينصرفوا عنه."

قبل الوليد بن عتبه وأرسل في طلب مواليه فانصرفوا.

عاد جعفر بن الزبير ووجد أخيه عبد الله قد جمع رحاله، انضم له وخرجا معا من المدينة في نفس الليلة إلى مكّة، تجنبا سلوك الطريق الأعظم دون تلبية نداء الوليد بن عتبة.

الحسين بن علي في مجلس الوليد بن عتبة

وقف الحسين بن علي، وعمود رسول الله محمّد بن عبد الله بيده، وهو ينظر إلى الرجال من بني هاشم من حوله، وكأنّهم البدور بوجوههم الساطعة نوراً، ثمّ قال "إنّ الوليد بن عتبة قد استدعاني في هذا الوقت، ولست آمناً من أن يكلفني فيه أمراً لا أجيبه إليه، وهو غير مأمون علي فكونوا معي، فإذا دخلت إليه فاجلسوا على الباب، فإن سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليه بأجمعكم لتمنعوه عنّي."

أجاب كل من كان واقفاً "سمعاً وطاعة سيدي أبا عبد الله،" ثمّ تحرك الجميع باتجاه قصر الإمارة.

دخل الحسين بن علي إلى المجلس الذي كان فيه الوليد بن عتبه، بجانبه يقف مروان بن الحكم، بلباسه الحربي الكامل، وسيفه على خصره، وكأنّه خارج للحرب.

مد الوليد بن عتبه يده فناوله مروان بن الحكم كتاب يزيد بن معاوية، قرأه بصوت مسموع وبمسحة من الحزن، وبعد أن انتهى، لفّ الرقعة، وسلّمها إلى مروان، ثمّ مدّ يده، فاتحاً كفه باتجاه السماء، منتظراً من الحسين بن علي الاقتراب للمبايعة، ومروان بن الحكم ينظر للحسين بن علي ويده على قبضة سيفه.

قال الحسين بن علي "إنّا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، إنّي لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سرّاً، حتّى أبايعه جهراً، فإذا خرجتَ إلى النّاس غداً ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً."

قال الوليد بن عتبة "إن كان هذا ما تريد فلك هذا يا أبا عبد الله."

قال الحسين بن علي "فتصبح وترى رأيك في ذلك."

قال الوليد بن عتبة "انصرف على اسم الله راشداً، حتّى تأتينا مع جماعة الناس."

أدار مروان بن الحكم رأسه مذعورا ونظر إلى الوليد وقال "أيّها الأمير، إن فارقك الساعة ولم يبايع، لا قدرت منه على مثلها أبدا، حتّى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتّى يبايع أو تضرب عنقه،" ونظر للحسين بن علي عندما نطق آخر كلمتين.

قال الحسين بن علي وهو ينظر إلى مروان بن الحكم "يا بن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت وأثمت" ثمّ أدار رأسه باتجاه الوليد وقال "إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بِنا فتح الله وبِنا يختم، ويزيد رجل فاسق، فاجر، شارب الخمر، وقاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أيّنا أحق بالبيعة والخلافة."

سحب مروان بن الحكم سيفه من غمده ونظر إلى الوليد بن عتبه وقال صارخاً "مر سيافك أن يضرب عنقه قبل أن يخرج من الدار ودمه في عنقي."

في تلك الأثناء دخل رجال بني هاشم إلى المجلس مجردين سيوفهم، وأخرجوا الحسين بن علي، دون أن يتعرّض أي من الموجودين للأذى، عندما أفاق الوليد بن عتبه ومروان بن الحكم من ذهولهما كان الحسين بن علي قد غادر المجلس.

قال مروان بن الحكم وهو لا يزال ممسكاً بمقبض سيفه وعيناه تستعران غضباً وهو ينظر إلى الوليد بن عتبة "عصيتني، لا والله لا يمكّنك مثلها من نفسه أبداً."

قال الوليد بن عتبة وهو ينهض "الويح لغيرك يا مروان، إنّك اخترت لي التي فيها هلاك ديني، والله ما أحب أنّ لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وإني قتلت حسينا، سبحان الله، أقتل حسيناً لمّا أن قال لا أبايع؟ والله إنّي لأظن أنّ امرأ يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله تعالى يوم القيامة."

قال مروان بن الحكم "إن كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت" خرج والسيف لا يزال في يده غير مغمد.

الحسين بن علي في المسجد

بعد خروج الحسين بن علي من مجلس الوليد بن عتبة، توجّه إلى مسجد الرسول، وجلس بحذاء قبر جده وقال "السّلام عليك يا جدّاه، أنا الحسين ابن فاطمة، فرخك وابن فرختك، وسبطك الذي خلفتني في أمّتك، فاشهد عليهم يا نبيّ الله أنّهم قد خذلوني وضيعوني، ولم يحفظوني، وهذه شكواي إليك حتّى ألقاك" ولم يزل راكعاً ساجداً حتّى الصباح.

عند خروجه من المسجد في الصباح، وجد مروان بن الحكم واقفاً بباب المسجد شابكاً كفّيه خلف ظهره مطأطئ رأسه، وبمجرد أن رأى الحسين بن علي، قال بصوت عالٍ "عصيتني يا أبا عبد الله، إنّي لك ناصح فأطعني ترشد."

قال الحسين بن علي "وما ذاك؟ قل حتّى أسمع."

قال مروان بن الحكم بلهجة جافة "إنّي آمرك ببيعة يزيد أمير المؤمنين فإنّه خير لك في دينك ودنياك."

قال الحسين بن علي "إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام، إذ قد بليت الأمّة براعٍ مثل يزيد، ولقد سمعت جدّي رسول الله يقول (الخلافة محرمة على آل أبي سفيان)"

ظهر الغضب على وجه مروان بن الحكم، وانصرف دون أن ينبس ببنت شفة.

الحسين بن علي وجدّه رسول الله صلى الله عليه واله وسلم

حضر الحسين بن علي للّيلة الثانية على التوالي إلى مسجد جدّه الرسول، ليصلّي ويتهجّد ويطلب من الله أن يرشده إلى ما فيه رضاه، جلس بحذاء قبر جدّه، وصلّى ركعات ثمّ قال مخاطباً رب العالمين ودموعه تسيل من عينيه.

"اللّهم إنّ هذا قبر نبيك محمد، وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللّهم، إنّي أحبّ المعروف وأنكر المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق القبر ومن فيه إلّا اخترت لي ما هو لك رضىً ولرسولك رضىً."

أمضى ليلته بالصلاة والدعاء والتهجّد والتوسّل إلى الله تعالى، وقريب الصبح، وضع رأسه على القبر وغفي.

شاهد جدّه رسول الله قد أقبل في كتيبة من الملائكة عن يمينه وشماله وبين يديه، هرول الحسين بن علي إليه وضمّه ودموعه تسيل على خدّيه، وأحسّ بالاطمئنان والراحة الأبدية بين جنبي رسول الله، وشمّ صدر رسول الله، وأحسّ برائحته الزكية التي لا تنافسها رائحة، أراد أن يذوب في الذات المحمدية إلى النهاية، فاليوم الذي غاب فيه نور محمّد من عالم الدنيا انطفأ نورها، حرّك رسول الله رأسه، وقبّل جبهته، وكسا الحزن معالم وجهه، وطافت عيناه دموعاً، ثم ضمّه بشدة، وقال "حبيبي يا حسين، كأني أراك عن قريب مرمّلاً بدمائك، مذبوحاً بأرض كرب وبلاء من عصابة من أمتي، وأنت مع ذلك عطشان لا تُسقى، وظمآن لا تُروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي يوم القيامة، ومالهم عند الله من خلاق حبيبي يا حسين، إنّ أباك وأمك وأخاك قدموا علي وهم مشتاقون إليك، وإن لك في الجنان لدرجات لن تنالها إلّا بالشهادة."

نظر الحسين بن علي إلى عيني جدّه رسول الله، ولم يتمالك نفسه فما إن تلاقت نظراتهما حتّى فاضت عيناه بالدموع، وقال "يا جدّاه، لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا، فخذني إليك وأدخلني معك في قبرك."

وضعَ رسول الله كفّيه على كتفي الحسين بن علي، قال له وهو ينظر إلى عينيه نظرة مليئة بالعطف والشوق "لا بدّ لك من الرجوع إلى الدنيا، حتّى ترزق الشهادة وما قد كتب الله لك فيها من الثواب العظيم، فإنّك وأباك وأخاك وعمك وعم أبيك تحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة، حتّى تدخلوا الجنة."

انتبه الحسين بن علي من النوم وعيونه مبتلة من البكاء ليجد نفسه لا يزال في مسجد الرسول، قام وتوجّه إلى قبر أمّه فاطمة الزهراء سيدة النساء، فصلى عند قبرها وودّعها، ثمّ توجّه إلى قبر أخيه الحسن كريم آل محمد، وصلّى عنده وودّعه ثمّ عاد إلى منزله."

الحسين بن علي ومحمّد بن الحنفية

دخل الحسين بن علي إلى منزله ووجد زوجته الرباب قد انتهت من إرضاع عبد الله الرضيع، فحمله وقبّله وشمّه من رقبته ووضعه على صدره وصار يربت بكفّه على ظهره الصغير، أغمض الطفل عيناه شاعراً بالأمان والاطمئنان.

طُرِقَ الباب وأعاد الحسين بن علي طفله الرضيع إلى صدر أمّه وتوجّه ليفتحه، كان أخوه محمد بن الحنفيّة.

بمجرد أن رأى محمّد بن الحنفيّة أخاه الحسين بن علي عانقه، وشمّه من رقبته، وقال بشوق "لا حَرَمَنا الله من هذه المهجة الشريفة."

أدخله إلى المجلس، أخذ محمّد بن الحنفيّة كفّه وجلس بمحاذاته وهو لا يزحزح عينيه عن وجهه وقال "يا أخي، أنت أحبّ الخلق إلي، وأعزّهم علي، ولست أدّخر النصيحة لأحد من الخلق إلّا لك، وليس أحد أحقّ بها منك، لأنّك مزاج مائي، ونفسي، وروحي، وبصري، وكبير أهل بيتي، ومن وجبت طاعته في عنقي، لأنّ الله قد شرّفك علي، وجعلك من سادات أهل الجنة."

كان الحسين بن علي منصتاً بانتباه والابتسامة لا تفارق محيّاه، ومحمّد بن الحنفية لا يزحزح نظره عن وجهه، وكأنّه يستمد الطاقة منه "تنحّ ببيعتك عن يزيد بن معاوية، وعن الأمصار ما استطعت، ثمّ ابعث برسلك إلى النّاس، فإنّ بايعوك، حمدت الله على ذلك، وإن اجتمعوا على غيرك، لم ينقص الله بذلك دينك

ولا عقلك، ولم تذهب مروءتك ولا فضلك، وإنّي أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار، فيختلف النّاس بينهم، فطائفة معك وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة غرضاً" ارتجف صوت محمّد بن الحنفية وأرخى رأسه "فإذا خير هذه الأمّة كلّها، نفساً وأباً وأماً، أضيعها دماً، وأذلّها أهلاً."

سأل الحسين بن علي "فأين اذهب؟"

رفع محمّد بن الحنفية رأسه، ونظر إلى وجه أخيه، وقال "تخرج إلى مكّة، فإنّ اطمأنت بك الدار بها فذاك، فإنّ تكن الأخرى، خرجت إلى بلاد اليمن، فإنّهم أنصار جدّك وأبيك، وهم أرأف النّاس وأرقّهم قلوباً، وأوسع النّاس بلاداً، فإنّ اطمأنّت بك الدار وإلّا لحقت بالرمال وشعوب الجبال، وجزت من بلد إلى بلد حتّى تنظر ما يؤول إليه أمر الناس، ويحكم الله بيننا وبين القوم الفاسقين."

قال الحسين بن علي "يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى، لما بايعت يزيد ابن معاوية."

طافت عينا محمّد بن الحنفيّة دموعاً، وبكى بصوت مسموع جعل الحسين بن علي يصمت هنيهة، وتدمع عيناه لبكاء أخيه، ثمّ ضمّ كفّ محمّد بن الحنفية بين كفّيه، وقال "يا أخي جزاك الله خيراً، لقد نصحت، وأشرت بالصواب، وأنا عازم على الخروج إلى مكّة، وقد تهيّأت لذلك، أنا وإخوتي وبنو أخي وشيعتي أمرهم أمري ورأيهم رأيي، يا أخي عندي وصية أريد تركها عندك."

نهض وخرج من المجلس، ثمّ عاد وبيده دواة ورقعة وقصبة ومسند من الخشب، ناولها إلى محمّد بن الحنفية، والذي وضع المسند على حضنه، وفرد الرقعة عليه، وغمس القصبة بالدواة، وبدأ بكتابة ما أملاه الحسين بن علي عليه:

"بسم الله الرّحمن الرّحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمّد المعروف بابن الحنفية، إنّ الحسين يشهد أن لا اله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّد عبده ورسوله جاء بالحق، وأنّ الجنة والنار حق، وإن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور، وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي رسول الله محمّد بن عبد الله صلى

الله عليه و اله و سلم، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ علي هذا، أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين، وهذه وصيتي يا أخي إليك، وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب" » ثمّ ختم الكتاب بخاتمه وسلّمه لمحمد بن الحنفية، الذي استقبله بكفّين مفتوحين، ورأس مرخى، وقبّله، ثمّ ضمّ الحسين بن علي مودعا وخرج وبيده الوصية.

خروج الحسين بن علي من المدينة إلى مكّة

3 شعبان 60 هجري

9 أيار 680 ميلادي

خرج الحسين بن علي من المدينة ليومين خلين من رجب متوجّهاً إلى مكّة، وهو يتلو -فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ - 28:21 وخرج معه بنوه، وإخوته، وبنو أخيه، ومعظم أهل بيته، إلّا أخيه محمّد بن الحنفية، وصهره عبد الله بن جعفر، وعمر الأطرف، وعبد الله بن عباس.

لزم الطريق الأعظم، فقال له أهل بيته لو تنكبت الطريق الأعظم كما فعل عبد الله بن الزبير كيلا يلحقك الطلب فأجاب "لا والله لا أفارقه حتّى يقضي الله ما هو قاض."

في الطريق، في موضع يقال له الشريفة، التقى بعبد الله بن مطيع العدوي، والذي سأله، "جعلت فداك أين تريد؟"

أجاب الحسين بن علي "أمّا الآن فمكة، وأمّا بعد ذلك فأستخير الله تعالى في أمري."

قال عبد الله بن مطيع العدوي "خار الله لك، وجعلنا فداك، فإذا أتيت مكّة فإيّاك أن تقرب من الكوفة، فإنّها بلدة مشؤومة، قُتل فيها أبوك، وخُذل أخوك واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه، فالزم الحرم، فأنت سيّد العرب، لا يعدل بك أهل الحجاز أحداً، ويتداعى إليك النّاس من كل جانب، ولا تفارق الحرم فداك عمي وخالي، فوالله لئن هلكت لنسترق بعدك".

أخذ الحسين بن علي يجدّ المسير، حتّى تراءت له جبال مكّة صار يقرأ قوله تعالى: - وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ - 28:22.

وصل إلى مكّة ليلة الجمعة لثلاث ليال مضين من شهر شعبان، ونزل في منزل العبّاس بن عبد المطلب وكانت بدايات فصل الصيف في مكّة والتي هي بطن وادٍ تحيطه الجبال من كل الاتجاهات، معروفة بخشونة تضاريسها وقسوة مناخها، عنيدة أثبتت جدارتها بحماية بيت الله الحرام، المبني في مركزها والذي يحج إليه المسلمون من كافة أصقاع الأرض في شهر ذي الحجة من كل عام.

الكوفة

انتشرت خيوط الفجر الأولى، فتلاشى سواد الليل المزين ببريق النجوم ليحلّ محله صفحة زرقاء مزينة بغيوم متناثرة لا تزال بلون الذهب. انتهت مراسم صلاة الفجر في مسجد الكوفة المعظم، وانصرف المصلون عائدين إلى منازلهم، إلّا مجموعة من كبار المشايخ والأعيان كانوا قد قرروا عقد اجتماعات يومية بعد أن انتشر خبر موت معاوية بن أبي سفيان في المدينة، والتي غالبا تكون بعد صلاة الفجر وقبل أن يبدأ النّاس الذهاب إلى أعمالهم، لم يحاول أحد منهم أن يتلثّم أو يتجنّب إخبار من حوله عن تلك الاجتماعات وذلك لضعف الوالي على الكوفة النعمان بن بشير وعدم خوف أحد منه.

سليمان بن صرد الخزاعي، شيخ طاعن في السن تجاوز السادسة والثمّانين من العمر، لحيته بيضاء نامية بسخاء، تجاعيد وجهه عميقة عتيقة، تنبئ الناظر إليها بأن صاحبها أمضى أعواماً ليست سهلة مليئة بالتحديات والصعوبات، وهو ممن عاصر الإمام علي بن أبي طالب، وأكثر ما اشتهر به أنّه هو الذي قتل حوشب بن ظليم أمير أهل اليمن مبارزة في معركة صفّين.

كان سليمان بن صرد الخزاعي جالساً في صدر المجلس وحوله ثلّة من أعيان أهل الكوفة، منهم المسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد البجلي، وحبيب بن مظاهر، جالسين على الأرض جميعاً، مشكلين حلقات نصف دائرية حوله، منهمكين بنقاشات وأحاديث معظمها يدور حول بيعة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

في الشام، هدأ هدير أحاديثهم ليتحول إلى صمت مطبق مع عيون شاخصة إليه عندما ارتفع صوته قائلاً "إنّ معاوية قد هلك، و الإمام الحسين خرج من المدينة إلى مكّة دون أن يبايع يزيد، وإن كنتم ناصري الإمام الحسين ومجاهدو عدوّه فلنكتب له ندعوه، وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغروا الرجل في نفسه."

أجاب عدد من الموجودين دون تردد "يا شيخ نقاتل عدوّه ونقتل أنفسنا دونه"

التفت سليمان بن صرد الخزاعي إلى الكاتب مجهزاً رقعة من جلد الغزال ودواة وقصبة وأمره بإشارة من إصبعه ليكتب ما يملي عليه.

"بسم الله الرّحمن الرّحيم إلى الحسين بن علي بن أبي طالب من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وعبد الله بن وال وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة.

سلام عليك، أمّا بعد، فإنّا نحمد إليك الله الذي لا اله إلّا هو، الحمد لله الذي قصم عدوك وعدو أبيك، الجبار العنيد الغشوم الظلوم، الذي وثب على هذه الأمّة وابتزها أمرها وغصبها فيئها وتآمر عليها بغير رضا منها، ثمّ قتل خيارها واستبقى أشرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود، ثمّ إنّه ليس علينا إمام فأقبل علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الحق، وأن النعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة فلا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا انّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتّى نلحقه بالشام إن شاء الله والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

ثمّ خلع خاتمه من يده اليمنى وأشار به إلى الغلام الذي يكتب "اختم الكتاب بخاتمي ومرره على السادة ليختموه بخواتمهم."

سرّحوا الكتاب مع عبد الله بن مسمع الهمداني، وعبد الله بن وال التيمي، وطلبوا منهما التعجيل، ووصل الكتاب إلى الحسين بن علي لعشرة أيّام خلون من شهر رمضان.

بعد يومين من تسريحهم الكتاب الأوّل أرسل أهل الكوفة مئة وخمسين كتاب إلى الحسين بن علي من الرجل والإثنين والأربعة مع قيس بن مسهّر الصيداوي، وعبد الله بن شداد، وعمارة بن عبد الله السلولي.

بعد يومين آخرين كتب له ثلّة أخرى "بسم الله الرّحمن الرّحيم، إلى الحسين بن علي من شيعته المؤمنين والمسلمين، أمّا بعد، إنّ النّاس ينتظرونك لا أرى لهم غيرك، فالعجل العجل، ثمّ العجل والسلام" واجتمع عند الحسين بن علي في نواب متفرقة اثنا عشرة ألف كتاب وهو مع ذلك يتأنّى ولا يجيبهم.

آخر كتاب ورد إليه مع هانئ بن هانئ السبيعي، وسعيد بن عبد الله الحنفي، وجاء فيه، "بسم الله الرّحمن الرّحيم، إلى الحسين بن علي من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين، أمّا بعد، فإنّ النّاس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك، فالعجل العجل يا بن رسول الله، فقد اخضرّ الجناب وأينعت الأثمار، وأعشبت الأرض، وأورقت الأشجار، فأقدم إذا شئت فإنّما تقدم على جند لك مجنده والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبل."

بعد أن سلّما الكتاب للحسين بن علي وانتهى من قراءته سألهما "من اجتمع على هذا الكتاب؟"

قالا "يا بن رسول الله اجتمع عليه شبث بن ربعي، وحجار بن أبجر، ويزيد بن الحارث، ويزيد بن رويم، وعروة بن قيس، وعمرو بن الحجاج، ومحمّد بن عطارد."

الحسين بن علي في مكة

خلال إقامة الحسين بن علي في مكّة، اجتمع حوله الكثير من الناس، فالموالون والمؤيدون له التفّوا حوله لقرابته من رسول الله، أمّا غير الموالين له فاجتمعوا حوله لعدم رغبتهم بمبايعة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان منهم عبد الله بن الزبير، الذي جمع حوله المعارضين لحكم الأمويين وأقام حكومته المستقلة في مكّة.

خلال شهر رمضان وصلت رسائل الكوفيين للحسين بن علي يتوسّلون إليه القدوم إلى الكوفة، لتخليصهم من شرّ حكم بني أمية على حد زعمهم، وهو لَم يجب أي منها، إلى أن ملأت خرجين كاملين، فأرسل لهم ابن عمّه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليتحقق من صحة رسائلهم أو سقمها، وليأخذ له البيعة منهم.

خرج مسلم بن عقيل متوجهاً إلى المدينة لتوديع رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله في قبره ومن بعدها توجّه إلى الكوفة، لتنفيذ مهمة الحسين بن علي، ووصل الكوفة لخمسة أيّام قد مضين من شوّال.

وصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة

5 شوال 60 هجري

9 أيلول 680 ميلادي

أرض وعرة خشنة، زاد على حدة أطراف حجارتها التي تثقب العظم إن رمي عليها، حرارة ملتهبة كفيلة بحرق نعل الذي تجرأ ووطأها، ممتدة إلى اللانهاية من الاتجاهات الأربعة لا أثر لوجود الحياة فيها، فسبب الحياة مفقود فيها، لا قرين لها إلّا السراب المخادع والذي يقرّب المرء من الموت عطشاً إذا حاول اللحاق به.

متربعاً على رداءان من الصوف ليتقي حرارة التراب، جلس مسلم بن عقيل ينظر إلى القبرين الذي أودع فيهما جسدي الدليلين اللذين كانا قد خرجا معه من المدينة في الحجاز ليدلّاه على الطريق المؤدي إلى الكوفة في أرض العراق، لكي لا يضيع في الصحراء المعروفة بقسوتها والممتدة بين الحجاز والعراق، يفكر بما سيلاقيه هذان الدليلان في رحلتهما بداية من القبر وصولاً إلى الآخرة، مغمض عينيه غالباً ليتجنّب سعير حرارة الشمس وليحافظ على وضوح رؤيته والتي أعياها السراب، فبعد موت الدليلين لا دليل له إلّا العشق بداخله لسيّده الذي أرسله بهذه المهمة إلى الكوفة، وهو واثق أن هذا العشق هو الذي حافظ على حياته إلى هذه اللحظة، وهو الذي سيساعده على إكمال الطريق في هذه الصحراء متجاهلاً العطش الشديد أو الإرهاق والتعب.

وصل على مشارف الكوفة من جهة السبخ، رؤية مشارف المدينة جعلت رجليه تخطّان الخطى ليصل بأسرع ما يمكن إلى الماء ليشرب. أثار انتباهه غبار يتصاعد خلف خيول تجري مسرعة من جهة المدينة باتجاهه قبل أن يصل إلى مسامعه صوت حوافرها تقترب. لم يستطع جسده التحمّل أكثر فانهار وكان بينه وبين الفارسين القادمين مسافة عشرين متراً فقط.

فتح عينيه ليجد نفسه ممدداً على فراش لا يرتفع كثيراً عن الأرض من سعف النخل المجدول والمكسو بالصوف المصبوغ بالأسود، بغرفة طغى عليها اللون الأحمر بسبب انعكاس أشعّة الشمس على المطرزات الصوفية المتقنة، والتي تنتشر على كافة الجدران بنقوشها المطرزة على شكل أزهار وورود، تعيد دفء ذكريات العشّاق بمجرد النظر إليها. على الأرض سجادة تبهر الأبصار بروعة ألوانها وجمال نقوشها. على الجدران مساند ملبسة بأغطية بنفس لون المطرزات المتدلية من السقف. كانت الغرفة بسيطة بمحتوياتها، غارقة بالسكون، حزم ضوء أشعّة الشمس تتساقط على أرضيتها من شق غير واسع بين الستارتين المنسدلتان على نافذة عريضة، يقابلها ستارة مثلها تماما في الطرف الآخر من الغرفة ليست منسدلة على نافذة بل لتحجب ما وراءها من أجزاء المنزل.

سحب جسده ليجلس على الفراش مسترجعاً شريط الذكريات القاسية التي مرّ بها في الصحراء بين الحجاز والكوفة لقساوتها على كل من يقطعها وكيف أن مرافقيه والذي من المفترض أن يكونا دليليه قد ماتا بعد أن تطيّرا لسلوكهما الطريق الأطول والأقسى إلى الكوفة فدفنهما. ولكنه لا يستطيع أن يتذكّر ما الذي حصل بعدها سوى أنّه تابع المسير. قطع عليه سلسلة تساؤلاته رأس رجل أطلّ من وراء الستارة، تبدو عليه ملامح الرجولة العربية من سمار بشرة، وملاحة لحية، وسواد عينين فاحم مع بياض صافٍ فيهما نظرات أسد "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته." خرجت من فم مسلم بن عقيل وفم الرجل معاً والذي دخل بعد أن أبعد الستارة بيده.

أجاب مسلم بصوت ضعيف "وعليك السلام."

"سيدي أنا المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي" اقترب وأخذ كف مسلم بن عقيل اليمنى بين كلتا كفيه.

أجاب مسلم بن عقيل ولا تزال كفّه بين كفّي المختار بن أبي عبيد الثقفي "غنيّ عن التعريف أيّها البطل، قابلتك في المدائن في البيضاء عندما كان عمّك سعد بن مسعود في حضرة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، أظن أنك لا تذكرني، لقد كنت شاباً يافعاً وقتها."

قال المختار بن أبي عبيد الثقفي " بالطبع أذكرك سيدي" ثم سحب كفّيه وجلس بكل تواضع وسأل "سيدي أوحيداً اجترت الصحراء التي لا ترحم من الحجاز إلى الكوفة؟ فهذه الصحراء كفيلة بقتل جمل صبور لشدة حرارتها وجفافها."

قال مسلم بن عقيل "كان معي دليلان ماتا رحمها الله."

قال المختار بن أبي عبيد الثقفي "نحمد الله على نعمة رؤيتكم سيدي."

قال مسلم بن عقيل "لا أذكر ما الذي حصل وكيف وصلت إلى هنا."

قال المختار بن أبي عبيد الثقفي "سيّدي، بعد أن أرسل سليمان بن صرد الخزاعي الكتاب للإمام الحسين بن علي عليهما السلام يطلب منه الحضور إلى الكوفة، بدأنا بوضع رجال حول مداخل الكوفة في كافة الأوقات متخفين من أعين جواسيس النعمان بن بشير والي يزيد على الكوفة، منتظرين رد الإمام الحسين."

قال مسلم بن عقيل "أنا هو رد الإمام الحسين عليه السلام على رسائل الكوفيين، فلقد أرسلني للتحقّق من صِحّة رسائلهم وصدق نواياهم، وقد أرسل معي كتاباً لأقرأه على كبار مشايخ الكوفة وآخذ البيعة منهم له وكذلك مشايخ القبائل."

قال المختار بن أبي عبيد الثقفي " أنا أتشرّف بخدمة الإمام الحسين عليه السلام وخدمة رسوله الى الكوفة وأرجو أن تشهد لي عنده بأنني أوّل من بايعك في الكوفة لأكون في نصرته" ومدّ يده وأرخى رأسه منتظراً مسلم بن عقيل أن يضع كفّه فوق كفّه.

قال بعد أن قبض على كف مسلم بن عقيل "على بركة الله."

وهكذا كان المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أوّل من بايع الحسين بن علي في الكوفة على نصرته في حال قدومه.

رسالة الحسين بن علي إلى أهل الكوفة

بعد صلاة فجر اليوم التالي اجتمع جمع غفير من أهل الكوفة أعيانها ومشايخها، في المجلس الواسع في منزل المختار، والذي يتسع لما يفوق المئة ضيف مجتمعين، كان مفروشاً بالسجاد الفارسي البديع بألوانه، وينتشر على جدرانه قطع ستائر ثخينة تقي برد الشتاء القارس وحرّ الصيف الحارق في الكوفة، يضيئه أشعّة الشمس المتسللة من الفتحات المتعددة في السقف.

عيون الجالسين شاخصة إلى مسلم بن عقيل الجالس في صدر المجلس، أسمر البشرة، كثيف اللحية، فاحم سواد العينين، أنف معقوف، وشفتين داكنتين، عريض المنكبين، بارز الصدر، على رأسه عمامة خضراء وعلى كتفيه رداء يماني المنشأ آذانهم منصتة لما يقول، كانوا شديدي الانتباه لحركاته وسكناته، وكأن قوّة خفية تجذبهم إلى صدر المجلس حيث يجلس والذي بدأ خطابة دون تأخير أو تردد "السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

خرجت من أفواه كافّة الجالسين عبارات رد السّلام والذي جعلت مسلماً يصمت هنيهة قبل أن يتابع قائلاً "أظنّ أنّكم تعرفونني، وإن كان منكم من لا يعرفني، فأنا مسلم بن عقيل بن أبي طالب، سفير الإمام الحسين بن علي، أنقل صدق نوايا أهل الكوفة ونفوسهم المشتاقة لنصرة الإمام الحسين، فكما تعلمون أن البيعة لن تكون أبداً بالإكراه ولا تكون عن خوف ولا عن جبر وإلّا غدت باطلة ومحرمة فأنتم مخيّرون بين الإمام الحسين بن علي عليهما السلام ويزيد بن معاوية."

كان المختار الثقفي واقفاً في آخر المجلس، ينظر إلى رؤوس الجالسين من الخلف والمغطاة بالعمائم وهو يفكر بما ستؤول إليه الأمور إذا غدر أهل الكوفة بالإمام الحسين كما غدروا بأخيه الإمام الحسن وبأبيه الإمام علي بن أبي طالب، هل سيوفي كل من كتب للحسين طالباً منه القدوم معاهداً له بأن يكون جندياً مخلصاً، وما الذي سيحصل لو علم يزيد بما يجري في الكوفة، وهذا حتميّ، فجواسيس النعمان بن بشير في كل مكان إن لم يكن قد أرسل الخبر بعد.

نظر المختار الثقفي إلى وجه مسلم بن عقيل والذي يشع هيبة والذي كان يقول "وهذا نص كتاب الإمام الحسين رداً على رسائلكم"

تساءل المختار في نفسه ما الذي جاء بك يا مسلم إلى هذه المدينة التي لا يأمن أهلها على كلمة فكيف على عهد؟ هذا دأب آل محمد، دائمًا يخوضون المخاطر في سبيل إعلاء كلمة الله. ولكن ماذا لو قدم الإمام الحسين بن علي وحدث ما يخشى، ماذا لو خذل أهل الكوفة مسلم بن عقيل قبل وصول الإمام الحسين، ماذا سيكون مصير هذا البطل، أو ما سيكون مصير الإمام عندما يصل ويجد بأن أهل هذه المدينة قد خذلوه. سرت قشعريرة على بدنه، ثمّ هز رأسه ليزيل الصورة التي ارتسمت في مخيلته وهو يهمس "حماك الله يا مسلم" ثمّ التفت ليستمع إلى نص كتاب الإمام الحسين بصوت مسلم بن عقيل،

"بسم الله الرّحمن الرّحيم من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين أما بعد فإنّ هانئاً وسعيداً قدما علي بكتبكم وكانا آخر من قدم علي من رسلكم وقد فهمت كل الذي قصصتم وذكرتم ومقالة جلكم أنّه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب أنّه قد اجتمع رأي ملأكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام."

أرخى مسلم بن عقيل الكتاب ونظر إلى الجالسين، بعضهم كان يبكي لسماعهم لكلام ابن بنت رسول الله نهض عابس بن شبيب الشاكري، وكان معروفاً بعبادته وتهجده وحبّه لآل بيت الرسول وبفصاحته وإتقانه للخطابة، قال موجّهاً حديثه لمسلم بن عقيل "إنّي لا أخبرك عن النّاس، ولا أعلم ما في نفوسهم، ولا أغرك بهم، والله إنّي أحدثك عما أنا موطّن عليه نفسي، والله لأجيبنّكم إذا دعوتم ولأقاتلنّ معكم عدوّكم، ولأضربنّ بسيفي دونكم حتّى ألقى الله، لا أريد بذلك إلّا ما عند الله" ثم جلس.

نهض حبيب بن مظاهر وهو ينظر ناحية عابس بن شبيب وقال "قد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك وأنا والله الذي لا إله إلّا هو على مثل ما أنت عليه" وعلا هتاف أغلب الجالسين بالقبول والتأييد.

قام مسلم بن عقيل وقاموا جميعاً صفاً واحداً امتد على أطراف المجلس، كل واحد منهم يقبض على كف مسلم بن عقيل بكلتا يديه معلناً مبايعته للحسين بن علي، وكانت الشمس قد أشرقت وبسطت لوناً ذهبياً على البسط الممدودة على الأرض عندما تقدم آخر رجل وبايع مسلم بن عقيل.

النعمان بن بشير في مسجد الكوفة

مضت أيّام على قدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة، وكافّة سكّانها علموا سبب وجوده فيها، وبدأت حاشية النعمان بن بشير الهمس في مجلسه مما أجبره على الإعلان عن نيته في إلقاء خطبة لعامة الناس.

علا النعمان بن بشير المنبر الخشبي في مسجد الكوفة بعد إمامته للناس في صلاة الظهر، والذي كان مكتظاً، فلم يبق شبرٌ فارغٌ من أرضه حتّى وصل الجالسون إلى طرف المنبر الخشبي، والذي يقف عند آخره قائد الشرطة واضعاً يده على قبضة سيفه ومعتمراً خوذته ومحدّقاً في وجوه الجالسين بعيني صقر، كان رجال الشرطة قد داروا على أحياء الكوفة في الصباح معلنين بأن الوالي سيعتلي المنبر بعد صلاة الظهر ليعلن أمراً هاماً ويتوجب على الجميع الحضور، وسرعان ما امتلأ المسجد حتّى اضطر كل من حضر متأخراً، إلى الصّلاة في الباحات الخارجية، والتجمّع على الأبواب وقوفاً لاستماع ما سيقوله الوالي بعد أن أنهوا صلاتهم.

قال النعمان بن بشير "السلام عليكم أيّها المؤمنون."

علا صوت همهمة الجالسين يردّون السّلام على والي الكوفة والذي بدأ بحمد الله والثناء عليه بصوت حنون لرجل عجوز ذي لحية بيضاء "أمّا بعد، فاتّقوا الله، عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإنّ فيها تهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال، إنّي لا أقاتل من يقاتلني، ولا آتي من لا يأتي علي، ولا أنبّه نائمكم، ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالتهمة ولا بالظنة، ولا أعيبكم، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا اله إلّا هو لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن لي منكم ناصراً، أما إنّي

أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممّن يرديه الباطل. وردني بأن مسلم بن عقيل قد دخل الكوفة يأخذ البيعة للحسين بن علي من أهلها" ارتجف صوته واغرورقت عيناه بالدموع "إنّي أحذركم بأن لا تبايعوه لأن مبايعته ستكون سبب فرقة الأمّة، وتفتيت وحدتها، اتقوا الله ولا تكونوا سبباً في اختلاف المؤمنين."

علا صوته بالبكاء والنحيب ومعه علا صوت الكثير من الجالسين بالبكاء، وقام واقفا على المنبر ورفع يديه ورأسه إلى الأعلى وهو لا يزال يبكي وقال "يا محمّد يا رسول الله، انظر ما يريدون بأن يفعلوا بأمّتك بعد رحيلك، يريدون تفتيتها وتفريقها" ثمّ قطع كلامه بنوبة نحيب وجلس وهو لا يزال ينظر إلى السقف "يا رسول الله، أعنّي على هؤلاء الناكثين للبيعة، الخارجين على ولي أمرهم" ثمّ جلس و رفع سبابته ونظر إلى الجالسين وقال بغضب "يقولون إنّ صهري المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي قد وقف ضدي وبايع مسلم بن عقيل، إنّي احذر كل من ينكث البيعة وأعلن بأنّي بريء من كل من ينكث بيعة يزيد حتّى لوكان ابني أو ابنتي أو صهري."

قطع كلامه عبد الله بن مسلم بن ربيعة الحضرمي وهو مصاب بالحول في عينيه، وقف بين جموع الجالسين وصرخ وهو يهز كفّه "أيّها الأمير، هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأي المستضعفين، ابطش بالناكثين بيد من حديد لترى كيف أن الأمور ستعود إلى ما كانت عليه، فلا يصلح ما ترى إلّا البطش، والبكاء لن يخيفهم، ولن يزيدهم إلّا تمرداً وقوة، ويدلّ على ضعف وعجز."

سحب قائد الشرطة سيفه، وهمّ بالهجوم على الرجل الأحول، فصرخ به النعمان بن بشير "اتّق حرمة بيت الله" فجمد قائد الشرطة في مكانه، وأعاد السّيف إلى غمده.

نهض النعمان بن بشير غاضباً، وربت على كتف قائد الشرطة بعد أن نزل من على المنبر، ليقف كل من كان جالساً ويفسحوا له الطريق مرخين رؤوسهم احتراماً، حتّى وصل إلى قبالة الرجل الحضرمي، قال بجده "والله أن أكون من المستضعفين في طاعة الله، أحبّ إليّ من أن أكون من الأغرين الغاوين في معصية الله."

ثمّ تابع مسيره بين جموع النّاس، وهم يحيّونه، وأفراد الشرطة ترافقه إلى خارج المسجد باتجاه قصر الإمارة، والحضرمي ينظر إليه نظرةً مليئةً بالمكر.

في منزل عمر بن سعد

غرس عمر بن سعد أصابعه في فخذ الخروف المشوي، الذي يعلو الأرز الأصفر المطبوخ بالزعفران على البخار والمخلوط بالزبيب واللوز، وانتزع مِلء كفّه لحماً يقطر منه الدهن وملأ فمه بها، وبدأ يلوك مستمتعاً بطراوتها ولذّتها، ابتلع اللقمة، ثمّ علّق مكملاً نقاشه مع عبد الله بن مسلم بن ربيعة الحضرمي، وعمارة بن عقبة بن أبي معيط، وقد عاد ثلاثتهم من مسجد الكوفة بعد خطبة النعمان بن بشير، إلى بيت عمر بن سعد لتناول طعام الغذاء، "تبّاً لذلك البائس، يتعامل مع طرفي الخصام" ثمّ التفت إلى عبد الله بن مسلم منصتاً.

"إنّه خائف، فهو ليس كفؤا لميدان الحرب، ألم تروا كيف أنّه انخرط في البكاء على المنبر، مدّعياً حزنه على أن تنشق الأمة" ثمّ صمت عبد الله بن مسلم، وملأ فمه بقبضة من الأرز الدسم، واستمع إلى تعليق عمر بن سعد، دون أن يرفع عينيه عن الذبيحة المحمرة على القمة

"لم يكن يبكي على الأمّة المنشقّة على نفسها، بل كان يبكي على نفسه، لعدم قدرته على مواجهة صهره المختار الثقفي وإشهار سيفه في وجهه ليمنعه من استضافة مسلم بن عقيل ومناصرة الحسين بن علي فصهره وابنته هما اللذان يديرانه."

قال عمارة بن عقبة "بئساً لهذا الضعف في الحكم والقيادة، هذا الأسلوب اللّين سيمكن الأعداء من السيطرة على الكوفة" ثمّ رفع كأس شراب اللبن وشرب.

قال عمر بن سعد "النعمان رجل ضعيف لا يقوى على أمثال المختار، فأنا الذي أعرف المختار جيداً، وأعرف حنكته ودهاءه" و بدأ يلعق أصابع يديه لينظف بقايا اللحم والأرز وينظر إلى عبد الله بن مسلم عندما قال "أفّ لهذا البائس، فضعفه سيمكّن أنصار الحسين بن علي من السيطرة على الكوفة، يجب أن نعلم أمير المؤمنين يزيد بالأمر قبل فوات الأوان" ورفع قبضة كاملة من الأرز، ووضعها في فمه ليستمع إلى

عمارة بن عقبة يقول "أنا أوافق عبد الله بأن نرسل كتاباً إلى الشام نخبر فيه أمير المؤمنين يزيد بما يجري بالكوفة، ما تقول في ذلك يا عمر؟"

أجاب عمر بن سعد مؤيداً "يجب أن نخبر أمير المؤمنين يزيد بالأمر ليعيّن من هو أشجع وأقوى من النعمان" ورفع قبضة من الأرز ليملأ فمه ويستمع إلى تساؤل عبد الله بن مسلم "ولكن ألا تظنّون أنّ النعمان قد أخبر الخليفة يزيد بقدوم مسلم إلى الكوفة؟"

أجابه عمر بن سعد "لا أعتقد، وإن فعل فهو لم يخبره بالحقيقة بأن مسلماً يأخذ البيعة من أهل الكوفة للحسين بن علي" وصمت الثلاثة، وتابعوا الأكل، كلٌ غارق بأفكاره.

ثم علّق عمر بن سعد متسائلاً "أتظنّون أن الخليفة يزيد سيرسل أحد رجاله من الشام؟ أم أنّه سيعيّن أحداً من مؤيديه في الكوفة؟" ثمّ التفت وأشار إلى الغلام الواقف منتظراً أوامر سيده، قفز منتبهاً، وغاب ليعود بيده إناء نحاسي لامع مليء بالماء وعصير الليمون ليغسل الثلاثة أيديهم وينظفوها من بقايا اللحم والأرز.

انتقلوا إلى غرفة أخرى في وسطها طاولة مستطيلة، عليها دواة وقصبة ورقعة من الجلد جلس عمر بن سعد خلف الطاولة، وجلس ضيفاه أمامها، أمسك عمر بن سعد بالقصبة وغمس رأسها بالحبر وبدأ الكتابة، وبعد عدّة محاولات ونقاشات بينهم رفع الرقعة وناولها إلى عبد الله بن مسلم والذي بدأ قراءتها بصوت عالٍ وكأنّه يقف في مجلس الخليفة.

"أمّا بعد، فإنّ مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة، وبايعه الشيعة للحسين بن علي بن أبي طالب، فإنّ يكن لك بالكوفة حاجة، فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك، فإنّ النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعّف."

لفّ عبد الله بن مسلم الرقعة وأحكم ربطها بحبل من الصوف، وقال "اليوم ستخرج هذه الرسالة من الكوفة متوجهة إلى الشام" ثمّ نهض وتوجّه إلى خارج دار عمر بن سعد، يتبعه عمارة بن عقبة، وسرعان ما غابا عن نظر عمر بن سعد.

رسالة عمر بن سعد إلى يزيد بن معاوية

دخل عمر بن سعد إلى الغرفة التي فيها الدواة والقصبة، وانهمك بكتابة رسالة جديدة، وابتسامة ماكرة على شفتيه، وبعد أن انتهى، دخل على زوجته جارية وهو يحمل الرسالة. وجدها تنظر إلى عقد من اللؤلؤ على رقبتها في المرآة، وقال "انظري يا جارية، هذا هو القبر الذي حفرته للنعمان بن بشير، وإن ساعدني الحظ وساعدتني الأيام، بهذا الكتاب سوف أحصل على حكم إقليم الرّي."

سألت جاريه، بعد أن تركت العقد ونهضت لتقابله "أي كتاب هذا؟"

أجاب عمر بن سعد "كتبت إلى يزيد بن معاوية، أخبره بأمر النعمان بن بشير."

قالت جارية "أسمعني ما كتبت يا عمر."

"حسنا" ثم بدأ القراءة بصوت عالٍ، وكأنّه في بلاط الأمير "من ابن سعد بن أبي وقّاص، إلى حضرة أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، كيف يصدق الإنسان موت الخليفة الأب السخي الجواد الذي أخجل جوده كرم قارون وحاتم الطائي فهو صاحب الصولة الإسكندرية وفخر العرب كلها، آه يا حبيب الله، يا خليفة الله، آه يا كاتب الوحي، آه يا خليفة المؤمنين، يا تاج ملوك الأرض، آه كيف نعيش من دونك، إنّ نبأ رحيلك عنّا طبع على القلوب حزناً لا يمحوه الزمان يا خليفة المسلمين والمؤمنين...

"كفى كفى يا عمر" قاطعته جاريه وهي تهزّ رأسها، ثمّ سحبت الرسالة من يده وقالت "من ابن سعد بن أبي وقاص! أيّ ابن سعد بن أبي وقاص هذا؟ ولكن ابن سعد هذا أليس له اسم؟ وأي سعد هذا؟ ألا يجدر بك أن تذكر اسمك يا عمر؟ فأنت لست نكرة ويجب عليك أن توضح من هو ابن سعد هذا، ومن هو سعد بن أبي وقاص؟ وهل تقصد سعد بن أبي وقاص الذي كان معاوية دائم الخوف منه لدرجة أنّه قام

بقتله بالسم، إذا وقعت عينا يزيد على اسم سعد بن أبي وقاص فسيحرق الكتاب قبل قراءته" ثمّ صمتت وقرأت الكتاب مرة أخرى بصوت خافت وأضافت "أمّا الباقي فكلّه تملّق وتزلّف فأنت لم تذكر شيئاً عن يزيد بن معاوية وكل ما كتبته كان عن أبيه وكأن يزيد غير موجود."

قاطعها عمر بن سعد "أنا أعرف لغة المتملقين في القصر الأخضر يا جارية."

قالت جارية "ولكن يجب ألا تظهر ليزيد بن معاوية بأنّك تستجدي منه ولاية الري، كما أنّك في كتابك لم تذكر شيئاً عن النعمان بن بشير!" ثم أشارت له بكفها و قالت "اتبعني" توجّهت إلى مكان الدواة والقصبة على الطاولة، وعمر بن سعد خلفها، ثمّ التفتت وقالت، "حضّر رقعة جديدة لأملي عليك ما تكتب ليزيد بن معاوية" جلس عمر بن سعد، وغمس القصبة في الدواة، ثمّ أخرج رقعة جلدية جديدة من تحت الطاولة، ورفع القصبة منتظراً زوجته لتملي عليه "من عمر ابن القائد الذي أضاع كل فتوحاته وخدماته في زلّة قدم واحدة، إلى خليفة المسلمين يزيد بن معاوية بن أبي سفيان حفظه الله وأطال عمره، أمّا بعد أدرك الكوفة فإنّ حاكمها عاجز، يلاين الناكثين للبيعة، ويغضي عن تماديهم، وقد صار بيت صهره داراً للمعارضين، الذين مدّو يد البيعة إلى ابن أبي تراب والسّلام عليكم."

رسالة مسلم بن عقيل إلى الحسين بن علي

في الأيام الأخيرة من شهر شوال، والأيام الأولى من شهر ذي القعدة، يخرج من ينوي أداء فريضة الحج من بلاده، متوجّهاً إلى مكّة المكرمة في الحجاز. السفر يتم على الجياد أو الجمال غالباً، والقلّة القليلة تسافر على الأقدام، وعادة يستغرق الطريق عشرين يوماً تقريباً من العراق أو الشام، إلى مكّة، ويعتمد وقت الوصول على نوع وسيلة التنقل إن كانت جمالاً أو خيولاً، وما مدى صحّتها وقوتها، وإن كانت كهلة أم فتيّة، وعلى عدد المرات التي يتوقف بها المسافر على محطّات الطريق، ومقدار الفترة التي يقضيها في كل محطة.

الطريق بين الحجاز والعراق، يعجّ بالمسافرين المتوجّهين لأداء فريضة الحج، فالكثير منهم يسافر جماعات، مشكّلين قوافل تدعى قوافل الحجّاج، انتشر خبر ما يجري في الكوفة من أحداث عبر الحجّاج الخارجين من الكوفة، وانتقلت الأخبار من فم إلى فم، زاحفة من طريق الحج إلى كافّة الطرق الأخرى.

قضى مسلم بن عقيل ثلاثين ليلة في منزل المختار الثقفي، لا مهمّة لديه إلّا أخذ البيعة للحسين بن علي من أهل الكوفة، يدخلون عليه جماعات، كل يوم وليلة، يبايعونه ويقرّون له بطاعتهم وانصياعهم لأوامره وأوامر الحسين بن علي بن أبي طالب، ويمطرونه بعبارات الشوق لرؤية ابن بنت رسول الله.

بدأت بيعتهم سراً في أوقات تنام فيها العيون، يدخلون أفراداً، بعد أن يتركوا من يراقب مداخل السكك أو مخارجها، ثمّ أصبحت جهاراً، غير متسترين ولا خائفين، حتّى لم يبق منزل في الكوفة لم يعلم بوجود مسلم بن عقيل في دار المختار، أو ما هدف وجوده في الكوفة، حتّى فاق عدد من دخل وبايع مسلم بن عقيل ثمّانية عشر ألفاً، ولم يبق منزل في الكوفة إلّا بايع رجاله مسلم بن عقيل، فاطمأنّ قلبه، وكتب كتاباً للحسين بن علي، يدعوه القدوم إلى الكوفة فالكوفة كانت مغمورة بحماس أهلها، الذين اجتمعوا على طاعته ونصرته، وهم ينتظرون قدومه، فجاء في الكتاب بعد السّلام "الرائد لا يكذّب أهله وقد بايعني من أهل الكوفة ثمّانية عشر ألفاً فعجل الإقبال حين يأتيك كتابي..." سلّم الكتاب إلى عابس بن أبي شبيب الهمداني الشاكري وطلب منه التوجّه فوراً إلى الحجاز، وتسليمه للحسين بن علي بن أبي طالب.

عابس وشوذب

12 ذي القعدة 60 هجري

14 آب 680 ميلادي

كان عابس من بني شاكر، وهي بطن من همدان، ومعروف عن بني شاكر بأنّهم من شجعان العرب وحماتها، ومن المخلصين بولائهم لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وكانوا يلقّبون فتيان الصباح.

اقترب عابس من مولاه شوذب بن عبد الله الهمداني الشاكري، ونظر له نظرة احترام وتقدير، وكان واقفاً في ساحة منزله يهيئ الخيول والجمال للسفر. شوذب من الرجال المؤمنين، والفرسان المعروفين بشجاعتهم، حافظاً للحديث وناقلاً له عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، يجلس النّاس إليه ليستمعوا منه الحديث.

قال عابس "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

أجاب شوذب "وعليكم السّلام ورحمة الله" وتوقّف عن تمشيطه لشعر الجواد احتراماً لسيّده.

سأل عابس وهو يربت بباطن كفه على جبهة الفرس "هل هي جاهزة للسفر؟"

التفت شوذب إلى الفرس وربت على ظهرها وقال "نعم سيّدي، نستطيع التحرك في الوقت الذي تريد، فالفرس على أهبة الاستعداد لتحملك على ظهرها وتوصلك لأي مكان تريده."

سأل عابس "هل حزمت كل ما نحتاج إليه؟ فالطريق من الكوفة إلى الحجاز طويل."

أجاب شوذب "كامل أمتعتنا على ظهر الناقتين، وأنا جاهز للرحيل في أي وقت تشاء، إنّي أتحرّق شوقاً لرؤية بيت الله الحرام، وأداء فريضة الحج، ومصاحبة سيدي ومولاي الإمام الحسين عليه السلام."

قال عابس وهو ينظر الى السماء "إنّي أتحرّق شوقاً لرؤية الفرحة على وجهه، روحي فداه، عندما يعلم بأنّ كل أهل الكوفة قد بايعوا مسلم بن عقيل لنصرته."

سأل شوذب "هل تعتقد بأن الحق سيعود إلى أصحابه؟"

أجاب عابس "مع كل هذه الآلاف الذين بايعوا مسلم بن عقيل ستقوم دولة الحق والعدل بإذن الله تعالى."

قال شوذب مبتسما "الحمد لله الذي خصّنا بنعمة إيصال هذا الخبر المفرح إلى الإمام الحسين."

"صدقت والله" قال عابس وهو يضع السرج على ظهر الفرس "فلننطلق يا شوذب، فالدرب طويل وليس لدينا المتّسع من الزمان"

"فلنتوكل على الله" قال شوذب وتوجّه باتّجاه الناقتين في آخر المنزل ليسحبها ويربطها بفرسه.

خرج عابس ومولاه شوذب من الكوفة يوم الثلاثاء على فرسين وخلفهما جملين، يحملان متاعهما اللازمة لطريق السفر لأداء فريضة الحج، في جيب رداء عابس رسالة مسلم بن عقيل للحسين بن علي بن أبي طالب.

دمشق

يزيد بن معاوية مع خادمه سرجون المسيحي

على بعد آلاف الأميال في دمشق، كان يزيد بن معاوية في قصر الخضراء، مستلقياً على فراش من الحرير الخالص المحشو بريش الحمام الأبيض الناعم، على طرفي الفراش، يقف غلامان يكسو جسديهما الديباج، يتجاذبان لوحاً من السعف الجاف، معلّقاً بحبال موصولة بالسقف على قضيب من الذهب، وحرّ من الأسفل، يمسك الطرف الحر الغلام الأوّل ويدفعه إلى الغلام الثاني، ويفعل الثاني ما فعل الأوّل، فيتولد عن حركته نسمات من الهواء العليل، التي تنعش رأس يزيد بن معاوية على فراشه كان الهواء معطّراً برائحة خشب العود المتصاعد من مبخرة في زاوية الصالة، تقف بجانبها جاريّة تضع قطعاً صغيرة من خشب العود فوق الجمر المشتعل كل دقائق، لتظل رائحة الهواء زكيّة عَطِرَه.

كان يزيد بن معاوية يستشير مستشاره وكاتبه وأنيسه، سرجون المسيحي، والذي كان أبوه معاوية قبله يقدّمه ويبالغ بالإحسان إليه وجعله وزيرا له يستعين برأيه وفعل هو من بعده مثله فأسند إليه الوزارة.

قال يزيد بن معاوية له "ما رأيك؟ فإن حسينا قد توجه نحو الكوفة ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع لحسين وقد بلغني عن النعمان بن بشير ضعف وقول سيء، فما ترى من استعمل على الكوفة؟"

أجابه سرجون الذي كان جالساً بكل أدب وتواضع على قدميه، وواضعاً كفّيه مفرودتان على ركبتيه وكأنّه جالسٌ للصلاة "أرأيت والدك معاوية لو نشر لك أكنت آخذا برأيه؟"

أجاب يزيد بن معاوية "نعم."

استأذن سرجون، وغاب لدقائق، ثم عاد ومعه اسطوانة من الخشب، ملفوف عليها رقعة من الجلد الجاف، ومربوطة بخيط من الصوف، وسلّمها ليزيد بن معاوية وقال "هذا عهد معاوية لعبيد الله بن زياد بالكوفة، وضم المصرين له، وختمه بخاتمه قبل أن يموت سلّمه لي، طالباً منّي تسليمه لك في الوقت المناسب، ولم يمنعني أن أعلمك به إلّا معرفتي ببغضك لعبيد الله بن زياد."

قرأ يزيد بن معاوية الكتاب، ثمّ أعاده إلى سرجون، وقال "سأملي عليك كتاب لعزل النعمان بن بشير، ترسله إلى الكوفة، وكتاب لتعيين عبيد الله بن زياد بدلاً له، ترسله إليه إلى البصرة ليتحرك إلى الكوفة على الفور.

مكّـة

وصلت رسالة مسلم بن عقيل إلى الحسين بن علي، طالباً منه أن يقدم إلى الكوفة، كاتباً له فيها بأنّ آلاف مؤلفة قد بايعته، ومستعدة لنصرته في حال قدم إليهم.

أرسل الحسين بن علي، رجلاً يدعى سليمان ويكنّى بأبي رزين إلى البصرة، وحمّله ثلاثة رسائل موجهة إلى كل من يزيد بن مسعود النهشلي، والأحنف بن قيس سيد بني تميم، والمنذر الجارودي العبدي.

البصرة

رسالة الحسين بن علي إلى يزيد بن مسعود النهشلي

أسند يزيد بن مسعود النهشلي ظهره على المتكأ الذي أعدّه له أبناء عشيرته في فسحة واسعة افترش ترابها جموع الرجال من بني تميم، وبني حنظلة، وبني سعد، وجلسوا بكل تواضع، ليستمعوا له والذي كان يرتدي لباسه الحربي كاملاً. كان قد دعاهم ليشاورهم بأمر بغاية الأهميّة على حدّ قوله، صمت كل من كان موجوداً من العشائر الثلاث بمجرد أن ألقى السّلام "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

أجاب جموع الرجال "وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته."

التفت يزيد بن مسعود النهشلي إلى الجهة التي يجلس بها أشراف بني تميم وقال "يا بني تميم، كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟"

أجاب شيخ طاعن في السن ذو منزله رفيعة بين أبناء قومه "بخ بخ أنت والله فقرة الظهر، ورأس الفخر، حللت في الشرف وسطاً، وتقدمت فيه فرطاً."

قال يزيد بن مسعود النهشلي "فإني قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم فيه وأستعين بكم عليه."

أجاب شيخ بني تميم "إنّا والله نمنحك النصيحة ونحمد لك الرأي فقل حتّى نسمع."

ثمّ وقف يزيد بن مسعود النهشلي، وبدأ بالتجوّل بين الرجال، وهو يتكلّم بصوت عال ليسمعه الجميع "إنّ معاوية بن أبي سفيان قد مات، فأهون به والله هالكاً ومفقوداً، ألا وإنه قد انكسر باب الجور والإثم، وتضعضعت أركان الظلم، وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمراً ظنّ أنّه قد أحكمه وهيهات والذي أراد اجتهد والله ففشل، وشاور فخذل، فقد قام ابنه يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدّعي الخلافة على المسلمين، ويتأمّر عليهم بغير رضى منهم، مع قصر حلم وقلّة علم، لا يعرف من الحق موطئ قدم."

توقّف عن التحرك بعد أن صار في المنتصف، ورفع يده اليمنى، وقال "فأقسم بالله قسما مبرورا، لجهاده على الدين أفضل من جهاد المشركين، وهذا الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام وابن بنت رسول الله محمد صلى الله عليه و آله و سلم، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنه وقدمه، وقرابته، يعطف على الصغير، ويحنو على الكبير، فأكرم به راعي رعية، وإمام قوم، وجبت لله به الحجة، وبلغت به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحق، ولا تسكعوا في وهد الباطل" ثمّ التفت إلى ناحية رجل جالساً في الطرف وأشار إليه قائلاً "هذا سليمان رسول الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، حمل لي كتابه، والذي دعانا به إلى نصرته ولزوم طاعته."

وقف سليمان والمكنّى بأبي رزين وقال "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

ردّ عليه جموع الرجال وهم ينظرون إليه "على بن بنت رسول الله وعليك السلام."

قال يزيد بن مسعود النهشلي "اقرأ كتاب الإمام الحسين على القوم يا سليمان."

أخرج سليمان رقعة من تحت عمامته وفردها وبدأ يقرأ ما فيها على القوم "بسم الله الرّحمن الرّحيم، من الحسين بن علي. أمّا بعد، فإنّ الله تبارك وتعالى اختار محمّد المصطفى صلّى الله عليه وآله للنبوة والرسالة، فنصح للناس وبلغهم رسالة ربه، ثمّ قبضه إليه تكرماً، وكان أهل بيته بعده الأحق بمقامه والأولى، لكن جماعة عدوا علينا وسلبونا حقنا، فسكتنا حتّى لا تورى الفتنة أو تسفك الدماء إنّي أدعوكم إلى الله ونبيّه، فإنّ السنّة قد أميتت، فإنّ تجيبوا دعوتي وتطيعوا أمري أهدكم سبل الرشاد، والسلام."

قال يزيد بن مسعود النهشلي "والله لا يقصّر أحد عن نصرة ابن بنت رسول الله، إلّا أورثه الله الذلّ في ولده، والقلّة في عشيرته" ثمّ تحرك بين الرجال، ووصل إلى مكان المتكئ والتفت، وقال بصوت يملأه الحماس والانفعال "ها أنا قد لبست للحرب لامتها، وأدرعت لها بدرعها، من لم يُقتل يمت، ومن يهرب لم يفت، فأحسنوا رحمكم الله رد الجواب."

ونظر باتجاه عشيرة بنو حنظلة، تكلّم منهم رجل عريض المنكبين، غزا البياض شعر لحيته الكثّة "أبا خالد، نحن نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميت بنا أصبت، وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة إلّا خضناها، ولا تلقى والله شدّة إلّا لقيناها، ننصرك والله بأسيافنا، ونقيك بأبداننا إذا شئت."

التفت يزيد بن مسعود النهشلي باتجاه بني تميم، واستمع إلى نفس الشيخ الكبير الذي تكلّم في البداية "يا أبا خالد نحن بنو أبيك وحلفاؤك، لا نرضى إن غضبت، ولا نوطن إن ظغنت والأمر إليك، فادعنا نجبك ومرنا نطعك، والأمر لك إذا شئت."

ثمّ التفت يزيد بن مسعود النهشلي إلى ناحية بنو سعد، كانوا صامتين إلى أن قام رجل في العقد الرابع من العمر، ذو لحية سوداء، وعمامة بيضاء، ورداء صوفي أسود، وقال "يا أبا خالد، إنّ أبغض الأشياء

إلينا خلافك والخروج من رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال فخمدنا أمرنا وبقي عزنا فينا، فأمهلنا نراجع المشورة ونأتيك برأينا."

قال يزيد بن مسعود النهشلي موجهاً كلامه لبني سعد "والله يا بني سعد، لئن فعلتموها لا رفع الله السّيف عنكم أبداً، ولا زال سيفكم فيكم."

ثمّ تحرك إلى المتكئ، وأخذ دواة ورقعة كان قد أحضرهما له خادمه، غمس القصبة في الدواة، وبدأ بكتابة رد على كتاب الحسين بن علي وحوله الأشراف من العشائر.

"بسم الله الرّحمن الرّحيم، أمّا بعد، فقد وصل كتابك وفهمت ما ندبتني إليه، ودعوتني له من الأخذ بحظي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وأنّ الله لا يخل الأرض قط من عامل عليها بخير، أو دليل على سبيل نجاة، وأنتم حجّة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرعتم من زيتونة أحمدية، هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر، فقد ذللّت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشدّ تتابعاً في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خمسها وكظّها، وقد ذللّت لك بني حنظلة، وغسلت درن صدورها بماء سحابة مزن، حين استهل برقها فلمع."

المنذر بن جارود وعبيد الله بن زياد

كان رد الأحنف بن قيس على رسالة الحسين بن علي برسالة جاء فيها "أمّا بعد، فاصبر، إنّ وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون."

أمّا المنذر بن جارود، كانت ابنته بحرية زوجة لعبيد الله بن زياد، فصار عقله يحدّثه بأنّ هذه الرسالة المرسلة من الحسين بن علي، ما هي إلّا خدعة واضحة من خدع عبيد الله بن زياد، صهره الماكر، وهو من أكثر النّاس معرفة بمكره كان يمشي ولا يرى أمامه، وقلبه ينبض خوفاً، ويحدّث نفسه بأنّ الأيّام القادمة على النّاس أيّام مغسّلة بالدم، وعبيد الله بن زياد لن يتوانى عن قطع رأسه ورأس ابنته، إذا لم يُظهِر له معرفته بأمر هذه الرسالة، وإظهار الولاء له والعداء للحسين بن علي.

وصل المنذر بن جارود إلى مفرق طريق، إن توجّه يميناً يصل إلى منزله، وإن توجّه يسار يصل إلى قصر الإمارة، وقف حائراً لا يدري ما يفعل، أيذهب للمنزل ويكون مغفّلاً بأن يصدّق بأنّ الرسالة من الحسين بن علي ويتغافل عن مكر عبيد الله بن زياد، أم أنّه يتصّرف تصّرف الفطن الذكي، ويذهب إلى عبيد الله بن زياد، ويخبره بما جرى فيأمن مكره بذلك.

أفاق من حيرته عندما ارتطم به رجل من الخلف وصرخ به "مالك يا شيخ، أتخيّر نفسك بين الجنّة والنار؟ توكّل على الله ولا تعيق النّاس في سعيهم بوقوفك عقبة في منتصف الطريق" لم يرد المنذر بن جارود على الرجل بل حرك ذراعه وكأنّه يهش ذبابة ثمّ توجّه إلى قصر عبيد الله بن زياد.

رفع عبيد الله بن زياد رأسه، بعد أن قرأ رسالة الحسين بن علي، وأمامه المنذر بن جارود لا يزال واقفاً دون أن يطلب منه الجلوس، على الرغم من أنّه عمّه أبو زوجته، ونظر إلى قائد شرطته الواقف على يمينه وقال "أحضر لي من أوصل رسالة الحسين إلى البصرة واقتله واصلبه على باب المدينة."

عندما سمع المنذر بن جارود كلام عبيد الله بن زياد، علم بأنّها لم تكن خدعة، وأنّ بتصرفه هذا سيكون برقبته دماء الكثير من الأبرياء، وانتبه عندما قام عبيد الله بن زياد وكان يقول له "يا عم، ما بك قد شحب لونك هل تشعر بتوعك؟"

ارتبك المنذر بن جارود وخرج صوته جافاً متقطعاً من حنجرته "آه أبداً سيدي أرجو المعذرة، نعم أشعر بتوعك في معدتي، أرجو أن تسمح لي بالانصراف."

أجاب عبيد الله بن زياد وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة "نشكر لك ولاءك وإخلاصك يا عم، يمكنك الانصراف."

البصرة

وصول مسلم بن عمرو مع رسالة يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد

تحسّس مسلم بن عمرو الباهلي صدره، وأحسّ بالرسالة داخل جيب ثوبه، وأخرج زفرة لثقل المهمة الموكلة إليه كان قد خرج من دمشق متوجهاً إلى البصرة بأوامر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ليحمل كتاباً بغاية الأهمية إلى والي البصرة عبيد الله بن زياد بعد عناء سفر، ومشقّة طريق ظهرت طلائع بيوت البصرة، لم يتوقف وتوجّه إلى قصر الإمارة على الفور بعد دخوله المدينة، وفي قصر الإمارة سلّم عبيد الله بن زياد الرسالة بمجرد أن قابله. كان عبيد الله بن زياد يرتدي ثوباً بلون سماء الليل، مطرزاً بخيوط من ذهب، على رأسه عمامة في مقدمتها ياقوتة برّاقة.

كان مسلم بن عمرو الباهلي واقفاً قبالته، وهو يقرأ الرسالة، "أمّا بعد، فإنّه كتب إليّ شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أنّ مسلم بن عقيل فيها يجمع الجمع ليشق عصا المسلمين، فسر حين تقرأ كتابي هذا حتّى تأتي الكوفة، فتطلب ابن عقيل طلب الخرزة حتّى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه، والسلام."

أرخى عبيد الله بن زياد الكتاب، والابتسامة تعلو ثغره، نظر ناحية اليمين حيث كان مستشاره يقف وقال له "اصطحب مسلم بن عمرو إلى جناح الضيوف، وأكرموه، وأحسنوا ضيافته، فهو متعب من رحلته الطويلة من الشام إلينا."

ثمّ نظر إلى يساره، وكان أخاه عثمان جالساً، والذي وقف بمجرد أن بدأ عبيد الله الكلام معه "يا عثمان، هذا كتاب يزيد بن معاوية يأمرني بالسير إلى الكوفة فور استلامي له، أرجو منك تجهيز رحلي للسفر غدا صباحا، وأنت ستخلفني هنا في البصرة."

أجابه عثمان "سمعاً وطاعة يا أخي" ثمّ غادر ليبدأ بتجهيز رحل أخيه للسفر.

ثم أمر عبيد الله بن زياد باجتماع أهل البصرة كافة رئيسهم مرؤوسهم وشريفهم ووضيعهم في المسجد الجامع ثم صعد المنبر وقال "أمّا بعد، فوالله ما تقرن بي الصعبة ولا يقعقع لي بالشنآن وإنّي لنكل لمن عاداني،

وسلم لمن حاربني، أنصف القارة من راماها. يا أهل البصرة إنّ أمير المؤمنين ولاّني الكوفة وأنا عاد إليها الغداة وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد وإيّاكم والخلاف والإرجاف فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنّه وعريفه ووليّه، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتّى تسمعوا لي ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاقّ، أنا ابن زياد أشبهته من بين من وطىء الحصى ولم ينتزعنِ شبه خال ولا ابن عم" ثم نزل من المنبر مستعدا للسفر.

في صباح اليوم التالي، خرج عبيد الله بن زياد من البصرة متوجهاً إلى الكوفة مع عدد من الرجال منهم مسلم بن عمرو الباهلي والمنذر بن الجارود وشريك بن الأعور. لفت انتباه مسلم بن عمرو الباهلي على بوّابة المدينة رجل مصلوب على عمود خشبي، رأسه مرخي على صدره، يقطر مما تبقّى من فمه قطرات من الدم، سأل عبيد الله بن زياد عنه فأخبره بأن المصلوب هو سليمان، وهو من حمل رسائل الحسين بن علي إلى رجال في البصرة. فكّر مسلم بن عمرو الباهلي بأنّه هو أيضا حمل رسالة إلى البصرة، ولكن الفرق بينه وبين سليمان المصلوب، بأنّ رسالته من أميره يزيد بن معاوية إلى والي البصرة عبيد الله بن زياد، أمّا سليمان حمل رسالة من الحسين بن علي، إلى بعض المتمردين على الخليفة، شتّان بين الرسالتين، وحامليها، وكاتبيها، ومستقبليها.

في نفس الوقت الذي كانت البهجة تعلو محيّا عبيد الله بن زياد لتولّيه إمارة الكوفة، كانت الخيبة والحزن تعلو محيّا النعمان بن بشير في الكوفة بعد قراءته لخبر عزله من إمارة الكوفة، وعلمه بأن عبيد الله بن زياد سيحل مكانه، فأصدر آهة مليئة بالخوف والألم، لعلمه بأنّ الكوفة ستصبح حماماً لدماء المخالفين والمعارضين.

الكوفة

استقبال حافل

بدأت الشمس بالغروب، واصطبغت بيوت الكوفة بلون النار، وبدت جدرانها الطينية وكأنها جمر مشتعل، تثاءب الحارس الواقف في المحرس، برفقة زميله، على بوابة مدينة الكوفة من جهة حي قبيلة مذحج،

فبقي لنوبة حراستها ساعة، ويأتي حراس المساء. لفت انتباهه خيال أسود يقترب من جهة البادية، أمعن النظر باتجاه زوبعة الغبار، إنّه فارس على بغلة يجري مسرعاً باتجاههم، عندما اقترب أكثر، اتضح شكله أكثر، كان رجلاً يرتدي ثياباً بيضاء، ملثماً بعمامته السوداء، لا يظهر من وجهه إلّا عيناه، متقلّداً سيفه، قوسه وكنانته على ظهره، بيده قضيب، ويمتطي بغلة شهباء، يتقدم بسرعة باتّجاه بوابة المدينة، تجاوز الحارسين بسرعة مثيراً زوبعة غبار أجبرتهما على تغطية عيونهم، وما إن خمدت زوبعة الغبار، التفت أحد الحارسين إلى زميله متسائلاً "أتظنه الحسين بن علي قد حضر؟" اتسعت عينا زميله ولم يكترث إن كان قد سأله أو أنّه قد أقرّ بوصول الحسين بن علي فصرخ "الحسين، لقد وصل الحسين" ثمّ أمسك كتفي زميله وصرخ مرة أخرى "وصل الحسين" وأرخى يديه ونظر باتجاه الفراغ وكأنه يحدث جنوداً غير مرئيين وظل يصرخ "وصل الحسين بن علي" فامتطى فرسه واتجه إلى قصر الإمارة دون تمهل، ليعلم النعمان بن بشير بوصول الحسين بن علي إلى الكوفة.

مرّ الفارس الملثمّ بجانب امرأة تحمل جرة ماء، رمتها على الأرض بمجرد رؤيتها له، وبدأت بالصراخ "الإمام الحسين لقد وصل الإمام الحسين" ثمّ بدأت بالجري خلفه، وهي تصرخ "السلام عليك يا بن بنت رسول الله" صار كل من في السكك الضيقة يفعل فعلة المرأة من جري وراء الفارس الملثمّ دون سماع أي رد أو جواب منه، وظل يتقدم في سكك الكوفة، وكل من يراه ينحني ويلقي عليه التحية "السلام عليك يا بن رسول الله."

اكتظّت سكك الكوفة بالناس، وتحوّلت تحيّة الأفراد إلى هتافاً جماعياً "أهلاً وسهلاً بابن النبي" واختلط الهتاف بالبكاء، وظهرت النساء على أسطح البيوت، يريدون إلقاء نظرة على ابن بنت رسول الله، ولم يمتنعن من الزغردة فرحاً بقدومه صارت حركة الجواد بطيئة بسبب جموع النّاس، حتّى صار بالكاد يتحرك، والناس ملتفّة حوله متمسّكة بردائه اليماني، بعضهم أمسك بأرجله وبدأ بتقبيلها، ولم تصدر عن الفارس الملثم أية كلمة أو تعليق.

صرخ أحدهم "نحن لك جنود مجندة يا بن رسول الله." وصرخ آخر "نحن معك مئة ألف أو يزيدون" ولم تنقطع الهتافات، وازداد عدد النّاس، حتّى صار الفرس يشقّ طريقه شقاً، فاستهلك وصوله إلى قصر الإمارة أكثر من ساعة، وغربت الشمس، وغمر ظلام الليل الكوفة وما فيها.

كان الحارس قد وصل إلى القصر منذ ساعة، وأخبر النعمان بن بشير بأن الحسين بن علي قد وصل للكوفة، فأمر النعمان الحرس بإحكام إغلاق باب قصر الإمارة، ونشر الحرّاس خارج القصر، وأمرهم بمنع الحسين بن علي بأي شكل من الأشكال من الدخول إلى القصر كانت الساحة أمام باب قصر الإمارة مكتظّة بالناس المحيطين بالفارس الملثّم من كل جانب، وهتافهم أصبح أعلى "أهلا وسهلا بابن النبي" مختلطاً بصرخات الحماس، ودموع الفرح، فابن بنت رسول الله الحسين بن علي بن أبي طالب قد لبى نداءهم وجاء إلى الكوفة مرّت دقائق طويلة، والناس مكتظة، والهتاف لم يتوقف، ولم يرخِ الفارس لثامه، أو يتكلم مع أي أحد، وظل واقفا قبالة بوابة قصر الإمارة، والناس تتدافع، وتدفع الحراس، محاولة فتح البوابة، ولكن الحراس شكلوا جدار بالرماح والمتاريس، ومنعوا أي أحد من الاقتراب من البوابة.

لم يتوقّف هتاف المتجمعين، عندما صرخ أحد الحراس معلناً ظهور والي الكوفة النعمان بن بشير على شرفة القصر، لأن صوته لم يكن مسموعا لضعفه قبالة هول صوت الهتاف الذي يهز الأرض، ولكن بمجرد أن أطل رأس النعمان بن بشير من على شرفة القصر ورفع يده حتّى سكن الجميع، وكأنّ الطير قد وقع على رؤوسهم، ومدّوا رقابهم باتجاه شرفة القصر، وعيونهم شاخصة على شخص النعمان بن بشير، يريدون سماع ما سيقوله للحسين بن علي، وهو يعلم تماماً أن الحسين بن علي لم ولن يبايع يزيد بن معاوية في الشام.

كان صوت النعمان بن بشير ضعيفاً لأنه رجل عجوز، ولكن ذلك لم يمنع وصوله لأذني الفارس الملثّم ومن حوله من النّاس المتجمهرين "أنشدك الله إلا تنحيت، فوالله ما أنا بمسلم لك أمانتي، ومالي في قتالك حاجة يا بن رسول الله." عندما سمع الفارس كلام النعمان حرّك جواده واتجه باتجاه القصر إلى تحت الشرفة التي

يقف عليها النعمان بن بشير حتّى وصل إلى الحائط ونظر إلى الأعلى، ثمّ أزاح اللثام عن وجهه وقال "افتح فقد طال ليلك."

لم تكن الكلمات أو طريقة إلقائها الجافة والمهينة، هي التي أصابت النعمان بن بشير بالذهول وجفاف الحلق، بل من قال الكلمات، فعلى الرغم من ظلام الليل وعدم وضوح الرؤية، بمجرد أن أزال الفارس اللثام، ووقعت عيناه على وجه عبيد الله بن زياد، حتّى أحس بالعرق البارد يسيل على ظهره، وجمد عن الحراك صامتاً، والحراس ينتظرون أوامره صرخ أحد الواقفين بقرب الفارس الملثم "يا قوم إنّه صوت ابن مرجانة، والله الذي لا اله إلّا هو" ثمّ صرخ آخر "إنّه عبيد الله بن زياد ورب الكعبة" واجتاحت المتجمعين موجة من الرعب، وانتشرت الهمهمة والهمس في ما بينهم، وصاروا يغطون وجوههم بعماماتهم لكي لا يتعرف عليهم حراس القصر، فعبيد الله بن زياد لن يدع هكذا استقبال للحسين بن علي يمر بسلام، ثمّ بدؤوا بالانصراف، واتجه عبيد الله بن زياد إلى البوابة التي فتحت له بناءً على أوامر النعمان بن بشير، دخل إلى القصر وعلى وجهه علامات الغضب وعدم الرضى لما رآه من حماس أهل الكوفة باستقبال الحسين بن علي وفرحهم الشديد لقدومه بدأت الجموع بالانسحاب، وعلى وجوه بعضهم علامات خيبة الأمل لعدم وصول الحسين بن علي، والبعض الآخر كسا وجوههم الرعب والخوف، لمعرفتهم بأنّ الموازين ستنقلب في الكوفة من الغد.

عبيد الله بن زياد في مسجد الكوفة

لم تكن تلك الليلة هادئة في الكوفة، بعد أن دخل عبيد الله بن زياد القصر، أمر الحراس بمرافقة الطبالين، والتجول في سكك الكوفة، ودعوة النّاس للصلاة الجامعة فجراً في مسجد الكوفة المعظم، فمن لم يكن مستيقظا يسمع صراخ الحراس المتواصل وأصوات الطبول بكامل وعيه، كان اللاوعي لديه قد أصدر أمر لكافة أعضاء جسده بأنّ المهمة الأولى عند الصباح قبل أي شيء، التوجّه إلى مسجد الكوفة المعظم لسماع خطبة عبيد الله بن زياد.

احتشد كل أهل الكوفة بالمسجد، نساءً، ورجالا وأطفالاً، وشيوخاً، بالإضافة إلى كل الشرطة من القصر، والحاشية من الخدم والعرفاء والمستشارين والموظفين، وبعد صلاة الفجر صعد عبيد الله بن زياد المنبر، وجلس صامتا وبدأ يضرب بكفه اليسرى على المسند الخشبي للمنبر وهو ينظر إليها، وكل من في المسجد ينظر إليه صامتين ساكنين كأنّ على رأسهم الطير.

رفع نظره وقال بصوت حازم "إنّ أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان، ولّاني مصركم هذا وثغركم وفيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدة على مريبكم وعاصيكم، وأنا متبع فيكم أمره، ومنفذ فيكم عهده، وأنا لمحسنكم كالوالد البر، ولمطيعكم كالأخ الشفيق، وسوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليبق كل امرئ على نفسه، الصدق ينبئ عنكم لا الوعيد" ثمّ التفت إلى حيث يقف جنود القصر وأكمل كلامه وصوته أصبح أكثر حدة "اكتبوا إلى العرفاء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحرورية، وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم لنا فقد برء، ومن لم يكتب لنا أحداً، فليضمن لنا ما في عرافته أن لا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا منهم باغ، فمن لم يفعل برأت منه الذمة، وحلال لنا دمه وماله، وأيّما عريف وجد في عرافته من بغيه أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب على باب داره، وألغيت تلك العرافة من العطاء."

ثمّ نزل من على المنبر والتفّ حوله الحراس مانعين أي من الموجودين لمسه أو حتّى الاقتراب منه وكان أثر الخطبة قد أعطى مفعوله، فصار أغلب الموجودين ينظرون نظرات الشك والريبة إلى بعضهم البعض، وانتشروا متفرقين إلى أعمالهم وأشغالهم، وهم متيقنون بأن اليد التي يضرب بها عبيد الله بن زياد هي يد من نار وليست فقط من حديد.

بدأت حملة الاعتقالات بنفس اليوم وصار سجن قصر الإمارة في الكوفة مكتظاً بآلاف الرجال الموالين للحسين بن علي بن أبي طالب.

شريك بن الأعور على فراش المرض

شريك بن الأعور من أصحاب الإمام علي بن أبي طالب، شيخ ضخم الجثة تبدو على ملابسة آثار الرخاء والثراء، جليل القدر والمقام في البصرة، حضر إلى الكوفة من البصرة برفقة عبيد الله بن زياد، وأصابته الحمّى في الطريق بين البصرة والكوفة، فلم ينتظره عبيد الله بن زياد بل تابع مسيره، واضطر شريك أن يتخلف عن القافلة، وعندما وصل إلى الكوفة لم يجد خيراً من هانئ بن عروة صديقه الصدوق وصاحبه الأمين ومستودع أسراره ليمكث في داره ريثما يشفى من المرض وعلم عبيد الله بن زياد بوصوله وأرسل إليه يخبره بأنه سيعوده في منزل هانئ.

كان مستلقياً على فراشه الممدود في طرف الغرفة، لا يقوى على النهوض أو الحركة، وجهه مصفرٌ، يكسو جبينه حبيبات العرق، أنهكته الحمى. على يمينه جلس مسلم بن عقيل، يستمع إلى كلامه الذي يخرج ببطء "عبيد الله بن زياد قادمٌ إلى عيادتي الآن، وإنّي مطاوله الحديث فاختبئ له في هذه الخزانة" وأشار بيده ناحية الباب الخشبي في الطرف المقابل للسرير "واخرج له بسيفك واقتله، وعلامتك أن أطلب شرب الماء" وعندما هم مسلم بن عقيل بالكلام طرق الخادم الباب وفتحه معلناً وصول الأمير عبيد الله بن زياد، دفع شريك بن الأعور مسلم بن عقيل من جذعه ليتحرك مسرعاً ويختبئ داخل الخزانة ويغلق الباب خلفه.

دخل عبيد الله بن زياد ومعه مولاه مهران. كان مهران يحب عبيد الله بن زياد حباً شديداً. في أثرهما دخل صاحب البيت هانئ بن عروة. سلّم عبيد الله بن زياد على شريك بن الأعور، وقبل أن يجلس طلب شريك بن الأعور منه أن يجلس قبالته ليستطيع أن يراه، فهو لا يقوى على تحريك رقبته، حرّك عبيد الله مقعده الخشبي وعليه وسادة الجلوس حتّى صار قبالة شريك بن الأعور، أثار طلب شريك بن الأعور الشكوك في نفس مهران والذي ظل واقفا فوق رأس سيده عبيد الله بن زياد. جلس هانئ بن عروة بجانب الفراش وعصر خرقة كانت منقوعة بماء بارد ووضعها على جبين شريك بن الأعور.

دارت أحاديث ليست مهمة وشريك بن الأعور مترقبٌ خروج مسلم بن عقيل ولكن الأخير لم يخرج وعندما نفذ صبر شريك بن الأعور رفع عمامته ورماها أرضا فدهش كل من هانئ بن عروة وعبيد الله بن زياد لهذا التصرف، وزادت شكوك مهران، أعاد هانئ بن عروة العمامة إلى رأس شريك بن الأعور والذي أمسكها ورماها مرة أخرى ثمّ بدأ بالصراخ "اسقونيها ولو كان بها حتفي" ولكن لم يخرج أحد من الخزانة وأعادها عدة مرات حتّى لم يعد يمتلك الطاقة على الكلام.

نظر عبيد الله بن زياد إلى عيني هانئ بن عروة وقال له "ما بال الرجل؟"

أجابه هانئ بن عروة "شريك يهجر منذ وقع في علّته، ويهذي يتكلّم بما لا يعلم."

وكأن مهران فطن للأمر فنخس عبيد الله بن زياد بإبهام قدمه من خلفه، انتبه عبيد الله بن زياد وقام عجلاً يريد ان يخرج وخلفه مهران.

قال شريك بن الأعور له "أقم أيّها الأمير، أريد أن أُوصي إليك."

نقل عبيد الله بن زياد نظراته بين شريك بن الأعور وبين هانئ بن عروة وقال "سوف أعود لاحقا" وخرج مسرعا هو ومهران.

عند خروج مسلم بن عقيل من الخزانة بعد أن غادر عبيد الله بن زياد، سأله شريك "ما منعك من الأمر يا مسلم؟"

أجاب مسلم بن عقيل "كلام سمعته من عمي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (لا إيمان لمن قتل مسلما)."

قال هانئ بن عروة "والله لو قتلته لقتلت فاسقاً كافراً فاجراً غادراً."

مات شريك بن الأعور بعد ثلاثة أيّام من شدّة المرض.

مضت الأيام وعبيد الله بن زياد يحكم قبضته أكثر وأكثر على الكوفة يحاول جاهدا معرفة مكان اختباء مسلم بن عقيل ولكن بدون جدوى، وصار مسلم بن عقيل لا يستطيع مغادرة منزل هانئ لانتشار جنود

وعيون عبيد الله في كل زاوية من زوايا الكوفة، وصار عدد من يلتقي به أقل مع كل يوم وذلك لصعوبة الوصول إليه وكان هانئ بن عروة يتجنب الذهاب والجلوس في مجلس عبيد الله بن زياد في قصر الإمارة.

أبو خليل الشامي

دخل أبو خليل الشامي مسجد الكوفة قبل موعد صلاة الظهر بعد أن خلع نعليه، عدّل العباءة المهترئة على كتفيه، كانت تستر رداءً قماشياً مصفراً خشناً برزت أكمامه المهترئة من الفتحتين في طرفي العباءة، على رأسه عمامة رخيصة لونها أخضر بهت لقدمها فصار أقرب إلى الرمادي، آثار التراب على يديه ورجليه ولحيته توحي بأنّه قادم من سفر طويل، وعلامات الإرهاق تحت عينيه تشير إلى أنّه لم ينم إلّا جزء يسير من الليل ألقى نظرة على المصلين المنتشرين في أطراف المسجد، عدّة شبّان بلباس عادي، يبدو أنّهم من عمال السوق، يجلسون في آخر المسجد، شيخان طاعنان في السن، تبدو على ملابسهما آثار الزهد، منهمكان بالصلاة، على طرفي الأسطوانة التي يرتكز عليها السقف الخشبي للمسجد، حارسان وضعا سيفاهما جانب الباب، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث، رجل عجوز يزيل آثار التراب على أطراف عتبة باب من أبواب المسجد، اقترب أبو خليل بمشيته البطيئة إليه وقال "السلام عليكم و رحمة الله وبركاته."

"عليك السلام." أجاب الرجل ملتفتاً إلى أبا خليل دون أن ينتصب.

"ادعى أبو خليل، وأنا من الشام" صمت مراقباً ردة فعل الرجل، والذي انتصب فور سماعه كلمة الشام، ونظر إليه نظرات مليئة بالشك، تابع أبو خليل همسا وهو يلتفت حوله "أحمل حقوقا من بعض العوائل الموالية لآل بيت رسول الله، وأريد أن أسلّمها إلى أهلها"

انفرجت أسارير الرجل عند سماع ذكر آل بيت رسول الله، ومدّ يده مصافحاً أبا خليل بحرارة، وقال "أهلاً وسهلاً أبا خليل" والتفت ينظر إلى كل من في المسجد من المصلين وكأنه يبحث عن شخص معين، وقال "انظر إلى أولئك الشيخين عند آخر أسطوانة" التفت أبو خليل إلى آخر أسطوانة حيث الشيخين، تابع الرجل "سمعتهم وأنا أكنس حولهم، بأن من يأخذ البيعة لصاحب الإمام الحسين بن علي هو مسلم بن

عوسجة" وأشار بأصبعه إلى رجل عجوز منهمكا في صلاته، يجلس في منتصف المسجد مقابل المنبر وقال "هو شيخ جليل من الموالين لآل بيت الرسول، اذهب إليه ولن تندم."

"شكرا لك يا أخي، وجزاك الله خيراً، وأسكنك فسيح جنّاته، وغفر لك ذنبك، ورزقك من رزقه حلالاً طيباً" انحنى أبو خليل وهو لا يزال يرشق الرجل بوابل دعائه، والذي عاد بدوره إلى التنظيف، ثم توجّه إلى مكان مسلم بن عوسجة الأسدي، وجلس إلى جانبه وهو لا يزال ساجداً وصوت بكاء خافت يصدر منه، وانتظر إلى أن رفع مسلم بن عوسجة رأسه من السجود وعيناه حمراوان وسلم عليه،

"السلام عليك أيّها الشيخ الجليل" وأمسك يد مسلم بن عوسجة يريد تقبيلها.

سحب مسلم بن عوسجة يده بسرعة قائلاً "استغفر الله يا أخي، وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته."

"يا عبد الله، إنّي من أهل الشام، أنعم الله علي بحب أهل هذا البيت وحب من أحبهم" غصّ أبو خليل بعبرته، وجرت دمعته على خديه، وأكمل همساً "معي ثلاثة آلاف درهم، أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنّه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله، كنت أريد لقاءه فلم أجد أحداً يدلّني عليه ويدلّني إلى مكانه، وأخبرني ذلك الرجل بأن لك علم بأهل هذا البيت" أشار بيده ناحية الشيخ الذي لا يزال منهمكا بالتنظيف "و إنّي أتيتك لتقبض منّي هذا المال وتدخلني على صاحبك" أخرج صرّة قماشية مليئة بالنقود ووضعها أمام مسلم بن عوسجة "فإنّما أنا أخ من إخوانك وثقة عليك، وإن شئت، أخذت بيعتي له قبل لقائه."

"الحمد لله على لقائك إيّاي، فقد سرّني ذلك لتنال الذي تحب، ولينصر الله بك أهل بيت نبيه" أجابه مسلم بن عوسجة والابتسامة تكشف عن أسنان ناصعة البياض على الرغم من كبر سنه "ولقد ساءني معرفة النّاس إيّاي بهذا الأمر قبل أن يتم، مخافة هذا الطاغية وسطوته" واختفت ابتسامة مسلم بن عوسجة عندما نعت عبيد الله بن زياد بالطاغية.

"لا يكون إلّا خيراً يا شيخ، خذ البيعة علي" ومدّ أبو خليل يده مبايعاً مسلم بن عوسجة ودموعه لم تجف من على خديه.

"إن شاء الله، سأوصل بيعتك لسيدي مسلم بن عقيل، وعندما تقابله تعطيه النقود بنفسك" أعاد مسلم بن عوسجة كيس النقود إلى أبي خليل وتابع "لكن أُقسم عليك بمقام ابنة الرسول فاطمة الزهراء عند الله وعند أبيها رسول الله والذي لطالما نعتها بأنها بضعة منه وأنّها روحه التي بين جنبيه...

قاطعه أبا خليل ببكائه وهو يقول "سلام الله على سيدتي ومولاتي فاطمة الزهراء."

أكمل مسلم بن عوسجة "أقسم عليك يا أبا خليل، بأن لا تذكر أمرنا هذا لأحد، أو ما يجري بيننا من الأحاديث، فابن مرجانة لا يؤمن مكره، وأنت اختلف إلي أياما في منزلي، فأنا طالب لك الإذن على صاحبك، وأسأل الله لك التوفيق."

"لك ذلك يا أخي، أقسم بالله العظيم بأنّي لن أذكر أمرنا هذا لأحد."

"بارك الله فيك" قال مسلم بن عوسجة وقام ليصلي.

بقي أبو خليل بجانب مسلم بن عوسجة، وقام مصلياً، والخشوع بادٍ على محيّاه، والدموع تسيل من عينيه، صلّا ركعتي تحية المسجد ثمّ بدأ بقراءة القرآن، وكان صوته حزيناً حنوناً إلى أن جاء موعد صلاة الظهر، أذّن المؤذن للصلاة، واصطفّ المئات من المصلين لأداء صلاة الظهر جماعة. بعد الصلاة، لم يهدئ أبو خليل من الدعاء والابتهال والعبادة نهض مسلم بن عوسجة ينوي الخروج، بعد أن أنهى تعقيبات الصّلاة، من تسبيح وتمجيد لله وقراءة قرآن، وقال "أخي أبا خليل، أراك على خير وأسأل الله لك التوفيق" ثمّ سار متوجهاً إلى بوابة المسجد الذي صار شبه خالٍ.

حضر مسلم بن عوسجة عند صلاة العشاءين للمسجد، ووجد أبا خليل متكوّراً على نفسه في زاوية المسجد غارقا بقراءة القرآن، صار أبو خليل أوّل الداخلين إلى المسجد وآخر الخارجين منه عند موعد كل

صلاة، وأصبح من المصلين المعروفين بخشوعهم بين زوار المسجد، فأحبّه المصلون ليس فقط لخشوعه وتقواه، بل للّهجته الشامية المختلفة، ولمحبته لآل بيت رسول الله.

بعد عدة أيّام اقترب مسلم بن عوسجة من أبي خليل في مسجد الكوفة وقال "السلام عليك أخي أبا خليل."

نظر أبو خليل إلى مسلم بن عوسجة ولحيته مبتلة من البكاء، وردّ السّلام "وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته."

قال مسلم بن عوسجة "أرجوك تعال معي لخارج المسجد لأخبرك أمراً هاماً، فأنا أُكره أن أتكلّم بأمور الدنيا في بيت الله."

قال أبو خليل "سمعاً وطاعة يا شيخي" وأحنى رأسه تواضعاً، ومشى خلف مسلم بن عوسجة إلى الباحة الخارجية للمسجد تحت أشعّة الشمس الملتهبة.

قال مسلم بن عوسجة "الوضع الآن يختلف عمّا كان عليه قبل وصول عبيد الله بن زياد إلى الكوفة، سيّدي مسلم بن عقيل، كان في بيت المختار من بني ثقيف، وكان النّاس يدخلون يبايعونه جهاراً، ولكن بعد صعود ابن مرجانة المنبر -وأشار بيده ناحية المنبر داخل المسجد- وتهديد أهل الكوفة بصلب كل من يقع في يديه مبايعاً مسلم بن عقيل، خرج من بيت المختار الثقفي وسكن في بيت أحد الموالين، وكنت لا أملك الإذن لكشف مكان تواجده، ولكن اليوم منحني الإذن باصطحابك إليه فأرجو أن ترافقني."

انكب أبو خليل على يد مسلم بن عوسجة يقبّلها وهو يشكره "جزاك الله كل الخير وحشرك مع النبي محمّد وآله الأطهار في عليّين."

قال مسلم بن عوسجة وهو يلتفت حوله "أرجوك تمالك نفسك وأخفض صوتك، لا نريد أن نلفت الأنظار إلينا، والآن اتبعني."

سار أبو خليل خلف مسلم بن عوسجة بخطوات ليست سريعة، تحت أشعّة الشمس الحارقة، في أزقّة الكوفة المغبرّة، بين بيوتها الطينية بجدرانها الجافة، ونوافذها الخشبية المتهالكة، السّلام عليكم يا شيخ، كلمات تخرج من فم كل من يمر بمسلم بن عوسجة وأبي خليل، سواء كانوا يعرفونهما أم لا، فإلقاء السّلام واجب ومنتشر بين الناس. خرجا من السكّة الواصلة بين مسجد الكوفة المعظم، والسوق المتموضعة في مركز المدينة، صوت الباعة يصدح في أرجاء السوق، يبيعون الخيرات من أطعمة وألبسة ولوازم منزلية وغير ذلك، صارت حركة مسلم بن عوسجة وأبو خليل أصعب وأبطأ وهما يجتازان السوق لكثرة المتسوقين، اخترقا السوق بعد عناء، ودخلا في حي قبيلة المذحجيين وهي قبيلة اشتهرت بشجاعة فرسانها وفحولة رجالها.

وصل مسلم بن عوسجة وأبو خليل، إلى منزل مهيب ذو بوابة خشبية عريضة، يقف منتظراً خادماً يرتدي عمامة بيضاء ورداء أبيض، بمجرد أن رآهما فتح البوابة وانحنى احتراما، ووقف جانبا ليفسح لهم الطريق ليدخلا، ثمّ أغلق الباب وأسرع ليريهما طريقهما إلى الداخل.

ذُهل أبو خليل من روعة وجمال الحديقة، يتوسطها حوض مياه، وأدهشته نضارة أزهارها وتنوع أشكالها وألوانها، اجتازا الحديقة وصعدا درجات خمساً، خلعا نعليهما قبل أن يدخلا إلى المنزل، في الداخل مجلساً واسعاً مفروش بالسجاد الصوفي، على أطرافه الأرائك المغلفة بجلود الغزلان الناعمة، تتدلى من السقف ستائر حريرية تزيد المكان روعة وجمالاً، تابعا سيرهما خلف الخادم لينحرفا يمينا بآخر المجلس عابرين ممراً بآخره باب مغلق، دق الخادم ثلاث دقات على الباب الخشبي، ثمّ فتحه ليكشف لمن في الداخل عن الزائرين والذين كانوا على علم بحضورهما.

دخل أبو خليل خلف مسلم بن عوسجة، ليقف كل من بالداخل، وهم شيخ ذو لحية رمادية وعينين كعيني الصقر متوسط الطول تبدو على جبينه آثار السجود وهو هانئ بن عروة المذحجي، شاب ذو لحية سوداء وعينين ثاقبتين وخدين أسمرين بسحة وردية وشفتين قاتمتين وأنف معقوف وحاجبين كثيفين وعلى رأسه عمامة يمانية خضراء تشير على أنه من شيعة علي بن أبي طالب وهو مسلم بن عقيل بن أبي طالب،

رجل في العقد الرابع من العمر بلحية عريضة وجبين عال وبشرة فاتحة، على رأسه عمامة بيضاء وعلى منكبيه العريضين رداء صوفي ثقيل وهو أبو ثمّامة الصائدي.

جلس أبو خليل جلسة الطالب المهذب أمام أستاذه، وجلس الباقين.

"حللت أهلاً وشرّفت سهلاً يا أخي" قال مسلم بن عقيل، وعلى شفتيه ابتسامة عذبه "أرجو ألّا تكون قد تكبدت المشاق للوصول إلينا، وعلى ما أعتقد بأنك لاحظت أن قبضة عبيد الله بن زياد قاسية على من يخالف أوامره، ولهذا نتبع الحيطة والحذر حفاظاً على دماء شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والله نحن لا نريد فرقة المسلمين ولا زرع الفتنة، ولكن كما قال الإمام الحسين بن علي ابن أبي طالب عليهما السلام، (ما الإمام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله) لم آتي إلى الكوفة إلّا بعد أن أرسل الكوفيين آلاف الرسائل للإمام الحسين بن علي، يطلبون منه القدوم ليبايعوه، وأرسلني لأتحقق من سلامة دعواتهم، وكان هذا يعارض أهواء يزيد بن معاوية في الشام، فأرسل إلى الكوفة عبيد الله بن زياد ليمنع ذلك، فما قدومي إلى الكوفة إلّا تلبية لنداء المسلمين وكذلك ابن عمي الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام."

بقي أبو خليل صامتاً، والجميع ينظرون إليه منتظرين منه أن يتكلم ويقول ما عنده إلى أن كسر الصمت مسلم بن عوسجة عندما حثّه "تكلم يا أبا خليل ها أنت بحضرة مسلم بن عقيل، ألم تكن تحثّني بعد كل صلاة لأجمعك به."

انتفض أبو خليل وكأنه استيقظ من سبات "إني من أهل الشام أنعم الله علي بحب آل البيت وحب من أحبهم، وقد قطعت المسافة الفاصلة من الشام الى الكوفة دون توقف او إبطاء، لأبايع من أرسله ابن بنت رسول الله، الامام الحسين بن علي بن ابي طالب عليهما السلام و معي ثلاثة آلاف درهم من عوائل متفرقة بالشام ممن أنعم الله عليهم بحب آل البيت و نصرتهم."

ثمّ فك الرباط الذي يربط الصرة التي تحوي ثلاثة آلاف درهم، ووضع النقود أمام مسلم بن عقيل، والذي لم يمد يده أو يحرك ساكناً، بل بقي ينظر إلى أبي خليل بانتباه وقد تابع يقول "أرجو يا سيدي، أن تقبل هذه الأموال من تلك العوائل الموالية، علّها تكون ذخراً لهم في يوم القيامة."

سأل مسلم بن عقيل "هل لديك قائمة بأسماء العوائل التي أرسلت هذه النقود؟"

قال أبو خليل "عوائل كثيرة تفوق الأربعين عائلة، لم أستطع إحضار قائمة بأسمائها بناء على طلبهم، فهم يريدون أن تبقى أسماؤهم مجهولة لكيلا يصيبهم شيء من الرياء، وللأسف أنا رجل عجوز وذاكرتي لا تعينني على تذكر أسماء الأربعين عائلة."

سأل مسلم بن عقيل "هل كان نصيب العائلة يساوي نصيب الأخرى وهل لديك فكرة عن نصيب كل عائلة منهم؟" الجميع ينظر إلى أبي خليل ينتظرون سماع الإجابة.

أجاب أبو خليل "كل عائلة دفعت مقدرتها، فمنهم من دفع عشرة دراهم، ومنهم من دفع مئتين، وكنت ارغب بتسجيل قائمة بنصيب كل عائلة، ولكنهم أقسموا علي بأن لا أفعل، يريدون أن يكون عملهم خالصاً لوجه الله تعالى كما أخبرتك سيدي" تجنب النظر إلى عيني مسلم وسأل "ولكن هل في نفسك شك سيدي؟"

قال أبو ثمّامة الصائدي وهو ينظر إلى مسلم بن عقيل "سيدي مسلم سامحني على التدخل ولكن هل يعقل أن أموال جمعت من كل تلك العوائل بمبالغ مختلفة أن تنتهي بمجموع هو ثلاثة آلاف درهم تماما ولا نملك قائمة بأسماء العوائل أو من تكون أو من أي البلدان أتت؟"

"بارك الله فيك" أجاب مسلم بن عقيل ثمّ التفت إلى أبي خليل "ما جوابك يا أخي على ذلك؟"

"سيدي المبلغ لم يكن ثلاثة آلاف درهم تماما، فمجموع ما دفعه المؤمنين من محبي آل البيت هو ألفان وثمانمائة وخمس وستون درهم، وأنا أكملت باقي المبلغ إلى ثلاثة آلاف درهم من الأموال التي كنت قد

ادخرتها طوال حياتي لكي أحج إلى بيت الله الحرام في مكّة المكرمة، وكنت لا أنوي ذكر هذا لكيلا يصيبني شيء من العجب والرياء فأنا أريد أن يكون عطائي خالصاً لوجه الله تعالى."

قال مسلم بن عقيل "جزاك الله كل الخير يا أخي وعوّضك بالجنة" والتفت إلى أبي ثمّامة والذي كلفه بإدارة كل ما يرد عليهم من أموال "أخي أبا ثمّامة أرجو أن تقبض من أبي خليل الدراهم وتختم له كتاباً بأنك استلمتها ليحمله معه عندما يعود إلى دياره."

تكلّم هانئ بن عروة بصوت هادئ "سأطلب من الخدم تجهيز غرفة لك لتقيم فيها وتستريح قبل العودة إلى الشام."

أجاب أبو خليل وهو ينهض "أشكر لك كرمك سيدي، ولكني جالس عند صاحبي وأكره أن أخرج من منزله لكيلا يظن أنني لم أكن مرتاح لضيافته."

"إلى أين؟" سأل هانئ بن عروة بنفس الهدوء "اجلس وتناول طعام الغداء معنا."

"سيدي أتشرف بالجلوس معكم وخصوصا بوجود سيدي مسلم بن عقيل، ولكني محرج من أن أكون متطفلاً" أجاب أبو خليل وهو لا يزال واقفا محني الظهر احتراماً للجالسين.

قال أبو ثمامة الصائدي "أستغفر الله، ما هذا الكلام الذي تقوله، صاحب الدار يدعوك للبقاء ضيفاً في داره على مائدته وأنت تخاف أن تكون متطفلاً، اجلس أرجوك وتبارك بتناول طعام الغداء برفقة سيدي مسلم."

قال أبو خليل "لي الشرف يا سيدي، وأشكر للسيد هانئ حسن ضيافته" ثم جلس مرة أخرى.

ومنذ هذا اليوم صار أبو خليل من المداومين في حضوره في مجلس مسلم بن عقيل في هذا المنزل.

خطبة الحسين بن علي بجانب الكعبة في مكة

7 ذي الحجة 60 هجري

8 أيلول 680 ميلادي

كان الحسين بن علي ينوي الخروج إلى الكوفة بعد أن يؤدي مناسك الحج، ولكن عندما علم بإرسال يزيد بن معاوية لثلاثين من أقوى وأدهى رجاله، طالبين رأس الحسين بن علي إن لم يبايع حتّى لو كان متعلقاً بأستار الكعبة، أحلّ إحرامه وقطع مناسك حجّه، وقرّر الخروج من مكّة قبل أن ينهي حجّه، حفاظاً على حرمة بيت الله الحرام قبلة المسلمين، والتوجّه إلى الكوفة في العراق، ملبياً دعوة مسلم بن عقيل والقائمة على مبايعة الآلاف له والمستعدين لنصرته إن حضر.

أدّى الحسين بن علي الطواف حول الكعبة الشريفة والسعي بين الصفا والمروة، ثمّ أحلّ من إحرامه ليتمها عمرة مفردة غير متمماً حجه كان عصر يوم اثنين، اقترب إلى الكعبة الشريفة، وجعل بابها إلى يمينه، ولم يجعلها خلفه، ورفع يديه، وقال بصوت مسموع "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته." فقام كل من كان جالساً حول الكعبة، وتوجهوا إلى حيث كان يقف. تجمّع حوله حشد كبير من الرجال والنساء الحجاج، ولفت تجمعهم نظر من كان بعيداً ولم يسمع النداء، فاقتربوا والتفوا حوله.

بمجرد أن نطق الحسين بن علي، حتّى عم الصمت جميع الواقفين احتراماً وتعظيماً له، فهو حفيد رسول الله، والذي طالما ردد على مسامعهم "حسين منّي وأنا من حسين" فمن يملك الحكمة وفهم قول الرسول، نظر للحسين بن علي نظرة تعظيم وتقدير، ومن لم يشهد قول الرسول أو لم يدرك أسراره العظيمة، احترمه لقرابته من رسول الله.

قال الحسين بن علي "الحمد لله وما شاء الله ولا قوّة إلّا بالله، وصلّى الله على رسوله، خُطّ الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخُيّر لي مصرع أنا ألاقيه، كأنّي بأوصالي تتقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن منّي أكراشاً جوفا وأجربة

سغبا، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجر الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته وهي مجموعة له في حظيرة القدس تَقِرُّ بهم عينه وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنّني راحل مصبحاً إن شاء الله."

اختلفت المشاعر التي استقبل بها الواقفين ما قاله الحسين بن علي، فهو يخبرهم بأنه ماضي إلى سبيل آخره الشهادة، ويطلب منهم أن يرافقوه إن أحبّوا، فمنهم من اصفرّ وجهه، ليس خوفاً من القتال بل من فكرة أن حفيد رسول الله سوف يُقتل، ومنهم من اندهش من فكرة أن الحسين بن علي يعلم بموته ولكنّه مصر على الخروج لإعلاء كلمة الله، ومنهم من علت الابتسامة شفتيه شماتةً على الرغم من شكّه وعدم تصديقه لما قاله الحسين بن علي، والقليل ممن عزموا على الرحيل معه وطاعة أوامره.

محمد بن الحنفية قدم إلى مكّة لأداء مناسك الحج، كان واقفا بين الحشود يستمع لصوت أخيه العذب، اقترب وانتظر إلى أن تسنح له الفرصة للتحدث مع أخيه، فتقدم الحسين بن علي عندما رآه وضمّه وعانقه وأنصت لما يقوله ولم يقاطعه إلّا عندما يمر أحد الحجاج ويلقي السّلام عليه قائلاً "السلام عليك يا بن بنت رسول الله." فيرد الحسين بن علي "وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته." ومن ثمّ ينصت مرة أخرى لأخيه محمّد بن الحنفية بصوته الرخيم وهو يتحدث "يا أخي إنّ أهل الكوفة من قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنّك أعز من في الحرم وأمنعه."

وضع الحسين بن علي كفّه خلف ظهر محمّد بن الحنفية وتحرّك ببطء معه مبتعداً عن باب الكعبة وأجاب "يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت."

قال محمد بن الحنفية وهو يحرك قدميه ببطء متكأ على عصا لمرض أصابهما فضعفتا "فإن خفت فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنّك أمنع النّاس به ولا يقدر عليك."

أجابه الحسين بن علي "أنظر فيما قلت" وكانت الشمس قد سقطت خلف جبال مكّة وبدأ وقت صلاة المغرب، فتوجها لأداء الصلاة.

الحسين بن علي وعبد الله بن عباس

توجّه الحسين بن علي إلى مكان إقامته، بعد أن أتمّ صلاته، فوجد عبد الله بن عباس منتظراً له والقلق باد على وجهه، هرول عبد الله بن عباس نحوه بمجرد أن وقعت عيناه عليه، وضمّه إلى صدره بعد أن ألقى عليه التحية، اصطحبه الحسين بن علي إلى داخل داره وبمجرد أن جلسا بادر عبد الله بن عباس بالكلام فوراً "يا بن عمي قد بلغني أنك تريد العراق، وإنهم أهل غدر، وإنما يدعونك للحرب، فلا تعجل" صمت برهة وعينيه تتوسلان الحسين بن علي بأن يقبل طلبه "و إن أبيت إلّا محاربة هذا الجبار وكرهت المقام بمكة، فاشخص إلى اليمن، فإنّها في عزلة ولك فيها أنصار وإخوان، فأقم بها وبث دعاتك، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق فيخرجوا أميرهم فإنّ قووا على ذلك ونفوه عنها ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم وما أنا بغدرهم بآمن، وإن لم يفعلوا أقمت بمكانك إلى أن يأتي الله بأمره فإنّ فيها حصوناً وشعاباً."

قال الحسين بن علي "يا بن العم، إنّي لأعلم أنك لي ناصح وعلي شفيق، ولكن مسلم بن عقيل كتب إليّ باجتماع أهل المصر على بيعتي ونصرتي وقد أجمعت على المسير."

قال عبد الله بن عباس ووجهه اكفهر قلقاً على حياة الحسين بن علي "إنهم من خبرت وجربت، وهم أصحاب أبيك وأخيك، وإنّك لو خرجت فبلغ عبيد الله بن زياد خروجك استنفرهم إليك، وكان الذي كتبوا إليك أشد من عدوك، فإنّ عصيتني فأبيت إلّا الخروج إلى الكوفة، فلا تخرجن نساءك وولدك معك" قطرت دمعات من عيني عبد الله بن عباس على لحيته "فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه."

أجاب الحسين بن علي "لأن أقتل والله أحبّ إليّ من أن أُستحلّ بمكة."

وقف عبد الله بن عباس وعيناه تذرفان دموعاً بسخاء حتّى ابتلت لحيته وقبّل ما بين عيني الحسين بن علي، وقال "أستودعك الله من قتيل."

غادر دار الحسين بن علي وهو يائس وسار في السكك الضيقة بين بيوت مكّة والظلام قد كسا كل الموجودات وعيناه لم تتوقفا عن ذرف الدموع. رأى عبد الله بن الزبير ماشياً متجهاً نحوه، فعندما أصبح بمحاذاته وقف وألقى السلام، وقال له "قرّت عينك يا بن الزبير، هذا حسين يخرج إلى العراق ويخلّي لك الحجاز" فلم يجب عبد الله بن الزبير بشيء وتابع سيره متوجهاً إلى دار الحسين بن علي.

عندما وصل عبد الله بن الزبير إلى منزل الحسين بن علي، فتح له الباب الحسين بن علي وهو يحمل طفله الرضيع عبد الله على صدره ويربت على ظهره بكفّه. دعاه للدخول.

جلس عبد الله بن الزبير وقال "أبا عبد الله ما عندك؟ فوالله لقد خفت الله في ترك جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد الله." وأظهر علامات الغضب على وجهه.

فقال الحسين بن علي "قد عزمت على إتيان الكوفة."

قال عبد الله بن الزبير "وفّقك الله، أمّا لو أن لي مثل أنصارك ما عدلت عنها" ثمّ وقف ليغادر وصوت تنفّسه ثقيلاً بسبب وزنه الزائد وسار ببطء، وسار الحسين بن علي معه ولا يزال عبد الله الرضيع بين يديه.

قبل أن يخرج عبد الله بن الزبير التفت وقال "ولو أقمت بمكانك فدعوتنا وأهل الحجاز إلى بيعتك أجبناك وكنّا إليك سراعا وكنتَ أحق بذلك من يزيد وأبي يزيد."

عبيد الله بن زياد وهانئ بن عروة في الكوفة

8 ذي الحجة 60 هجري

9 أيلول 680 ميلادي

عندما لاحظ عبيد الله بن زياد غياب هانئ بن عروة المتواصل عن مجلسه سأل عنه فقيل له بأنّه مريض، فقال عبيد الله بن زياد "لو علمت بمرضه لعدته" ثمّ دعا محمّد بن الأشعث، وأسماء بن خارجة الفزاري، وعمرو بن الحجاج الزبيدي، وكانت رويحة بنت عمرو زوجة لهانئ، وهي أم يحيى بن هانئ.

قال عبيد الله بن زياد لهم "أخبروني ما يمنع هانئ بن عروة من إتياننا؟"

قالوا "ما ندري وقد قيل لنا بأنّه مريض."

قال عبيد الله بن زياد "لقد بلغني أنّه بريء وأنّه يجلس على باب داره، فالقَوه فمروه ألا يدع ما عليه من حقنا، فإنّي لا أحب أن يفسد عندي مثله من أشراف العرب."

ذهبوا إلى دار هانئ بن عروة وهو جالس على باب داره فقالوا له "ما يمنعك من لقاء الأمير؟ فإنّه قد ذكرك، وقال: لو أعلم أنّه مريض لعدته."

قال هانئ بن عروة "الشكوى تمنعني."

قالوا له "قد بلغه أنك تجلس كل عشية على باب دارك، وقد استبطأك، والإبطاء والجفاء لا يحتمله السلطان، ونحن نقسم عليك إلّا ما ركبت معنا."

استجاب لهم مكرهاً فارتدى ثيابه ودعا ببغلته فركبها وجاء معهم، وعندما اقتربوا من القصر أحس بعدم الراحة فقال لحسان بن أسماء بن خارجة "يا بن الأخ، إني والله لهذا الرجل لخائف، فما ترى؟"

قال حسان بن أسماء بن خارجة "أي عم، والله ما أتخوف عليك شيئاً، ولم تجعل على نفسك سبيلا وأنت بريء؟"

عندما دخلوا، قال عبيد الله بن زياد بصوت جهوري أسكت كل من كان حاضراً "أتتك بخائن رجلاه" وهو متربع على كرسي الإمارة وعلى طرفي المجلس حاشيته من وزراء ومستشارين وبينهم شريح القاضي.

"السلام على الأمير" قالها هانئ بن عروة وهمّ بالجلوس إلّا أن يد عبيد الله ابن زياد ارتفعت مع صوته، "مهلا يا هانئ لا تجلس فلي معك حساب اليوم."

ثمّ نهض وتوجّه إلى حيث ظل هانئ واقفا في منتصف المجلس، وقال "استبطأناك وفقدناك في مجلسنا، فما يمنعك من لقاء أميرك يا هانئ" كان يتكلّم وهو يخطو خطوات بطيئة حائماً حول هانئ الذي بدوره يدير رقبته يمينا إلى أن يصبح عبيد الله خلفه ثمّ يسارا منتظراً عبيد الله ليظهر ويتابعه مرة أخرى بعينيه.

قال هانئ بن عروة "العلّة منعتني من زيارتكم أيّها الأمير والجلوس في مجلسكم."

قال عبيد الله بن زياد "لو أعلمتنا بعلّتك لأتينا لعيادتك، فأنت من أشراف العرب وشيخ مذحج، فمن الواجب ألا تدع حقنا عليك، فلا أحب أن يفسد مثلك عندي يا هانئ، كما أنّه وصلنا أنك تجلس على باب دارك كل عشاء ولم تمنعك الشكوى من ذلك."

قال هانئ بن عروة "أجبت دعوتك أيّها الأمير بمجرد أن وصلني الخبر بأنك تريد رؤيتي، ارتديت ردائي وقدمت فورا."

وقف عبيد الله بن زياد وكفاه مشبوكتان خلف ظهره وسأله "ما هذه الأمور التي تتربص بها في دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين يا هانئ؟"

قال هانئ بن عروة "وما ذاك أيّها الأمير؟"

قال عبيد الله بن زياد "جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك وجمعت له الجموع والسلاح والرجال في الدور حولك، أظننت أن ذلك يخفى علي؟" ثم وقف قبالة هانئ ونظر إلى عينيه نظرة حادة.

قال هانئ بن عروة ولم ترمش عيناه المليئتان بالتحدي "ما فعلت ذلك وما مسلم عندي."

"بلى قد فعلت" ثمّ رفع عبيد الله يده اليمنى وصرخ "نادوا لي معقلاً."

دخل إلى القاعة رجل بمجرد أن وقعت عينا هانئ بن عروة عليه ارتبك وتسارعت دقات قلبه وظهرت حبيبات العرق على جبينه، أدرك أنّه لا مجال للإنكار، فأبو خليل الشامي الذي كان أوّل الداخلين إلى مجلس مسلم بن عقيل وآخر الخارجين منه في بيته، ما هو إلّا معقل، رجل من أعوان عبيد الله بن زياد. ثمّ التفت إلى عبيد الله محاولاً قلب الموازيين وقال بحده "إن لأبيك عندي بلاء حسناً وأنا أحب مكافأته فأنصحك بأن تمضي أنت وأهلك إلى الشام سالمين بأموالكم، فإنّه جاء من هو أحق منك ومن صاحبك إلى الكوفة."

خرجت ضحكة مجلجلة من فم عبيد الله بن زياد، ثمّ نظر إلى هانئ بن عروة وعيناه تقدح شررا وقال "والله لا تفارقني أبداً حتّى تأتيني به."

قال هانئ بن عروة "لا والله لا آتي به أبداً، آتيك بضيفي تقتله؟"

قال عبيد الله بن زياد "والله لتأتيني به."

قال هانئ بن عروة متحديا "لا والله لا آتيك به."

فلما كثر الكلام بينهما قام مسلم بن عمرو الباهلي وقال "أصلح الله الأمير، خلني وإياه حتّى أكلمه" فقام فخلا بهانئ بن عروة في ناحية يراهما عبيد الله ويسمع كلامهما.

قال مسلم بن عمرو الباهلي "يا هانئ إنّي أنشدك الله ألا تقتل نفسك وتدخل البلاء على قومك وعشيرتك فوالله إني لأنفس بك عن القتل، إن الرجل في بيتك ابن عم القوم وليسوا بقاتليه ولا ضاريه، فادفعه إلى عبيد الله بن زياد فإنّه ليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة، إنما تدفعه إلى السلطان."

قال هانئ بن عروة "بلى والله أن علي في ذلك الخزي والعار، أنا أدفع جاري وضيفي ورسول ابن بنت رسول الله، وأنا حي صحيح أسمع وأرى، شديد الساعدين، كثير الأعوان، والله لو لم أكن إلّا واحدا ليس لي ناصر لم أدفعه حتّى أموت دونه، والله لا أدفعه أبداً إليه." وأشار بإصبعه ناحية عبيد الله بن زياد الذي ثار غاضباً واقترب منه وشدّ رداءه حول رقبته وقرّبه إلى وجهه وقال "والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك."

أجابه هانئ بن عروة متوعداً "إذن تكثر البارقة حول دارك."

زمجر عبيد الله بن زياد "والهفاه عليك، أبالبارقة تخوّفني؟"

ثمّ أمر الحرّاس بأن يقيّدوه، وأخذ حربة كانت على طشت الفاكهة الذهبي بجانبه، وأمر حارسان أن يقفا على طرفي هانئ ليمنعاه من الحراك، وأمسك الحربة من طرفها وصار يضرب وجه هانئ بن عروة ضربات كقرع الطبل بكل ما أوتي من عزم، حتّى تناثر لحم خديه وجبينه على لحيته، فانصبغ شعر لحيته الأبيض بلون الدم، وكسر أنفه وسقط طرفه، وتناثر لحم وجهه المتطاير على ثيابه، استطاع هانئ بن عروة أن يفلت

من الحارسين، وقفز إلى شرطي من الحرس، واستلّ سيفه من على خصره يريد أن يطعن عبيد الله بن زياد الذي انتبه لما يحدث فقفز، فلم يصب السيف إلّا طرف ثوبه فمزقه، وكان الحراس قد هجموا عليه وخلصوا السّيف منه وقيّدوه.

"قد حلّ لنا دمك" قالها عبيد الله بن زياد وهو ينفض من على رداءه قطع اللحم المتناثر من وجه هانئ الذي على الرغم من إعيائه الشديد وعدم قدرته على الوقوف فكان الحارسان يرفعانه من إبطيه، قال بصوت خافت "والله لو كانت رجلي على طفل من أطفال أهل البيت ما رفعتها حتّى تقطع" فالتفت عبيد الله بن زياد إلى الحارسين وقال "احبسوه في غرفة من غرف القصر وابقيا على بابها لا أحد يدخل أو يخرج منها، إنصرفا الآن."

قام حسان بن أسماء غاضباً وقال "أرسل غدر ساير اليوم؟ أمرتنا أن نجيئك بالرجل، حتّى إذا جئناك به، هشمت أنفه ووجهه، وسيلت دماءه على لحيته وزعمت أنك تقتله؟"

فقال عبيد الله بن زياد غاضباً وهو يشير إلى الحراس "وإنّك لها هنا؟" فاقتربوا من حسان وضربوه ضرباً مبرحاً.

قال محمّد بن الأشعث "قد رضينا بما رأى الأمير، لنا كان أم علينا، إنما الأمير مؤدب."

شريح القاضي

بعد أن بدّل عبيد الله بن زياد ثيابه الملطخة بدماء هانئ بن عروة وعاد إلى مجلسه سمع صوت ضجّة عالية من خارج القصر، قبل أن يسأل ما سبب هذه الأصوات، أحد الحراس جاء جاريا إليه وأخبره وهو يلهث بأن فرسان قبيلة مذحج يحاصرون القصر ويريدون أن يخرج هانئ بن عروة إليهم، ويهددون باقتحام القصر إذا لم يخرج إليهم على الفور.

صمت عبيد الله بن زياد ونظر في وجوه من حوله من الرجال وبينهم شريح القاضي، قال له "ادخل على هانئ فانظر إليه، ثمّ أخرج إلى شرفة القصر وأعلمهم بأنه حي لم يقتل، ولكنه باستضافتنا لأنه مريض ويحتاج إلى رعايتنا."

"أمر مولاي" أجاب شريح القاضي وانحنى قليلاً قبل أن يغادر المجلس برفقة قائد الشرطة.

دخل شريح القاضي إلى هانئ، فوجده ممدداً على الأرض ولون لحيته أقرب للسواد بعد أن جفّت الدماء عليها، ومعالم وجهه غير واضحة، وهو يئن من الألم، اقترب وجلس القرفصاء بجانبه، فانتبه هانئ وقال بصوت خافت "إنّي أظن الأصوات خارج القصر أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين، يا شريح" رفع هانئ يده ووضعها على جذع شريح القاضي "إن دخل علي عشرة نفر من مذحج أنقذوني"

نهض شريح وخرج من الغرفة وتوجّه إلى شرفة القصر، وبمجرد أن وقعت عينيه على عدد الفرسان الهائل خارج القصر أدرك أنّهم يستطيعون أن يدكّوا القصر على من فيه لو علموا بما فعله عبيد الله بن زياد بهانئ بن عروة، ولكن هيهات فمكر عبيد الله بن زياد يغلب أشجع الفرسان.

بمجرد أن رآه الفرسان بدأ قائدهم وهو عمرو بن الحجاج بالكلام وكان صوته خشناً عالياً "أنا عمرو بن الحجاج وهذه فرسان مذحج ووجوهها، لم تخلع طاعة لأمير ولم تفارق جماعة، وقد بلغهم أن صاحبهم هانئ قد قتل فاعظموا ذلك."

رد شريح القاضي عليهم بصوته الحنون، وضع يديه حول فمه ليضخم صوته ليسمعه على الأقل قائد الفرسان "الآن كنت بصحبة هانئ وهو أمرني أن ألقاكم وأعرّفكم بأنّه حي، أيّها النّاس انصرفوا فما بلغكم من قتل صاحبكم باطل وهو حي وأنا أشهد أنّه مكرم عند الأمير لا يريد به سوءاً وسيلحق بكم في غاية العز والاحترام ومشمولاً بالإحسان والإكرام."

أجابه عمر بن الحجاج "يا شريح أنت قاضي عادل وشيخ حكيم ونحن نثق بك ونصدق كلامك وأما أن صاحبنا هانئ حي يرزق فالحمد لله وأوصل له سلامنا" وانصرفوا ودخل شريح القاضي إلى مجلس عبيد الله بن زياد يطمئنه بأن القوم قد غادروا.

خروج الحسين بن علي من مكة

8 ذي الحجة 60 هجري

9 أيلول 680 ميلادي

في صبيحة يوم الثلاثاء، قبل يوم واحد من وقوف الحجيج على جبل عرفات، تحركت قافلة الحسين بن علي من مكّة باتجاه الكوفة في العراق.

كان مع الحسين بن علي في القافلة من الرجال، أبناؤه الثلاثة علي الأكبر، وعلي زين العابدين والملقّب بالسجاد، وعبد الله والذي كان رضيعاً عمره ستة أشهر فقط.

وإخوته محمّد وعبد الله وجعفر وعثمان والعبّاس والملقّب بقمر بني هاشم.

ومعه من أبناء عمّه عقيل، عبد الله وعبد الرّحمن وجعفر.

ومن أبناء أبناء عمّه، عبد الله بن مسلم بن عقيل، ومحمّد بن أبي سعيد بن عقيل.

ومن أبناء أخيه الحسن، أبو بكر والقاسم وعبد الله.

وجمع من الأصحاب من الرجال، والذين مجموعهم مع أهل بيته لا يتجاوز المئة رجل.

وكان معه من النساء زوجته الرباب وأخته زينب ومن ألقابها الحوراء، وبناته.

بعد أن أدّى صلاة الفجر مع أهل بيته وأصحابه، وبمجرد أن تحركت القافلة، ظهر محمّد بن الحنفية يتكئ على عصاه ويساعده في المسير خادمه المخلص، اتجه الحسين بن علي إليه وترجل عن فرسه ثمّ بادره بالسلام فرد محمّد بن الحنفية السلام، وأمسك بلجام الفرس وكأنه يريد منع أخيه الحسين من السفر، وقال "يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟

"بلى" أجاب الحسين بن علي.

سأل محمّد بن الحنفية "فما حداك على الخروج عاجلاً؟"

أجاب الحسين بن علي "أتاني جدي رسول الله ليلاً وقال: يا حسين أخرج فإنّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً."

قال محمّد بن الحنفية "إنّا لله وإنّا إليه راجعون" ورفع يده مشيراً إلى محامل النساء وسأل "فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال.

قال الحسين بن علي "جدي رسول الله قال لي أن الله قد شاء أن يراهن سبايا."

لم يزد من الكلام وضم محمّد بن الحنفية وامتطى جواده وتحركت القافلة مبتعدة، ومحمّد بن الحنفية واقفاً وعيناه تذرفان دموعاً على فراق أخيه الحسين بن علي ولم يتحرك من مكانه إلى أن اختفى كل أثر للقافلة.

يحيى بن سعيد بن العاص يعترض قافلة الحسين بن علي

لم تكن حرارة الشمس بأشد من ضيائها في تلك الساعة المبكرة من الصباح، الجمال تسير في خط واحد، وكل رجل يمتطي فرسه ويسير بمحاذاة محمل عياله، ما إن اختفت الكعبة خلف هضاب مكّة بلونها الصدئ، وصارت الأرض مسطحة أمامهم، لاح سواد في الأفق لم يتبينوا ما هو إلّا بعد أن أصبحت المسافة قصيرة، عدد من الخيول يعتليها فرساناً يعتمرون خوذهم ويمسكون بمقابض سيوفهم وكأنهم متأهبون للحرب، افترشوا عرض الطريق مما أجبر القافلة على التمهل في المسير ولكنها لم تتوقف، اقترب الفرسان وضربوا بسياطهم على الأرض أمام الجمال مما أدى إلى ارتباكها واضطر الركب على التوقف لكي لا تهتاج الجمال وترمي من يجلس داخل محاملها من نساء وأطفال.

قال رجل من أصحاب الحسين بن علي "سيدي أبا عبد الله، إنّه يحيى بن سعيد بن العاص أخ عمرو بن سعيد بن العاص الذي أمّره يزيد على الحجاز."

طلب الحسين بن علي من الجميع عدم التعرض لأي من الفرسان وعدم رفع سيف أو سهم أو رمح في وجوههم وأخبرهم بأن يتحركوا، عندما تحرك الركب مرة أخرى، صرخ رجل من رجال يحيى بن سعيد بصوت عال "أين تذهب يا حسين، انصرف" وعندما لم يتوقف الركب عن التقدم ولم يتلق أي رد، اقترب عدة فرسان وبدؤوا بضرب السياط على قوائم الجمال والخيول ليخوّفوها ويمنعوها من التقدم ويستفزون رجال الحسين بن علي، بدأت الخيول بالاضطراب والجمال بالهيجان مما اضطر الرجال على الترجل من على خيولهم والإمساك بلجام الجمال لتهدئتها، وبعض الرجال جردوا سيوفهم لمبارزة المعترضين لهم، ولكن الحسين بن علي تقدم بفرسه إلى مقدمة القافلة وعلى يمينه العبّاس ورفع يده اليمنى مشيراً لمن معه بإغماد سيوفهم، توقف الفرسان الذين اعترضوا القافلة عن ضرب السياط عندما رأوا الحسين بن علي.

اقترب يحيى بن سعيد بن العاص على فرسه بني اللون الذي يتميز عن باقي الأفراس بالكساء الجلدي الأسود والذي يغطي كامل جسده إلى منتصف قوائمه، قال وهو يحاول تهدئة فرسه "يا حسين، ألا تتّقي الله؟ تخرج من الجماعة، وتفرّق بين هذه الأمة؟"

قال الحسين بن علي "لي عملي ولكم عملكم أنتم بريؤون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون" ورفع يده مشيراً لموكبه للمسير واقترب إخوته الخمسة وأيديهم على مقابض سيوفهم بمحاذاته مشكلين حاجزاً بين القافلة التي بدأت بالمسير مرة أخرى وبين يحيى بن سعيد بن العاص وفرسانه إلى أن مر كامل الموكب ليلحقه الحسين بن علي وإخوته ويعود يحيى ورجاله خائبين إلى مكّة ليخبر أخيه عمر بن سعيد بعدم قدرته على إجبار الحسين بن علي العودة معه إلى مكة.

رسالة عبد الله بن جعفر إلى الحسين بن علي

سار الركب عدة فراسخ حتّى ظهر في الأفق خيال جبلين، اليميني يدعى نعيم واليساري ناعم والوادي بينهما يدعى التنعيم، وفيها اجتمع ركب الحسين بن علي بقافلة بجير بن ريسان الحميري والي يزيد على اليمن، وفيها جمال كثيرة تحمل ورساً وحللاً، فأخبر الحسين بن علي أصحاب الجمال بوجهته للعراق، وعرض عليهم

مرافقته، مقابل أجر يتقاضونه يناسب المسافة التي يقطعونها مع ركبه، فمنهم من رافقه ومنهم من أدار ظهره وغادر.

سار الحسين بن علي بقافلته جاداً غير مبطئ أو متلكئاً، ووصل إلى الصفاح وظهر في الأفق فرسين يثيران سحابة من الغبار خلفهما، لسرعة عدوهما وهما يقتربان من ركب الحسين بن علي الذي لم يتوقف، وخفت سرعة عدو الفرسين بمسافة ليست بقريبة عن القافلة وأصبح العدو جرياً والجري سيراً كي لا يؤذوا الحسين بن علي ومن معه بالغبار، وصلا إلى محاذاة فرس الحسين بن علي وإلى يمينه ابنه علي الأكبر وإلى يساره ابنه علي السجاد.

"السلام عليك يا سيدي يا أبا عبد الله." قالها عون بن عبد الله بن جعفر، وأمّه السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب.

أجاب الحسين بن علي وولديه "وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته."

"السلام عليك يا سيدي يا أبا عبد الله." قال محمّد بن عبد الله بن جعفر أخو عون من أم أخرى.

"وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته." أجاب الحسين مبتسماً وكذلك ولديه.

كان الفرسان مبتلين من العرق ولا يزالان يلهثان، أخرج عون رقعة ملفوفة وسلّمها للحسين بن علي وقال "سيدي هذا كتاب من أبي"

قرأ الحسين بن علي الخطاب بصوت مسموع "بسم الله الرّحمن الرّحيم، للحسين بن علي من عبد الله بن جعفر، أمّا بعد، فإنّي أنشدك الله ألا تخرج من مكة، وأسألك الله لما انصرفت عن هذا الوجه حين تنظر كتابي هذا، فإنّي خائف عليك من هذا الأمر الذي أزمعت عليه، أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك، فإنّك إن هلكت خفت أن يطفأ نور الله، فأنت علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالمسير إلى العراق، فإنّي آخذ لك الأمان من يزيد ومن جميع بني أمية لنفسك ولمالك ولأولادك وأهلك، وإني على أثر الكتاب والسلام."

توقف الحسين بن علي عن المسير وكتب الجواب لعبد الله ابن جعفر وجاء فيه "بسم الله الرّحمن الرّحيم، أمّا بعد، فإنّ كتابك ورد علي فقرأته وفهمت ما فيه، اعلم إني رأيت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله في منامي، فأخبرني بأمر أنا ماض له، كان لي الأمر أو علي، فوالله يا بن عم لو كنت في ثقب هامة من هوام الأرض لاستخرجني بنو أمية منها حتّى يقتلوني، والله ليعتدون علي كما اعتدت اليهود في يوم السبت والسلام."

أخذ عون بن عبد الله بن جعفر الكتاب وقبّله ووضعه على جبينه وانحنى انحناءة خفيفة، واستأذن من خاله الحسين بن علي ليسلم على أمه. اتجه إلى محمل أمه السيدة زينب، يحاذيه خاله العبّاس بن علي بن أبي طالب على فرسه ولا يفارقه لحظة، سلم على خاله ثمّ رمى السّلام من الخارج "السلام عليك يا أمّاه" عندما سمع رد سلامها أشرق وجهه مبتسماً وأدخل رأسه إلى المحمل وقبل يديها الاثنتين ثمّ استأذنها واصطحب أخاه محمّد عائدين يوصلان رسالة خاله الحسين بن علي لأبيهما.

الفرزدق

بعد انتهاء صلاة الظهر وبينما الحسين بن علي جالسٌ في مكان صلاته، اقترب رجل ممن كان خلفه يصلون، وهو همام بن غالب الأسدي التميمي الشهير بالفرزدق من نبلاء أهالي البصرة وكان عظيم الأثر في اللغة العربية والتاريخ والأدب وكان في طريقه إلى مكة ليحج ومعه أمّه فرأى قافلة الحسين بن علي دون أن يعلم بذلك وبعد أن سأل وأخبروه بأنها للحسين بن علي متوجهاً إلى العراق اقترب بهدف السّلام على ابن بنت نبي الإسلام محمّد بن عبد الله وكان وقت صلاة والحسين بن علي يتجهز للصلاة فانضم الفرزدق ووالدته للمصلين، فالصلاة خلف حفيد رسول الله فرصة لا تتوفر كل يوم، سلم الفرزدق على الحسين بن علي وقال "أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب، بأبي أنت وأمي يا بن رسول الله ما أعجلك عن الحج؟"

أجاب الحسين بن علي "لو لم أعجل لأُخذت" وصمت برهة ثمّ سأل "من أنت ومن أين أقبلت؟"

أجاب الفرزدق "امرؤ من العرب أقبلت من الكوفة" لم يفاتشه الحسين بن علي عن أكثر من ذلك وقال له "أخبرني عن النّاس خلفك؟"

أجاب الفرزدق بعد أن أخرج زفيراً من صدره "الخبير سألت: قلوب النّاس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء."

قال الحسين بن علي "صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيّته، والتقوى سريرته."

قال الفرزدق "أجل، بلّغك الله ما تحب، وكفاك ما تحذر."

ظل الفرزدق جالساً مع الحسين بن علي ساعة يسأله عن نذور ومناسك ومسائل فقهية، وما إن انتهى كانت القافلة جاهزة للمسير، فالنساء محفوظات بخدورهن ومحميات بكفلائهن من الرجال فلا يجرؤ أحد على التكلم معهن أو حتّى النظر إليهن.

ركب الحسين بن علي فرسه وقلّده كل من يرافقه وتحرك الموكب سائراً بلا ملل أو تعب.

رسالة عمرو بن سعيد والي يزيد على مكة الى الحسين بن علي

عون ومحمد دخلا إلى المنزل وأوصلا رد الحسين بن علي على رسالته إلى أبيهما. والذي بدوره فتح الرسالة بسرعه وقرأ الرد بلهفة، زحف القلق على وجهه بعد أن أنهى القراءة، لف الرد وخرج مسرعا كما لو أن نحلة قرصته، خرجا في أثره.

توجه عبد الله بن جعفر الى قصر الإمارة لمقابلة عمرو بن سعيد والي يزيد بن معاوية على مكة وأخبره بخروج الحسين بن علي من مكة متجها الى الكوفة.

عمرو بن سعيد تلقى الخبر بهدوء وأخبر عبد الله بن جعفر بما حصل مع أخيه يحيى صباحا عندما عاد خائبا من محاولته ردع الحسين بن علي عن نيته التوجه للكوفة.

قال عبد الله بن جعفر "اكتب الى الإمام الحسين بن علي كتابا تجعل له فيه الأمان وتمنيه فيه البر والصلة وتوثق له في كتابك وتسأله الرجوع، لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع."

عمرو بن سعيد بن العاص وافق ممتنعا وكتب خطابا وأعطاه لعبد الله بن جعفر وقال له "احمله للحسين بن علي مع أخي يحيى."

انطلق كل من يحيى بن سعيد وعبد الله بن جعفر وولديه عون ومحمد في طريق السفر التي سبقهم عليها الحسين بن علي.

توقع يحيى بن سعيد أن يستقبله الحسين بن علي استقبالا جافا أو حتى أن يرفض استقباله بسبب اعتراضه قافلته في الصباح، ولكن الحسين بن علي استقبله استقبال لطيفا كما استقبل عبد الله بن جعفر وولديه، وكانت كلماته مغموسة باللطف والتهذيب، أخذ الرسالة منهما وقرأ ما فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد فإني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك وأن يهديك لما يرشدك، بلغني أنك قد توجهت إلى العراق وأني أعيذك بالله من الشقاق فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد فأقبل إلي معهما، فإن لك عندي الأمان والصلة والبر وحسن الجوار، لك الله علي بذلك شهيد وكفيل ومراع ووكيل. والسلام عليك."

أعاد الحسين بن علي الرسالة الى يحيى بن سعيد والذي كان يجلس بجانب عبد الله بن جعفر وأنصت لهما يحاولان إقناعه بالرجوع الى مكة والعدول عن نيته الذهاب الى الكوفة.

توقفا عن الكلام وانتظرا جوابه والذي كان:

"إني رأيت رؤيا فيها جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمرت فيها بأمر أنا ماض له على ما كان أولى."

كلاهما سأل "وما تلك الرؤيا؟"

أجاب الحسين بن علي "ما حدثت أحدا بها وما أنا محدث بها حتى ألقى ربي."

وكتب الحسين بن علي ردا على رسالة عمرو بن سعيد وجاء فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإنه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عز وجل وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين، وقد دعوت إلى الأمان والبر والصلة، فخير الأمان أمان الله ولن يؤمن الله في الآخرة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة، فإن كنت نويت بالكتاب صلتي وبري فجزيت خيرا في الدنيا والآخرة."

اخذ عبد الله بن جعفر الرد وقبل ان يغادر أخبر الحسين بن علي بانه سيترك معه ابنيه عون ومحمد ليرافقاه و يستقبلان نفس مصيره.

خروج مسلم بن عقيل لينصر هانئ بن عروة في الكوفة

8 ذي الحجة 60 هجري

9 أيلول 680 ميلادي

عاد عبد الله بن حازم من قصر عبيد الله بن زياد، وأخبر مسلم بن عقيل بالتفاصيل، وأن هانئ لا يزال داخل القصر، وإن فرسان قبيلة مذحج اجتمعوا ولكن شريح القاضي استطاع إقناعهم بالرجوع، استمع مسلم بن عقيل لعبد الله بن حازم بإنصات، وظل صامتاً لا يتكلم يفكّر بالخطوة الصحيحة ليتخذها، هانئ بن عروة شيخ كبير مؤمن أنزله في داره وتكبد المتاعب والمخاطر حباً بالإمام الحسين بن علي، إغاثته في هكذا ظروف من أيدي الطاغية عبيد الله بن زياد هو القرار الصائب. أمر عبد الله بن حازم بالخروج واستدعاء الرجال وتجميعهم في البيوت المحيطة ببيت هانئ والطلب منهم المناداة بعبارة (يا منصور أمت) وهو نداء المسلمين في معركة بدر أوّل معركة في الإسلام.

كان من المتفق عليه بين مسلم بن عقيل وكل من بايعه من الرجال في الكوفة بأن تردد هذه العبارة للخروج للحرب عند وصول الحسين بن علي بن أبي طالب، ولكن الخطر المحدق بحياة هانئ بن عروة في

قصر عبيد الله بن زياد أجبره لاتخاذ القرار بالقيام في وجه الطاغي عبيد الله بن زياد حتّى لو لم يصل الحسين بن علي للكوفة بعد.

اجتمع في الدور المحيطة أربعة آلاف من الرجال، يرددون يا منصور أمت بصوت ملؤه الحماس، حتّى وكأن الجدران والأشجار من حولهم تحركت من الحماس. بدؤوا السير في سكك الكوفة، مارّين بكل الأحياء، والمسماة بأسماء القبائل التي يسكن أهلها فيها، وهي كنده ومذحج وتميم وأسد ومضر وهمدان، ثمّ أمرهم مسلم بن عقيل بالتوجّه إلى المسجد المعظم وبجانبه السوق فتنادى أهل الكوفة واجتمعوا من عموم أطراف الكوفة حتّى امتلأ المسجد والسوق وهم يرددون نفس الشعار.

كان هدير صوت الرجال وهم يصرخون (يا منصور أمت) مرعباً وقد ملأ أركان وجنبات القصر، ومازال النّاس يتواثبون، وأقبلوا نحو باب القصر، فضاق بعبيد الله بن زياد الأمر، وتحصّن بالقصر، وغلّق الأبواب، وكان أكثر عمله أن يمسك باب القصر ومعه ثلاثون رجلا من الشرطة وعشرون من أشراف المدينة وأهل بيته ومواليه.

أخذ جيش مسلم بن عقيل بالتزايد وأحاطوا بالقصر من كل الجوانب وصاروا يقذفونه بالحجارة، صار من في القصر ينظر من الشرفات على حشود النّاس فتهولهم كثرتهم. اجتمع عبيد الله بن زياد بحاشيته من المستشارين والشرطة، ليحيك خيوط المكيدة التي ستتغلب على هؤلاء الغاضبين والمحيطين بالقصر، دعا كثير بن شهاب الحارثي، وأمره أن يخرج في من أطاعه من مذحج، فيسير بالكوفة ويخذّل النّاس عن مسلم بن عقيل، ويخوّفهم بالحرب، ويحذرهم عقوبة السلطان، وأمر محمّد بن الأشعث أن يخرج في من أطاعه من كنده وحضرموت، فيرفع راية أمان لمن جاءه من النّاس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهلي، وشبث بن ربعي التميمي، وحجار بن أبجر البجلي، وشمر بن ذي الجوشن، وخرجوا من باب القصر الذي يلي دار الروميين وهو غير الباب الرئيسي، وحبس باقي النّاس عنده في القصر استئناساً إليهم لقلة عدد من بقي معه.

خرج كثير بن شهاب يخذل النّاس عن مسلم بن عقيل، وجعل محمّد بن الأشعث، وشبث ابن ربعي، والقعقاع، يردون النّاس عن اللحوق بمسلم بن عقيل، ويخوفونهم السلطان، حتّى اجتمع إليهم عدد لا بأس به من قومهم وغيرهم وصار العدد يتزايد.

طلب عبيد الله بن زياد من المآكثين معه من الأشراف والموالين له بأن يشرفوا على النّاس من شرفات القصر، ويمنّوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، ويخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، ويخبروهم بتمركز جيش الشام على أطراف المدينة.

كان كثير بن شهاب يسير بالسكك ويصرخ "أيّها الناس، الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشر ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإنّ جيوش أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد أقبلت وهي على مشارف أبواب الكوفة، وقد أعطى الأميرُ اللهَ عهداً، لأن هممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم ليحرمن ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتليكم في مغازي الشام، ويأخذ البريء منكم بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتّى لا يبقى له بقية من أهل المعصية إلّا أذاقها وبال ما جنت أيديها، وقد أعذر من أنذر.

صار الأشراف يتكلمون بنحو هذا الكلام، وانتشر خبر جيش الشام في الكوفة كالنار في الهشيم، وصار النّاس يتفرقون ويتخاذلون عن مسلم بن عقيل ويقول بعضهم لبعض "ما نصنع بتعجيل الفتنة، وغدا تأتينا جموع أهل الشام، فينبغي أن نقعد في منازلنا وندع هؤلاء القوم حتّى يصلح الله ذات بينهم" وانتشرت النسوة بين المقاتلين كالطاعون، كل واحدة تسحب إما زوجها أو ابنها لتمنعه من القتال، إما تخوفه من جيش الشام، أو تمنيه بالذهب الذي سيحصل عليه إن سلم سيفه في الحال إلى قصر الإمارة، قائلات "انصرف، النّاس يكفونك القتال" و لا تترك كل منهن الرجل إلى أن تعيده إلى المنزل ويجيء الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول له غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر، انصرف" فلا يتركه حتّى يعود به إلى المنزل.

بعد أن اجتمع آلاف المقاتلين وجعلوا الأرض ترجف من قوّة صوتهم وهم يرددون يا منصور أمت ولا يشك الناظر إلى حماسهم لحظة واحدة بشجاعتهم أو صدق نواياهم أو إقبالهم على الموت في سبيل نصرة

مسلم بن عقيل، تفرقوا وتصدعوا لا أحد يستطيع الجزم هل كان سبب تفرقهم هو الخوف من جيش الشام المزعوم أم هو لمعان الذهب المكدّس في قصر الإمارة، حتّى أمسى مسلم بن عقيل وصلّى المغرب وما معه إلّا ثلاثون نفسا في المسجد.

ضيف في منزل طوعة

كانت خيبة أمل مسلم بن عقيل لا تقاس، عندما رأى ما حصل حوله. أخذ القلق منه كل مأخذ، فهو قد أرسل رسالة إلى الإمام الحسين يدعوه بها إلى القدوم للكوفة، ويؤكد له صحة نوايا أهلها وصدق كتبهم وبأنهم بايعوه ولكنهم الآن تفرقوا من حوله وخذلوه وباعوه إما خوفاً من عبيد الله بن زياد أو طمعاً بالذهب.

يجب عليه الكتابة مرة أخرى للإمام الحسين، وتنبيهه وتحذيره من القدوم، أو حتّى من الاقتراب من الكوفة أو العراق، فهؤلاء ليسوا رجالاً يعتمد عليهم، هؤلاء أشباه رجال تغرّهم الدنيا ولمعان الذهب، ويخافون السلطان أكثر مما يخافون الله، ولا يأبهون لوعودهم أو عهودهم التي قطعوها كانت هذه الأمور تشغل تفكيره.

بعد أن أنهى صلاة المغرب ومعه أقلّ من ثلاثون رجلاً، خرج متوجهاً نحو أبواب كنده، فلما بلغ الأبواب لم يبق معه منهم إلّا عشرة، وبعد مسافة قليلة تفرقوا عنه ولم يبقَ معه أحد يدلّه على الطريق أو يدعوه إلى منزله أو يواسيه بنفسه إن عرض له مكروه، فمضى على وجهه يسير في أزقّة الكوفة لا يدري أين يذهب حتّى خرج إلى دور بني جبلة من كنده.

كان يجول بخاطره ويشغل تفكيره كيف سيوصل خبر للإمام الحسين بن علي بخذلان أهل الكوفة له، وتحذيره بعدم المجيء، ولم ينتبه أنّه تاه في السكك المظلمة اشتد عطشه وشعر بالتعب فقرر أن يستريح قليلاً، ولمح على باب أحد البيوت امرأة محتشمة تغطي كامل جسدها برداء أسود، ولا يظهر إلّا النصف الأعلى من وجهها، وهي تنظر إلى الأفق وكأنها تبحث عن شيء ما أو تنتظر أحد أفراد عائلتها، فتنظر بقلق على كل من يمر دون أن تثير الريبة أو الشك بهم.

دون أن يحدق النظر إليها قال مسلم بن عقيل "السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته." دون أن يتوقف عن السير.

ردّت بصوت حنون صادر من فم امرأة تجاوزت الستين من عمرها.

بعد خطوتين أحس بالعطش يحرق جوفه فأدار رأسه وقال لها "أمة الله ألك أن تسقيني شربة من الماء أتّقي بها عطشي، وتكسبين بها الثواب الجزيل من الله تعالى."

أحضرت له الماء في وعاء نحاسي، وأعاده مسلم بن عقيل بعد أن شرب وارتوى، وغابت هي داخل المنزل لتعيد الإناء، وظل واقفاً في مكانه مقابل الباب الخشبي الهرم عليه آثار صبغ أسود جفّ وتساقط من قسوة الجو وجفافه. كان الشارع حالك الظلام، غارقاً بالسكون، لا يجرؤ أحد على البقاء فيه أو حتّى المرور منه، ولكن مسلماً لم يشعر لحظة بالخوف أو الرهبة، بل كان يشعر بالغربة والوحشة في سكك الكوفة بعد أن خذله أهلها.

قالت المرأة عندما خرجت ولاحظت بقائه "يا عبد الله، ألم تشرب؟"

أجاب مسلم بن عقيل دون أن ينظر إليها مباشرة حياء وحشمة "نعم والحمد لله."

"إذن ارحل إلى أهلك" قالت السيدة متوقعة منه أن يتحرك على الفور مغادراً، ولكنّه لم يتحرك بل بقي ساكناً ينظر إلى الأرض وقالت المرأة بحزم "سبحان الله، يا عبد الله لا يحق لك الجلوس على باب داري، قم عافاك الله، وارحل إلى أهلك، وأنا لا أحل لك البقاء هنا."

قال مسلم بن عقيل "أمة الله، مالي في هذا المصر منزل ولا عشيرة."

"ما الذي أوصلك إلى الكوفة في هذه الأيام؟ فالكوفة الآن كالمرأة الحامل المتغيرة المزاج كل ساعة" قالت السيدة وهي لا تزال تنظر واضعة كفّها فوق عينيها وكأنها على سفينة تستطلع الأفق وتمسك بيدها الأخرى طرف الباب الخشبي لكيلا تفقد توازنها وهي تقف على رؤوس أصابع أقدامها.

قال مسلم بن عقيل "أمة الله هل لك في أجر ومعروف ولعلّي مكافئك بعد اليوم؟"

"وما ذاك" أدارت السيدة رأسها ونظرت إليه منتظرة منه أن يسأل ما يريد.

"أنا مسلم بن عقيل."

شهقت ووضعت يدها اليسرى على صدرها ويدها اليمنى على فمها وطافت الدموع من عينيها لتسيل على خديها "سيدي مسلم بن عقيل، أنا خادمتك اسمي طوعة، كنت لدى الأشعث بن قيس وبفضل الله تعالى أعتقني فتزوجت أسيد الحضرمي وولدت له بلالاً. كنت أتمنى أن أُكحل عيني برؤيتك سيدي، فكلّما مررت بالسوق من جانب المسجد المعظم، نظرت إلى أبواب المسجد علّك تخرج منه فأرى طلعتك البهية، والآن الله استجاب دعائي ورزقني فرصة رؤيتك، بل شرفني بخدمتك وسقيك الماء."

طلبت طوعة من مسلم بن عقيل الدخول إلى المنزل فهي تعلم أن القوم كذّبوه وغرّوه وأخرجوه وهو غريب في هذه المدينة.

منزل طوعة كأي بيت من بيوت الكوفيين، فسحة سماوية بعد الباب، في الزاوية اليمنى التنور التي تستخدمه بشكل يومي للخبز، على يمين التنور باب صغير لغرفة منعزلة عن باقي الغرف، تستخدم عادة كمجلس للضيوف، نادراً ما يدخلها قاطنين المنزل. في منتصف الفسحة بركة ماء، على أطرافها الجرار المغطاة والمليئة بالمياه، جهة اليسار مدخل الحظيرة المنخفضة المستوى بدرجات عدة، وفيها الدجاج والبط والماعز. في صدر الفسحة غرف المنزل مفروشة فرشاً متواضعاً تدل على حالة صاحب البيت محدود الدخل.

أدخلته طوعة إلى غرفة الضيوف، وهيأت له فرشاً لينام وبساطاً ليصلي عليه فهي على يقين بأنه من أهل بيت لا ينامون إلّا أن تكون عيونهم احمّرت من البكاء خشية من الله وتضرعاً له وأرجلهم تعبت من الصّلاة وألسنتهم جفّت من كثرة قراءة القرآن. أحضرت له عشاء قبل أن تذهب لتنام فأبى أن يتعشى واكتفى بشرب الماء. خرجت من غرفته وأغلقت الباب خلفها وقلبها لم يهدأ من شدّة الإثارة، ففي بيتها مسلم بن عقيل بن أبي طالب، عمّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

عبيد الله بن زياد في المسجد

عندما لم يسمع عبيد الله بن زياد أي ضجيج من خارج القصر، أرسل الحصين بن نمير قائد الشرطة ليتحقق ما إن كان النّاس قد تفرقوا أم أنّهم لا يزالون يتخذون ظلام الليل رداء ساتراً ليهجموا على القصر.

أطلّ الحصين بن نمير من شرفة القصر فلم يجد أحداً في الساحة أمام أبواب القصر، ولم يستطع أن يتبين إن كانوا كامنين داخل المسجد الملاصق للقصر فأرسل حارسين ليحطا على سطح المسجد، ويحدثان فجوة في سقف المسجد الخشبي، وينظران إن كان أحد من المقاتلين يكمن داخل المسجد.

لم يستطع الحارسين أن يريا ما داخل المسجد لشدة الظلام، فأشعلا شعلة من النار ورماها داخل المسجد من الفوهة التي أحدثوها في السقف الخشبي، وأضاءت ما حولها فتبين بأنّه خالٍ لا أثر لإنسان فيه.

أخبروا عبيد الله بن زياد بتفرق الجموع، فأمر رجال الشرطة بمرافقة الطبالين والتجوّل في سكك الكوفة، معلنين براءة الذمة ممن صلّى صلاة العتمة إلّا في المسجد، وما هي إلّا ساعة اكتظّ المسجد بجموع المصلين لأداء صلاة العشاء خلف عبيد الله بن زياد، وقد كانوا خرجوا في النهار مع مسلم بن عقيل لمحاربته.

أدّى عبيد الله بن زياد الصّلاة جماعة بالناس، والحراس متكاتفين يحيطون به على شكل حلقة، لا يسمحون حتّى للذبابة بالوصول إليه وعندما انتهى من الصّلاة صعد المنبر وقال غاضباً "أمّا بعد فإنّ مسلم بن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق، فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره، ومن جاء به فله ديّته، اتقوا الله عباد الله والزموا طاعتكم وبيعتكم ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً"

ثم ضرب بقبضته على مسند المنبر ونظر إلى قائد الشرطة الحصين بن نمير ثمّ رفع سبابته وعينيه تشعّان غضباً وقال "حصين بن نمير، ثكلتك أمّك إن ضاع باب سكّة من سكك الكوفة أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به" وأكمل حديثه وهو يشير بكفّه إلى كل من يجلس في المسجد "وقد سلّطتك على دور أهل

الكوفة، فأصبح غداً واستبرئ دورها وفتّشها حتّى تأتين بهذا الرجل، واقتل كل من يمنعك من دخول داره."

"أمرك مولاي" قالها الحصين بن نمير وأشار إلى الحراس لتحيط بعبيد الله بن زياد الذي نزل من على المنبر وتوجّه بسرعة خارجا من المسجد إلى القصر.

بلال ولد طوعة

سمع مسلم بن عقيل ضجيج قرع طبول رجال قصر عبيد الله بن زياد في سكك الكوفة وهو جالسٌ يقرأ القرآن في بيت طوعة.

بلال ولد طوعة في العشرين من عمره رجع إلى المنزل بمجرد أن انتهى عبيد الله بن زياد من خطبته في المسجد، وضعت له أمّه طعام العشاء، وصار يأكل وهو ينظر إليها وهي لم تأكل شيئا، لاحظ بأنّها مرتبكة لا تستطيع الجلوس بثبات، فاحتار في أمرها وقال "ما بك يا أماه؟" ولكنها لم تجبه وقامت وخرجت من الغرفة، وعندما عادت كان بلال مضجعاً على فراشه وأمامه أواني الطعام فارغة، انحنت وصارت تلتقط الأواني، وحملتها وخرجت مرة أخرى تأخّرت في الرجوع، قام بلال وفتح الباب قليلاً وصار ينظر إلى الخارج، لا شيء سوى الظلام ولم يجد أثراً لأمّه، وعندما همّ بإغلاق الباب رآها تخرج من الغرفة المخصصة للضيوف وتغلق بابها بهدوء عاد واضجع على فراشه، وعندما دخلت سألها "أعندنا ضيوف في المنزل؟" رأى الارتباك على وجه أمّه وهي تقول "لا، نم الآن" تظاهر بلال بالنوم وظلّ يراقب أمّه وهي ساهرة تخشى أن يحتاج مسلم بن عقيل لأي شيء فصارت تدخل وتخرج إليه كل ساعة وتجده إما قائماً يصلي أو جالساً يقرأ القرآن.

عندما عادت بعد آخر مرة سألت بها مسلم عقيل إن كان يحتاج لأي شيء، فتح بلال عينيه ونظر إليها وهو لا يزال مستلقياً وقال "والله إنه لتريبني كثرة حركتك الليلة، تخرجين وتدخلين ليس على عادتك."

قالت طوعة دون أن تنظر إليه "يا بني إلهُ عن ذلك."

جلس بلال من نومته وقال "والله أن لك لشأناً."

قالت طوعة وهمّت بالخروج من الغرفة "إلهُ بشؤونك ولا تسألني عن شيء."

"والله لتخبريني" قال بلال ونهض واقفاً ساداً عليها الطريق فكيفما تحركت مد ذراعه مانعها من الحركة.

"منذ متى تتدخل بشؤون والديك يا عديم التربية" أجابت طوعة ولكمته في ذراعه ليبتعد، إلّا أنّها لم تؤلمه لضعفها ولثخانة ذراعه.

قال بلال "والله لتخبريني وإلّا خرجت الآن من المنزل ولم أعد."

قالت مرعوبة "في هذا الليل وأنت قد أخبرتني أن عبيد الله بن زياد أصدر أمراً بحظر التجول الليلة" تسارعت دقات قلبها خوفا وجزعا عندما تحرك بلال ليخرج، فأمسكت رداءه وقالت بصوت يرتجف "أتقسم بالله بأن لا تخبر أحداً بما أخبرك؟"

قال بلال "أقسم برأسك يا أمي بأنّي لن أخبر أحد."

قالت طوعة "مسلم بن عقيل يبيت عندنا الليلة" كانت تبتسم منتظرة من بلال أن يبتسم لخبر نزول شاب من آل بيت رسول الله ضيفاً في بيتهم، ولكن ردة فعل بلال كانت باردة فالدهشة أجمدته لحظات، ثمّ علت ابتسامة خبيثة على شفتيه عندما تذكر قيمة الهدية التي وعد بها عبيد الله بن زياد من يخبر عن مكان تواجد مسلم بن عقيل "أحقاً يا أماه؟" قالها مبتهجاً ووضع يديه على ذراعي أمّه وأجلسها، وهي تظن أنّه مبتهجٌ وفرحٌ للشرف العظيم الذي ناله منزلها بمبيت شاب من أقارب محمّد وعلي في بيتها.

جنود عبيد الله بن زياد حول منزل طوعة

9 ذي الحجة 60 هجري

10 أيلول 680 ميلادي

استيقظت طوعة قبل الفجر وملأت وعاء ماء ليتوضأ به مسلم بن عقيل ويتجهز لصلاة الفجر، فتحت الباب بهدوء ظانة أنّه نائماً محاولة عدم إزعاجه، ولكنّها وجدته ساجدا، سلّمت بصوت مسموع "السّلام عليك سيدي ورحمة الله وبركاته." ثمّ اقتربت ووضعت إناء الماء بجانبه.

رفع رأسه وردّ السّلام "وعليك السّلام يا أمّاه."

قالت طوعة "ما رأيتك رقدت طوال الليل سيدي."

"لقد رقدت في الثلث الثاني من الليل ورأيت عمّي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في منامي وهو يقول لي عجّل إلينا يا مسلم."

عندما سمعت طوعة كلامه وضعت يدها على فمها وصارت تبكي مديرة وجهها.

سألها مندهشاً "ما سبب البكاء يا أماه؟"

قالت طوعة "أظنّه بلال، فأمس استحلفني لأخبره بأمرك، والآن لم أجده في فراشه عند استيقاظي، وهو الذي ينام إلى موعد أذان صلاة الظهر كل يوم، ما أظنه إلّا أخبر عبيد الله بن زياد بوجودك في منزلي" وصار صوتها غير واضح مختلطاً مع البكاء "بماذا سأجيب سيدتي فاطمة الزهراء يوم القيامة إذا سألتني عما حدث؟"

"أمّاه، جزاك الله كلّ الخير، لقد قمت بواجبك والله يقول في كتابه الكريم ولاتزرُ وازرة وزر أخرى فلا إثم عليك بما فعله بلال."

أجابت طوعة وعيناها حمراوان من البكاء "لكنّني أخبرته بوجودك، ولو لم أخبره، لم يكن ليذهب ويخبر عبيد الله بن زياد."

"أرجو ألا نستبق الأمور أماه، وأشكر الله على ضيافتك وأسأله بأن يجازيك بالجنة يوم القيامة، استأذنك أماه للصلاة إن شاء الله."

أجابت طوعة وخرجت وهي تكفكف دموعها "تقبل الله منك يا ولدي."

بعد صلاة الفجر أحسّت طوعة وكأنها سمعت صوت صهيل جواد، أنصتت وانتظرت قليلاً وأحسّت بأن هناك صوت حوافر خيول خارج البيت. لتقطع الشك باليقين قامت وتوجّهت إلى باب الدار حافية لكيلا تصدر أي ضجة، ونظرت من ثقب باب الدار، أحسّت برخاوة في ركبتيها فكادت تنهار على الأرض مما رأت، الفرسان مكتظون خارج المنزل، لم تستطع تبيان عددهم ولكنهم كثر يمتطون أحصنة ومدججين بالسلاح من سيوف ورماح ويعتمرون الخوذ المعدنية ويرتدون المتاريس المعدنية وكأنهم قادمون لحرب جيش كامل. توجّهت مسرعة إلى الغرفة المقابلة للفسحة السماوية، وفيها نافذة على شارع آخر فوجدت جنودا وفرسان، ثمّ توجهت إلى الحظيرة ونظرت إلى الخارج ووجدت فرسانا وجنودا. أسرعت إلى غرفة مسلم بن عقيل، فتحت الباب وقالت وهي تلهث "سيدي مسلم عسكر عبيد الله بن زياد محيط بالمنزل، ما أنت فاعل؟"

قال مسلم بن عقيل "أماه علي بدرعي ولامة حربي."

سلمته طوعة الدرع ولامة الحرب، بدأ بشد أربطة لامة الحرب، ووضع الخوذة، وأصبح جاهزاً للقتال، تحرك فهرعت طوعة ووقفت في وجهه وقالت "إلى أين يا قرة العين؟ أراك تأهبت للموت وتمشي إليه بقدميك."

"أمّاه لا أريد أن أظل داخل المنزل فلا مجال لي لمحاربتهم لضيق المكان، سأخرج إليهم بنفسي" بمجرد أن أنهى مسلم بن عقيل كلامه سمع رجل من العسكر يصرخ.

"أُخرج يا مسلم وإلّا هدمنا الدار فوق رؤوس أهله."

لم ينتظر مسلم بن عقيل أكثر وتوجّه إلى باب الدار ليخرج، ولم يكد يفتحه حتّى تدفق المحاربون إلى ساحة الدار، فسحب سيفه وجعل الحائط خلف ظهره ولم يحرك ساكنا فهو يكره أن يبدأهم بقتال، لم يبدأ المقاتلون القتال إلى أن ملؤوا محيط ساحة الدار متكاتفين.

هجم الجنود عليه وصار يقاتلهم، وهو من أهل بيت لا يؤخرهم عن النصر كثرة عدد المقاتلين، فإن وصل سيفه إلى خصمه، تتطاير أشلاء من جسده إما يد أو رجل أو حتّى رأس، ومن تصل إليه قبضته، يرمى به من فوق الحائط فيسقط صريعاً.

أشرقت الشمس وكست أشعّتها أجساد القتلى الملطخين بدمائهم ممددين في أرجاء الباحة، عندما وصل عدد القتلى إلى واحد وأربعين صرخ محمّد بن الأشعث قائدهم ليتراجعوا، انسحب الجنود وبقي في أرض الباحة أجساد القتلى.

انتظر مسلم بن عقيل قليلا فلم يدخل إلى المنزل أحدٌ، فظن بأنّهم استسلموا وتحرّك أراد أن يقترب من البركة ويغسل دماء القتلى التي تغطي درعه وسيفه، وقع حجر ثقيل على ظهره فالتفت فوجد محارباً من على السطح هو الذي رمى الحجر، ثمّ أتى حجر من الطرف المقابل فأصاب كتفه فتأوه متألّماً، وكثرت الأحجار المقذوفة من المحاربين المنتشرين على السطح من الجهات الأربعة، فاسرع مسلم بن عقيل ليجعل الحائط خلفه من اليمين ولكن حجراً أصاب رأسه فتراجع واتجه إلى جهة اليسار واستطاع أن يصل إلى الحائط وحاول صد الأحجار بدرعه المعدني، ولكن ألماً حاداً أصابه في خاصرته فنظر ليجد سهم دخل بها فصرخ مسلم "مالكم ترمونني بالحجارة كما تُرمى الكفار وأنا من أهل بيت الأنبياء الأبرار، ألا ترعون حق رسول الله في عترته؟ قاتلوا قتال الرجال وواجهوني ولا ترموني بالحجارة كالجبناء."

ظهر محمد بن الأشعث من الحظيرة ووقف عند الباب وقال "لك الأمان من الأمير يا مسلم فلا تقتل نفسك وأنت في ذمتي."

أجابه مسلم بن عقيل "لا أمان لكم يا أعداء الله وأعداء رسوله" وحمل على بن الأشعث فهرب إلى الحظيرة، فانكشف ظهره فأصاب كتفه من الخلف سهم آخر وأصاب فخذه من الخلف سهم، رفع يده اليمنى يتقي حجرا كاد يصيب رأسه فكشف إبطه وخاصرته فدخل سهم بخاصرته اليمنى.

على الرغم من الألم والدماء التي تسيل من جروحه العديدة لم يعبئ مسلم بن عقيل بل كان يحاول أن يجد أحداً ليبارزه، فالجميع فوق السطح يرميه بالحجارة، ولم يبقى قريب منه سوى جثث القتلى سمع صراخ طوعه قادم من الحظيرة، أسرع إلى باب الحظيرة ليجد طوعة مرمية على التراب في الأسفل مضرجة بدمائها، أراد التقدم ولكن سهماً أصاب ساقه اليمنى، فوقع من أعلى الدرجات إلى اسفل الحظيرة فانغرس سهم كتفه في اللحم أعمق وتأوه، وأراد أن ينهض ولكن محمّد بن الأشعث كان مختبئاً، وضربه بالسيف على وجهه، فشقّ شفته العليا وكسر أنفه وبعض أسنانه، وامتلأ فمه دماً فبصقه لكي لا يدخل إلى حلقه فخرج مع البصاق أسنانه المكسورة، وكان الجنود قد نزلوا وتكاثروا عليه وقيّدوه ووضعوه على ظهر بغلة وعادوا به إلى قصر الإمارة بقيادة محمّد بن الأشعث.

مسلم بن عقيل خارج قصر الإمارة

خارج باب قصر الإمارة جمع من النّاس منتظرين الإذن بالدخول، ازداد عددهم بشكل ملحوظ عندما وصل مسلم بن عقيل مقيداً ومضرجاً بدمائه إلى القصر تركه محمّد بن الأشعث خارجا مع عدد من الجنود ودخل.

نظر مسلم بن عقيل إلى كل من حوله، وهم ينظرون إليه لا حول له ولا قوة، كلّما نظر إلى عيني رجل أرخى الرجل عينيه خجلاً لعلمه بخذلانه له ونقده عهده، فكل من كان واقفاً كان قد بايعه عند قدومه وعاهده بنصرته ونصرة الحسين بن علي إذا وصل الكوفة.

حرارة الشمس الحارقة جعلت جوف مسلم بن عقيل يلتهب ظمأً، ولمح جرّة من الماء موضوعة إلى جانب باب القصر، فقال بصوت رجل قد أعياه التعب "اسقوني من هذا الماء."

تحرك رجل ليسقيه ولكن مسلم بن عمرو الباهلي وقف في وجهه يمنعه، وتوجّه بكلامه إلى مسلم بن عقيل "أتراها ما أبردها؟، والله لا تذوق منها قطرة أبداً حتّى تذوق الحميم في نار جهنم."

قال مسلم بن عقيل "ويلك من أنت؟"

"أنا من عرف الحق إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وأطاعه إذ خالفته، أنا مسلم بن عمرو الباهلي."

قال مسلم بن عقيل "لأمك الثكل، ما أجفاك وأفظك وأقسى قلبك، أنت يا بن باهله أولى بالحميم والخلود في نار جهنم منّي" ثم أسند ظهره على الحائط لشدة إعيائه.

عمرو بن حريث كان واقفا ينتظر الإذن للدخول إلى القصر، وشهد ما حصل، فأرسل غلامه بجرة ماء وقدح، ووقف الغلام أمام مسلم بن عقيل، وصبّ الماء في القدح وقرّبه من فم مسلم ليشرب، وبمجرّد أن لامس القدح شفته اختلط الماء دماً فأبعد مسلم بن عقيل رأسه، ورمى الغلام الماء المخلوط بالدم وملأ القدح مرة أخرى وقرّبه من فم مسلم بن عقيل ولكن الدم اختلط بالماء، فأبعد مسلم رأسه مرة أخرى ونظر الغلام إلى سيده، فأومئ له بأن يملأ القدح مرة أخرى، فرمى الغلام الماء الملوث بالدم وملأ القدح مرة ثالثة، وقرّبه من فم مسلم بن عقيل بسرعة فارتطم بأحد أسنانه المهشمة، فسقط السن في الماء وامتلأ القدح دماً، رفع مسلم بن عقيل رأسه للسماء وقال "الحمد لله." ثمّ أرخى وجهه ونظر إلى الغلام وقال "لو كان لي من الرزق المقسوم شربته، شكرا لك يا فتى."

بعد ساعة خرج رسول عبيد الله بن زياد وأمرهم بإدخال مسلم بن عقيل.

مسلم بن عقيل وعبيد الله بن زياد

قال مسلم بن عقيل عندما أدخلوه إلى مجلس عبيد الله بن زياد وحوله حاشيته وأتباعه وخدمه وقائد الشرطة "السلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى."

قال الحصين بن نمير قائد الشرطة موجهاً كلامه لمسلم بن عقيل "ألا تسلّم على الأمير بالإمارة؟"

قال مسلم بن عقيل بحدة "اسكت يا هذا، إنّه ليس لي بأمير، وأنتم تسلّمون عليه بالإمارة لأنكم تخشون منه الموت."

ضحك عبيد الله بن زياد بصوت عال وقال "سلّمت أو لم تسلّم إنّك مقتول."

أجاب مسلم بن عقيل "إن قتلتني فلقد قتل من هو شرّ منك من هو خيراً مني، وبعد فإنّك لن تدع سوء القتل، ولا قبح التمثيل بالجثث، ولا قبح السريرة، ولا لؤم النفس لأحد ليكون أولى بها منك."

غضب عبيد الله بن زياد وضرب بقبضة يده على مسند كرسي العرش وقال "لقد خرجت على إمامك وشققت عصا المسلمين وألقحت الفتنة."

قال مسلم بن عقيل متحديا "كذبت يا بن مرجانة، إنّما شق عصا المسلمين معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد، والفتنة ألقحها أبوك، وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شر بريته."

قال عبيد الله بن زياد "يا بن عقيل، أتيت النّاس وهم جمع، فشتّت بينهم وفرّقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض."

قال مسلم بن عقيل "كلا لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر هذا زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دمائهم وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتينا لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم كتاب الله."

قال عبيد الله بن زياد "وما أنت وذاك يا فاسق؟ لِمَ لَم تعمل فيهم بذاك إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟"

أنا أشرب الخمر؟" قال مسلم بن عقيل غاضباً "أمّا والله، إنّ الله يعلم إنّك غير صادق وإنّك قد قلت بغير علم، وإني لست كما ذكرت، وإنّك أحقّ بشرب الخمر مني، وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولغا، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلها، ويسفك الدم الحرام على الغضب والعداوة وسوء الظن، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئاً، وخير دليل على ذلك ما فعله بي جنودك، وأنت تنظر إلي على هذه الحال وتخوفني بالموت ونحن من آل بيت طهّرهم الله تطهيراً وأنزل بهم آية في القرآن، بسم الله الرّحمن الرّحيم [إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا] صدق الله العظيم."

قال عبيد الله بن زياد "يا فاسق إن نفسك تمنيك ما حال الله دونه، ولم يرك الله له أهلاً."

قال مسلم بن عقيل "فمن أهله إذا لم نكن نحن آل بيت النبوة ومنزل الوحي أهله؟"

قال عبيد الله بن زياد "أمير المؤمنين يزيد بن معاوية بن أبي سفيان."

قال مسلم بن عقيل "الحمد لله على كل حال، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم."

قال عبيد الله بن زياد "قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام من الناس."

"اقض ما أنت قاضٍ يا عدو الله." قال مسلم بن عقيل وأدار وجهه إلى ناحية المدينة المنورة وقال بصوت عال "السلام عليك يا بن رسول الله يا حسين بن علي، هل تعلم ما جرى بابن عمك أم لا؟" ثمّ رفع رأسه إلى السماء وقال "اللّهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وخذلونا وكذّبونا."

كان المجلس عامراً بالحاضرين، منهم من كان واقفا، ومنهم من كان جالسا، وكلّهم صامتين لا يتكلّمون ولا يهمسون، وينظرون إلى مسلم بن عقيل، الواقف في المنتصف، دون أن يتأوّه أو يشتكي من شدّة الألم بسبب جراحه في معظم أعضاء جسده، فكان دمه يقطر على الأرض من جروح السّهام التي لم تجف، على عكس الدم على فمه وأنفه والذي يبس على لحيته.

أدار مسلم بن عقيل عينيه متفقداً مَن في المجلس، ولكن الجميع أشاح بنظره عنه، إلى أن نظر إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص والذي لم يشح بنظره عنه فقال له "يا عمر إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة، وقد يجب لي عليك نجح حاجتي، وهي سر."

أشاح عمر بن سعد بوجهه عن مسلم بن عقيل ولم يجبه، وظلّ ينظر إلى الأرض وكأنه لم يسمعه، إلى أن قال له عبيد الله بن زياد "لم تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمك يا عمر؟" فنظر عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد الذي أومأ له بأن يقوم ويسمع من مسلم بن عقيل.

اقترب عمر بن سعد من مسلم بن عقيل، ولملم رداءه لكيلا يتلوّث دماً عندما قرب رأسه، لأن مسلم كان يهمس همسا "أوصيك يا عمر بثلاث وأستحلفك بأن لا تبوح بما أوصيك لأحد، أوّل وصيتي فأنا اشهد

أن لا اله إلّا الله وأن محمّد رسول الله وأن عليا ولي الله ووصي رسوله وخليفته في أمته، ثانياً أرجو أن تأخذ درعي وتبيعه وتقضي عني سبعمائة درهم استقرضتها منذ دخلت مصركم هذا، ثالثاً أن تكتب للإمام الحسين يرجع ولا يأتي إلى بلدكم فيصيبه ما أصابني فقد بلغني أنّه توجّه بأهله وأولاده إلى الكوفة."

ابتعد عمر بن سعد عن مسلم بن عقيل، وتوجّه على الفور إلى عبيد الله بن زياد وأخبره بما أسرّه له.

ضحك عبيد الله بن زياد ضحكة مجلجلة تردد صداها في أرجاء المجلس وقال "لا يخونك الأمين ولكن قد يؤتمن الخائن" ثمّ نظر إلى مسلم بن عقيل وقال "أمّا ما ذكرت من الشهادة فكلّنا نشهدها، وأمّا ما ذكرت من بيع الدرع وقضاء الدين فذلك إلينا إن شئنا قضيناه وإن شئنا لم نقضه، وأمّا ما ذكرت من أمر الحسين بن علي فلابد أن يقدم علينا ونذيقه الموت غصّة بعد غصّة" ثمّ نظر إلى عمر بن سعد وقال "قبّحك الله من مستودع سر وحيث إنّك أفشيت سرّه فلا يخرج إلى حرب الحسين غيرك."

ثمّ صرخ عبيد الله بن زياد "يا حصين."

فأجاب الحصين بن نمير "أمر مولاي."

"اصعدوا إلى أعلى القصر وارموا مسلم من أعلاه، وحزّوا رأسه وأحضروه لي، لأرسله لأمير المؤمنين يزيد" قال عبيد الله بن زياد وهو ينظر إلى مسلم بن عقيل يحاول التقاط أي آثار لخوف أو جزع ولكن مسلم بن عقيل كان مبتسماً وكأنّه لن يموت بعد دقائق.

هانئ بن عروة في سوق الكوفة

"وامذجاه ولا مذجج لي اليوم وامذجاه ولا مذجج لي اليوم وامذجاه ولا مذجج لي اليوم" كان هانئ بن عروة يردد ذلك، مقيداً بحبل ثخين يقوده جنود جلاوزة، ينظر إلى كل من حوله كالصقر جفّ الدم على ما تبقى من لحيته البيضاء فاختفى بياضها، واختفت معالم وجهه السمح بسبب ضربات عبيد الله بن زياد، والتي جعلت قطع من اللحم تتناثر، وكأن وحشاً قد عضّه من وجهه والتهم قطعة منه.

تسرّب الصمت بين جموع المشترين وتجّار الغنم إلّا من همس اسم الرجل العجوز الذي يقوده الجنود، وأصوات الأجراس في رقاب بعض الأغنام تهتز مع حركات اهتزاز رأسها غير آبهة بقساوة ما يجري حولها ومستغرقة بلوك العلف المنثور بوفرة أمامها.

هانئ بن عروة مقيّداً يتلوى بجسده ليتخلص من الحبل المقيّد به، استطاع أن يفلت يده ومدها إلى جموع الواقفين الناظرين إليه وصرخ " أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم يدافع بها رجل عن نفسه" ورمى بنفسه إلى الأمام ليتخلص من قبضة الجنود، وهو حر اليد محاولاً التقاط أي شيء ليدافع به عن نفسه، فتراجع بعض الرجال الناظرين إليه مبتعدين إلى الخلف، استنفر الجنود ووثبوا عليه، حتّى أسقطوه أرضا على وجهه، وقيدوا ذراعيه خلف ظهره، وثبّته اثنان منهم بوضع ركبهم على ظهره، فلم يستطع أن يحرك إلّا رأسه، ثمّ اقترب السياف ويدعى رشيد ليضرب عنقه وصرخ "مد عنقك."

كان هانئ بن عروة يحرك رأسه يميناً ويساراً ليصعب على رشيد مهمة ضربه بالسيف، وقال "والله ما أنا بها سخي وما كنت لأعينكم على نفسي."

ضربة رشيد الأولى وقعت على أذن هانئ بن عروة ولم تقتله، فقال "إلى الله المعاد، اللّهم إلى رحمتك ورضوانك، اللّهم اجعل هذا اليوم كفارة لذنوبي فإنّي إنما غضبت لابن بنت نبيك محمد."

ضربة رشيد الثانية قطعت رأسه، انفصل الرأس وتدحرج عدة أقدام واصلا إلى الرجال الواقفين يراقبون ما يجري.

وصل في هذه الأثناء حصان يجر جسداً بلا رأس، أعلن الجنود بأنّه جسد مسلم بن عقيل، وربطوا جسد هانئ بن عروة إلى نفس الحصان وصاروا يسحبونهما في سكك الكوفة والجنود تسير ومعهم الطبالين ينادون على النّاس ليخرجوا من منازلهم وينظروا إلى ما حل بمسلم بن عقيل وهانئ بن عروة.

أرسل عبيد الله بن زياد رأسي هانئ بن عروة ومسلم بن عقيل إلى يزيد بن معاوية في الشام، مع هانئ بن أبي حبة الوداعي الهمداني، والزبير بن الأروح التميمي، وأرفق مع الرؤوس رسالة إلى يزيد كتب فيها "أمّا

بعد، فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقّه وكفاه مؤونة عدوّه. أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانئ بن عروة المرادي وإني جعلت عليهما العيون، ودسست إليهما الرجال، وكدتهما حتّى استخرجتهما، وأمكن الله منهما، فقدمتهما وضربت عنقيهما وقد بعثت إليك برأسيهما مع هانئ بن أبي حبة الوادعي الهمداني والزبير بن الأروح التميمي، وهما من أهل السمع والطاعة، فليسألهما أمير المؤمنين عما أحب من أمر، فإنّ عندهما علماً وصدقاً وهماً وورعاً والسلام."

وكان رد يزيد بن معاوية على كتاب عبيد الله بن زياد رسالة كتب فيها "أمّا بعد، فإنّك عملت عمل الحازم، وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت، وصدقت ظني بك ورأيي فيك، وقد دعوت رسوليك فسألتهما وناجيتهما، فوجدتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرت، فاستوصي بهما خيراً وأنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجّه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن، وخذ على التهمة، واكتب إليّ كل يوم ما يحدث من الخبر والسلام."

التوقف في ذات عرق في الطريق من مكة إلى الكوفة

ضُربت الخيام في منطقة ذات عرق، وهي الحد بين نجد وتهامة، في وقت الزوال لأداء صلاة الظهر وليستريح الحسين بن علي ومن معه من عناء ومشقة السفر. كان كل من يمرّ بخيام الحسين بن علي يسأل عنها، فتأتيه الإجابة بأنها خيام ابن بنت رسول الله، متوجهاً إلى العراق، ملبياً نداء العراقيين في الكوفة، فكان من المارة من ينضم إلى ركب الحسين بن علي ومنهم من يظل متابعاً سفره.

بشر بن غالب كان آتياً من العراق، ومرّ بذات عرق، ووجد قافلة الحسين بن علي فيها، فتوجّه إليه وسلّم عليه.

ردّ الحسين بن علي سلامه ثم سأله "كيف خلّفت أهل العراق؟"

أجاب بشر بن غالب "يا بن رسول الله، خلّفت القلوب معك، والسّيوف مع بني أمية."

قال الحسين بن علي وهو ينظر إلى الأفق "صدق أخو بني أسد، إنّ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد."

المدينة المنورة

رسالة الوليد بن عتبة إلى عبيد الله بن زياد

في هذه الأثناء في المدينة علم الوليد بن عتبة بخبر خروج الحسين بن علي من مكّة إلى العراق، فكتب رسالة إلى عبيد الله بن زياد قال فيها "أمّا بعد، فإنّ الحسين بن علي قد توجّه إلى العراق، وهو ابن فاطمة، وفاطمة بنت رسول الله، فاحذر يا بن زياد أن تأتي إليه بسوء فتهيج على نفسك وقومك أمراً في هذه الدنيا لا يصده شيء، ولا تنساه الخاصة والعامة أبداً ما دامت الدنيا" وأرسله إلى الكوفة.

عندما استلم عبيد الله بن زياد الكتاب مزّقه ولم يكترث لما فيه، وصرخ منادياً الحصين بن نمير قائد الشرطة، وأمره أن يخرج بعدد من العسكر إلى خارج الكوفة، ويعسكر، ويمنع أي مسافر من الدخول إليها، أو أي من أهلها الخروج منها.

فتوجّه الحصين بن نمير إلى القادسية ونصب خيلاً بين القادسية وخفان، وبين القادسية والقطقطانية، وهكذا كوّن درعاً من المحاربين جنوب الكوفة ليمنع الحسين بن علي من الوصول إليها وليمنع المؤيدين له من الخروج إليه.

في الطريق بين مكة والكوفة

وصول قافلة الحسين بن علي إلى الحاجر من بطن الرمة

وصل موكب الحسين بن علي إلى الحاجر من بطن الرمة، وهو المكان الذي يجتمع فيه المسافرون القادمون من الكوفة والبصرة والمتوجهون إلى الحجاز، وفي هذا المكان طلب الحسين بن علي من قيس بن مسهر الصيداوي، أن يتوجّه إلى الكوفة ويحمل معه كتاب فيه جواب لأهلها.

وجّه الحسين بن علي الكتاب إلى أهل الكوفة عامة، وخصّ من بينهم سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد، ونظراءهم من أكابر مشايخ الكوفة، وجاء في الكتاب "بسم الله الرّحمن الرّحيم، من الحسين بن علي بن أبي طالب إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإنّي أحمد الله الذي

لا اله إلّا هو، أمّا بعد، فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا، فسألت الله أن يحسن لنا الصنيع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكّة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم وجدّوا، فإنّي قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله تعالى، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته." أخذ قيس بن مسهر الصيداوي الكتاب وقبّله ووضعه على جبينه وامتطى فرسه وتوجّه إلى الكوفة.

على حدود الكوفة

عندما أشرف قيس بن مسهر الصيداوي على حدود القادسية، لم يكن يعلم بإحاطة عسكر عبيد الله بن زياد للكوفة بقيادة الحصين بن نمير، ومنعهم من دخول أي شيء أو أي أحد إليها.

أوقف فرسه مقابل العسكر، وهو متلثّم بعمامته، عندما أراد الاقتراب منعه العسكر، وطلب أن يرى قائدهم، فاقترب الحصين بن نمير على فرسه ونظر إليه والذي بدوره أرخى لثامه من على وجهه.

سأل الحصين بن نمير بلهجة جافة "من أنت؟ وماذا تريد؟"

"قيس بن مسهر الصيداوي وقادم لأمر مهم إلى الكوفة."

سأل الحصين بن نمير "وما هو الأمر الهام؟"

"أمر خاص لا شأن لك به" أجاب قيس بن مسهر الصيداوي مما أثار حفيظة الحصين بن نمير والذي صرخ دون أن يزيح نظره عنه "فتّشوا متاعه."

لم ينهي الحصين بن نمير كلامه إلّا وكان قد قفز على فرسه ونكزها وأطلق العنان لها مبتعداً عنهم. انطلق الحصين بن نمير خلفه ومعه عشرة فرسان على أسرع الخيول العربية. إيمان قيس بن مسهر الصيداوي بسموّ مهمة الحسين بن علي وعشقه له، منحه الطاقة والجرأة على مواجهة هذا العدد من العسكر دون خوف أو جزع، أثار فرسه الغبار فلم يرَ ما خلفه، ولكن أصوات حوافر الخيول التي تلحقه كانت واضحة وتدلّ على كثرتها صرخات الحصين بن نمير ورجاله ترعب الحجارة، ولكنها لم ترعب قيس بن مسهر الصيداوي، والذي

نكز فرسه ليزيد من سرعتها، وزاد تصميمه على الإفلات والدخول إلى الكوفة لإيصال رسالة الحسين بن علي.

استمرّت المطاردة في الأرض الخالية حول القادسية، واشتدّ الإرهاق بفرس قيس بن مسهر الصيداوي وبفرسان الحصين بن نمير، ولمعت أجسادها من العرق، وسخنت أعرافها من قسوة أشعّة الشمس، وأصبح لهاثها مسموعاً لجفاف حلوقها.

اختفى الحصين بن نمير ومن معه خلف قيس بن مسهر الصيداوي، فتوقف يستريح برهة ويريح فرسه وهو غير مطمئن لهذا الهدوء، وما هي إلّا لحظات حتّى شاهد أفواج من الفرسان تتجه إليه من كافّة الجهات وتضيّق الخناق عليه ركب الفرس وحاول إيجاد فتحة ليفلت من حصارهم، ولكن لا جدوى، فشكلوا دائرة حوله، وعندها أخرج كتاب الحسين بن علي ومزّقه بسرعة إلى أجزاء صغيره ورماها في الهواء وتناثرت حول فرسه.

اقترب الحصين بن نمير يستعر غضباً منه ونزل من على فرسه، وأشار إلى الفرسان معه أن يقيّدوه ويأخذوه إلى سجن القصر، ثم بدأ بالتقاط الأجزاء الممزقة من الرسالة المتناثرة حول فرس قيس بن مسهر الصيداوي والذي أصبح بلا فارس الآن.

حاول فهم الكلام الممزق على جزيئات الكتاب، ولكن لم يستطع أن يستخرج كلمة واحدة كاملة، فاشتدّ غضبه وركب فرسه متوجهاً إلى قصر عبيد الله بن زياد ليخبره بما جرى.

في قصر الإمارة في الكوفة

عبيد الله بن زياد، جالسا على كرسي الإمارة، رافعاً قدميه فوق طاولة عليها أريكة من الحرير، ولا يزال ينتعل حذاءه المرصع بالأحجار الكريمة سأل "من أنت؟"

أجاب قيس بن مسهر الصيداوي وهو مقيّداً بالحبال قبالة عبيد الله بن زياد وعلى يمينه الحصين بن نمير ينظر إليه نظرة الشامتين "أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه الإمام مفروض الطاعة الحسين عليهما السلام."

سأل عبيد الله بن زياد وهو ينظر إلى أظفار كفه "لماذا خرقت الكتاب؟"

أجاب قيس بن مسهر الصيداوي "لئلا تعلم ما فيه."

رفع عبيد الله بن زياد نظراته من على أظفاره، ونظر إلى قيس بن مسهر الصيداوي وسأل "ممّن الكتاب، وإلى من؟"

أجاب قيس بن مسهر الصيداوي وأرخى طرف شفته بابتسامة ساخرة "من الإمام الحسين بن علي، إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم."

ضرب عبيد الله بن زياد بكفّه على مسند الكرسي وقال غاضبا "والله لا تفارقني حتّى تخبرني بأسمائهم أو تصعد المنبر فتسب الحسين وأباه وأخاه وإلا قطّعتك إرباً إرباً."

أجاب قيس بن مسهر الصيداوي "أمّا القوم، فلا أخبرك بأسمائهم، وأمّا السب فأفعل."

قال عبيد الله بن زياد موجهاً كلامه إلى الحصين بن نمير "رافقوه إلى المسجد بعد صلاة العصر، وأصعدوه المنبر ليسب الحسين وأباه وأخاه" تحرّك الحصين بن نمير على الفور، آمراً الحراس بحبس قيس بن مسهر الصيداوي إلى أن يحين موعد صلاة العصر.

كانت الجموع غفيرة في مسجد الكوفة عندما صعد قيس بن مسهر الصيداوي المنبر وقال بصوت عالٍ جعل كل من في المسجد يحمد بلا حراك "أيّها الناس، إنّ الإمام الحسين بن علي خير خلق الله، وابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وقد خلّفته بالحاجر فأجيبوه."

انتشرت همهمة بين جموع المصلين واعتلى الغضب وجوه الجنود وخصوصا عندما أكمل قيس بن مسهر الصيداوي كلامه على الرغم من تحوّل الهمهمة إلى ضجيج، وصار يترحّم على الحسين والحسن وأبوهما علي، فأسرع الجنود وأنزلوه من على المنبر وقادوه إلى سجن القصر.

أمر عبيد الله بن زياد بأن يُرمى قيس بن مصهر الصيداوي من أعلى القصر وفي صبيحة اليوم الثاني أصعدوه إلى نفس البقعة التي رموا منها مسلم بن عقيل، ورموه من أعلى القصر وهو مقيد اليدين خلف ظهره.

هوى قيس بن مسهر الصيداوي وتهشّمت عظامه وجشّ رأسه، ولكنّه لم يمت، فانتشرت الدماء حول جسده، ولم يخفت أنينه، وانقضت ساعة وهو على هذه الصورة والجنود ينظرون إليه، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه، مخافة أن يعيبوه بأنّه قتل مكتوفاً، إلى أن اقترب عبد الملك بن عمير اللخمي، وذبحه وكأنّه يذبح شاة ورمى رأسه على التراب المخلوط بدمائه.

وصول قافلة الحسين بن علي إلى مياه العرب في الطريق بين مكة والكوفة

وصلت قافلة الحسين بن علي إلى ماء من مياه العرب، نازل فيها عبد الله بن مطيع العدوي، فالتقى بالحسين بن علي وسلّم عليه، وظلّ مرافقاً له الفترة التي توقفت بها القافلة لأداء الصّلاة، وصلّى خلفه جماعة، وعند انتهاء الصّلاة جلس إلى جانبه. وقد كان الحسين بن علي يحمل على صدره ابنه عبد الله الرضيع مستمتعا بالأصوات غير المفهومة التي يتفوّه بها كل رضيع تعبيراً عن سعادته وشعوره بالأمان والحنان على صدر أمّه أو أبيه.

كان الفضول يقتل عبد الله بن مطيع العدوي لمعرفة وجهة الحسين بن علي، وقال "بأبي أنت وأمي يا بن بنت رسول الله ما أقدمك؟"

أجاب الحسين بن علي "كان من موت معاوية ما قد بلغك، فكتب إليّ أهل العراق يدعونني إليهم."

انتفض عبد الله بن مطيع من مكانه كمن قرصته نحلة ورفع رأسه وقال "أذكرك الله يا بن رسول الله وحرمة الإسلام أن تُنتهك، أنشدك الله في حرمة رسول الله، أنشدك الله في حرمة قريش، أنشدك الله في حرمة العرب!! فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابوا بعدك أحداً أبداً، والله إنّها لحرمة الإسلام تُنتهك، وحرمة قريش، وحرمة العرب، فلا تفعل ولا تأت الكوفة، ولا تعرض نفسك لبني أمية."

فأبى الحسين بن علي إلّا أن يمضي في طريقه إلى العراق، ومرّ عدة أشخاص من الأعراب، أخبروه بأن أخبار الكوفة مقطوعة لعدم قدرة أي أحد من الخروج أو الدخول إليها.

نزلت قافلة الحسين بن علي في منطقة الخزيمية، وهي من منازل طريق الحجاج بعد الثعلبية من الكوفة، بينها وبين الثعلبية إثنان وثلاثون ميلاً وضُربت الفساطيط، وأمضى الحسين بن علي في الخزيمية يوم وليلة، وبعدها تحرّكت القافلة حتّى وصلت إلى زرود، وهي منطقة رمليّة سميت بهذا الاسم لسرعة ابتلاعها للمياه التي تنزل عليها من السماء.

لقاء الحسين بن علي مع زهير بن القين في الطريق بين مكة والكوفة

كانت قافلة الحسين بن علي طوال الطريق تصادف قوافل أخرى بالاتجاهين، وأصحاب القوافل يتضاربون بمواقفهم، منهم من يرحب بفكرة خروج الحسين بن علي إلى الكوفة ومنهم من يعارض، منهم من يتمنّى أن يساير الحسين بن علي لمقامه الشريف وقرابته من رسول الله، ومنهم من يتجنب مسايرة قافلته إمّا خوفا من بني أمية أو لأسباب أخرى في نفوسهم.

كانت الأجواء مشحونة بكافة طرق السفر، وعيون الدولة الأموية مزروعة عند كل منعطف، وهذا ما جعل مهمة نقل المعلومات مهمة شبه مستحيلة، وحرية الحديث أو إبداء الرأي أمر صعب مستصعب، لا يقدر عليه إلّا من صقل قلبه الامتحان وأصبح لا يهاب سطوة بني أمية على العباد، فيقول ما في قلبه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكرات، متبعاً بذلك سنّة رسول الله محمد صلى الله عليه واله.

من القوافل التي تجنّبت مسايرة قافلة الحسين بن علي طوال الطريق منذ لحظة خروجهم من مكّة، قافلة زهير بن القين البجلي، فعلى الرغم من أن منازل استراحة الحجّاج على طريق مكّة هي نفسها، إلّا أن قافلة زهير بن القين استطاعت تجنّب المبيت مع قافلة الحسين بن علي بنفس المكان أو الزمان، إلى أن وصلوا إلى زرود، اضطرّوا إلى النزول مع قافلة الحسين بن علي بنفس اليوم، وضربوا خيامهم في جانب، وخيام الحسين بن علي مضروبة في الجانب المقابل.

زهير بن القين وأصحابه داخل الخيمة، حول المائدة يستمتعون بلذة الطعام، ويستأنسون بحلاوة الحديث إلى بعضهم البعض، سمعوا صوت رجل يلقي السّلام من خارج الخيمة، ردّ كل من كان جالساً السّلام بصوت عالٍ داعين من كان خلف ستار باب الخيمة بالدخول فوراً والذي لم يخالفهم وخطى إلى داخل الخيمة، فدعوه للانضمام إليهم وتناول الطعام معهم، فأبى معتذراً، وقال لزهير بن القين "يا زهير أبا عبد الله الإمام الحسين بن علي عليه السلام بعثني إليك لتأتيه."

طرح كل من كان حول المائدة ما كان في يده من طعام، وجمدوا ناظرين إلى زهير بن القين دون حراك أو حتّى صوت، وكأن الطيور واقفة على رؤوسهم، مضت الثواني وكأنها ساعات، إلى أن تدخّلت دلهم بنت عمرو وكانت قد سمعت ما قاله رسول الحسين بن علي من وراء الستار، أطلّت برأسها وقالت مدهوشة وهي تنظر إلى زوجها زهير "أيبعث إليك ابن بنت رسول الله ثمّ لا تأتيه؟" ثمّ رفعت كفّها وأشارت إلى خارج الخيمة "سبحان الله لو أتيته فسمعت من كلامه ثمّ انصرفت."

"صدقت" أجابها زهير بن القين، ونفض يديه من الأرز العالق بها. أحضرت له دلهم طشت الماء ليغمس يديه وينظفهما من بقايا الطعام، وقام مصاحبا رسول الحسين بن علي إليه.

مرّت ساعة على مغادرة زهير بن القين الخيمة، وزوجته دلهم بنت عمرو منتظرة بفارغ الصبر، علت شفتيها ابتسامة عريضة عندما رأته مقبلاً مستبشراً والابتسامة على شفتيه تدل على أنّه ربح شيئاً لا يقدّر بثمن بلقائه الحسين بن علي.

سلّم عليها بمجرد أن دخل الخيمة وقال "أنت طالق! الحقي بأهلك فإنّي لا أحب أن يصيبك بسببي إلّا الخير."

لم تخبئ دلهم بنت عمرو مفاجأتها ولكنها لم تعترض بل انتظرت زوجها ليكمل حديثه، فهو رجل حكيم ما رأت منه إلّا الخير بفترة زواجهما.

أكمل زهير بن القين "سأحوّل فسطاطي ومتاعي إلى ركب الحسين بن علي، وسأرافقه إلى الكوفة، وسأقاتل دونه، وأنصره ما استطعت، وأفديه بنفسي وأقيه بروحي."

لم ينهِ زهير بن القين حديثه إلّا ودموعها تجري من عينيها سائلة على خديها، كفّاها على صدرها وكأنها تتحس دقات قلبها، ثمّ قالت وكلماتها مخلوطة بصوت بكائها "كان الله عوناً ومعيناً لك، خار الله لك، أسألك أن تذكرني في يوم القيامة عند جد الحسين بن علي"

ودّعته وأرسلها مع بعض من بني عمها ليوصلوها إلى أهلها.

خيّر زهير بن القين من معه من أصحابه بين اللحاق به أو فراقه والذهاب بحال سبيلهم.

ثلاثة مسافرين من قبيلة بني أسد في الطريق بين مكة والكوفة

عبد الله بن سليمان، والمنذر بن المشمعل، من بني أسد، امتطيا ناقتيهما بمجرد أن أنهيا مناسك الحج، وانطلقا في أثر الحسين بن علي، لا هِمّة لهما إلّا اللحاق به، لم يتوقفا إلّا لأداء الصلاة حتّى وصلا مشارف منطقة زرود، فوجدا ركب الحسين بن علي قد تحرك للتو، فتابعا المسير حتّى وصلا إلى قافلته وسارا معها دون أن يكلّما أحداً فيها.

أثناء مسير القافلة ظهر بالاتجاه المعاكس رجل ملثّم على فرس، عدل عن الطريق مبتعداً بمجرد رؤيته لركب الحسين بن علي، تنحّى الحسين بن علي بفرسه عن الطريق بنفس الاتجاه الذي ابتعد فيه الرجل ووقف ناظراً إليه وكأنّه يريد الحديث معه أو سؤاله، فمن لباسه يبدو أنّه من أهل العراق لاحظ الملثّم

توقّف فرس الحسين بن علي وعندها رفس فرسه بكعب نعله فانطلقت مبتعدة، عاد الحسين بن علي إلى القافلة وأكمل سيره.

عبد الله بن سليمان والمنذر بن المشمعل يراقبان ما جرى، خرجا عن القافلة وسارا في الطريق الذي أخذه الفارس الملثّم والذي لم يعد له أثر يرى، اجبرا ناقتاهما على الجري للحاق به، بعد ساعة من الجري المتواصل للناقتين ظهر لهما الرجل وقد أزال لثامه، جالساً في ظل صخرة يسند ظهره عليها وقد وضع قليلاً من العلف لجواده، اقتربا منه وأناخا ناقتاهما ونزلا وقالا "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

أجابهما الفارس بعد أن قام واقفاً احتراماً "وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته."

سأل عبد الله بن سليمان "ممن الرجل؟"

أجاب الفارس وهو يمدّ يده مصافحاً لهما "أسدي."

قال المنذر بن المشمعل "ونحن أسديّان."

عرّف الرجل عن نسبه وعرّفاه عن نسبهما وأخرجا زادهما وتناولوا خبزاً وماءً وحمدوا الله وأثنوا عليه. ينظرون إلى الأرض الشاسعة حولهم تمتد تحت أشعة الشمس التي لا ترحم، خالية من أي شجر أو زرع أو نبات، إلّا من صخور عتيقة شهدت أعداداً لا تعد ولا تحصى من عابري السبيل.

وجّه المنذر سؤاله للفارس "أخبرنا عن النّاس وراءك؟"

نظر الرجل إلى عبد الله تارة وإلى المنذر تارة أخرى وفي عينيه نظرات مشبعة بالألم، وقال "لم أخرج من الكوفة حتّى قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة ورأيتهما يجرّان من أرجلهما في السوق" وتنحّى بنظره عنهما وصمت دون أن يضيف حرفاً واحداً.

حجم الصدمة أخرست كل من عبد الله والمنذر، ودّعاه وركبا ناقتيهما عائدين للّحاق بركب الحسين بن علي وقد أسقطا الحماس الذي كان يكسو وجهيهما ليحلّ مكانه الحزن العميق.

قافلة الحسين بن علي في منطقة الثعلبية في الطريق بين مكة والكوفة

وصل المنذر بن المشمعل وعبد الله بن سليمان إلى قافلة الحسين بن علي وقد كانت متوقفة في الثعلبية لأداء الصلاة، أناخا ناقتيهما، وتجهّزا للصلاة بإمامته. بعد الصّلاة اقتربا من الحلقة التي كان يجلس بها يحمل على صدره ابنه عبد الله الرضيع، وحوله إخوته وأبناؤه وأبناء عمومته، وحولهم الأصحاب، وقالا "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

"وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته." خرجت من فاه الحسين بن علي ومن عشرات الأفواه التي تجلس حوله، وفسحوا مكاناً لهما ليجلسا. عرّفا عن نفسيهما بمجرد أن جلسا مقابل الحسين بن علي. أحنى عبد الله بن سليمان رأسه مقربا له من رأس الحسين بن علي وقال بصوت خافت "يرحمك الله إن عندنا خبراً إن شئت حدثناك علانية وإن شئت حدثناك سراً."

قال الحسين بن علي بصوت واضح مسموع وهو يشير بكفّه إلى أصحابه "ما دون هؤلاء سر."

سأل المنذر بن المشمعل "أرأيت الراكب الذي استقبلته عشية أمس؟"

أجاب الحسين بن علي "نعم وقد أردت مسألته."

قال عبد الله بن سليمان "قد والله استبرأنا لك خبره وكفيناك مسألته، وهو امرؤ منا ذو رأي وصدق وعقل" وأطرق برأسه وأصبح صوته خافتا "حدّثنا أنّه لم يخرج من الكوفة حتّى قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، ورآهما يجران في السوق من أرجلهما."

"إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إنّا لله وإنّا إليه راجعون" ردّد الحسين بن علي وفاضت مقلتاه دموعاً، صار عبد الله الرضيع يبكي بمجرد أن تساقطت الدموع من عيني أبيه، ثم قال "رحم الله مسلماً، فلقد صار إلى روح الله وريحانه وتحيّته وغفرانه ورضوانه أمّا إنه قد قضى ما عليه، وبقي ما علينا."

ردّد كل الرجال حوله "إنّا لله وإنّا إليه لراجعون" وسالت دموع من عيون أبناء مسلم، عبد الله ومحمد، حزناً على فقد أبيهم، وقام علي الأكبر وعلي السجاد وجلسا بجانبيهما، وتسمّر الباقي من هول الخبر وعظم المصيبة.

قال المنذر بن المشمعل والذي التفت إلى الحسين بن علي متوسلاً "ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلّا انصرفت من مكانك هذا، فإنّه ليس لك بالكوفة ناصراً ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك."

نظر الحسين بن علي إلى إخوة مسلم وابنيه وقال "ما ترون؟ فقد قتل مسلم."

قام عبد الله بن مسلم واقفاً وقال بصوت يملؤه العزم والإصرار "والله لا نرجع حتّى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق" وبعدها وقف الرجال من حول عبد الله ابن مسلم وصرخوا بصوت غاضب "صدقت يا بن الشهيد" وقف الحسين بن علي، ووقف كل من في حضرته ونظر إلى عبد الله والمنذر اللذين لم يحتاجا لبرهان أو جواب أكثر مما رأياه بأم عينيهما، وأشار بكفّه تجاه الرجال التي ارتجت الأرض تحت أقدامهم الغاضبة، وقال "لا خير في العيش بعد هؤلاء.

قالا "خار الله لك."

فأجابهما الحسين "رحمكما الله." وانصرف القوم.

توجّه الحسين بن علي إلى خيمة النساء وأخذت منه زوجته الرباب عبد الله الرضيع، وسأل عن حميدة بنت مسلم، وسرعان ما أحضرتها أخته زينب مقاطعة لها لعبها مع باقي الأطفال، رفعها الحسين بن علي وقبلها من رأسها ومسح بكفه على رأسها وضمّها إلى صدره تبخّرت الابتسامة من وجهها عندما لاحظت دموعه تسيل على لحيته والتي لا توحي بخبر مفرح، لكن ما هو الخبر الذي يبكي الحسين بن علي، كانت تدرك قدر هذا الرجل الذي قبّلها من رأسها وشدّة بأسه وشجاعته، لكثرة ما تسمع عنه في المنزل من أبيها من مديح وتقدير، فأبوها زرع بقلبها حب أبناء الزهراء واحترامهم، غمست حميدة رأسها بصدر الحسين بن علي وبكت لبكائه بصوت خافت غير مدركة أنّها باتت يتيمة الأب.

أمضى الحسين بن علي والقافلة ليلتهم في الثعلبية للاستراحة من عناء السفر، وعندما خرج من خيمته صباحاً، وجد رجلاً واقفاً على بعد أمتار من الخيمة، فبادره بالسلام، ردّ الرجل السلام ومدّ يده ليصافحه، ثمّ عرّف عن نفسه "أبا هرة الأزدي من الكوفة." وسار بمحاذاة الحسين بن علي عندما تحرك مبتعداً عن الخيمة ببطء "يا بن رسول الله، ما الذي أخرجك عن حرم الله وحرم جدّك رسول الله صلّى الله عليه وآله؟"

توقّف الحسين بن علي والتفت إلى أبي هرة وقال بصوت يملأه الجد "ويحك يا أبا هرة، إن بني أمية أخذوا مالي فصبرت وشتموا عرضي فصبرت وطلبوا دمي فهربت، وأيم الله لتقتلني الفئة الباغية وليلبسنهم الله ذلا شاملاً وسيفاً قاطعاً، وليسلّطن الله عليهم من يذلّهم حتّى يكونوا أذل من قوم سبأ إذ ملكتهم امرأة فحكمت في أموالهم ودمائهم" الرعب الذي اكتسى قلب أبي هرّه أخرس لسانه فلم يستطع استيعاب فكرة وجود مخلوق على وجه الأرض يتجرأ على قتل حفيد الرسول محمّد صلى الله عليه واله وسلم.

وصول قافلة الحسين بن علي الى منطقة زباله في الطريق بين مكة والكوفة

وصلت قافلة الحسين بن علي إلى منطقة تدعى زبالة، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى امرأة من العمالقة كانت تعرف بزبالة بنت مسعر، أوقف الحسين بن علي الركب، وبعد الانتهاء من نصب الخيام، نادى الجميع قبل أن ينصرفوا متفرقين، ليوصل لهم ما وصله من أخبار.

حضر كل من كان معه من إخوته وأبنائه وأبناء إخوته وأبناء عمومته والتفّ حولهم الأصحاب المخلصون الذين رافقوه منذ خروجه من مكّة وبضع مئات ممن التحق به في الطريق وكان منظرهم مهيباً لكثرتهم يطمئن الناظرين باحتمال الغلبة على جيوش يزيد بن معاوية، إن كانت الغلبة بالأكثرية.

وقف الحسين بن علي على صخرة تعلو عن الأرض ليراه ويسمعه الجميع، وقال "بسم الله الرّحمن الرّحيم، أمّا بعد فإنّه قد أتانا خبر فظيع، قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وقيس بن مصهر، وقد خذلنا شيعتنا في الكوفة، فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه حرج منا ولا ذمام."

الكثير ممن انضم إلى قافلته خلال الطريق ظنّوا بأنّه متوجّه إلى بلد استقامت طاعة أهلها له، وأن الحرب التي يسيرون لها حرب يخرجون منها بالوفير من الغنائم، ولكن ظنّهم قد خاب فتفرق جمع غفير منهم وبدؤوا بحزم متاعهم والانصراف، فالحسين بن علي كره أن يسير معه إلّا من كان يعلم على ما يقدم عليه من الشهادة في سبيل الله.

كتب الحسين بن علي كتابا الى حبيب بن مظاهر في الكوفة جاء فيه:

"من الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الرجل الفقيه حبيب بن مظاهر. أما بعد يا حبيب، فأنت تعلم قرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنت أعرف بنا من غيرك، وأنت ذو شيمة وغيرة، فلا تبخل علينا بنفسك، يجازيك جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يوم القيامة."

فلما كان السحر بقي مع الحسين بن علي أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة ومكة ونفر يسير ممن انضموا إليه في الطريق فأمرهم بالاستسقاء والإكثار من الماء لمتابعة السير.

وصول قافلة الحسين بن علي الى بطن العقبة في الطريق بين مكة والكوفة

وصلت القافلة إلى منطقة تدعى بطن العقبة، فيها مياه لقبيلة بني عكرمة، وأنيخت الجمال وأريحت الجياد وانتشر الأصحاب وأهل البيت للاهتمام بشؤون عيالهم خلال التوقف وبينما الحسين بن علي وإخوته مشغولون بسقي الجياد، اقترب منهم شيخ كبير وألقى السلام، فرد الجميع السّلام عليه، والتفتوا إليه لم يحتج بأن يخبروه من منهم الحسين بن علي، فهيبته خطفت بصره، عرّف عن نفسه وعيناه لا تفارقان وجه الحسين بن علي "خادمك عمرو بن لوذان من بني عكرمة" ولم ينتظر جواباً وسأل وهو ينظر إلى الخيام المنصوبة والخيول المبعثرة تلوك علفها "أين تريد؟"

أجاب الحسين بن علي "الكوفة."

هبّت ريح جعلت أردية الواقفين تلتصق بأجسادهم، ثمّ سكن الجو مرة أخرى وعدّل الشيخ رداءه على كتفه وقال "عيون بني أمية في كل زاوية يزرعون الخوف في نفوس كل من يلاقوه ويهددوه بالقتل هو

وعياله وكل من يعرف، لمجرد التفكير بالالتحاق بكم رأيت الكثير من المسافرين من مكّة إلى الكوفة في كل عام، فديار بني عكرمة مفتوحة لضيافة المسافرين وخصوصاً الحجاج المتوجهون إلى مكّة، وكلّهم تعلو وجوههم بشائر الفرح والسرور ولا يهابون ذكر وجهتهم أو من أي القبائل هم ولكن لم أرَ مثل هذه الأيام فالمسافرون ملتمّون يحذرون ذكر أسمائهم أو من أين أتوا أو إلى أين متوجهون" لم يكن ما ذكره عمر بن لوذان جديداً على الحسين بن علي فخلال سير القافلة كان واضحاً حذر المسافرين واجتنابهم السير بمحاذاة ركبه أو الاقتراب منه، أكمل الشيخ حديثه "أنشدك الله لما انصرفت، فوالله ما تقدم إلّا على الأسنّة وحد السيوف، وإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً، فأمّا على هذه الحال التي تذكر فإنّي لا أرى لك أن تفعل."

أجاب الحسين بن علي "يا عبد الله ليس يخفى علي الرأي ولكن الله تعالى لا يغلب على أمره" ونظر إلى الأفق وقال دون أن يحرك رأسه وكأنّه يكلم الأجيال القادمة بعد مئات السنين "والله لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يذلّهم حتّى يكونوا أذل فرق الأمم."

حبيب بن مظاهر

حبيب بن مظاهر بن رئاب بن الأشتر بن جخوان بن فقعس بن طريف بن عمرو بن قيس بن الحرث بن ثعلبة بن دودان بن أسد، يكنى بأبي القاسم الأسدي الفقعسي. كان عمره 75 سنة وكان رجل ذو جمال وكمال. جليل القدر عظيم الشأن شجاعا مشكورة السيرة ومحدثا صدوقا.

كان عاش فترة من نبوة الرسول محمد صلى الله عليه واله وكان من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المقربين وشارك في كل حروبه، ودائما تمنى أن يستشهد في سبيل الحق، كان من شرطة الخميس خلال فترة خلافة أمير المؤمنين علي بن ابي طالب. كان من الموالين المقربين للإمام الحسن بن علي ثم من المقربين المطيعين للإمام الحسين بن علي، وبعد موت معاوية بن ابي سفيان كان من الذين كتبوا للإمام الحسين بن علي وطلبوا منه القدوم الى الكوفة، وعندما أرسل مسلم بن عقيل الى الكوفة هو كان مع ابن

عم له يدعى مسلم بن عوسجة من الملازمين لمسلم بن عقيل، يأخذون البيعة من الناس للحسين بن علي، و لكن عندما قتل مسلم بن عقيل ظل ملازما منزله متجنبا الاحتكاك مع جنود عبيد الله بن زياد والذين كانوا في بحث دائم عن الموالين للحسين بن علي لقتلهم أو سجهم في السجون.

كان حبيب بن مظاهر مع زوجته يتناولان الطعام، غصت زوجته فقالت له "الله أكبر يا حبيب! سيرد علينا كتاب كريم من رجل كريم."

لم ينهيا طعامهما بعد، عندما طرق الباب.

نادى حبيب بن مظاهر "من الطارق؟"

أجاب صوت من وراء الباب "أنا رسول الإمام الحسين بن علي إليك."

علق حبيب بن مظاهر عندما فتح الباب وأخذ الرسالة "الله أكبر! صدقت الحرة بما قالت."

سألته زوجته عن الخبر فأخبرها بما جاء في رسالة الحسين بن علي فصارت تبكي وقالت "بالله عليك يا حبيب لا تقصر عن نصرة ابن بنت رسول الله."

أجاب حبيب بن مظاهر "أجل، حتى أقتل بين يديه وتصبغ شيبتي من دم نحري."

بدأ حبيب تجهيز رحله وخلال ذلك أقبل ثلاثة من بني عمه وقالوا له "يا حبيب! بلغنا أنك تريد أن تخرج لنصرة الحسين بن علي ونحن لا نخليك."

أجاب حبيب بن مظاهر بعد أن حاولوا جاهدين إقناعه "مالنا والدخول بين السلاطين."

كانت زوجته تستمع لحديثه مع بني عمه فعندما غادروا قالت له "كأنك كاره الخروج لنصرة الإمام الحسين بن علي عليهم السلام."

قال مختبرا "نعم."

صارت تبكي وقالت له "يا حبيب! أنسيت كلام جده في حقه وأخيه الحسن عندما قال: ولداي هذان سيدا شباب أهل الجنة، وهما إمامان قاما أو قعدا، وهذا رسول الإمام الحسين بن علي وكتابه أتى إليك يستعين بك وأنت لم تجبه؟"

قال حبيب بن مظاهر "أخاف على أولادي من اليتم، وأخشى عليك أن تترملي بعدي."

أجابته ولازالت تبكي "ولنا التأسي بالهاشميات من آل رسول الله، والله تعالى كفيلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل."

عندما اطمئن لصدق نيتها أسرّ لها نيته ودعا لها خيرا.

قالت له "لي إليك حاجة."

قال حبيب "ماهي؟"

قالت "بالله عليك يا حبيب إذا قدمت على الإمام الحسين بن علي قبل يديه ورجليه نيابة عني واقرأه عني السلام."

قال "حبا وكرامة."

جهّز حبيب بن مظاهر جواده وشده شدا وثيقا وقال لعبد له اسمه مبارك "خذ فرسي وامض به، ولا يعلم بك أحد." وأخبره بمكان خارج الكوفة لينتظره فيه.

ثم ودع زوجته وأولاده، وخرج متخفيا وكأنه ذاهب الى ضيعة له.

مبارك كان ينتظر سيده في بقعه معزولة عن طريق السفر وعن أعين المتطفلين أو جواسيس عبيد الله بن زياد. وضع للفرس الشعير وصار يتأملها وهي تلوكه مستمتعة وغير مدركة ما يجري حولها. مضى وقت طويل ولم يظهر حبيب بن مظاهر بعد ولكن مبارك لم يكن لديه أدنى شك بأن سيده سيستشهد لمقالة دائما رددها الى مسامعهم.

من الأسرار التي تركها الإمام علي بن أبي طالب له بأنه سيموت شهيدا في المعركة. وبعد معركة صفين تحت راية الامام علي بن ابي طالب وعندما طلب منهم امير المؤمنين بان يزيلوا الخيام ليعودوا الى ديارهم بدى الحزن وخيبة الأمل على وجه حبيب بن مظاهر.

سأله الإمام علي بن أبي طالب "مالي أراك في هذا الحال؟"

أجاب حبيب بن مظاهر "سيدي أمير المؤمنين انا حزين لأن الشهادة فاتتني وانا لازلت انتظرها."

أجابه الإمام علي بن أبي طالب "طمئن قلبك وافرح عينيك، سوف تمنح الشهادة مع من الشهادة بين يديه خير من الشهادة بين يدي."

سأل حبيب بن مظاهر متعجبا "سيدي أمير المؤمنين من تعني بذاك؟"

أجاب الإمام علي بن أبي طالب "إنه عزيزي ابني الحسين."

مبارك ابتسم وتمنى لو أنه يمنح الشهادة في سبيل الله كما سيمنح سيده حبيب بن مظاهر. ثم اقترب من الجواد وصار يربت على رقبته ويحدثه "يا جواد! إن لم يأت صاحبك لأعلون ظهرك، وأمضي بك إلى نصرة الحسين بن علي."

فجأة صوت كفين تصفقان جففا الدم في عروق مبارك ولكن عندما سمع صوت سيده حبيب بن مظاهر تنفس الصعداء.

كان حبيب بن مظاهر يصفق يديه وهو ينظر الى السماء ويقول "بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، العبيد يتمنون نصرتك فكيف بالأحرار؟" ثم نظر الى عبده مبارك وقال له "يا غلام أنت حر لوجه الله."

مبارك صار يبكي وقال "سيدي! والله لا تركتك حتى أمضي معك وأنصر الحسين بن بنت رسول الله واقتل بين يديه."

ثم انطلقا معا لملاقاة الحسين بن علي.

وصول قافلة الحسين بن علي الى شراف في الطريق بين مكة والكوفة

سار الركب من بطن العقبة حتّى وصل إلى شراف ونصبت الخيام، أصاب علي بن الحسين والملقّب بزين العابدين حمّى شديدة وأصبح طريح الفراش في محمل على ظهر ناقة تهتم به عمته زينب وتحاول التخفيف عنه.

بقيت القافلة في شراف إلى الليل فلما كان وقت السحر أمر الحسين بن علي الفتيان بأن يستسقوا من الماء ويكثروا، ثمّ تابعوا المسير بعد صلاة الفجر ولم يتوقفوا إلى أن انتصف النهار وأصبحت الرؤيا غير واضحة لشدة حرارة أشعّة الشمس، فالسراب يحيط بهم من كل جانب وخيولهم تقطر عرقاً وتلهث عطشاً، توقف الركب عندما صاح رجل في المقدمة بصوت عال مسموع للجميع "الله أكبر."

اقترب الحسين بن علي على جواده وعلى يمينه ابنه علي الأكبر وعلى يساره أخوه العبّاس بن علي إلى أن وصل إلى محاذاة الرجل الذي كبّر، ثمّ قال "لم كبرت ؟"

أجاب الرجل "رأيت النخل."

أمعن الحسين بن علي النظر إلى الأفق واقترب الرجال على خيولهم إلى محاذاته وقال أحدهم "والله ما رأينا في هذا المكان نخلة قط"

التفت الحسين بن علي إليهم وهم جميعاً يحجبون أشعّة الشمس عن عيونهم وسألهم "فما ترونه ؟"

انطلق ثلاثة فرسان لاستطلاع الأمر وسرعان ما عادوا وقالوا "نراه والله أذني الخيل."

قال الحسين بن علي "وأنا والله أرى ذلك" ثمّ اقترب بفرسه والتفّ ليواجه جميع الرجال على جيادهم وسأل "مالنا ملجأ نلجأ إليه فنجعله في ظهورنا ونستقبل القوم بوجه واحد ؟"

أجاب نفس الرجل الذي أخبرهم باستحالة وجود النخل في هذه الأرض القفراء لدرايته بهذه المناطق "بلى يا سيدي جبل ذو حسم إلى جنبك فمل إليه عن يسارك فإن سبقت إليه فهو كما تريد."

توجّه الحسين بن علي إلى جبل ذو حسم يساراً ووراءه الركب كاملاً خيولاً وجمالاً دون تلكؤ أو تأخير، وماهي إلّا هنيهة ظهرت رؤوس خيل العسكر واضحة متوجّهة نحوهم وفوقها الرايات وأسنّة الرماح. لاحظ

الحسين بن علي بأنّهم عدلوا عن الطريق واتجهوا يساراً باتجاه الجبل كما فعل هو، فأمر من معه بالإسراع للوصول إلى الجبل قبلهم، حثّ الفرسان الجمال على الإسراع، وسبقت مجموعة من الفرسان القافلة إلى الجبل ليمنعوا العسكر القادمين من الحصول على المكان في حال وصلوا قبل ركب الحسين بن علي.

ازداد لهيب حرارة الشمس وصارت الأرض كبطن التنور مستعدة لشوي ما يحط عليها وصلت قافلة الحسين بن علي إلى جبل ذو حسم، وجعلوه خلفهم وضربوا أبنيتهم من خيام وفساطيط وأنزلوا العيال إليها، وبمجرد أن انتهوا كان هناك عدد يصل إلى ألف فارس على خيولهم يقفون مقابل معسكرهم، دون أن يرخو رماحهم أو راياتهم أو حتّى ينزلوا من على خيولهم، وعلى مقدمتهم قائدهم، فارس عريض المنكبين، ضخم الجسد، حاد النظرات، أسمر البشرة، ذو لحية لا طويلة ولا قصيرة، تضيف إلى مظهر وجهه الحَسن قسوة وصلابة، هو الحر بن يزيد الرياحي و هو من رؤساء بني تميم و من سادات أهل الكوفة، ظلّ على فرسه دون أن يترجّل أو يتقدم أو يتحرك.

اقترب منه الحسين بن علي وأصحابه خلفه على جيادهم وسيوفهم على متونهم، ظن رجال الحر بن يزيد الرياحي بأن الحسين بن علي وأصحابه مقتربين ليبدئوا القتال، ولكن المفاجأة كانت لا توصف عندما ترجل الحسين بن علي من على جواده، وأمر أصحابه بصوت مسموع "اسقوا القوم وارووهم من الماء ورشّفوا الخيل ترشيفاً."

كست الدهشة وجوه الألف فارس، وخصوصاً قائدهم الحر بن يزيد الرياحي، فعلى الرغم من شدّة الحر، وعلى الرغم من العطش الشديد الذي يشعر به هو وكل فرسانه وخيولهم، إلّا أنّهم أعداء الحسين بن علي، فكيف به يسقي أعداءه؟ ولكنّه مأمور من عبيد الله بن زياد بمهمة وعليه أن يؤدّيها سواء الحسين بن علي قبل أم لم يقبل أو بقي لديه ماء ليشرب أم لم يبقَ.

الحسين بن علي يسقي جيش أعداءه الماء

رُميت على الأرض عشرات القصاع فيها ماء للخيول، والقِرب أحضرت ليشرب منها الفرسان، على كل قصعة رجلان من رجال الحسين بن علي يقربونها من فم الفرس فإذا عبّ فيها ثلاثاً تحركوا إلى الفرس الذي يليه، وهكذا حتّى رشّفوا ألف فرس وسقوا ألف فارس، وكان آخر من وصل من أصحاب الحر بن يزيد الرياحي رجل يدعى علي بن الطعان المحاربي، وكان منهكاً من الحر والعطش هو وجمله، فلما رآه الحسين بن علي قال له "أنخ الراوية" فعندما رأى الحسين حيرة علي بن الطعان علم بأنه لا دراية له بلغة أهل الحجاز فقال له "يا بن أخي أنخ الجمل."

نزل علي بن الطعان وأناخ الجمل، قال الحسين بن علي له "إشرب" ومدّ يده مناوله القربة، فأمسكها علي بن الطعان، وكلّما حاول أن يشرب سال الماء من القربة مبللاً ثيابه، فقال الحسين بن علي له "أخنث السقاء" فأبعد علي بن الطعان القربة عن فمه ولم يدر كيف يعطف القربة كما طلب منه الحسين بن علي، لاحظ الحسين بن علي حيرته مرة اخرى واقترب وأمسك القربة وعطف فتحة القربة ورفعها حتّى شرب علي بن الطعان وارتوى.

جمع أصحاب الحسين بن علي القرب والقصاع وذهبوا ليتجهزوا لأداء صلاة الظهر، طلب الحسين بن علي من الحجّاج بن مسروق الجعفي بأن يؤذن بالناس، فأذّن الحجّاج، وقبل الإقامة تقدم بإزار فوق رداءه، يتكئ على سيفه، ووقف قبالة القوم وقائدهم الحر بن يزيد الرياحي، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه "أيّها الناس، إنّها معذرة من الله وإليكم، إنّي لم آتكم حتّى أتتني كتبكم، وقدمت علي رسلكم (أن اقدم علينا فإنّه ليس لنا إمام لعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق) فإن كنتم على ذلك، فقد جئتكم، فأعطوني ما أطمئن به من عهودكم ومواثيقكم، وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم" وظل واقفاً منتظراً منهم أي جواب أو تعليق ولكن ظلّ الجميع ساكتين.

نظر الحسين بن علي ناحية الحر بن يزيد الرياحي وسأله "أتصلي بأصحابك؟"

أجاب الحر بن يزيد الرياحي "بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك."

التفت الحسين بن علي للحجاج بن مسروق الجعفي ليقيم الصّلاة، وصلّى بهم جميعاً إماماً وبعد فراغه من الصّلاة، انصرف إلى معسكره ومعه أصحابه، وانصرف الحر بن يزيد الرياحي إلى مكان تجمع عسكره، وكانوا قد نصبوا له خيمة فدخل إليها ومعه بعض رجاله، والجنود كل أخذ دابته وجلس في ظِلّها ليتقي شدّة الحر.

جمع الحسين بن علي أصحابه والرجال من أهل بيته خلف الخيام ليهيئهم بما هم مقدمون عليه، فوقف في المنتصف وحوله الجميع مشكلين حلقات هو في مركزها، وحمد الله وأثنى عليه وقال "أمّا بعد، إنّه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حذاء فلم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يُعمل به وأن الباطل لا يُتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة ولا الحياة مع الظالمين إلّا برما."

الرجال حوله من كافة الأعمار، بدءاً بأولاد لم يبلغوا الحلم بعد، وصولاً إلى شيوخ لحاهم بيضاء كلون الثلج، جمعهم هدف واحد، هو الوقوف في وجه الظالم وإعلاء كلمة الله.

التفت زهير بن القين البجلي إلى الواقفين من الرجال وقال "أتتكلمون أم أتكلم؟"

أجابه العديد من الواقفين "تكلم يرعاك الله."

نظر زهير بن القين إلى الحسين بن علي وقال "قد سمعنا هداك الله يا بن رسول الله مقالتك، والله لو كانت الدنيا لنا باقية وكنّا فيها مخلّدين إلّا أن فراقها في نصرك ومواساتك لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها" فدعى له الحسين بن علي بالحسنى.

قال نافع بن هلال بن نافع البجلي "والله ما كرهنا لقاء ربنا وإنّا على نياتنا وبصائرنا نوالي من والاك ونعادي من عاداك" ودعا له الحسين بن علي بالحسنى.

ثمّ قال برير بن خضير "والله يا بن رسول الله لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك فيقطع فيك أعضاءنا ثمّ يكون جدّك رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله شفيعنا يوم القيامة." ودعا الحسين بن علي له

بالحسنى أيضا، وانصرف الجميع بعد أن أصبحت الصورة واضحة على ما هم مقبلون عليه من تضحيات لنصرة الدين.

عند العصر خرج الحسين بن علي وأمر أصحابه بأن يهيؤوا الركب للمسير، ثمّ أمر المنادي بأن ينادي لصلاة العصر، وكان كما صلاة الظهر، بعد أن أقام المؤذن، صلّى كل من المعسكرين خلف الحسين بن علي، وبعد الانتهاء نهض وحمد الله وأثنى عليه والجميع ينظر إليه وقال "أما بعد أيّها النّاس فإنّكم إن تتّقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله عنكم، ونحن أهل بيت محمّد صلى الله عليه واله أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أبيتم إلّا الكراهة لنا والجهل بحقّنا وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت علي به رسلكم انصرفت عنكم."

قال الحر بن يزيد الرياحي والذي كان يجلس مقابل الحسين بن علي تماما "أما والله ما أدري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر."

نظر الحسين بن علي ناحية عقبة بن سمعان وقال "يا عقبة أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إلي."

أخرج عقبة بن سمعان خرجين مملوئين بالكتب والرسائل التي أرسلها أهل الكوفة للحسين بن علي نثرها أمام الحر بن يزيد الرياحي والذي قام واقفا وقام معه كل من فرسانه وقال دون أن يلمس أي كتاب منها "إنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتّى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد."

قال الحسين بن علي له "الموت أدنى إليك من ذلك" ونظر إلى أصحابه وقال "قوموا فاركبوا" فقاموا جميعاً وأركبوا النساء في المحامل ثمّ ركبوا، وكذلك فعل الحر وأصحابه وانتشروا على عرض الطريق مانعين الحسين بن علي وموكبه من التقدم.

اقترب الحسين بن علي على فرسه من الحر بن يزيد الرياحي وقال بصوت غاضب "ثكلتك أمّك ما تريد منا؟"

غضب الحر بن يزيد الرياحي وضرب فرسه بقدمه ليتقدم ودار حول فرس الحسين بن علي وقال بصوت يسمع كل من معه ليتيقنوا أن عدم رده الجواب ليس خوفاً أو جبناً إنما هو لمنزلة أم الحسين بن علي العالية، وكيف يذكر بسوء أشرف نساء المسلمين فاطمة البتول قرّة عين الرسول "أما لو غيرك من العرب يقولها لي ما تركت ذكر أمه بالثكل، كائناً من كان، ولكن مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلّا بأحسن ما نقدر عليه."

لم يتفاجأ الحسين بن علي من الاحترام الذي يكنّه الحر بن يزيد الرياحي لأمه فاطمة الزهراء وهي ابنة الرسول محمّد بل ما قاله الحر هو أقل ما يجب أن يقوله أي مسلم يحترم الرسول وأهل بيته.

سأل الحسين بن علي الحر بن يزيد الرياحي مرة أخرى "ما تريد؟"

أجاب الحر بن يزيد الرياحي "أريد أن أنطلق بك إلى الأمير عبيد الله."

قال الحسين بن علي "إذا والله لا أتبعك."

قال الحر بن يزيد الرياحي "إذا والله لا أدعك."

قال الحسين بن علي "والله لا أتبعك."

قال الحر بن يزيد الرياحي "والله لا أدعك."

رد الحسين بن علي "والله لا أتبعك."

رد الحر بن يزيد الرياحي "والله لا أدعك."

تحرّك الجوادان بشكل دائري وكأن كل منهما يتبع الآخر ولا يستطيع اللحاق به، الفارسان ينظران إلى بعضهما البعض، وكل من حولهم من الفريقين ينظر وينتظر، إلى أن قال الحر بن يزيد الرياحي "إنّي لم أؤمر بقتلك، وإنّما أمرت أن لا أفارقك حتّى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقا نصفا بيني وبينك، لا يدخلك الكوفة ولا يردك إلى المدينة، حتّى أكتب إلى الأمير عبيد الله بن زياد فلعل الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلي بشيء من أمرك، فأنت ابن بنت رسول الله محمد، فخذ ها هنا" وأشار بيده باتجاه الشمال ثمّ أكمل "وتياسر عن طريق العذيب والقادسية، ففيه الحصين بن نمير مع عسكر كثير."

تحرك الحسين بن علي ولا زال الحر بن يزيد الرياحي وعسكره يسير بمحاذاته ولم يلتفت الحسين بن علي إليه.

قافلة الحسين بن علي وقافلة الحر بن يزيد الرياحي

ظل الحر بن يزيد الرياحي على رأس ألف فارس يسير بمحاذاة ركب الحسين بن علي، ولكنّه ترك مسافة بين القافلتين ومرت الساعات وظل الفريقان يتقدمان دون أن يتعرض أحدهما للآخر إلى أن وصلوا إلى منطقة تدعى البيضة، وهي أرض واسعة لا تختلف عما قبلها أو بعدها إلّا ببئر مياه لبني يربوع بن حنظلة.

توقف الفريقان للصلاة وصلّى الجميع خلف الحسين بن علي، وقام بهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال "أيّها النّاس إنّ رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم قال :(من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله) ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غير وقد أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإنّ تممتم علي بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله، نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغتر بكم فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه، وسيغنيني الله عنكم، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

حرك كلام الحسين بن علي شيئا بداخل الحر بن يزيد الرياحي فاقترب وقال "يا أبا عبد الله، إنّي أذكرك الله في نفسك، فإنّي أشهد لئن قاتلت لتقاتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى."

نظر الحسين بن علي إليه وفرسه لا تزال تسير وقال "أفبالموت تخوّفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، وسوف يبتليكم الله بمختلف المحن والرزايا جزاءاً لكم بما فعلتم، إنّي سأقول كما قال أخو الأوس لابن

عمّه وهو يريد نصرة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخوّفه ابن عمّه وقال: أين تذهب فإنّك مقتول، فأجابه:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى

إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه

وخالف مثبوراً وفارق مجرما

فان عشت لم أندم وإن مت لم ألم

كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما

وبعدها تابع الفريقان السير متوازيان لا عسكر الحسين بن علي يقترب من عسكر الحر بن يزيد الرياحي ولا عسكر الحر بن يزيد الرياحي يقترب من عسكر الحسين بن علي إلى أن وصلا إلى منطقة تدعى عذيب الهجانات.

وصول قافلة الحسين بن علي إلى عذيب الهجانات

عذيب الهجانات وادٍ لبني تميم وسمّي نسبة للماء العذب الذي ينبع منه ولهجائن النعمان بن المنذر ملك الحيرة التي ترعى فيه. وصل الفريقان إلى عذيب الهجانات، وارتفع في الأفق غبار، سرعان ما اتضح بأنّه ناتج عن جري عدة خيول يعلوها فرسان قادمون من جهة الكوفة، تنحّوا عن الحر بن يزيد الرياحي وعسكره بمجرد رؤيتهم للرايات الحمراء التي ترفرف كأجنحة الطير فوق رؤوس جنود الحر، واتجهوا إلى معسكر الحسين بن علي.

عندما لاحظ الحسين بن علي ومن معه ذلك ضربوا جيادهم واتجهوا بسرعة نحو هؤلاء الأشخاص، وفعل مثلهم الحر بن يزيد الرياحي بمجرد رؤيته للحسين بن علي ومن معه انطلقوا إلى القادمين، وكذلك اصطحب معه نفر من العسكر.

التقى الجميع وسط زوبعة من الغبار أثارتها حوافر الخيول، وسمع الجميع صوت رجل يقول بصوت عال "السلام عليك يا بن رسول الله."

أجاب الحسين بن علي "وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته."

خمدت غيمة الغبار، واتضح أن المسافرين أربعة من أهل الكوفة، هم عمرو بن خالد الصيداوي، وسعد وجنادة بن الحرث السلماني المذحجي، ومجمع بن عبد الله العائذي المذحجي، ومعهم دليلهم الطرماح بن عدي الطائي، استنقذوه ليدلّهم على الطريق إلى الحسين بن علي، وهو كان قد اشترى مؤن لعائلته عائدا بها إلى الكوفة، فرافقهم ليوصلهم إلى الحسين بن علي، ويعود بعدها ليسلّم أهله ما اشتراه لهم.

اقترب الحر بن يزيد الرياحي وفصل بين الرجال القادمين وبين الحسين بن علي، وقال موجهاً حديثه للحسين بن علي "هؤلاء من أهل الكوفة وليسوا معك وأنا حابسهم أو رادّهم."

قال الحسين بن علي بحزم "لأمنعهم ممّا أمنع منه نفسي، إنّما هؤلاء أنصاري وأعواني، وهم بمنزلة من جاء معي، وقد كنتَ أعطيتني ألّا تتعرض لي بشيء حتّى يأتيك كتاب من ابن زياد." ثمّ وضع الحسين بن علي كفه على قبضة سيفه "فإن بقيت على ما كان بيني وبينك، وإلّا ناجزتك.

نظر الحر بن يزيد الرياحي إلى جنوده على جانبيه وأشار بكفه ليتبعوه، وابتعدوا ليعودوا إلى معسكرهم الذي لا يزال مسايراً لمعسكر الحسين بن علي ولم يتوقف لحظة.

عاد الحسين بن علي ومن معه ومن وصل من الكوفة، إلى القافلة وقال "أخبروني خبر النّاس وراءكم؟

أجاب مجمع بن عبد الله العائذي "أمّا أشراف النّاس، فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم ليستمال ودّهم وتستخلص نصائحهم، فهم إلب واحد عليك، وما كتبوا إليك إلّا ليجعلوك سوقاً ومكسباً، وأمّا سائر النّاس، فأفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك."

وصلوا إلى القافلة واجتمع نفر من الأصحاب ليسلموا على القادمين الجدد، ثمّ اقترب الطرماح من الحسين بن علي وسلم عليه فرد عليه وابتسم للطرماح والذي بدأ بما يريد أن يقوله والقلق باد في عينيه "يا بن رسول

الله، اذكرك الله في نفسك، لا يغرّنك أهل الكوفة، فوالله لئن دخلتها لتقتلن، وإنّي أخاف أن لا تصل إليها، والله ما أرى معك كثير أحد، ولو لم يقاتلك -أشار بكفّه ناحية معسكر الحر بن يزيد الرياحي- إلّا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكفى، ولقد رأيت قبل خروجي إليك بيوم، ظهر الكوفة وفيه من النّاس ما لم ترَ عيناي جميعاً في صعيد واحد أكثر منه قط، فسألت عنهم، فقيل اجتمعوا ليعرضوا ثمّ يسرحون إلى الحسين" ونظر إلى وجه الحسين بن علي باحثاً عن أي أثر للخوف أو الذعر أو الجزع ولكنّه لم يجد إلّا وجهاً مبتسماً لرجل هادئ الأعصاب، وتابع "فأنشدك الله إن قدرت على أن لا تقدم إليهم شبراً فافعل، فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتّى ترى رأيك ويستبين لك ما أنت صانع، فسر حتّى أنزلك مناع جبلنا الذي يدعى أجاء، منزل لبطن من بطون طي، فهو والله جبل امتنعنا به من ملوك غسان وحمير والنعمان بن منذر ومن العرب والعجم، والله ما دخل علينا ذل قط، فأسير معك حتّى أنزلك القرية، ثمّ نبعث إلى الرجال ممن بالجبل أجا وسلمى من طي، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيّام حتّى يأتيك طي رجالاً وركباناً ثمّ أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائي يضربون بين يديك بأسيافهم، فوالله لا يُوصَل إليك أبدا وفيهم عين تطرف" أمعن الطرماح النظر في عيني الحسين بن علي بعد أن صمت باحثاً عن آثار الحماس لهذا العرض ولكن ما أجابه به الحسين بن علي كان عكس ما توقعه.

قال الحسين بن علي له "جزاك الله كل الخير أنت وقومك" وأشار بيده تجاه معسكر الحر بن يزيد الرياحي وقال "إنّ بيننا وبين هؤلاء القوم قولاً لسنا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري علام تتصرف بنا وبهم الأمور في عاقبة فإن يدفع الله عنا، فقديماً ما أنعم علينا وكفى، وإن يكن ما لابد منه ففوز وشهادة."

قال الطرماح "دفع الله عنك شر الجن والإنس، إنّي قد امترت لأهلي من الكوفة ميرة ومعي نفقة لهم، فآتيهم فأضع ذلك فيهم، ثمّ أقبل إليك إن شاء الله، فإن ألحقك فوالله لأكونن من أنصارك.

قال الحسين بن علي "فإن كنت فاعلاً فعجّل رحمك الله."

ذهل الطرماح من جواب الحسين بن علي واصفر وجهه واقشعر بدنه فابن بنت رسول الله مستوحش إلى الرجال حتّى يسأله التعجيل وهو الإمام المفترض الطاعة والخدمة، فسلّم عليه وتنحى عن الركب وانطلق مسرعاً باتجاه الكوفة.

قصر بني مقاتل

وصل الفريقان إلى منطقة تدعى قصر بني مقاتل، وسمّيت بهذا الاسم نسبة لقصر ينسب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة التميمي، توقفت قافلة الحسين بن علي فيها، ونزل وأصحابه من على جيادهم وبدؤوا بسقيها وفرش العلف لها لتأكل وتستريح. على مقربة منهم لاحظ الحسين بن علي فسطاط مضروباً ورمحاً مركوزاً وسيفاً معلّقاً على عمود الخيمة ومهرة عربية على بابه فسأل "لمن هذا الفسطاط؟" توجّه أحد أصحابه ليستعلم وعندما عاد أخبره بأنه فسطاط عبيد الله بن الحر الجعفي، نادى الحسين بن علي أحد أصحابه وهو الحجاج بن مسروق الجعفي وهو من قوم ابن الحر وأملى عليه ما يريده من ابن الحر وأرسله إليه.

انطلق الحجاج بن مسروق الجعفي على الفور وعندما وصل إلى باب الخيمة قال بصوت عالٍ "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته." وما هي إلّا لحظات حتّى ارتفع طرف باب الخيمة وأطلّ عبيد الله بن الحر برأسه راداً السّلام ثمّ وسّع الفتحة سامحاً للحجاج بن مسروق بالدخول وأجلسه وعرض عليه الماء ليشرب ثمّ سأله "ما وراءك؟"

"ورائي يا بن الحر أن الله قد أهدى إليك كرامة إن قبلتها" قالها الحجاج بن مسروق الجعفي ووجهه يشع حماساً.

سأل عبيد الله بن الحر ونظرات شك في عينيه "وما تلك الكرامة؟"

"هذا الإمام الحسين بن علي حفيد رسول الله يدعوك إلى نصرته، فإن قاتلت بين يديه أجرت وإن قتلت بين يديه استشهدت" قالها الحجاج بن مسروق الجعفي منتظراً أن يكسو وجه عبيد الله بن الحر البهجة والحماس لتلك الكرامة ولكنه دهش برد عبيد الله بن الحر.

قال عبيد الله بن الحر "إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والله ما خرجت من الكوفة إلّا كراهية أن يدخلها الحسين بن علي وأنا فيها ولا أنصره، لأنّه ليس في الكوفة شيعة ولا أنصار إلّا مالوا إلى الدنيا إلّا من عصم الله منهم، فعلمت أنّه مقتول ولا أقدر على نصره، والله ما أريد أن أراه ولا يراني."

لم يبقَ الحجاج بن مسروق الجعفي جالساً بعد أن سمع جواب عبيد الله بن الحر، قام على الفور عائداً إلى الحسين بن علي يخبره بما سمع.

قام الحسين بن علي بنفسه واصطحب معه مجموعة من أصحابه وأهل بيته وتوجّه إلى فسطاط عبيد الله بن الحر، والذي كان ينظر من شق في طرف باب الخيمة وبمجرد أن اقترب الحسين بن علي فتح باب الخيمة ووسّع له عن صدر المجلس.

سأل عبيد الله بن الحر وهو ينظر إلى لحية الحسين بن علي "أسواد أم خضاب؟"

أجاب الحسين بن علي "يا بن الحر عجّل علي الشيب."

قدّم عبيد الله بن الحر الجعفي الماء لضيوفه، ورحّب بهم، وجلس مقابل الحسين بن علي، الذي حمد الله تعالى ثمّ قال "يا بن الحر، إن أهل مصركم هذا كتبوا إلي: إنهم مجتمعون على نصرتي، وسألوني القدوم عليهم فقدمت، وليس الأمر على ما زعموا وإن عليك ذنوباً كثيرة، فهل من توبة تمحو بها ذنوبك؟"

سأل عبيد الله بن الحر "وما هي يا بن رسول الله؟"

قال الحسين بن علي "تنصر ابن بنت نبيك وتقاتل معه، فإن أُعطينا حقنا حمدنا الله تعالى على ذلك وقبلناه، وإن منعنا حقنا وركبنا الظلم كنت من أعواني على طلب الحق."

قال عبيد الله بن الحر الجعفي "يا بن رسول الله لو كان في الكوفة شيعة وأنصار يقاتلون معك لكنت أنا من أشدّهم على ذلك، ولكن رأيت شيعتك بالكوفة وقد فارقوا منازلهم خوفاً من سيوف بني أمية، والله، إني لأعلم أن من شايعك كان السعيد في الآخرة، ولكن ما عسى أغني عنك، ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً، فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة" وطأطأ رأسه و تابع غير قادراً على النظر في وجه الحسين

بن علي "فإن نفسي لا تسمح بالموت، ولكن فرسي هذه تدعى الحلقة، فوالله ما طلبت عليها شيئاً قط إلّا لحقته، ولا طلبني أحد وأنا عليها إلّا سبقته، فخذها فهي لك، فاركبها حتّى تلحق بمأمنك، وأنا لك بالعيالات حتّى أردها إليك."

قال الحسين بن علي "أمّا إذا رغبت بنفسك عنّا فلا حاجة لنا في فرسك ولا فيك: (وما كنت متخذ المضلين عضدا) ولكن فر فلا لنا ولا علينا، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ثمّ لا ينصرنا إلّا أكبه الله على وجهه في نار جهنم."

أجاب عبيد الله بن الحر "أمّا هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله."

ثمّ قام الحسين بن علي ومن معه عائداً إلى رحله.

ليلة ولود العام 61 للهجرة

بقيت القافلة في قصر بني مقاتل إلى الليل، وفي الليل أمر الحسين بن علي من معه من الرجال بالاستسقاء والإكثار من الماء لمتابعة المسير.

هذه الليلة هي الأولى من شهر محرم، والقمر لا يزال وليداً لا يقوى على نشر ضيائه، فكان السواد حالكاً، والصمت هو سيد الموقف إلّا من صوت حوافر الخيول في مقدمة القافلة كان الحسين بن علي وإلى جانبه ابنه علي الأكبر، كبا برأسه للحظات وهو على فرسه، ثمّ انتبه وقال بصوت مسموع "إنّا لله وإنّا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين" وأعادها ثلاثة مرات.

سأل علي الأكبر "يا أبه، ممّ حمدت الله واسترجعت؟"

التفت الحسين بن علي إليه وقال "يا بني، إنّي خفقت برأسي خفقة، فعن لي فارس على فرس، وهو يقول: (القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم) فعلمت أنّها أنفسنا نعيت إلينا."

قال علي الأكبر "يا أبت لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟"

قال الحسين بن علي "بلى والذي إليه مرجع العباد."

فقال علي الأكبر "إذا لا نبالي أن نموت محقين."

قال الحسين بن علي "جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده."

عند الفجر توقّفت القافلة لأداء صلاة الفجر ثمّ سارعوا على متابعة المسير، بدأ الحر بن يزيد الرياحي يرسل فرساناً يعيقون الحركة المستقيمة لقافلة الحسين بن علي محاولين إجبارها للتنحي والاقتراب أكثر للكوفة، ولكن الحسين بن علي ومن معه أبوا إلاّ أن يتابعوا مسيرهم إلى الأمام. أشرقت الشمس ومع ارتفاعها زادت مضايقات فرسان الحر لقافلة الحسين، وظهر في الأفق فارس مدجج بالسلاح مسرعاً على فرسه متجهاً نحوهم من ناحية الكوفة، وما إن وصل حتّى توقف الرَكبان عن المسير والذين كانا يسيران بمحاذات بعضهما دون مسافة تفصل بينهم.

توقّف الفارس وسلّم على الحر بن يزيد الرياحي ولم يسلم على الحسين بن علي، وناول الحر كتاباً، وقال بصوت مسموع "من الأمير عبيد الله بن زياد." أمسك الحر الكتاب وفتحه وقرأه بعينيه، في تلك الأثناء اقترب يزيد بن زياد من أصحاب الحسين بن علي والملقّب أبو الشعثاء بفرسه ناحية الفارس الذي قدم من الكوفة وقال له "أمالك بن النسر الكندي؟

أجاب الفارس "نعم."

قال يزيد بن زياد بصوت غاضب "ثكلتك أمّك ماذا جئت فيه؟"

أجاب مالك بن النسر "ما جئت فيه أطعت إمامي ووفيت ببيعتي."

قال يزيد بن زياد "بل عصيت ربك وأطعت إمامك في هلاك نفسك وكسبت العار والنار، وبئس الإمام إمامك، قال الله تعالى - وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ - فإمامك منهم."

توجّه الحر بن يزيد الرياحي على فرسه حتّى وقف مقابل الحسين بن علي وقرأ الكتاب بصوت مسموع "أمّا بعد، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي هذا، ويقدم عليك رسولي، ولا تنزله إلّا بالعراء في غير خضرة وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتّى يأتيني بإنفاذك أمري والسلام."

قال الحسين بن علي للحر بن يزيد الرياحي "ويحك دعنا ننزل إحدى القرى، نينوى أو الغاضريات أو شفية."

فأجاب الحر "لا أستطيع، إنّ الرجل عين علي."

ثمّ اقترب زهير بن القين من الحسين بن علي وقال "يا بن رسول الله، إنّ قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا ما لا قبل لنا به."

أجاب الحسين بن علي "ما كنت لأبدأهم بقتال حتّى يبدئوني."

قال زهير بن القين "سر بنا يا بن رسول الله إلى هذه القرية فإنّها حصينة وهي على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم."

سأل الحسين بن علي "ما اسمها؟"

أجاب زهير بن القين "تسمى العقر وهي قريبة من القرى الثلاثة."

قال الحسين بن علي "اللّهم إني أعوذ بك من العقر."

قال زهير بن القين "فسر بنا يا بن رسول الله حتّى ننزل كربلاء فإنّها على شاطئ الفرات، فنكون هناك فإنّ قاتلونا قاتلناهم واستعنا الله عليهم."

عند ذكر زهير بن القين اسم كربلاء قال الحسين بن علي بصوت حزين "اللّهم إنّي أعوذ بك من الكرب والبلاء."

وصول قافلة الحسين بن علي إلى كربلاء

2 محرم61 هجري

2 تشرين الأول 680 ميلادي

نظر الحسين بن علي إلى الأرض القاحلة على مد النظر، فوقها سماء خالية من الغيوم، في قبتها شمس لهيبها لا يعرف الفرق بين ابن بنت رسول الله أو مَن خَرج لقتاله. لمح من مكانه مجموعة من النخيل محاذية

لشط نهر الفرات، مياهه تترقرق لامعة تحت أشعّة الشمس الحارقة، نزل من على فرسه البيضاء ذو الجناح والتي كانت من سلالة عربية أصيلة، تتميّز بقوّتها وقدرة تحملها وجمالها وسرعة عدوها.

كفّه على لجام الفرس، ينظر إلى الشبّان حوله منتظرين أوامره، نظر إلى ابنه علي الأكبر، وكان شبيهاً بجدّه رسول الله محمد، ابتسم عندما تذكر جدّه رسول الله. إلى جانب علي الأكبر، أبناء أخيه الحسن كريم آل محمد، القاسم وعبد الله وأبو بكر. نظر إلى عون، ابن الغالية على قلبه، أخته زينب، وأخوه محمّد بمحاذاته. ثمّ التفت يسارا لينظر إلى ابن مسلم عبد الله، وآثار الحزن على فراق أبيه لا تزال واضحة على وجهه، ثمّ التفت إلى الناحية الأخرى من فرسه، فوجد أخاه العبّاس والملقّب بأبي الفضل، لا يزال بجانب محمل أخته زينب، يحرص على راحتها وخدمتها وحمايتها حتّى من نسمات الهواء، بحث بعينيه عن باقي إخوته، عبد الله، وجعفر، وعثمان، من أبيه علي بن أبي طالب، وجدهم واقفين ناظرين إليه، جانب أخيهم محمّد الأصغر، وأمّه أمّ ولد، خلفهم أبناء عمّه عقيل، شباب من بني هاشم جاؤوا لنصرته وإعلاء كلمة الله في وجه الطاغية يزيد بن معاوية.

دمعت عينا الحسين بن علي ورفع رأسه نحو السماء وقال "اللّهم إنّا عترة نبيك محمّد، قد أُخرجنا وطُردنا وأُزعجنا عن حرم جدّنا، وتعدّت بنو أميّة علينا، اللّهم فخذ لنا بحقّنا وانصرنا على القوم الظالمين" ثم أرخى رأسه ونظر إلى عشرات الرجال من أصحابه الذين التفّوا حول شباب بني هاشم، فتيان لم يبلغوا الحلم، وشباب، وشيوخ ابيضّت لحاهم، منهم من تركوا أهاليهم وعيالهم، ومنهم من أحضر عياله معه، ليكون مصيره كمصير الحسين بن علي، ومصير عياله كمصير عيال الحسين بن علي.

قال موجهاً كلامه للجميع "الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون" هبت نسمة هواء وأثارت الغبار بين الواقفين المحيطين به وبفرسه، مشدودين منصتين، وكأنّهم يسمعون صوته لآخر مرة من أعمارهم "نزل بنا من الأمر ما قد ترون وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل،

ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله! فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برما."

شقّ زهير بن القين طريقه إليه، وصل إلى خلف شباب بني هاشم، ثمّ توقّف وقال بصوت مسموع للجميع ممزوج بالحماس "سمعنا يا بن رسول الله مقالتك ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها، وقلت ذلك في الطريق وأقوله الحين وسأقوله للأبد والله على ما أقول شهيد."

ثمّ قال برير بن خضير "يا بن رسول الله لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك تقطع فيك أعضاؤنا ثمّ يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة."

تقدّم نافع بن هلال حتّى وصل إلى خلف أولاد الحسن بن علي بن أبي طالب، وقال "سيدي أبا عبد الله، أنت تعلم أنّ جدّك رسول الله لم يقدر أن يُشرِب النّاس محبته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحب، وقد كان منهم منافقون يعدونه بالنصر ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل ويخلفونه بأمرّ من الحنظل، حتّى قبضه الله إليه، وإنّ أباك علياً كان في مثل ذلك، فقوم قد أجمعوا على نصره، وقاتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين، حتّى أتاه أجله فمضى إلى رحمة الله ورضوانه وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة" ورفع يده وصرخ بصوت عال وهو يشير بيده إلى الأفق "فمن نكث عهده وخلع بيعته، فلن يضر إلّا نفسه، والله مغنٍ عنه، فسر بنا راشداً معافى، مشرّقاً إن شئت أو مغرّباً -حرك يده اليمنى بين الشرق والغرب- فوالله ما أشفقنا من قدر الله ولا كرهنا لقاء ربنا وإنّا على نياتنا وبصائرنا نوالي من والاك ونعادي من عاداك."

ابتسم الحسين بن علي عندما رأى حماس أصحابه وأهل بيته لنصرته ورفع رأسه وحمد الله وأثنى عليه ثمّ أمرهم بالبدء بنصب الخيام، فضرب الأصحاب أخبيتهم شرقي خيام الحسين بن علي، وضرب بنو هاشم أخبيتهم في الجانب الغربي من خيام الحسين بن علي، وأحاطت خيام الجميع بخيمة الحسين بن علي.

ثم وزع الحسين بن علي احدى عشرة راية من الاثنا عشرة راية واعطى أكبر واهم راية لأخيه العباس. أحد الأصحاب اقترب وطلب الراية الثانية عشر ولكن الحسين بن علي أخبره بأن الراية لمقاتل لم يصل بعد.

كل الأصحاب كانوا متشوقين لمعرفة من صاحب الراية الأخيرة وانجلت حيرتهم عندما وصل حبيب بن مظاهر واقترب من الحسين بن علي ونزل من على ظهر فرسه وقبل التراب بين قدميه ثم اقترب ليقبل أقدامه ولكن الحسين بن علي أبعدها وساعده بساعديه القويين ليقف مرة أخرى والدموع تجري على خديه وهو يشكر الله بصوت مسموع على الشرف الذي شرفه به بخدمة الحسين بن علي.

في هذه الأثناء وصل العباس بن علي وأخبر حبيب بن مظاهر "فخر المخدرات زينب بنت امير المؤمنين تقرؤك السلام."

بدأ بالبكاء مرة أخرى وهو يقول "من أنا وما قيمتي لتسلم علي بنت أمير المؤمنين؟"

في تلك الأثناء أرسل الحر بن يزيد الرياحي رسالة الى عبيد الله بن زياد يخبره بوصول الحسين بن علي ونزوله في كربلاء

لم ينتهِ النهار حتّى وصلت رسالة من عبيد الله بن زياد ردا على رسالة الحر موجّهة إلى الحسين بن علي، حامل الرساله توجّه مباشرة إلى معسكر الحسين بن علي، وسلّمه الرسالة وقد جاء فيها "أمّا بعد، يا حسين فقد بلغني نزولك بكربلاء، وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ألّا أتوسّد الوثير، ولا أشبع من الخمير، أو ألحقك باللطيف الخبير، أو تنزل على حكمي وحكم يزيد والسلام."

أنهى الحسين بن علي قراءة الكتاب ورماه من يده إلى الأرض، وقال "لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق."

كان الرسول لا يزال واقفاً منتظراً الجواب فقال له الحسين بن علي "ماله عندي جواب لأنّه حقّت عليه كلمة العذاب."

رجع الرسول ليخبر عبيد الله بن زياد بالأمر، والذي غضب غضباً عارماً عندما علم بذلك. وأرسله خلف عمر بن سعد والذي كان معسكرا في منطقة حمام أعين وقد ارسله مع أربعة الاف فارس الى دستي لإعادتها تحت حكمه بعد ان استولى عليها الديلم، ووعده في حال أعادها بمنحه حكومة إقليم الري وسلمه كتاب مختوم فيه هذا الوعد.

استقبل عمر بن سعد الرسالة والتي تأمره بأن يتوجه لحرب الحسين بن علي على الفور ثم بعد ذلك يعود لإنهاء المهمة المكلف بها.

عمر بن سعد عاد الى الكوفة ودخل الى عبيد الله بن زياد وحاول إقناعه بإعطاء مهمة قيادة الجيش لحرب الحسين بن علي لشخص اخر.

عبيد الله بن زياد قال "حسنا ولكن تعيد لنا الكتاب بتنصيبك حاكما لإقليم الري"

وجه عمر بن سعد أصبح شاحب اللون، أحس بأن حكومة إقليم الريم تنسل من يده فقال لعبيد الله بن زياد "أمهلني اليوم."

خرج وقابل بعض أقاربه واستشارهم ولم يؤيده أي منهم الخروج وحرب الحسين بن علي. وله ابن أخت يدعى حمزة بن مغيرة بن شعبة عندما علم بالأمر جاء مسرعا إليه وقال له "أنشدك الله يا خالي ألا تسير إلى الحسين بن علي فتأثم وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك، خير من أن تلقى الله بدم الحسين بن علي."

أجاب عمر بن سعد "أفعل."

أمضى عمر بن سعد ليلته مفكرا وصار يقول:

أأترك ملك الري والري رغبة أم أرجع مذموما بقتل حسين

وفي قتله النار التي ليس دونها حجاب وملك الري قرة عين

في الصباح حدث حديث بينه وبين عبيد الله بن زياد وكانت النتيجة بأن عمر بن سعد قبل قيادة الجيش لحرب الحسين بن علي.

وصول أول دفعة للجيش بقيادة عمر بن سعد إلى كربلاء

3 محرم 61 هجري

3 تشرين الأول 680 ميلادي

وصل عمر بن سعد إلى كربلاء مع أوّل دفعه من جيشه وعددها أربعة آلاف، وعسكر بنفس المكان الذي كان الحر بن يزيد الرياحي معسكراً فيه مع الألف فارس، الذين ظلّوا ملازمين الحسين بن علي حتّى وصل إلى هذه البقعة.

نُصبت الخيام وكان أكبرها خيمة عمر بن سعد وحولها باقي الخيام، كان الحراس يحيطون خيمة عمر بن سعد من كل الجهات، لا يسمحون لأحد الدخول أو الخروج إلّا بأذنه.

اجتمع عمر بن سعد مع بعض قادة المعسكر الذين حضروا معه، ومنهم عروة بن قيس الأحمسي.

قال له عمر بن سعد "اذهب إلى الحسين واسأله ما الذي جاء بك وماذا تريد؟

كان عروة بن قيس الأحمسي ممن كتب إلى الحسين بن علي طالباً منه القدوم إلى الكوفة فاستحى من أن يأتيه، ورفض توصيل الرسالة

التفت عمر بن سعد إلى الرجال حوله فرداً فرداً، كلّهم أبوا أن يذهبوا إلى الحسين بن علي، لأنّهم جميعا قد أرسلوا رسائلهم من الكوفة طالبين منه القدوم.

بين الموجودين كثير بن عبد الله الشعبي، فارس معروفاً بقوّته ولا يستحي إظهار شدّة عدائه لآل بيت رسول الله فقال لعمر بن سعد، "أنا أذهب إليه، وإن شئت لأفتكنّ به."

قال عمر بن سعد "ما أريدك أن تفتك به، ولكن آته فسله: ما الذي جاء به؟"

لم يوفر كثير بن عبد الله الشعبي لحظة، خرج وامتطى فرسه وتوجّه إلى معسكر الحسين بن علي.

أوّل من رآه من معسكر الحسين بن علي، عمرو بن عبد الله، المكنّى بأبي ثمّامة الصائدي من بني صائد، وكان من فرسان العرب ومحبّي آل بيت رسول الله محمّد صلى الله عليه و اله و سلم ومن أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وخاض معه كل حروبه، وصحب ابنه الحسن، وبقي في الكوفة إلى أن مات معاوية وخلفه يزيد، وكان من طليعة المعارضين لخلافة يزيد، ومن الكبار الذين اجتمعوا في دار سليمان بن صرد الخزاعي وكاتبوا الحسين بن علي مطالبيه بالقدوم للكوفة، ولما ورد مسلم بن عقيل الكوفة، كان هو في مقدمة أعوانه وأنصاره، وصار يقبض الأموال من المتبرعين ويشتري بها سلاحاً وعدة، ولمّا تفرق النّاس عن مسلم بن عقيل وخذلوه، خرج متخفياً ومعه نافع بن هلال الجملي، والتحقا بالحسين بن علي أثناء الطريق وصارا معه حتّى نزلا كربلاء.

قال أبو ثمّامة الصائدي للحسين بن علي وهو ينظر إلى كثير يقترب من المعسكر "يا أبا عبد الله، جاءك شر أهل الأرض، وأجرؤهم على دم وأفتكهم."

ركب أبو ثمّامة فرسه وانطلق ليقابله قبل أن يصل إلى المعسكر، أوقف كثير بن عبد الله الشعبي فرسه عندما وصل أبو ثمّامة قبالته ولم يلق السّلام وقال على الفور "أنا مرسل للحسين."

قال أبو ثمامة الصائدي له "ضع سيفك."

أجاب كثير بن عبد الله الشعبي وفرسه لم تهدأ لحظة عن الحركة يمينا ويسارا كأنها تريده أن ينزل من على ظهرها "لا والله ولا كرامة، إنّما أنا رسول، فإنّ سمعتم منّي بلّغتكم ما أرسلت به إليكم، وإلّا انصرفت عنكم."

أصرّ أبو ثمامة الصائدي "آخذ بقائم سيفك أولا ثمّ تتكلم بحاجتك."

صرخ كثير بن عبد الله الشعبي "لا والله ولا تمسّه."

قال أبو ثمامة الصائدي بهدوء "أخبرني بما جئت به وأنا أبلغه عنك ولا أدعك تدنو من الإمام الحسين بن علي، فإنّك فاجر."

غضب كثير بن عبد الله الشعبي وشتم أبا ثمامة الصائدي وعاد إلى عمر بن سعد.

دخل الخيمة وأخبره بما حدث والغضب يشع من عينيه، أدار كل من حول عمر بن سعد وجوههم لكيلا تظهر على عيونهم نظرات تدينهم بأنهم شامتون به بعد أن قفز من بين الجميع مدّعياً بأنه يستطيع الفتك بالحسين بن علي ولكنه لم يستطع حتّى رؤيته.

نظر عمر بن سعد حوله مرة أخرى فوقعت عينه على قرة بن قيس الحنظلي وقال له بحزم ليفهمه بأنه لا يطلب منه بل يأمره "ويحك يا قرة، الق حسيناً فسله عمّا جاء به وماذا يريد؟"

عندما فتح قرة بن قيس الحنظلي فاهُ ليتكلم، رفع عمر بن سعد كفه وأرخى رأسه لكيلا تلتقي عيناه بعيني قرة. فخرج قرة بن قيس الحنظلي من الخيمة ممتعضاً وامتطى فرسه وتوجّه إلى مخيم الحسين بن علي.

عندما رأى الحسين بن علي قرة بن قيس الحنظلي يقترب من المعسكر سأل أصحابه "أتعرفون هذا؟"

أجاب حبيب بن مظاهر "هذا رجل من حنظلة تميم، وهو ابن أختنا، ولقد كنت أعرفه بحسن الرأي، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد."

وصل قرة بن قيس الحنظلي إلى المعسكر وألقى السلام، كان الحسين بن علي يقف بين أصحابه وإخوته فأجابوا جميعا السلام. ثمّ قال "عمر بن سعد يسأل ما الذي جاء بك يا أبا عبد الله؟"

قال الحسين بن علي "كتب إليّ أهل مصركم: أن أقدم، فأمّا إذا كرهتموني فإنّي أنصرف عنكم من حيث جئت."

همّ قرة بن قيس الحنظلي بالانصراف ولكن سؤال حبيب بن مظاهر له أوقفه "ويحك يا قرة، أين ترجع إلى القوم الظالمين؟" ورفع كفه مشيرا إلى الحسين بن علي "انصر هذا الرجل الذي بآبائه آتاك الله الكرامة."

علت الحمرة وجه قرة بن قيس الحنظلي محرجاً، صمت لبرهة ثمّ أجاب دون أن ينظر إلى عيني حبيب بن مظاهر "أرجع إلى صاحبي بجواب رسالته وأرى رأيي" وجرى مسرعاً إلى فرسه وانطلق عائداً إلى عمر بن سعد ليخبره بجواب الحسين بن علي.

ظل عمر بن سعد صامتاً عندما سمع الجواب، وقرة بن قيس الحنظلي لم يزل واقفاً قبالته، كان يخيّر نفسه بين حكم بلاد الري التي وعده بها عبيد الله بن زياد إذا قاتل الحسين بن علي، وبين الذنب الذي سيظل في رقبته بقتاله ابن بنت رسول الله محمّد بن عبد الله، رفع رأسه وقال "أرجو أن يعافيني الله من أمره."

ثمّ أمر مولاه بأن يحضر دواة ورقعة وقصبة، وأملى عليه رسالته إلى عبيد الله بن زياد يخبره بما أجابه به الحسين بن علي.

"أما بعد، فإنّي حيث نزلت بالحسين بن علي بعثت إليه رسولي، فسألته عمّا أقدمه وماذا يطلب؟ فقال: كتب إليّ أهل هذه البلاد، وأتتني رسلهم يسألوني القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني وبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم."

ختم الكتاب وأرسله على الفور إلى عبيد الله بن زياد دون تأخير أو مماطلة.

وصل جواب الكتاب من عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد بنفس اليوم وجاء فيه:

"أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا فيه رأينا والسلام." ولم يعرض عمر بن سعد ما جاء في الكتاب على الحسين بن علي ليقينه بأنّه لن يبايع يزيد أبداً.

صلاح الشامي في الكوفة

صلاح من دمشق شاب في الخامسة والعشرين من العمر وحيد لوالديه، ورث تجارة التمور من أبيه بعد أن مات في أواخر شهر رمضان، وهو الآن مضطر إلى السفر إلى الكوفة لشراء التمور بعد أن باع كل ما كان في المخزن. أم صلاح لا تزال على قيد الحياة وأصلها من الكوفة، كان والده قد وقع في غرامها في إحدى زياراته المتكررة للكوفة أيّام صباه. كان لا يزال على قيد الحياة جدّه في الكوفة، وهو شيخ طاعن في السن ينتظر انقضاء أيامه القليلة ليستريح. وصل صلاح إلى الكوفة في اليوم الثاني من شهر محرم، وأخبره جده بما جرى في الكوفة من قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة واعتقال جنود عبيد الله بن زياد لآلاف الرجال

الموالين للحسين بن علي، وزجّهم بالسجون، ومنهم المختار الثقفي، ولا زال الجنود منهمكين بالقبض على كل من يعلمون أو حتّى يظنون بأنه خارج للانضمام إلى عسكر الحسين بن علي، فارتعدت فرائص صلاح فالأجواء بدمشق بعيدة كل البعد عن الحرب والقتال.

قضى كامل يومه في بيت جده دون أن يخرج أو يختلط بأهل الكوفة لكيلا يصادف عسكر عبيد الله بن زياد وقضى ليلة مليئة بالكوابيس استيقظ ثيابه مبلّلة من العرق وخصل من شعره ملتصقة على جبهته، مسح جبهته وقلبه ينبض بقوة وأنفاسه متسارعة، قام ليشرب قليلاً من الماء ثمّ خرج ليستنشق الهواء العليل.

في الصباح تناول فطوراً دسماً مع جده، وأخبره بنيته بمغادرة الكوفة على الفور، لكن جدّه حذّره بأنّه تصرف ليس حكيم، فعبيد الله بن زياد أمر من بقي من الرجال بالكوفة بالحضور إلى المسجد، وفي حال حاول الخروج من الكوفة، ورأوه جنود عبيد الله بن زياد سيظنون بأنه غير راغب بالحضور إلى المسجد والاستماع إلى كلام الأمير، وعندها سيحصل ما لا يحمد عقباه.

رافق صلاح جدّه بخطواته البطيئة إلى مسجد الكوفة مكرهاً، يسير خلفه من سكّة إلى سكّة يراقب عدد الرجال يتزايد، يسيرون باتجاه واحد كمياه النهر، جميعا متوجهين إلى المسجد، وصلا إلى الساحة التي خلف السوق قبل المسجد المعظم، كانت مكتظّة بالرجال الذين تدفقوا من كل السكك المحيطة بها، فاستغرق صلاح وجدّه ضعف الوقت الذي استهلكاه للوصول إلى هنا، فقط ليعبرا السوق ويدخلا مسجد الكوفة.

جلس بجانب جدّه في المسجد، ونظر حوله مراقباً الرجال الذائبين بنقاشاتهم بحماس، ارتفعت درجة حرارة الجو داخل المسجد لارتفاع الشمس إلى أعلى السماء، لم يلاحظ صلاح أحداً من النّاس حوله قد تململ أو تأفف لقضائهم هذا الوقت الطويل بانتظار عبيد الله بن زياد والذي لم يظهر بعد، ولكن لم الملل

فعلى ما يبدو بأنّ الرّجال في الكوفة كالنساء في دمشق لا يشبعون من الثرثرة، صرخ قائد الشرطة والذي كان بجانب المنبر الخشبي "الأمير عبيد الله بن زياد أطال الله عمره."

دخل شاب في العقد الثالث من العمر، لحيته سوداء ويعتمر عمامة سوداء، ويضع على كتفيه عباءة زرقاء داكنة مزركشة بخيوط الذهب، بُهر صلاح برتابة ملابسه وجمال عمامته والتي تزينها ثلاثة أحجار كريمة بلون الدم لم يعلم ما هي زمرّد أم ياقوت.

انحنى قائد الشرطة وقبّل يد عبيد الله بن زياد قبل أن يصعد الأخير المنبر الخشبي ويضرب بكفه اليمين على المسند الخشبي برفق، الجميع صامت لا ينبس ببنت شفة وكأن على رؤوسهم الطير، لاحظ صلاح بأن الشرطة يمسحون الموجودين بنظراتهم فرداً فرداً، وأعاده إلى الواقع صوت عبيد الله بن زياد.

"أيّها الناس، إنّكم قد بلوتم آل سفيان فوجدتموهم كما تحبّون، وهذا أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، قد عرفتموه حسن السيرة، محمود الطريقة، ميمون النقيبة، محسناً إلى الرعية، يعطي العطاء في حقّه، وقد أمنت السبل على عهده، وأطفئت الفتن بجهده، وكذلك كان أبوه معاوية في عصره، وهذا ابنه يزيد من بعده يكرم العباد، ويغنيهم بالأموال ويزيدهم بالكرامة، وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أوّفرها عليكم، وآمركم أن تخرجوا إلى حرب عدوّه الحسين بن علي، فاسمعوا له وأطيعوا" وصمت عبيد الله بن زياد لحظات، ولم يجرؤ أحد على الكلام، أو الحراك، والجميع ناظر إليه، ثم تابع قائلاً "أنا معسكر في النخيلة يوم غد ولا يبقى رجل من العرفاء والمناكب والتجار والسكان إلّا خرج فعسكر معي، وأيّما رجل وجدناه بعد خروجي متخلفاً عن العسكر إلّا برئت الذمّة منه" انتفض ونزل من المنبر وتوجّه بسرعة خارجا من المسجد بعد أن وقف الحراس صفين متقابلين ليمر بينهما دون أن يقترب منه أحد.

ارتبك صلاح ولم يعلم ما الذي يتوجب عليه فعله فالخروج من الكوفة في هذا الوقت بالغ الخطورة، والبقاء بها أيضاً كالانتحار، فعيون عبيد الله بن زياد لن ترحم أحداً وكل من يتخلف سيلقى حتفه. قضى باقي يومه محتاراً لا يعلم ما يفعل، فهو ليس بجندي لينضم إلى جيش عبيد الله بن زياد، وحتّى لو كان

جندياً لن يخرج لحرب الحسين بن علي ابن بنت رسول الله، كان جدّه محتاراً ومرتبكاً أيضاً، يعلم بأنّ عدم خروج صلاح إلى النخيلة يعني موته، فنصحه بالخروج إلى النخيلة، والعمل مع العسكر بغير القتال، مثل طهو الطعام أو معالجة الجرحى، ولكنّ صلاحاً أبى وقرّر استغلال ظلام الليل والخروج من الكوفة، عبيد الله بن زياد قد حذّر من تخلّف الرجال في الكوفة بعد أن يعسكر في النخيلة يوم غد وليس الليلة.

خرج صلاح ليلاً يسحب فرسه، متخذاً سواد الليل ساتراً لكيلا يراه أحد، حاول جاهدا عدم إصدار ضجيج، ولكن صوت حوافر الخيل كان واضحاً جلياً في صمت الليل ازداد قلقه مع كلّ خطوة يخطوها، على الرغم من أنّه لم يصادف أحدا من النّاس أو من الشرطة أو العسكر أحسّ بالارتياح بعد أن خرج من آخر سكّة وصار خارج أسوار الكوفة، أمامه صفحة سوداء مظلمة لا نهاية مرئية لها.

توقف وصار يعدّل سرج الفرس عندما سمع صوت رجل يأمره بالاستدارة، لم يكن صلاح يملك لياقة الجنود أو سرعتهم، ولكن خوفه في تلك الثانية جعله يقفز على ظهر فرسه وينطلق بأقصى مجهود يستطيع الفرس أن يبذله.

دون ان ينظر خلفه كان ضجيج الاحصنة التي تتبعه واضحا وصوت نقر حوافرها على التراب الجاف كقرع الطبل، فلم يستطع أن يتبين كم عدد الخيول التي كانت وراءه، ولكنّه على يقين بكثرتها لكثرة عدد طرقاتها على التراب. خيال فرسه افترش التراب أمامه بسبب مشاعل النار التي يحملها الجنود خلفه، كان صوت حوافر الخيل يتعالى، وخيال فرسه يقصر أمامه على التراب، أصوات السّهام تشق الهواء بحدة، لم ينظر صلاح إلى الخلف ليرى مصدر الألم الناري الذي اخترق رقبته من الخلف، بل لم يملك الخيار بالنظر لأنه سقط على الأرض وصوت غرغرة تخرج من حلقه.

منذ الصباح الباكر كان جسد صلاح في السوق مقطوع الرأس ومصلوباً على عمود خشبي مرتفع.

بعد هذا المشهد لم يبق أحد من الرجال داخل الكوفة وتوجّهوا إلى النخيلة كما أمرهم عبيد الله بن زياد.

يومي الخامس والسادس من محرم

أمضى القعقاع بن سويد بن عبد الرحمن المنقري كامل يومه برفقته بعض العساكر يطوف سكك الكوفة ليلقي القبض على أي شاب أو رجل قد تخلّف عن اللحاق بمعسكر عبيد الله بن زياد في النخيلة، والذي كان قد أرسل خلال اليومين الخامس والسادس من محرم كل من شمر ذي الجوشن، والحصين بن نمير، ومضاير بن رهينة، وكعب بن طلحة، ويزيد بن الركاب، ونصر بن حرشة، وحجار بن أبجر العجلي، قادة على دفعات الجيوش الذي سارت من النخيلة إلى كربلاء، وكان آخرها شبث بن ربعي على رأس ألف فارس، وكان مجموع ما تحرك من النخيلة إلى كربلاء في عشية اليوم السادس من محرم خمس وعشرون ألف فارس، وانضموا إلى الخمسة آلاف فارس، أربعة آلاف كانت قد وصلت بقيادة عمر بن سعد في اليوم الثالث من محرم، وألف بقيادة الحر بن يزيد، والذي كان قد سقاهم الحسين بن علي ماء عندما وصلوا عطاشى. فكان مجموع الجيوش المتأهبة لقتال الحسين بن علي ثلاثين ألف، بسلاحهم وعتادهم ينتظرون الأوامر ببدء القتال، ليرووا عطش سيوفهم من دماء الحسين بن علي ومن معه.

أرسل عبيد الله بن زياد مع آخر دفعة من الجنود بقيادة شبث بن ربعي كتاباً إلى عمر بن سعد وجاء فيه "إنّي لم أجعل لك علّة في كثرة الخيل والرجال، فانظر إنّي لا أصبح ولا أمسي إلّا وخبرك عندي غدوة وعشية."

كان الحسين بن علي ومن معه يراقبون الآلاف الواصلة من الجنود ويقومون بتقييم مميزات جيش الخصم من حيث العدد والعدة، ومع أن عدد جيش عمر بن سعد ضخما الا انه لم يزرع الخوف في نفس الحسين بن علي ونفس أصحابه لأنهم يعلمون علم اليقين بان النصر ليس بالضرورة بكثرة العدد بل ان النصر حليف الجيش ذو الاستراتيجية الحربية الأمتن والأسلحة المستخدمة و الحرب الفكرية.

وكانت الأسلحة التي تواجدت في جيش عمر بن سعد متنوعة ومتعددة فالسيوف كانت نوعين سيوف منحنية وسيوف مستقيمة والتي كانت نوعين سيوف مستقيمة بطرف حاد واحد وسيوف مستقيمة بطرفين

حادين وهذه السيوف تستخدم مع الجنود المشاة أما السيوف المنحنية فيستخدمها الخياله لسهولة استخدامها مع حركة الفرس السريعة.

السهام والتي كانت الأكثر استخداما في الحروب بين الجيوش.

الرماح بكل أنواعها ومقاساتها وأشكالها، وتتألف من عمود من الخشب والرأس الحاد من المعدن. يستخدم الرماح الخيالة لقتل المشاة من على ظهر خيولهم دون الحاجة للنزول من الفرس.

المقلاع والذي هو قطعة جلد بيضوية الشكل ربط بطرفيها البعيدين حبلين أحدهما أطول من الآخر ويستخدم المقلاع لرمي الحجارة وكرات الحديد على الخصم.

العامود وهو قضيب معدني طويل ذو رأس حاد يتسبب بجروح كبيرة ويستخدمه الخيالة ويسندونه على السرج من جهة اليمين لثقله.

الدبوس وهو كالعامود ولكن بحجم صغير وقضيبه ليس من المعدن وانما من القصب او الخشب ويسبب جروح أصغر من جروح العمود.

النابوت وهو عبارة عن قضيب خشبي له طرف مدبب أعرض وأثقل من الطرف الاخر، على الطرف المدبب زرع المسامير فيمسكه الجندي من الطرف النحيل ويضرب الطرف العريض مع المسامير على وجه ورأس الخصم.

الفؤوس والخناجر والسكاكين.

الدروع مصنوعة من خشب الجوز لتميزه بالقساوة والتحمل.

حبيب بن مظاهر في قرية بني أسد

كان النهار بطيئاً بسيره، ثقيلاً على قلوب من حضر في كربلاء، حارقاً بحرارة شمسه، بخيلاً بنسمات هوائه، إلى أن غاب، وأقبل الليل والقمر هلال في طرف السماء، والنجوم تجرؤ على البريق غير عالمة بما يجري لحفيد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وأهل بيته.

حبيب بن مظاهر اقترب من الحسين بن علي والذي كان جالساً خارج خيمته ناظراً إلى السماء، يتأمل عظمة خلق الله وجمال سماوته، انتبه إلى اقتراب حبيب بن مظاهر الذي قال له بعد أن ألقى السّلام "يا بن رسول الله هاهنا حي من بني أسد بالقرب منا، أتأذن لي في المسير إليهم فأدعوهم إلى نصرتك فعسى الله أن يدفع بهم عنك؟"

ابتسم الحسين بن علي وقال "قد أذنت لك."

لم يضيّع حبيب بن مظاهر ثانية أخرى، نهض وشد حزامه وأرخى طرف عمامته وغطّى وجهه بها ولم تظهر منه إلا عيناه، وانطلق إلى بني أسد، يسير على التراب الجاف الذي لا يزال ساخناً من آثار الشمس الحارقة في النهار دون أن يثير ضجّة أو صوتاً، فهو يعلم بأن عمر بن سعد زرع العيون في المحيط، يوصلون له أخبار كل حجر تحرك من مكانه، وبينهم عيون لعبيد الله بن زياد، يوصلون له أخبار من يتقاعس أو يقصّر بأداء مهامه، فيكون مصيره كمصير أعدائه إما القتل أو النفي.

سار حبيب بن مظاهر لساعة يستدل بالنجوم أولاً فالظلام كفيل بإخفاء آثار أعرض الطرق، وبحدسه ثانياً فهو رجل طاهر السريرة لطالما أرشده قلبه إلى الخيارات السليمة.

كانت آثار البيوت من بعيد كأشباح سوداء تنتشر على مساحة واسعة من الأرض لا أثر لمشعل أو نور، و لكن ضوءاً باهتاً مربع الشكل في صفحة سوداء صادراً من نافذة أحدها، توجّه إليه حبيب بن مظاهر بكل هدوء وحذر، طرق الباب وانتظر، فتح رجل في منتصف العمر، ضخم الجسد، غزير اللحية، لم يتبيّن لون بشرته أو لون عينيه ففي الظلام لم يظهر إلّا حجمه، سلّم حبيب بن مظاهر وعرّفه عن نفسه

بعد أن أرخى لثامه، أدخله الرجل إلى المجلس، أخبره حبيب بجمع كبار الحي لأمر هام يريد إخبارهم به فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة تركه الرجل في المجلس وخرج بيده مشعل ودار على البيوت يطرق أبوابها ويطلب من أهلها القدوم إلى منزله، ماهي إلّا ساعة حتّى اكتظ المنزل بالرجال، اعتلت همهمة حديثهم وتساؤلهم عن سبب جمعهم في هذا الوقت المتأخر من الليل إلى أن بدأ حبيب بن مظاهر بالكلام صمتوا وأنصتوا باهتمام له.

"السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته."

أجاب كل من اجتمع في المجلس السّلام وانتظر حبيب بن مظاهر إلى أن انتهى آخر رجل من ردّ السّلام وبدأ بالكلام "إنّي قد أتيتكم بخير ما أتى به وافد إلى قوم، أتيتكم أدعوكم إلى نصر ابن بنت نبيكم، فإنّه في عصابة من المؤمنين، الرجل منهم خير من ألف رجل، لن يخذلوه ولن يسلّموه أبداً، وهذا عمر بن سعد قد أحاط به، وأنتم قومي وعشيرتي وقد أتيتكم بهذه النصيحة فأطيعون اليوم في نصرته تنالوا بها شرف الدنيا والآخرة، فإنّي أقسم بالله لا يُقتل أحد منكم في سبيل الله مع ابن بنت رسول الله صابراً محتسباً إلّا كان رفيقاً لمحمد في عليّين" صمت حبيب بن مظاهر ينظر إلى وجوه الرجال والذين كانوا لا يزالون محدّقين فيه وكأنه كتاب يفكّون طلاسمه.

صرخ عبد الله بن بشير قائلا "أنا أوّل من يجيب هذه الدعوة، فإنّي شجاع بطل مقاتل" وكان كلامه الشرارة التي أشعلت الهشيم، فدب الحماس بكل الرجال الموجودين، وكل منهم صرخ مؤيداً موافقاً على مرافقة حبيب بن مظاهر لنصرة الحسين بن علي مستعداً للتضحية بروحه وجسده للدفاع عنه وعن عياله.

اجتمعوا بعد ساعة بعد أن تفرّقوا، مرتدين لامات حربهم، معتمرين خوذهم، قابضين على سيوفهم، معتلين جيادهم ليتوجهوا إلى كربلاء مع حبيب بن مظاهر، كان عددهم تسعين فارساً وبدؤوا بالزحف باتجاه كربلاء، ولكن الساعة التي انشغلوا بها بتجهيز أنفسهم كانت كافية ليتسلل أحد شبّان الحي متخفياً إلى معسكر عمر

بن سعد ليخبره بالأمر، فأمر عمر بن سعد أحد محاربيه ويقال له الأزرق بالتّوجه لملاقاتهم مصطحباً معه أربعمئة فارساً ويمنعهم من الوصول إلى الحسين بن علي حتّى لو قطع رؤوسهم جميعاً.

كانت الدهشة لا تقاس على وجوه الفرسان من بني أسد عندما وقف في طريقهم مئات الفرسان من جنود عمر بن سعد بلباس حربهم وسلاحهم مانعيهم من التقدم، فتلثّموا بعمائمهم لكيلا يتعرّف على وجوههم أي من رجال عمر بن سعد، فهم يعلمون بأن عبيد الله بن زياد لن يتوانى عن قتل كل أفراد عائلة من يفكر بمساعدة الحسين بن علي، لم يستطيعوا التقدم فكلّما اقتربوا منعهم جنود الأزرق من التقدم حتّى غضبوا واشتبك الفريقان بالسيوف فكان طنين ارتطام السّيوف يسمع لبعد مئات الأمتار ليدل على أن معركة عنيفة تحتدم.

اقترب حبيب من الأزرق وصرخ بوجهه "ويلك مالك ومالنا، انصرف عنّا ودعنا يشقى بنا غيرك."

أجاب الأزرق وهو يهوي بسيفه على حبيب بن مظاهر والذي صدّه بسيفه "لن تتقدموا خطوة واحدة إلى الحسين بن علي حتّى تموتوا جميعاً."

استمرت المعركة لبرهة وجُرح أغلب رجال بني أسد لقلة عددهم وجرّوا جرحاهم وتراجعوا إلى حيّهم عندما أيقنوا بأنّه لا طاقة لهم بالغلبة على هذا العدد الكبير من المقاتلين، ثمّ ارتحلوا من حيّهم في نفس الليلة خوفاً من عمر بن سعد أن يرسل الجند ليقتلهم في عقر دارهم بعد أن حدث ما حدث.

عاد حبيب بن مظاهر إلى الحسين بن علي وأخبره بما جرى، فعلّق الحسين بن علي "لا حول ولا قوّة إلّا بالله."

يوم السابع من محرم

في صبيحة اليوم السابع من محرم وصلت رسالة من عبيد الله بن زياد، إلى عمر بن سعد يأمره فيها بمنع الحسين بن علي ومن معه من الشرب من مياه نهر الفرات، وكان فيه "أمّا بعد، فحُل بين الحسين وأصحابه، وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالزكي المظلوم عثمان".

أرخى عمر بن سعد الكتاب، أمر خادمه لينادي عمرو بن الحجاج الزبيدي، وقال له فور دخوله الخيمة "اذهب على رأس خمسمائة فارس إلى شط الفرات وامنع الحسين وأصحابه من الوصول إليه أو الحصول ولو على قطرة واحدة منه."

تحرّك عمرو بن الحجاج الزبيدي على الفور على رأس خمسمائة فارس وانتشروا على شط الفرات، اقترب عبيد الله بن أبي حصين الأزدي على فرسه إلى مخيم الحسين بن علي وصرخ بأعلى صوته "يا حسين، ألا تنظر إلى الماء كأنّه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة حتّى تموت عطشا" وضرب فرسه وعاد ليضمن تنفيذ تهديده للحسين بن علي.

جرى الحسين بن علي على فرسه ومن معه أمام جموع جيش عمر بن سعد، فصمت كل من كان يتكلّم، وجمد كل من كان يتحرّك، وأشخص بصره على الحسين بن علي وإخوته.

قال بصوت عال سمعه كل من كان في جيش عمر بن سعد على الرغم من كثرته.

"أيّها النّاس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتّى أعظكم بما هو حق لكم علي، وحتّى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي بعذر ولم تعطوني النصف من أنفسكم - فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ - إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ – "

كانت الجموع تتدافع لرؤية المتكلم فأصبحت أكتاف الرجال متلاصقة وأعناقهم متطاولة وركب ظهر كل خيل فارسين أو ثلاثة متلاصقين.

"عباد الله اتقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر فإنّ الدنيا لو بقيت على أحد أو بقي عليها أحد لكانت الأنبياء أحق بالبقاء وأولى بالرضا وأرضى بالقضاء، غير أن الله خلق الدنيا للفناء فجديدها بال ونعيمها مضمحل وسرورها مكفهر والمنزل تلعة والدار قلعة فتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلكم تفلحون."

انضمّ إلى الحسين وإخوته جمع من الأصحاب بينهم حبيب وزهير وبرير وأنصتوا لكلامه.

"أيّها النّاس، إنّ الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال متصرفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرّته والشقي من فتنته، فلا تغرّنّكم هذه الحياة الدنيا، فإنّها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله عليكم وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته وجنّبكم رحمته، فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمّد صلى الله عليه واله وسلم ثمّ إنكم زحفتم إلى ذريّته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبّاً لكم ولما تريدون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين."

ضرب عمر بن سعد فرسه بقدمه واندفع إلى الأمَام وسار أمام الفرسان الذين بمحاذاته وقال "ويلكم، كلّموه فإنّه ابن أبيه علي بن أبي طالب سيّد الفصاحة والله لو وقف فيكم هكذا يوماً جديداً لما قطع ولما حصر، فكلّموه."

تقدّم الشمر بن ذي الجوشن على فرسه على أثر طلب عمر بن سعد وقال بصوت عال "يا حسين، ما هذا الذي تقول؟ أفهمنا حتّى نفهم."

لم ينظر الحسين بن علي إلى الشمر ولم يعره أي اهتمام بل تابع كلامه مقيماً الحجّة على كلّ من حضر في هذا اليوم هذه الواقعة "أيّها النّاس انسبوني وانظروا من أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيّكم رسول الله محمّد بن عبدالله؟ وابن وصيّه وابن عمّه علي بن أبي طالب، أوّل المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أوليس حمزة سيّد الشهداء عم أبي؟ أوليس جعفر الشهيد الطيّار في الجنة عمي؟ أولم يبلغكم قول رسول الله صلى الله عليه واله وسلم لي ولأخي هذان سيّدا شباب أهل الجنة؟"

كان الحسين بن علي يصمت برهة بعد كل سؤال يسأله وينظر إلى تعابير وجوه القوم والتي تراوحت بين شاعرٍ بالخزي لخروجه لحربه وشاعرٍ بالحقد مصممٍ على حربه.

"فإن صدقتموني فيما أقول، فهو الحق، فوالله ما تعمدت كذبا منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه وإن كذبتموني، فإنّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه واله وسلم لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟"

صرخ الشمر بن ذي الجوشن مستهزئاً "إنّي أعبد الله على حرف إن كنت أدري ما يقول."

فصرخ حبيب بن مظاهر غاضباً بعد أن تقدم بفرسه "والله إنّي لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأشهد أنّك صادق ما تدري ما يقول، فقد طبع الله على قلبك."

ثمّ قال الحسين بن علي موجهاً كلامه إلى الجموع "فإن كنتم على شك من ذلك، أفتشكّون أنّي ابن بنت نبيّكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم ولا في غيركم ويحكم أفتطلبون بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟" وصمت ليمنحهم فرصة ليجيبوا لو أنّ أحد منهم لديه ما يقوله، أو يعلّقوا على حجته البالغة والواضحة، لم يتلقّ أي رد بل على العكس أصبح القوم من المحتشدين يتحاشون النظر إلى وجهه مباشرة، قال موجّهاً كلامه إلى أفراد معينين من جيش ابن سعد ليجبرهم على النظر باتجاهه "يا شبث بن ربعي ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ: أن قد أينعت الثمار واخضرّ الجناب وإنّما تقدم على جند لك مجنّدة فأقبل؟"

فقالوا "لم نفعل" وأشاحوا بنظرهم عن الحسين بن علي والعسكر من حولهم ينظرون إليهم.

فقال الحسين بن علي "سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم" ثمّ أشاح بنظره عنهم ووجّه كلامه إلى الجموع عامة "أيّها الناس، إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمن من الأرض."

فقال قيس بن الأشعث "أولا تنزل على حكم بني عمّك؟ فإنّهم لن يروك إلّا ما تحب، ولن يصل إليك منهم مكروه."

فقال له الحسين بن علي "أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل" ورفع صوته مجلجلاً الأرض تحت حوافر الخيول "لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد، عباد الله - وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ - إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ-.

ثمّ رجع الحسين بن علي على فرسه مبتعداً.

إلى الليل نفذ الماء الموجود في معسكر الحسين بن علي، وبدأ الأطفال بالشكوى من العطش.

اختار العبّاس بن علي ثلاثين فارساً بأسلحتهم، وعشرون راجلاً يحملون القرب، وتوجّهوا إلى شط الفرات، في المقدمة كان نافع بن هلال الجملي يحمل اللواء، بمجرد اقترابهم من المشرعة حتّى صرخ عمرو بن الحجاج الزبيدي "من الرجل؟"

"أنا نافع بن هلال الجملي."

سأل عمرو بن الحجاج "ما الذي جاء بك يا نافع؟"

أجاب نافع بن هلال "جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه."

قال عمر بن الحجاج الزبيدي "أنت وحدك اشرب هنيئاً."

صرخ نافع غاضباً "لا والله، لا أشرب منه قطرة، والإمام الحسين حفيد رسول الله عطشان وأهل بيته وصحبه."

قال عمرو بن الحجاج الزبيدي "لا سبيل إلى سقي هؤلاء، إنّما وُضعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء."

تجاهل نافع كلام عمرو بن الحجاج، وأشار للرجال الذين يحملون القرب بأن يدخلوا في المياه ليملؤوها، وشكل ومن معه من الفرسان جداراً بشرياً ليمنعوا عمرو بن الحجاج من الاقتراب منهم، جرّد عمرو بن الحجاج سيفه فجرد العبّاس سيفه، أعاد عمرو بن الحجاج سيفه إلى غمده ليقينه بعدم فوزه على العبّاس بن علي في حال بارزه، وأشار إلى رجاله ليتراجعوا.

تراجع عمرو بن الحجاج، وجمع كل من معه من الفرسان على شط الفرات، وشكّل حائطاً بشرياً في المسافة بين معسكر الحسين بن علي وشط الفرات، ليفاجئ العبّاس بن علي ومن معه عندما يعودون.

وضع العشرون راجلاً القِرَب المليئة بالمياه تحت دروعهم لكي لا يصيبها سهام رجال عمرو بن الحجاج، واتّخذوا ظلام الليل ستاراً وساروا بمحاذاة شط الفرات مبتعدين، وانطلق العبّاس بن علي والثلاثون فارساً كالعاصفة، وسيوفهم مجردة يلمع بريقها في ظلام الليل باتجاه المعسكر، لم يتفاجأ الفرسان عندما وجدوا عمرو بن الحجاج وعساكره بانتظارهم بل كانوا يتوقعون ذلك ومستعدين له، انطلق العبّاس بن علي ومن معه بأقصى ما يستطيعون من سرعة، ارتعدت خيول عساكر عمرو بن الحجاج فهاجت وابتعدت على الرغم من محاولة خيّاليها على إجبارها على الثبات في مكانها انجلت الغبرة الناجمة عن سرعة عدو الأحصنة، واتضح لعساكر عمرو بن الحجاج بأن العبّاس بن علي ومن معه قد تجاوزوهم، جرّدوا السّهام ليمطروهم بوابل منها من الخلف ولكن بلا جدوى فظلام الليل كان قد ابتلعهم

تساءل عمرو بن الحجاج أين المشاة الذين كانوا يحملون القِرَب، أمر رجاله على الفور بإطلاق السّهام مشتعلة الرؤوس إلى سواد السماء ليروا ما حولهم.

انطلقت عشرات السّهام المشتعلة الرؤوس، في عنان السماء بدت الشعل على أطراف السّهام مجرد نقاط لامعة متحركة على صفحة سوداء بمسارات منحنية، كل من أطلقها انتظر أن يرى مكان سقوطها لتضيء ما حولها، متمنياً بأن يكون سهمه هو من يكشف مكان ما يريد أن يراه قائده.

صرخ أحد الرماة "إنّهم على محاذاة النهر" لم ينتظر عمرو بن الحجاج من الرامي أن يكمل كلامه وصرخ بفارس على يمينه "اذهب إلى الشاطئ وسر بمحاذاته لتفاجئهم من الخلف" وانطلق عمرو بن الحجاج بباقي الفرسان ليقطع مسافة ليست بقليلة ليفاجئهم من الأمام، أربعمئة من الخيول تجري بسرعة مثيرة سحابة من الغبار بدت في ضوء المشاعل الباهت وكأنها غيوم على الأرض والفرسان يشقونها.

تفاجأ عمرو بن الحجاج عندما رأى العبّاس بن علي وفرسانه يقفون كالترس البشري وخلفهم المشاة في جعبهم القِرب، جرّد عمرو بن الحجاج سيفه وكذلك فعل كل من معه، ارتسمت على شفتي العبّاس بن علي ابتسامة وجرّد حسامه ليفعل كذلك كل من معه. اقترب أحد الفرسان من طرف عمرو بن الحجاج شاهرا سيفه، وتحرك جعفر بن علي بن أبي طالب بعد أن أشار له العبّاس بطرف عينه، تناجزا بالسيف وارتفعت سحابة من الغبار وابتلعتهم في جوفها، ارتطم سيف جعفر بإذن حصان الجندي فشب الحصان رافعاً قائمتيه الأماميتين فسقط الجندي على ظهره إلى الأرض، لم يستغل جعفر هذه الحادثة لينزل من على حصانه ويجهز على الفارس، ظل منتظره لينهض ويركب حصانه مرة أخرى ويكمل مبارزته، ولكن الجندي بدلاً من ذلك سحب فرسه وتراجع ليتقدم رجل آخر ويبدأ بمبارزة جعفر بن علي. ارتفعت أصوات قراع السيفين فالفارس الآخر كان متحمسا يضرب بسيفه وكأنه يكسر صخوراً بفأس ولكن جعفر بن علي تلقى ضرباته بكل دقة وانتباه وعندما أخذ التعب من الفارس كل مأخذ، ضرب جعفر بن علي كفّه بعرض سيفه فصرخ الرجل، وسقط السّيف من يده على الأرض ونكز فرسه مرعوباً وعاد إلى أصحابه دون أن ينزل ويلتقط سيفه من على التراب.

عندما تقدم فارس ثالث ليبارز جعفر بن علي، مد عمرو بن الحجاج يده ليمنعه، لأنّه أدرك لو أن الخمسمئة فارس بارزوا شبل علي بن أبي طالب فردا فردا لن يمل أو يتعب ولو أراد أن يقتلهم لقتلهم واحداً تلوا الآخر. صرخ عمرو بن الحجاج في رجاله ليتراجعوا، خلال ثوان قليلة اختفى الخمسمائة فارس في ظلام الليل، وكأنّهم كانوا متأهبين لتنفيذ هذا الطلب، ظلّ العبّاس بن علي وإخوته وأصحابه ومن يحمل القِرَب صامتين لا يتحرّكون منتظرين عودة جنود عمرو بن الحجاج ولكنهم لم يعودوا.

دخل العبّاس بن علي إلى المخيّم، وجد أخاه الحسين بن علي يحمل طفله الرضيع عبد الله ويربت بكفّه اليمنى على ظهره الصغير. ووجد الأطفال واقفين خارج الخيم بأيديهم أقداح فارغة منتظريه والابتسامة تعلو

شفاههم، متيقنين بأنّهم سيشربون الماء إذا كان العبّاس بن علي هو من ذهب لإحضاره، شرب الأطفال والكبار وكل من في المعسكر الماء، وأمضوا ليلتهم شاكرين الله على نعمائه.

يوم الثامن من محرم

أرسل الحسين بن علي عمرو بن قرظة الأنصاري إلى معسكر عمر بن سعد يطلب الاجتماع به، عاد عمرو بن قرظة الأنصاري وأخبره بأن عمر بن سعد سيخرج بعد ساعة ليقابله في منتصف المسافة بين المعسكرين.

خرج عمر بن سعد وبرفقته عشرون فارساً بأيديهم المشاعل وأسلحتهم على متونهم خرج الحسين بن علي ومعه إخوته الخمسة وابنه علي الأكبر، ولم يأتِ ابنه علي السجاد بسبب الحمّى التي أبقته طريح الفراش. أوقف كلا الطرفين خيولهم وبينهم مسافة عشرين متراً، جنود عمر بن سعد بلباسهم العسكري الأحمر اللون والذي هو شعار الدولة الأموية ويرمز إلى دم عثمان بن عفان، على رؤوسهم خوذهم المعدنية ينظرون إلى الحسين بن علي وإخوته لا يلبسون لباس الحرب بل يعتمون بعمائم على رؤوسهم، تقدم الحسين بن علي على فرسه، إلى يمينه العبّاس وإلى يساره علي الأكبر، تقدم عمر بن سعد وعلى يمينه ابنه حفص وكان شاباً يافعاً وعلى يساره غلامه واسمه لاحق.

"يا بن سعد، أتقاتلني وأنا ابن من علمت، ألا تكون معي وتدع هؤلاء، فإنّه أقرب لك من الله." قال الحسين بن علي وهو ينظر إلى عمر بن سعد كتلة سوداء على الفرس لا يستطيع الناظر إليه أن يتبين بأنه عمر بن سعد إلّا من صوته الحاد والمميز.

أجاب عمر بن سعد "أخاف أن تهدم داري."

قال الحسين بن علي دون تردد "أنا أبنيها لك."

قال عمر بن سعد "أخاف أن تؤخذ ضيعتي."

أجاب الحسين بن علي "أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز."

قال عمر بن سعد "إن لي عيال بالكوفة وأخاف عليهم."

قال الحسين بن علي بصوت الواثق "أنا أضمن سلامتهم."

صمت عمر بن سعد يفكر، يحدد مصيره في حياته وبعد مماته، فعبيد الله بن زياد قد وعده بإمارة الري إذا خرج وحارب الحسين بن علي، ولطالما حلم بإمارته على إقليم الري بخيراته، وهو يعلم علم اليقين بأن محاربة الحسين بن علي حفيد رسول الله ذنب كبير مصير مرتكبه نار جهنم.

طال صمت عمر بن سعد، قال الحسين بن علي له "مالك؟" لم يجب عمر بن سعد.

اقترب الحسين بن علي بفرسه أكثر من فرس عمر بن سعد، نظر مباشرة إلى عيني عمر بن سعد وقال له "ذبحك الله على فراشك سريعاً عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فوالله إنّي لأرجو ألا تأكل من برّ العراق إلّا يسيراً."

أجاب عمر بن سعد مستهزئاً "في الشعير كفاية" وأدار فرسه وتراجع وابنه حفص وغلامه لاحق لحقاه، وكذلك غادر الحسين بن علي وأخوه العبّاس وابنه علي الأكبر، وعاد كلا الفريقين إلى معسكريهما ليكملا ليلتهما، كلّ يحلم بما سيلاقيه بعد هذه المعركة.

كان رستم خادم الشمر بن ذي الجوشن يتجسس على عمر بن سعد، وعندما انتهى الاجتماع في ظلام الليل، توجه على الفور الى خيمة سيده وأخبره بما رآه. الشمر بن ذي الجوشن كان حاسدا لقيادة عمر بن سعد للجيش ووجد هذا الاجتماع بين عمر بن سعد والحسين بن علي فرصة له لتحقيق مآربه الشخصية، أمر خادمه رستم بأن يعد فرسه وعلى الفور امتطاه وتوجه إلى النخيله لمقابله عبيد الله بن زياد.

أوّل ما فعله عمر بن سعد عندما عاد الى المخيم كتب رسالة إلى عبيد الله ابن زياد.

"أمّا بعد، فإنّ الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة وأصلح أمر الأمة هذا الحسين قد أعطاني عهداً أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى، أو أن يسير إلى ثغر من الثغور، فيكون رجلاً من المسلمين، له ما لهم

وعليه ما عليهم، أو أن يأتي أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فيضع يده في يده، فيرى فيما بينه وبينه رأيه، وفي هذا لك رضا وللأمة صلاح."

وختم الكتاب وأرسله على الفور إلى عبيد الله بن زياد مع غلامه وأوصاه بعدم التوقف أو عرض الكتاب على أحد إلى أن يسلّمه باليد للأمير.

يوم التاسع من محرم

في الصباح الباكر وصل كتاب عمر بن سعد إلى يد عبيد الله بن زياد في النخيله خارج الكوفه وكان في مجلسه شمر بن ذي الجوشن، قرأ عبيد الله الكتاب بصوت مسموع وابتسم معلقاً "هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه."

أحسّ الشمر بن ذي الجوشن بأن عبيد الله بن زياد أراد أن يقبل ما قاله عمر بن سعد، فقام على الفور وقال لعبيد الله ابن زياد "أصلح الله الأمير، أتقبل هذا منه، وقد نزل بأرضك وإلى جنبك؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة، ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزلة فإنّها من الوهن، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت فأنت ولي العقوبة، وإن غفرت كان ذلك لك، والله لقد بلغني أن حسينا وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل."

حدّق عبيد الله بن زياد بالشمر بن ذي الجوشن ساعة دون أن يتكلم بحرف، حتّى أحسّ الشمر بأنه سيذبحه بنظراته، ثمّ ابتسم وقال "نِعمَ ما رأيت، الرأي رأيك" وأشار للحارس على يمينه وأمره بمناداة الكاتب ليملي عليه رده على رسالة عمر بن سعد.

ختم عبيد الله بن زياد الرقعة التي تتضمن الجواب لعمر بن سعد ولفّها وربطها بخيوط من صوف الماعز، ومد يده بها إلى الشمر بن ذي الجوشن، والتي كانت الابتسامة عريضة بادية على وجهه، وقال له "اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن فعلوا فليبعث بهم

إليّ سلماً وإن هم أبوا فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن أبى أن يقاتلهم فأنت أمير الجيش واعزل عمر بن سعد واضرب عنقه وابعث إليّ برأسه."

أمسك الشمر الكتابين، الأول هو خطاب الأمان للعباس وإخوته والتي كانت والدتهم من نفس قبيلته، وكان ادعى بان سبب زيارته لخيمة عبيد الله بن زياد في النخيلة منذ الصباح الباكر هو رسالة الأمان، والكتاب الثاني الرد على رسالة عمر بن سعد وانطلق على الفور متوجهاً إلى أرض المعركة والسعادة تغمر قلبه.

في كربلاء وقف الشمر بن ذي الجوشن في خيمة عمر بن سعد بعد أن سلّمه جواب عبيد الله بن زياد، يراقب تغيّر قسمات وجهه بمتعة وسعادة، فوجه عمر بن سعد احتقن غضبا، وظهرت حبيبات من العرق على جبينه وهو يقرأ الكتاب.

"أما بعد، فإنّي لم أبعثك إلى الحسين لتكفّ عنه ولا لتطاوله ولا لتمنّيه السلامة، ولا لتكون له عندي شفيعا، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على حكمي فابعث بهم إليّ سلماً، وإن أبو فازحف إليهم حتّى تقتلهم وتمثّل بهم فإنّهم لذلك مستحقّون وإن قتلت حسينا فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنّه عاق شاق قاطع ظلوم، ولست أرى أن هذا يضر بعد الموت، ولكن على قول قلته: لو قتلته لفعلت هذا به فإن أنت مضيت لأمرنا جازيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر، فإنّا قد أمرناه بذلك والسلام."

أرخى عمر بن سعد الكتاب وعيناه تشعان غضباً، لاحظ ابتسامة خفيفة على شفتي الشمر بن ذي الجوشن، فصرخ به "مالك ويلك، لا قرّب الله دارك وقبّح الله ما جئت به، وإنّي لأظن أنّك الذي نهيته وأفسدت علينا أمراً رجونا أن يصلح، والله لا يستسلم الحسين بن علي فإنّ نفس أبيه علي بن أبي طالب لبين جنبيه."

قال الشمر بن ذي الجوشن دون أن يرفع صوته مستمتعاً برؤية عمر بن سعد على هذه الحالة "أخبرني ما أنت صانع؟ أتمضي لأمر أميرك؟ وإلّا فخل بيني وبين الجند والعسكر."

وقف عمر بن سعد وأجاب الشمر ولكن بدون أن يصرخ "لا ولا كرامة لك، فأنا أتولى ذلك، فدونك فكن أنت على الرجّالة."

ثمّ خرج من الخيمة وبدأ بإصدار أوامره لقادة الجيش بالتجهّز، وبأنّهم سيهجمون على معسكر الحسين بن علي بعد صلاة العصر.

خرج الشمر بن ذي الجوشن من خيمة عمر بن سعد وركب خيله وتوجّه إلى معسكر الحسين بن علي، وصرخ بصوت عال "أين بنو أختنا" يقصد العبّاس وإخوته لصلتهم به من جهة الأم، لم يسمع جواباً على الرغم من أنّ العبّاس وإخوته سمعوه فعندها قال الحسين بن علي لهم "أجيبوه ولو كان فاسقاً."

قال العبّاس بن علي موجّهاً كلامه للشمر "ما تريد؟" وكان بجانبه إخوته جعفر وعبدالله وعثمان.

أجاب الشمر بن ذي الجوشن ولم ينزل من على ظهر فرسه "أنتم يا بني أختي آمنون."

صرخ عثمان "لعنك الله ولعن أمانك، أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له."

قال العبّاس "تبّت يداك وبئس ما جئتنا به من أمانك يا عدوّ الله، أتأمرنا أن نترك أخانا وسيّدنا الحسين ابن فاطمة الزهراء بضعة رسول الله وندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء."

غضب الشمر بن ذي الجوشن من إجاباتهم وضرب جواده ضربة انطلق بها عائداً إلى المعسكر ووجهه مستعرٌ من الغضب، رآه عمر بن سعد على هذه الحالة وسأله ما حدث، فأخبره برفض العبّاس وإخوته قبول أمان عبيد الله بن زياد والذي سعى به بنفسه ليحضره.

ولما رجع العبّاس بن علي والغضب باد على وجهه قام إليه زهير بن القين وقال له "يا أبا الفضل أأحدثك بحديث وعيته؟"

أجابه العبّاس بن علي "بلى."

قال زهير بن القين "لمّا أراد أبوك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أن يتزوّج، طلب من أخيه عقيل وكان عارفاً بأنساب العرب، أن يختار له امرأة ولدتها الفحولة من العرب ليتزوجها فتلد غلاماً شجاعاً، وقد ادّخرك أبوك لمثل هذا اليوم فلا تقصر عن نصرة أخيك وحماية أخواتك."

فقال العبّاس بن علي "أتشجّعني يا زهير في مثل هذا اليوم! والله لأرينك شيئاً ما رأيته."

فابتسم زهير بن القين فهذا الشبل من ذاك الأسد.

في عصر اليوم التاسع من شهر محرم، زحف عمر بن سعد ومعه آلاف من الفرسان باتجاه معسكر الحسين بن علي وكلّهم يرددون "يا خيل الله اركبي وبالجنة أبشري" فكان ضجيجهم وضجيج حوافر خيولهم مسموعاً من على بعد مئات الأمتار فكلّ من في معسكر الحسين بن علي انتبه لها.

توجّه العبّاس بن علي إلى أخيه وكان جالساً خارج خيمته راكزاً ذقنه على مقبض سيفه وقال "سيدي أبا عبد لله، أتاك القوم."

رفع الحسين بن علي رأسه وقال له "اركب، بنفسي أنت، حتّى تلقاهم فتقول لهم ما بدا لكم وماذا تريدون ؟"

ركب العبّاس بن علي على فرسه ومعه إخوته وحبيب بن مظاهر وزهير بن القين وأربعة عشر فارساً حتّى كانوا جميعا عشرين فارساً واتجهوا مسرعين إلى القوم الزاحفين باتجاههم، رفع عمر بن سعد يده فتوقف سيل الخيول عن الجري، وتقدم بفرسه باتجاه العبّاس وإخوته وقال دون أن ينتظر العبّاس أن يسأل "جاء أمر الأمير عبيد الله بن زياد أن نعرض عليكم النزول على حكمه أو نناجزكم."

قال العبّاس بن علي له "لا تعجلوا حتّى أرجع إلى أبي عبد الله، وأعرض عليه ما ذكرتم" ورجع العبّاس باتجاه المعسكر وظلّ إخوته وباقي الفرسان منتظرين.

تقدّم زهير بن القين من حبيب بن مظاهر وقال له "كلّم القوم إن شئت أو أنا أكلّمهم."

أجابه حبيب بن مظاهر "كن أنت من يكلّمهم."

تقدّم زهير بن القين على فرسه وقال بصوت عال ليسمعه أكبر عدد ممكن من أصحاب عمر بن سعد والذي كان على فرسه ينظر إليه نظرة مريبة "أما والله لبئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيه وعترته وأهل بيته وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين الله كثيراً."

فقال له عزرة بن قيس وهو من جنود عمر بن سعد "إنك لتزكّي نفسك ما استطعت."

قال زهير بن القين "يا عزرة إنّ الله زكّاها وهداها، فاتّق الله يا عزرة فإنّي لك من الناصحين، أنشدك الله يا عزرة أن تكون ممن يعين الضلالة على قتل النفوس الزكية."

قال عزرة بن قيس "يا زهير ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت إنّما كنت عثماني الهوى."

قال زهير بن القين بصوت الرجل الواثق "أفلست تستدلّ بموقفي هذا أنّي منهم، أمّا والله ما كتبت إليه كتابا قط ولا أرسلت إليه رسولا قط ولا وعدته نصرتي قط ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلمّا رأيته ذكرت به رسول الله صلّى الله عليه وآله ومكانه منه وعرفت ما يقدم عليه من عدوّه وحزبكم، فرأيت أن أنصره وأن أكون في حزبه وأن أجعل نفسي دون نفسه حفظا لما ضيّعتم من حق الله وحق رسوله."

في هذه الأثناء كان العبّاس قد أخبر الحسين بن علي بالجواب الذي أرسله عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد.

فأجابه الحسين بن علي على ذلك "لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبداً فهل هو إلّا الموت فمرحبا به."

ثمّ أخبره بنيّة القوم على الهجوم وبدء القتال في الحال، فقال له الحسين بن علي "ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا هذه العشية لعلّنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره فالله يعلم أنّي أحبّ الصّلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار"

مضى العبّاس بن علي إليهم وطلب أن يؤخّرونهم للغد وانتظر جواب عمر بن سعد والذي ظلّ صامتا دون جواب ثمّ أدار وجهه نحو الشمر بن ذي الجوشن وقال "ما ترى يا شمر؟"

أجابه الشمر بن ذي الجوشن "أنت القائد والرأي رأيك."

التفت عمر بن سعد إلى الناحية الأخرى وقال دون أن يوجّه كلامه لأحد معين "ماذا ترون؟"

قال عمرو بن الحجاج الزبيدي "سبحان الله، والله لو كانوا من الترك أو الديلم وسألونا مثل ذلك لأجبناهم، فكيف وهم آل بيت محمّد رسول الله."

ثمّ قال قيس بن الأشعث "أجبهم إلى ما سألوك ليبدؤوك بالقتال غداً."

أجابه عمر بن سعد "والله لو أعلم أنه يفعل ما أخرتهم العشية."

أشار عمر بن سعد إلى جندي بحذائه وهمس في أذنه ثمّ قال له بصوت عال مسموع "اذهب إلى الحسين وبلّغة جوابنا."

رجع العبّاس بن علي والفرسان معه ورسول بن زياد اقترب من المعسكر ونادى بصوت رفيع "يقول عمر بن سعد إنّا قد أجلّناكم إلى غد، فإنّ استسلمتم سرّحنا بكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد، وإن أبيتم فلسنا بتاركيكم."

عندما غابت الشمس وزحف سواد الليل ليكسو السماء، أرسل عمر بن سعد عشرة فرسان عيوناً حول معسكر الحسين بن علي، ليضايقوه ومن معه.

علي بن الحسين على فراش المرض

علي بن الحسين، السجّاد، في خيمته أجهدته الحمّى والعطش الشديد، هزل جسده، وانخفض وزنه، وتبخّرت طاقته، فأصبح أخف من الفراش الذي يستلقي عليه لم يستطع أن يقوم ويرافق أبيه الحسين بن علي بكل حركة وسكنة في هكذا ظروف صعبة كما يفعل أخيه علي الأكبر، لكنّه من الحين إلى الحين يزحف إلى باب الخيمة زحفاً ويمتّع ناظره بالنظر إلى طلعة أبيه البهيّة ويمتع أذنيه بسماع صوته العذب، كانت عمته زينب بجانبه معظم الوقت ساهرة على راحته، تتمنى لو أن لديها ماء تبلّ بها خرقة لتضعها على جبينه لتخفيف الحمّى أو تبلّ بقطرات شفتيه اللتين صارتا كالخشبة اليابسة متشققتين.

خارج الخيمة جمع الحسين بن علي الرجال ليخطب بهم، فأغمض علي بن الحسين عينيه وهو مستلقٍ على فراشه، وأنصت إلى كلمات أبيه.

"أثني على الله تعالى أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضرّاء، اللّهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلّمتنا القرآن وفقّهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعا عني خيراً ألا وإنّي لأظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا، ألا وإنّي قد أذنت لكم جميعا، فانطلقوا في حل، ليس عليكم منّي حرج ولا ذمام وهذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، ثمّ ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرّقوا في سواد هذا الليل، وذروني وهؤلاء القوم، فإنّهم لا يريدون غيري، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري."

فقال العبّاس بن علي "ولم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبدا" ثمّ علّق إخوته "صدقت يا أبا الفضل."

ثمّ نظر الحسين بن علي إلى بني عقيل وقال "حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم بن عقيل فاذهبوا أنتم فقد أذنت لكم."

نظر عبد الرّحمن بن عقيل إلى إخوته وإلى أبناء أخيه مسلم، ثمّ نظر إلى الحسين بن علي وقال "سبحان الله، ما يقول النّاس وماذا نقول لهم: إنّا تركنا شيخنا وسيّدنا وكبيرنا وابن بنت نبيّنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا، لا والله يا بن رسول الله لا نفارقك أبداً ولكنا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتّى نرد موردك، قبّح الله العيش بعدك" فعلق أبناء عقيل "صدقت والله."

ثمّ اقترب مسلم بن عوسجة إلى المنتصف وقابل الحسين بن علي وقال "نحن نخلّيك هكذا وننصرف عنك وقد أحاط بك هذا العدو؟ وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك؟ لا والله لا يراني الله وأنا أفعل ذلك أبداً

حتّى أكسر في صدروهم رمحي، وأضرب فيهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن لي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، ولم أفارقك أو أموت معك" واختنق بعبرته وسالت دمعته.

ثمّ اقترب سعيد بن عبد الله الحنفي وقال "لا والله يا بن رسول الله، لا نخلّيك أبداً حتّى يعلم الله تعالى أنا قد حفظنا فيك غيبة رسول الله، والله لو علمت أني أقتل فيك، ثمّ أحيا، ثمّ أحرق حياً، ثمّ أذرى في الهواء، يفعل ذلك بي سبعين مرة لما فارقتك أبداً حتّى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة، ثمّ بعدها الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً."

ثمّ قال زهير بن القين البجلي "والله يا بن رسول الله لوددت أني قُتلت، ثمّ نُشرت، حتّى أقتل فيك هكذا ألف مرة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك- وأشار بكفه إلى كل من حوله - وعن أنفس هؤلاء الفتية من إخوانك وولدك وأهل بيتك."

ثمّ اقترب حبيب بن مظاهر وقال "والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بأيدينا، ونحورنا وجباهنا، فإذا نحن قتلنا بين يديك نكون قد وفينا لربنا وقضينا ما علينا."

عندها علت ابتسامة شفتي علي بن الحسين الذي لا يزال مستلقياً على ظهره.

الليل ما قبل اليوم العاشر

بدأ الأصحاب بالتفرّق، وتحرّك الحسين بن علي باتجاه خيمته، فسمع رجلاً من الأصحاب يقول لمحمد بن بشير الحضرمي "اذهب لفكاك أسر ابنك، فلا حرج عليك" فاقترب الحسين بن علي منه وسمع محمّد بن بشير يجيب الرجل "عند الله أحتسبه ونفسي ما كنت أحب أن يؤسر وأنا أبقى بعده."

قال الرجل موجّهاً حديثه للحسين بن علي "ابنه وقع أسيراً في ثغر الري."

قال الحسين بن علي لمحمد بن بشير الحضرمي "رحمك الله أنت في حلّ من بيعتي فاعمل في فكاك ابنك."

فأجاب محمّد بن بشير الحضرمي دون لحظة تردد بصوت عريض "أكلتني السباع حيًّا إن فارقتك يا سيدي يا أبا عبد الله."

استأذن الحسين بن علي منهما وعاد ومعه خمسة أثواب البرود، مجموع قيمتها ألف دينار، وناولها لمحمد بن بشير الحضرمي، وقال مشيراً إلى الابن الآخر له والذي حضر معه إلى كربلاء "أعط ابنك الأثواب البرود يستعين بها في فداء أخيه."

اغرورقت عينا محمّد بن بشير الحضرمي دموعاً شكراً وامتناناً.

الحسين بن علي خطط تبني استراتيجية الدفاع والهجوم في المعركة بسبب الفرق الكبير بالعدد بين الجيشين. وأول خطوة دفاعية كانت إعادة تشكيل المخيم، فقسم الرجال قسمين، الأول أعادوا نصب الخيام قريبة من بعضها على ثلاثة خطوط دائرية، الخط الخارجي خيام فارغة وحبالها متشابكة مشكلة بذلك مانع لاي جندي او خيال من الدخول الى المعسكر من بين الخيام، والخط الدائري الثاني خيم وضع فيها الفرش والمؤن والعدة، والقسم الثالث الخيام التي فيها أهلها.

القسم الثاني حفروا خندق خلف المخيم وملأوه حطب ليشعلوه نارا خلال المعركة لتشكيل خط دفاعي يمنع العدو من المباغتة غدرا من الخلف واجباره الهجوم من الأمام فقط.

توجّه الحسين بن علي الى خيمته وأسند ظهره على عمود الخيمة خارجاً مفترشاً التراب يتأمل السماوات وبديع خلق الله من النجوم اللامعة والقمر الذي لم يكتمل بعد، فكبى قليلا و شاهد بأنه كان ملقى على التراب لا يستطيع الحراك، أدار رأسه يميناً ويساراً ولاحظ حوله عدد كبير من الكلاب، تستعر عيونها شرراً وتكشف عن أنياب حادة لا توحي إلّا بالموت لمن يقع فريسة لها، كلّها سوداء إلّا واحد غزا رأسه البرص والذي نبح مرة فهجمت الكلاب عليه وبدأت بنهش جسده وهو لا يقوى على الحراك، وكانت الكلاب تتجنّب الاقتراب من رأسه إلّا الكلب الأبقع الأبرص فتوجّه إلى الرأس وعضّه من رقبته.

استيقظ الحسين بن علي وصار يردد "إنّا لله وإنّا إليه راجعون" سأله من كان حوله من الأصحاب ما سبب انتباهه فجأة فروى لهم الحلم الذي رآه.

قام الحسين بن علي وتوجّه إلى خيمة السلاح ليجهز سيوفه للمعركة، وطلب من جون خادم أبي ذر الغفاري والذي كان خبيراً بصيانة الأسلحة أن يرافقه، أثناء جلوسه في الخيمة صار يردد الأبيات وبيده سيفه.

يا دهر أف لك من خليل

كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب وطالب قتيل

والدهر لا يقنع بالبديل

وإنما الأمر إلى الجليل

وكل حي سالك سبيل

كان ابنه علي السجّاد في الخيمة الملاصقة للخيمة التي كان فيها، وعمّته زينب جالسة بجانب فراش مرضه تواسيه، جرت دموعها لرقّة قلبها وحبّها الشديد لأخيها الحسين بن علي عندما سمعته يردد الأبيات.

قامت على الفور ولفّت رداءها حول جسدها، ثمّ خرجت من الخيمة ودخلت الى الخيمة التي فيها الحسين بن علي، فبمجرد أن لمحها جون قام معتذراً وغادر الخيمة، قالت بصوت مرتجف مخلوط بدموعها لأخيها "واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن يا خليفة الماضين وثمال الباقين."

فنظر الحسين بن علي إليها نظرة رأفة ورحمة وقال "يا أختيّة لا يذهبنّ بحلمك الشيطان."

قالت "بأبي أنت وأمي، أستقتل نفسي فداك يا أبا عبد الله."

غصّ الحسين بعبرته وطافت عيناه دموعاً وقال "هيهات لو ترك القطا ليلاً لغفا ونام."

قالت ودموعها تجري غزيرة على خديها "يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصاباً؟ فذلك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي" ثمّ ضعفت قدماها وبدأت تهوي على الأرض غائبة عن الوعي، أمسكها الحسين بن علي بسرعة وزادت دموعه غزارة عندما أدرك أنّها غائبة عن الوعي، مدّدها على الفراش وأراد ماء ليرش وجهها به ولكن

لا ماء في كل المخيم، أرخى رأسه وقبلها من جبينها وهو يبكي، أفاقت ونظرت إليه جالساً بجانبها ولحيته رطبة من دموعه الجارية.

قال لها "يا أختيّة، اتّقي الله وتعزّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلّا وجه الله تعالى، الذي خلق الخلق بقدرته ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد واحد، أبي خير منّي وأمي خير منّي وأخي خير منّي ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة" فعزاها بهذه الكلمات وجلست تستمع له "يا أختاه إنّي أقسم عليك فأبرّي قسمي، إذا أنا قُتلت فلا تشقّي عليّ جيباً ولا تخمشي عليّ وجهاً ولا تدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت" ثمّ قام و أعادها إلى خيمة ابنه علي السجّاد والذي كانت عيناه حمراوان من البكاء لسماعه لحديث أبيه مع عمته زينب.

كانت هذه الليلة من أشدّ الليالي على أهل بيت النبوة، حفّت بالمكاره والمحن، وأنذرت بالشر والخطر، وزاد على ثقلها جنود ابن سعد التي تحوم حول المخيم، وبكاء الأطفال التي تتضوّر عطشاً، وعلى الرغم من كل هذه الظروف القاسية، وعلى الرغم من قلّة عدد من مع الحسين بن علي، وعلى الرغم من ضخامة عدد جيش عمر بن سعد، وعلى الرغم من شدّة العطش والجوع، أمضى كل من في معسكر الحسين بن علي ليلته بالعبادة والدعاء وتلاوة القرآن، النساء في خدورهن والرجال خارج الخيام، تحت سماء الله ونجومه، بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، فكان لهم دوي كدويّ النحل، وكانت سجية الحسين بن علي في كثرة صلاته وكمال صفاته، وكان كما وصفه ابنه علي السجّاد، للقرآن سنداً وللأمة عضدا وفي الطاعة مجتهداً حافظاً للعهد والميثاق ناكبا عن سبل الفساق باذلاً للمجهود طويل الركوع والسجود زاهداً في الدنيا زهد الراحل عنها ناظراً إليها بعين المستوحشين منها.

سمع أحد جنود عمر بن سعد ممن يحومون حول المعسكر، الحسين بن علي يقرأ الآية - وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ - مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ -

فقال الجندي "نحن وربّ الكعبة الطيبون ميّزنا منكم."

فقال له بريرِ بن خضير من أصحاب الحسين بن علي "يا فاسق أأنت يجعلك الله في الطيبين."

فسأل الجندي من على ظهر فرسه "من أنت؟"

أجابه "أنا بريرِ بن خضير ومن أنت؟"

أجاب الجندي "أبو حرب السبيعي عبد الله بن شهر."

فقال له بريرِ بن خضير "يا أبا حرب هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام، فوالله إنّا لنحن الطيبون ولكنكم لأنتم الخبيثون."

فقال الجندي هازئاً "وأنا على ذلك من الشاهدين" وأدار فرسه وابتعد.

منذ بداية اللّيل إلى ما قبل ولادة الفجر، عبرَ من معسكر عمر بن سعد اثنان وثلاثون مقاتلاً كلّ على حدة، متّخذين ظلام الليل ستراً لهم، كانوا قد عاشوا صراعاً لأيام حتّى وصلوا إلى هذا القرار، وخصوصا بعد ما رأوا من تصرفات الحسين بن علي منذ لحظة التقائه بالحر وجنوده الألف وسقايتهم الماء هم وجيادهم على الرغم من أنّهم أعداؤه، كما أن الحسين بن علي طلب تأجيل المعركة إلى الصباح وأمضى ليلته عابداً مصليّاً متهجّداً لله.

انضموا إلى معسكر الحسين بن علي غير آبهين بقلّة عدد من معه فهم يعلمون مصيرهم من مصير أصحابه وأهل بيته، طلبوا الإذن بالقتال بين يديه في المعركة والاستشهاد معه، منحهم الحسين بن علي الإذن بالانضمام إليه ورحّب بهم وبشّرهم بالجنة إن استشهدوا بين يديه، ثم عرّفهم على الأصحاب وطلب منهم أن يعرّفوهم على مواقعهم في أرض المعركة، ومدّوا من أتى بلا سلاحه بالسلاح، ومن أتى بلا لامة حربه أو درعه، بدرع ولامة حرب، حتّى أصبحوا ككل الرجال لا ينقصون عنهم بشيء.

يوم العاشر من محرم

10 محرم 61 هجري

10 تشرين الأول 680 ميلادي

في فجر اليوم العاشر من شهر محرم الحرام من سنة إحدى وستين للّهجرة النبويّة، قام الحسين بن علي لأداء صلاة الفجر ووراءه أصحابه وأهل بيته، وبعد أن انقضت الصّلاة التفت ونظر إلى وجوههم التي لم تفارقها الابتسامة على الرغم من شدّة عطشهم ثمّ حمد الله وأثنى عليه وقال "إنّ الله تعالى أذِنَ في قتلكم وقتلي في هذا اليوم فعليكم بالصبر والقتال."

لم يظهر أدنى أثر للجزع أو الخوف على وجه أيّ منهم عندما علموا أنّ الموت حتمي اليوم، فالحسين بن علي هو حفيد رسول الله الذي كان مشهوراً بين العرب بالصادق الأمين، وتربّى وترعرع في حضنه، فانتهل من أخلاقه، وتعلّم من أفعاله، واهتدى من أقواله، لا ينطق عبثاً أو مزاحاً وإذا تحدّث، تحدّث صدقاً، فلو لديه أدنى شك باستشهادهم لكان احتفظ بقوله لنفسه ولكنّه يمتحن صبرهم وإخلاصهم والذي أثبتوه في كثير من المواقف والمنازل منذ خروجه من مكّة حتّى وصوله إلى العراق.

نهض وصفّ أصحابه للحرب، فوكل زهير بن القين على ميمنة عسكره، وحبيب بن مظاهر على ميسرته، وثبت هو وأهل بيته في القلب، سلّم رايته، أخاه العباس، لأنّه قمر الهاشميين، وأكفأ من معه لحملها، واحفظهم لذمامه، وأرأفهم به، وأدعاهم إلى مبدئه، وأوصلهم لرحمه، وأحماهم لجواره، وأثبتهم في وجه الطعنات، وأربطهم جأشاً، وأشدّهم مراساً.

أشعلوا النار في الخندق الذي حفروه في الليل خلف الخيام وارتفع لهيب النار عاليا من قلب الخندق كاسياً ما حوله رداء من نور، الحطب يئنّ متفجراً والنار تستعر وتزأر أكثر مع كل حطبة تتفجّر. كانت هم أصحاب الحسين بن علي وأهل بيته عالية ومعنوياتهم مرتفعة، لا يبالون بالموت دفاعاً عن حفيد رسول الله محمّد صلى الله عليه واله وسلم فلا ثلاثين ألف فارس يخيفونهم ولا حتّى لو اجتمعت عليهم كل جيوش

الدنيا، عيونهم شاخصة، ورؤوسهم مرفوعة، وأكتافهم مشدودة، ورماحهم تشق عنان السماء، أكفّهم على قبضات سيوفهم، ينتظرون أوامر الحسين بن علي وإذنه لهم بالقتال، ليسقوا ظمأ سيوفهم ورماحهم من دماء مَن خرج لحرب حفيد رسول الله محمد، ومنع عنه وعن من معه الماء منذ ثلاثة أيّام، حتّى جفّت أجساد أطفالهم ولم يبقَ في عيونهم دمع لينهمر، فأصبح بكاؤهم أنيناً، وصوتهم همساً، وشفاههم ذابلة.

أما معسكر عمر بن سعد فكان ثلاثون ألف محارب ارتَدَوا رداء الحرب، وأسرجوا وألجموا خيولهم، وشحذوا وسلّوا سيوفهم، وسنّوا رماحهم وسهامهم، وكأنّهم سيقاتلون عشرة أضعاف عددهم، تغطي أجسادهم الدروع، وتعتلي رؤوسهم خوذاً من حديد، مئات الرايات ترفرف على عواميد عالية، لونها أحمر دموي، آلاف من الرماح المنتصبة في أيديهم، بحر من البشر يظهر أوّلهم ولا أثر لآخرهم، خرجوا لحرب الحسين بن علي بدوافع متعددة وأطماع مختلفة.

كان جيش عمر بن سعد مؤلفا من المشاة والفرسان، الفرسان قسمين فرقة المجففة وفرقة المقاتلين الفرسان، المجففة يكون بها الفرس والفارس كاملا تحت الدروع المعدنية ومهمة المجففة هي حماية المشاة والرماة عند التقدم لرمي السهام او الهجوم على الخصم وشق الطريق لها بين مقاتلين الخصم وبالإضافة الي التمركز في منتصف الجيش وعلى اطرافه لحمايته. الفرسان المقاتلين فيحملون فقط الدروع كالمقاتلين العاديين لتأمين سهولة الحركة وهم على ظهر الخيول ومهمتهم الهجوم وقتال الخصم من على ظهر فرسهم مستخدمين الأنواع المتعددة من الأسلحة مثل الرمح أو السيف أو العمود أو الدبوس.

المشاة في المقدمة وخلفهم رماة السهام وخلفهم رماة الحجارة والذين يسمون المقلاعيين لاستخدامهم المقلاع لرمي الحجارة وكرات الحديد على الخصم.

قسّم عمر بن سعد الجيش إلى أرباع كالأرباع المقسّمة لها مدينة الكوفة، ووكلَ قائداً لكل ربع، فجعل على ربع أهل المدينة عبد الله بن زهير الأزدي، وعلى ربع ربيعة وكنده قيس بن الأشعث بن قيس، وعلى ربع مذحج وأسد عبد الرّحمن بن أبي سبره الحنفي، وعلى ربع تميم وهمدان الحر بن يزيد الرياحي، أمّا ميمنة

الجيش فكان عليه عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن، وعلى الخيالة عروة بن قيس الأحمسي، وعلى الرجالة شبث بن ربعي اليربوعي التميمي، وحمل الرايةَ مولاه دريداً.

نظر الحسين بن علي إلى جيش عمر بن سعد وكأنّه السيل المنحدر، فرفع كفّيه إلى السماء، وقال مخاطباً رب العزة "اللّهم أنت ثقتي في كلّ كرب ورجائي في كل شدّة وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد وتقلّ فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة منّي إليك عمّن سواك، فكشفته وفرّجته فأنت وليّ كلّ نعمة وصاحب كلّ حسنة ومنتهى كلّ رغبة."

اقتربت مجموعة من الخيول إلى معسكر الحسين بن علي مسرعين، على رأسهم الشمر بن ذي الجوشن والذي رفع يده عالياً ليخفف من خلفه سرعة جريانهم، أراد الدخول بين بيوت معسكر الحسين بن علي، ولكن الجيش كان سداً منيعاً في وجهه ووجه من معه، حاول الالتفاف إلى أن وصل إلى النار المستعرة في الخندق، حاول دفع الفرس إلى الأمام باحثاً عن ثغرة يستطيع أن يقفز منها إلى داخل معسكر الحسين بن علي، ارتفعت النار و أصدرت صوت فرقعة وانطلق شرر من جوفها أصابت وجه الفرس، فشب قائماه الأماميان مذعوراً، وصهل صهيل جواد يتألم واهتاج، كاد يسقط الشمر بن ذي الجوشن من على ظهره، فتحجّرت كفّاه على اللجام، وعانقت رجلاه جذع الفرس، وبرزت عروق رقبته، وأصبح لون وجهه كلون الدم أرخى الفرس قائميه الأماميّين على التراب والتف متراجعاً متجاهلاً أوامر فارسه الذي كاد يقطع لجامه لقوة شدّه ثمّ صرخ عاليا "يا حسين استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة." وهو لا يزال يحاول تهدئة فرسه والتي أثارت الغبار حولها وكل من حوله ينظر إليه.

قال الحسين بن علي لمن حوله من الفرسان "من هذا؟ كأنّه الشمر بن ذي الجوشن" فأجابوه بأنّه الشمر بن ذي الجوشن.

التفت الحسين بن علي وهو على فرسه واقترب حتّى وصل بمحاذاة مسلم بن عوسجة وقال للشمر بصوت عال "يا بن راعية المعزى أنت أولى بها صلياً."

رفع مسلم بن عوسجة سهمة في كبد قوسه يريد أن يرمي الشمر بن ذي الجوشن، ولكن الحسين بن علي رفع كفّه مشيراً له بعدم الرمي.

قال مسلم ابن عوسجة "سيدي أبا عبد الله دعني حتّى أرميه فإنّه الفاسق من عظماء الجبارين وقد أمكن الله منه."

أجابه الحسين بن علي "لا ترمه فإنّي أكره أن أبدأهم بقتال."

خطبة زهير بن القين

تقدم زهير بن القين على فرس ذنبها غزيرة وهو يرتدي كامل ثياب حربه، وقف قبالة العسكر وصرخ بأعلى صوته:

"يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار، إنّ حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن أخوة وعلى دين واحد وملّة واحدة ما لم يقع السّيف بيننا وبينكم، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السّيف انقطعت العصمة وكنّا أمّة وكنتم أمّة، إنّ الله ابتلانا وإيّاكم بذرية نبيه محمّد صلى الله عليه و آله وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد، فإنّكم لا تدركون منهما إلّا بسوء عمر سلطانهما كله، ليقطّعان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه."

شتمه أحد الجنود وشتمه آخر ودعا أحد الجنود بالعمر الطويل لعبيد الله بن زياد وقال أحدهم "لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد سلماً."

صرخ زهير بن القين ليعلو صوته على صوتهم وقال "عباد الله، إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من يزيد ابن سميّة، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين هذا الرجل وبين يزيد بن معاوية، فلعمري إنّه ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين بن علي."

صرخ الشمر بن ذي الجوشن مقاطعاً كلامه "اسكت، أسكت الله صوتك، فلقد أبرمتنا بكثرة كلامك."

أجابه زهير بن القين "يا بن البوّال على عقبيه، ما إيّاك أخاطب، إنّما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم."

فقال الشمر بن ذي الجوشن "إنّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة."

قال زهير بن القين "أفبالموت تخوّفني؟ فوالله لَلموت مع الحسين بن علي أحبّ إليّ من الخلد معكم."

ثمّ حرّك فرسه واقترب من باقي العسكر مبتعداً عن الشمر بن ذي الجوشن وصرخ بصوت عال "عباد الله، لا يغرنّكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه - وأشار بيده إلى الشمر - فوالله لا تنال شفاعة محمّد قوماً أهرقوا دماء ذريّته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم."

ثمّ اقترب رجل من زهير بن القين وقال له "إن الإمام الحسين يقول لك أقبل فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ."

خطبة برير بن خضير

اقترب من الحسين بن علي برير بن خضير وسأله الإذن في أن ينصح القوم فأذن له، كان برير شيخاً ناسكاً قارئاً للقرآن ومن شيوخ القرّاء في جامع الكوفة وله بين الهمدانيين شرف وقدر، امتطى فرسه واقترب من معسكر بن سعد واختار مكان تجمّع الهمدانيين وقال "يا معشر الناس، إنّ الله بعث رسول الله محمّد بشيراً ونذيراً وداعيا إلى الله وسراجاً منيراً، وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السواد وكلابه، وقد حيل بينه وبين ابن بنت رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله، أَفَجزاء محمد هذا؟"

قاطعه أ حد الجنود "يا برير، أكثرت الكلام، فو الله ليعطش الحسين بن علي كما عطش من كان قبله."

لم يكترث برير له وأكمل كلامه "يا قوم، اتّقوا الله، إن ثقل محمّد قد أصبح بين أظهركم، وهؤلاء ذريّته وعترته وبناته وحرمه، فهاتوا ما عندكم، وما الذي تريدون أن تصنعوه بهم؟"

أجابه أحد الجنود "نريد أن نمكّن منهم الأمير عبيد الله بن زياد، فيرى فيهم رأيه."

قال بريـر بن خضير "أفلا تقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه؟" ثمّ احتدّ وغضب وأكمل يوبخهم "ويلكم يا أهل الكوفة أنسيتم كتبكم وعهودكم التي أعطيتموها من أنفسكم وأشهدتم الله عليها؟ وكفى بالله شهيداً، ويلكم أدعوتم أهل بيت نبيّكم، وزعمتم أنّكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتّى إذا أتوكم أسلمتموهم إلى ابن زياد، وحلأتموهم عن ماء الفرات الجاري الذي يشرب منه اليهود والنصارى والمجوس، وترده الكلاب والخنازير، بئسما خلّفتم محمداً في ذريّته، مالكم لا سقاكم الله يوم القيامة، فبئس القوم أنتم."

فقال أحد الجنود "يا هذا، ما ندري ما تقول."

فقال بريـر "الحمد لله الذي زادني فيكم بصيرة" ثمّ رفع رأسه ونظر إلى السماء الزرقاء الصافية "اللّهم إنّي أبرأ إليك من فعال هؤلاء القوم، اللّهم ألق بأسهم بينهم حتّى يلقوك وأنت عليهم غضبان."

ثم تراجع بريـر بن خضير عندما رأى الحسين بن علي قادماً على فرسه ويحمل مصحفا تحت ذراعه.

خطبة الحسين بن علي وهو يحمل القرآن

توجّه الحسين بن علي إلى مربط الخيول وبينها الميمون وذو الجناح ولاحق والعديد من أجود خيول العرب والتي كانت لجدّه رسول الله محمّد صلى الله عليه واله، واختار فرساً تدعى لاحق قد جاء عليها ابنه علي الأكبر، وركبها وأشار إلى ابنه علي الأكبر وإخوته الخمسة ليرافقوه فاعتلوا جميعا خيولهم دون تردد أو تأخير، واتجهوا جميعا باتجاه جموع جيش ابن سعد.

رفع الحسين بن علي المصحف عالياً واقترب أكثر من معسكر ابن سعد وقال "يا قوم، إنّ بيني وبينكم كتاب الله وسنّة جدّي رسول الله محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله، ألست ابن بنت نبيكم؟" ثمّ صمت ولم يتلقّ جواباً فأقسم عليهم بأن يجيبوه فصاحوا "بلى."

"أليس أبي علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وأمّي فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين؟"

"بلى" أجاب مجموعة من جنود عمر بن سعد.

"أليست خديجة أم المؤمنين جدتي؟"

"بلى" أجابوه.

"أليس جعفر الطيّار في الجنّة عمي؟"

"بلى" أجابه جنود من معسكر عمر بن سعد.

ثمّ رفع الحسين بن علي سيفه وقال "سيفي هو سيف رسول الله." وأرخى السّيف ورفع الدرع "هذا درع رسول الله." وأرخى الدرع ورفع عمامته من على رأسه ليراها الجميع من المتقدمين في صفوف الجيش والمتأخرين "عمامتي هذه عمامة جدي رسول الله."

صرخ أحد قوّاد جيش عمر بن سعد "قد علمنا هذا كلّه ونحن غير تاركيك حتّى تذوق الموت عطشاً."

قال الحسين بن علي "تباً لكم وترحاً، أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفا لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، ويدا عليهم لأعدائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، إلّا الحرام من الدنيا أنالوكم وخسيس عيش طمعتم فيه، من غير حدث كان منّا، ولا رأي تفيل لكم، فهلّا لكم الويلات إذ كرهتمونا وتركتمونا، والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لمّا يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبى، وتهافتم عليها كتهافت الفراش، ثمّ نقضتموها، فسحقاً لكم يا عبيد الأمّة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، ونفثة الشيطان وعصبة الآثام، ومطفئي السنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومبيري عترة الأوصياء، وملحقي العهار بالنسب، ومؤذي المؤمنين، وصراخ أئمّة المستهزئين -الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ - و -لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ - "

سكنت الأصوات وهدأت الحركات فالجميع منصتون بلا حراك وكأنّما تقف الطيور على رؤوسهم.

"وأنتم ابن حرب وأشياعه تعتمدون، وعنّا تتخاذلون أجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليه أصولكم، وتأزرت عليه فروعكم، وثبتت عليه قلوبكم، وغشيت صدوركم، فكنتم أخبث ثمر شجى للناظر، وأكلة للغاصب ألا لعنة الله على الناكثين، الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، فأنتم

والله هم. ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنين: بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة ونفوس أبيّة من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام ألا وقد أعذرت وأنذرت - ثمّ أشار بكفّه ناحية الخيام التي يسكن بها عياله وحريمه - ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد وكثرة العدو، وخذلان الناصر أما والله لا تلبثون بعدها إلّا كريث ما يركب الفرس حتّى تدور بكم دوران الرحى، وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدّي رسول الله. فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ - إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ - ثمّ رفع يديه إلى السماء حتّى بان بياض إبطيه ودعا "اللّهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأسا مصبّرة، فإنّهم كذّبونا وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير" ثمّ تقدّم بفرسه إلى مقابل عمر بن سعد الذي كان يتحاشى النظر في عينيه مباشرة، وتظاهر بعدم الانتباه فناداه الحسين بن علي بصوت يجلجل الأرض "أي عمر، أتزعم أنّك تقتلني ويوليك الدعي ابن الدعي بلاد الري وجرجان؟، والله لا تهنأ بذلك أبداً، عهدٌ معهودٌ، فاصنع ما أنت صانع فإنّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأنّي برأسك على قصبة قد نصبت بالكوفة يتراماه الصبيان ويتخذونه غرضاً بينهم" فغضب عمر بن سعد غضباً عارماً واكتسى وجهه بحمرة الدم وأصبح يحرك رأسه يميناً ويساراً وكأنّه يبحث عن مكان يخبئ رأسه به، تحرّك على فرسه وتراجع إلى الخلف هارباً من حدّة نظرات جنوده وادّعى أنّه يريد أن يتفحّص ميمنة المعسكر.

الجنة أم النار

قال الحر بن يزيد الرياحي لعمر بن سعد "أي عمر، أمقاتل أنت هذا الرجل؟" ونظرات عينيه حادّة نحو الأعلى وكأنّه يحاول أن يثقب السمّاء ليرى ما فوقها، ثمّ أرخى نظراته إلى وجه عمر بن سعد عندما أجابه "أي والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي."

قال الحر قلقاً "أفما لكم فيما عرضه عليكم رضى؟"

أجاب عمر بن سعد متجنّباً النظر إلى عيني الحر بن يزيد الرياحي "أما لو كان الأمر إليّ لفعلت ولكن أميرك عبيد الله بن زياد قد أبى" ثمّ جرى بفرسه إلى ميمنة المعسكر.

نظر الحر بن يزيد الرياحي إلى آلاف الفرسان بعتادهم وسلاحهم شبّاناً ورجالاً وشيوخاً، أكلّهم يعلمون من يقاتلون؟ أم أنّهم جاؤوا خوفا من بطش عبيد الله بن زياد أو رغبة في الذهب والفضّة والجاه؟ ألم يكونوا يعلمون منزلة من يقاتلون عندما استدعاهم يزيد وعبيد الله بن زياد للانضمام إلى الجيش؟ والآن وبعد أن أخبرهم الحسين بن علي بمقامه وقرابته من رسول الله، ألا يفترض بهم أن يتحوّلوا من معسكر عمر بن سعد إلى معسكر الحسين بن علي أو على أقل تقدير أن يتجنّبوا قتاله؟، سالت قطرات من العرق على جبين الحر عندما تذكّر النداء الذي سمعه عندما خرج على رأس جيشه من الكوفة ليلاقي الحسين بن علي ويمنعه من دخول الكوفة (يا حر أبشر بالجنة)، ثكلتني أمّي إن كنت أدخل الجنة وأنا خارج لحرب ابن بنت رسول الله، تذكّر الحر ما جال في خاطره.

لاحظ الحر بن يزيد الرياحي نظرات قرّة بن قيس والذي كان على فرسه بالقرب منه فقال له "يا قرّة هل سقيت فرسك اليوم؟"

أجاب قرّة بن قيس "لا."

"فما تريد أن تسقيه؟" قال الحر بصيغة الأمر أكثر منه صيغة التساؤل يريد من قرّة أن يتركه ويبتعد.

"لم أسقه وأنا منطلق فأسقيه" وانطلق قرّة بن قيس بفرسه وهو يظن بأنّ الحر يريد أن يتنحّى فلا يشهد القتال ويكره أن يراه حين يصنع ذلك.

تقاذفت الحر بن يزيد الرياحي أمواج بحر الصراع المتلاطمة في عقله وهو يعلم مدى أهمية الدقائق القادمة في تغير مصيره في الحياة وبعد الممات، فعندما خرج من الكوفة لم يكن في نيّته بأنّه خارج ليقتل ابن بنت رسول الله، ولم يتوقع بأنّ القوم مصرّين على قتل الحسين بن علي وعياله على الرغم من كل ما حاججهم

به وأثبت لهم بأن خروجه إلى الكوفة لم يكن إلّا تلبية لرسائلهم، اقشعرّ بدنه عندما أدرك بأن من خذل ابن بنت رسول الله بعد أن دعاه للقدوم واعداً إيّاه النصرة وقتال جيش يزيد بن معاوية لن يتوانى عن قتله وقتل عياله حتّى لو أمضى شهراً يحاججهم أو يتكلّم معهم.

ولكن ليس الحر بن يزيد الرياحي فهو رجل حرب يحترم كلامه ولا ينقض عهوده ومواثيقه ولا يقاتل بدافع حقد أو غل، فعندما خرج، خرج لقتال رجل تمرّد على رئيس بلاده على حدّ زعم عبيد الله بن زياد، ولكن الآن اتضح بأن الحسين بن علي جاء تلبية لرسائل ودعاوى من أهل الكوفة عامّة ومن قوّاد جيش عبيد الله بن زياد خاصّة.

تحرّك بفرسه رويدا رويدا مبتعدا عن المعسكر وزاد على عرق جبينه اصفرار وجهه وارتعاش أطرافه عندما أدرك عِظم ذنبه وفداحة خطئه بالخروج لقتال ابن بنت رسول الله.

رآه المهاجر بن أوس وهو من مساعديه في الجيش فسأله "ما تريد أن تصنع يا بن يزيد؟ أراك تقترب من معسكر الحسين بن علي، أتريد أن تحمل؟"

لم يجبه الحر بن يزيد الرياحي وأخذته رعشة أذهلت المهاجر بن أوس، وظل يتحرك مبتعداً عن المعسكر رويدا رويدا وهو ينظر باتجاه المهاجر وكأنّه يرى مخلوقا من عالم آخر يتكلم ولا يفهم ما يقول.

اقترب المهاجر بن أوس من الحر أكثر وقال مستعجب "إنّ أمرك لمريب والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا، ولو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك فما هذا الذي أرى منك؟"

أوقف الحر بن يزيد الرياحي فرسه وهو لا يزال ينظر إلى المهاجر بن أوس ثمّ نظر إلى معسكر عمر بن سعد وأدار رأسه ونظر باتجاه معسكر الحسين بن علي والذي حجمه أصغر من حجم معسكر عمر بن سعد بمئة مرة حتّى لا يكاد يظهر في الأفق وقال "إنّي والله أخيّر نفسي بين الجنّة والنار، فوالله لا أختار على الجنّة شيئاً ولو قطّعت وحرقت."

ثمّ ضرب الحر بن يزيد الرياحي فرسه وتوجّه بأقصى ما لديه من سرعة باتجاه معسكر الحسين بن علي ونظر إلى السماء وقال "يا الله إليك أنبت فتب علي فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيك" واغرورقت عيناه دموعا ومسحها بظهر كفه ليستطيع الرؤية.

طلب التوبة

عندما اقترب الحر بن يزيد الرياحي من معسكر الحسين بن علي قلب ترسه وأرخى رمحه معبّراً عن اقترابه لا بهدف الحرب والقتال وقال "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

الحسين بن علي وحوله إخوته وأصحابه على جيادهم، ردّوا السّلام جميعا.

اقترب الحر بن يزيد الرياحي من الحسين بن علي أكثر وهو لا يجرؤ على النظر في عينيه وقال "جعلت فداك يابن رسول الله أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان وما ظننت أنّ القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ولا يبلغون منك هذه المنزلة، والله لو علمت أنّهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت الذي ركبت، وإنّي قد جئتك تائباً إلى ربّي مما كان منّي، ومواسياً لك بنفسي حتّى أموت بين يديك، أفترى لي من ذلك توبة؟"

أجابه الحسين بن علي "نعم يتوب الله عليك، فانزل."

رفع الحر بن يزيد الرياحي رأسه إلى السماء وفي عينيه نظرات الشكر والامتنان ثمّ نظر إلى الحسين بن علي وقال "أنا لك فارس خير من راجل، أقاتلهم على فرسي ساعة وإلى النزول ما يصير آخر أمري."

قال الحسين بن علي "فاصنع رحمك الله ما بدا لك."

قال الحر بن يزيد الرياحي "سيدي عندما خرجت من قصر الإمارة في الكوفة حاملاً معي الأوامر بمواجهتك سمعت من يقول: يا حر أبشر بالجنة، التفت إلى الخلف لأرى صاحب هذه المقالة ولكنّي لم أجد أحداً، فحدثت نفسي: ويح الحر أنّى يكون هذا وأنا خارج لحرب الإمام الحسين ابن بنت رسول صلى الله عليه آله وسلم، فما هذه البشارة؟ والآن فهمت معناها."

ابتسم الحسين بن علي وقال له "لقد أصبت أجراً وخيراً."

عمر بن سعد يبدأ الحرب

أمر عمر بن سعد دريد حامل لواء جيشه بالاقتراب وقال له "أدنِ رايتك" فأدناها دريدٌ ووضع عمر بن سعد سهمه في كبد قوسه ورفعه إلى الأعلى ناحية معسكر الحسين بن علي وقال "اشهدوا لي عند الأمير عبيد الله بن زياد بأنّي أوّل من رمى" وانطلق سهم عمر بن سعد وسمع هسيس اختراقه للّهواء، ثمّ رفع آلاف الرماة أقواسهم وشدّوا السّهام سالبين رخاوة أوتارها لتصبح صلبة تكاد تنقطع منتظرة أصابع الرامي أن تحررها لتفجّر طاقة هائلة في كعب السهم فينقذف بسرعة، لا علم له أي قلب سيخترق أو أي طفل سيقتل أو أي فرس سيعقر أو أي خيمة سيمزق مثيراً الرعب بساكنيها.

انطلقت آلاف السّهام مرتفعة إلى الأعلى عابرة الفراغ السماوي بين المعسكرين بخط منحنٍ يبدأ أوله من قوس الرماة وينتهي آخره بجسد أحد المحاربين المرافقين للحسين بن علي إذا لم يرفع درعه ليتقيها، نزلت السّهام كأنّها مطر على معسكر الحسين بن علي حتّى لم يبقَ رجل أو خيل أو خيمة أو حتّى حجر لم يصبه سهم وكان صوت ارتطامها كصوت مطر من الحصى.

نظر الحسين بن علي إلى أصحابه وقال لهم "قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بدّ منه، فإنّ هذه السّهام رسل القوم إليكم."

وبدأت المبارزات الفردية.

عبد الله بن عمير الكلبي

خرج من بين جنود معسكر عمر بن سعد فرسان يهرولان وعليها يسار مولى زياد ابن أبيه وسالم مولى عبيد الله بن زياد، اقتربا من معسكر الحسين بن علي رويدا رويدا، بريق نحاس ترسيهما يلمع تحت أشعّة الشمس المتقدة وكذلك خوذتاهما، وصلا إلى مقابل تموضع الفرسان أصحاب الحسين بن علي وصرخا طالبين المبارزة.

تقدم عدّة من الرجال وطلبوا الإذن من الحسين بن علي للخروج ومبارزة الرجلين فلم يأذن لأي منهم إلى أن اقترب منه عبد الله بن عمير الكلبي من بني عليم وكنيته أبو وهب، شاب طويل شديد الساعدين بعيد ما بين المنكبين شريفٌ في قومه شجاعٌ مجرّب.

أذن الحسين بن علي لعبد الله بن عمير الكلبي وقال له "إني أحسبه للأقران قتالا."

توجّه عبد الله بن عمير الكلبي إلى يسار وسالم وجرّد سيفه.

قالا له "من أنت؟"

"عبد الله بن عمير الكلبي من عليم بن جناب الكلبي."

قالا معا "لا نعرفك" وأكمل يسار مولى زياد بن أبيه "فليخرج إلينا حبيب أو زهير."

نظر عبد الله إليه وقال غاضباً "يابن الزانية، أوبك رغبة في مبارزة أحد من الناس؟ لا يخرج إليك أحد إلّا وهو خير منك" ورفع سيفه وتوجّه إليه ورفع يسار سيفه وارتطم السيفان وصارا يتبارزان.

طعن عبد الله بن عمير الكلبي يساراً في أحشائه وصرخ يسار صرخة مدوية، في نفس اللحظة رفع سالم سيفه وهوى به على عبد الله بن عمير الكلبي فعندها صرخ أصحابه من البعد "قد رهقك العبد" انتبه عبد الله ولم يستطع أن يسحب سيفه من جوف يسار بالسرعة الكافية ليرفعه ويصد ضربة سالم، رفع يده اليسرى ليتّقي الضربة فقطعت أصابع يده اليسرى، خرجت من حلقه صرخة ألم، وسحب سيفه المشبع من دماء يسار والذي هوى من على فرسه يتلوى ألماً، وصار يبارز سالم والدماء تتطاير من يده اليسرى مع كل حركة يتحرّكها، دقائق معدودة انقضت وحد سيفه مزّقت لوح كتف سالم وسقط الأخير على الأرض وجسده ينتفض كما ينتفض جسد الذبيحة عند لحظة الذبح.

عاد عبد الله بن عمير الكلبي وهو يرتجز باتجاه المعسكر وانحنى أمام الحسين بن علي ثمّ توجّه إلى خيمته حيث كانت زوجته أم وهب وأمّه في انتظاره وسرعان ما بدأت أم وهب بتضميد جراحات يده اليسرى، نظر إلى أمه وقال "يا أماه أرضيت؟"

كانت أمّه رافعة طرف الخيمة تنظر إلى ساحة المعركة، أدارت رأسها ونظرت إليه نظرة أوصلت له معاني أكثر مما أوصلت كلماتها عندما قالت "ما رضيت إلّا وتقتل بين يدي الإمام الحسين عليه السلام."

لمعت عينا زوجته وشاهد كل من زوجها وأمّه تغيرات وجهها وفهم كل منهما ما تريد قوله ولكن لا تجرؤ على قوله فنصرة ابن بنت رسول الله واجبة، ولكن عبد الله كهفها الذي تلجأ إليه عندما تجور عليها الدنيا، فأرخت وجهها حياء لمجرد مرور الفكرة في رأسها.

رفعت أمّه رأسها ونقلت نظرات عينيها بينه وبين زوجته التي كانت قد انتهت من تضميد يده اليسرى وبدأت بتضميد جرح عميق في كتفه الأيمن، قالت له "ارجع فقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله الإمام الحسين بن علي وابذل روحك رخيصة في سبيل نصرته والذبّ عن حرمه فيكون غداً في يوم القيامة شفيعاً لك بين يدي الله." عندها أرخت زوجته رأسها وأشاحت بنظرها بعيداً عن نظرات عيني زوجها وأمه.

الفرسان الأربعة

خرج الفرسان الأربعة الذين التحقوا بمعسكر الحسين بن علي بعذيب الهجانات بعد أن حاول الحر منعهم الالتحاق به، وهم عمرو بن خالد وأصحابه، ولكن عمر بن سعد لم يسمح للهزة المعنوية التي حصلت لجنوده في المبارزة الأولى فأرس فرقة كاملة لقتالهم إلى أن احتوشوهم حتّى كادوا أن يفتكوا بهم، أرسل الحسين بن علي أخاه العبّاس فاستنقذهم وكانوا قد جرحوا جروحا بليغة، ولكنّهم لم يعودوا بل زاد حماسهم وعاد نشاطهم فاندفعوا بعزم أكبر وهمّة أعلى وحملوا مرة أخرى واقتتلوا مستميتين فنقلوا العشرات من جنود معسكر عمر بن سعد من هذا العالم إلى العالم الآخر، وثلموا في جيش العدو ثلمات لكثرة ما قتلوا، إلى أن استشهدوا مضرّجين بدمائهم مفتخرين بنصرتهم لابن بنت رسول الله.

مسروق بن وائل الحضرمي

عندما شاهد عمر بن سعد معنويات جنوده القتالية اهتزت ولازالوا في بداية المعركة بدل أسلوب القتال وأمر ميمنة جيشه بالهجوم عل ميمنة جيش الحسين بن علي. هجم عمرو بن الحجاج على ميمنة معسكر الحسين

بن علي، على رأس بضع مئات من الخيّالة وبينهم مسروق بن وائل الحضرمي جثا كل المقاتلين في ميمنة معسكر الحسين بن علي مشكلين صف واحد وأشرعوا رماحهم بزاوية حادّة إلى جهة الخيول المتقدمة، وثبتوها بيد من حديد، جبنت خيول عمرو بن الحجّاج ولم تستطع أن تتقدم أكثر، أنزل أصحاب الحسين بن علي الرماح ورفعوا السّهام في أقواسهم وأمطروا جنود عمرو بن الحجاج بالسهام وسقط منهم الكثير وتراجع من بقي.

"يا لكثرة هؤلاء الجنود الذي أرسلهم عبيد الله بن زياد، لماذا؟ لقتل الحسين بن علي لأنّه لم يبايع يزيد في الشام."، حدّث مسروق بن وائل الحضرمي نفسه وهو على جواده وقد تراجع ولم يصبه أي سهم ولم يصب فرسه أي رمح.

كان في مقدمة جيش عمر بن سعد وهو يستمع إلى ما يقوله الحسين بن علي وإخوته قبل بداية المعركة، في تلك الأثناء نظر إلى وجه عمر بن سعد وتأمل به وفكر "عمر بن سعد هذا لن يتراجع عن ذبح كل البشر في سبيل إرضاء عبيد الله بن زياد، وكذلك شمر بن ذي الجوشن وكذلك شبث بن ربعي وكذلك محمد ابن الأشعث وكذلك حرملة" يراقب الحسين يتكلم وينقل نظره من وجه إلى وجه، رجال غطّت لحاهم الرمادية رقابهم، كم من الحروب خاضوا وكم من الأمراء خذلوا، فاليوم تخلّوا عن الحسين بن علي بعد أن بايعوا سفيره مسلم بن عقيل في الكوفة فهم كذلك فيوم مع الحسين وآخر ضد الحسين ويوم مع علي بن أبي طالب وآخر ضد علي بن أبي طالب ويوم مع عثمان بن عفان وآخر ضد عثمان بن عفان يا لها من أمة متقلبة الأهواء، ولكن ما الذي يجعل الحسين بن علي متشبثاً بقراره ولا يعدل عنه على الرغم من أن الانتصار على هذا الجيش الجرار أمر مستحيل أوليس الرضوخ إلى يزيد بن معاوية واكتناز الذهب والفضّة أفضل له من أن يموت هو وعياله تحت حوافر الخيول فكر مسروق.

طالما اعتبر نفسه ذكياً بالخضوع وطاعة عبيد الله بن زياد والذي ملأ جيوب الكوفيين ذهباً خالصاً عندما دخل إلى الكوفة ليبعدهم عن مسلم بن عقيل، لم يعارضه خوفاً من شديد بطشه فمن عانده قد هدم داره وتشرّدت عياله ونهب ماله.

ارتعش جسد مسروق عندما تذكّر كيف سُحب جسدا مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة بلا رؤوس في أسواق الكوفة المغبرة حتّى اكتسى الجسدان طيناً دموياً، "لا فرصة لانتصار الحسين بن علي على هذا الجيش الجرّار، وهذه فرصتي لاكتناز الذهب المصفّى من يدي عبيد الله بن زياد السخيتين عندما أحضر له رأس الحسين بن علي وأضعه بين يديه"، حدث مسروق نفسه وارتسمت ابتسامة على شفتيه عندما تذكّر نقاشه مع زوجته عن مخططه بإحضار رأس الحسين بن علي إلى عبيد الله ابن زياد واكتناز الذهب واكتساب المنزلة المقربة منه، "سأصبح من حواري عبيد الله بن زياد في قصر الكوفة فأنا من سيحضر له رأس الحسين وسيقرّبني منه وسيجعلني من خواصه" قال لها وهي مستنكرة تماما فكرة الخروج وقتال ابن بنت رسول الله محمد.

انتبه مسروق بن وائل الحضرمي إلى أرض المعركة عندما سمع عمرو بن الحجاج يصرخ بمن معه من جنود لكيلا يتراجعوا أكثر لعدم قدرتهم على اجتياز ميمنة معسكر الحسين بن علي "يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل من مرق عن الدين وخالف الإمام."

سمعه الحسين بن علي وقال له "ويحك يا عمرو، أعلي تحرّض الناس؟ أنحن مرقنا عن الدين وأنتم ثبتّم عليه؟ أما والله لتعلمن لو قبضت أرواحكم ومتم على أعمالكم: أيّنا مرق من الدين؟ ومن هو أولى بصلي النار" ثمّ تركه الحسين بن علي وذهب ليتفقد أحوال ميسرة معسكره.

هجمت عدة خيول مرة أخرى نحو ميمنة معسكر الحسين بن علي، على رأسهم محمّد بن الأشعث وفيهم عبد الله بن حوزة التميمي، ضرب مسروق فرسه بقدمه واقترب من محمّد بن الأشعث وجماعته والذين حاولوا الدخول إلى معسكر الحسين بن علي ولكن المحاربين من طرف الحسين بن علي منعوهم، عندما

يئسوا توقّفوا مقابل الفرسان وصرخ عبد الله بن حوزة التميمي "أفيكم حسين؟" ولم يتلق أية إجابة وصرخ مرة أخرى "أفيكم حسين؟" ولم يتلق أي إجابة من الفرسان أصحاب الحسين بن علي والذين منعوه من الاقتراب أكثر من المعسكر ثمّ صرخ ثالثة "أفيكم حسينٌ؟"، ظهر الحسين بن علي عائداً من ميسرة المعسكر فأشار أصحابه إليه وقالوا "هذا الإمام الحسين، فما تريد؟"

صرخ عبد الله بن حوزة "يا حسين، أبشر بالنار."

اقترب مسروق بن وائل أكثر ليسمع رد الحسين بن علي.

قال الحسين بن علي "كذبت، بل أقدم على رب غفور كريم مطاع شفيع، فمن أنت؟"

"أنا ابن حوزة" قالها وابتسامة ساخرة على شفتيه.

رفع الحسين بن علي يديه نحو السماء حتّى بان بياض إبطيه وقال "اللّهم حزه إلى النار."

غضب ابن حوزة وأراد أن يقفز بفرسه نحو معسكر الحسين بن علي، ضرب بطن فرسه بكعبي نعليه ليقفز وانتصب واقفا فغاصت قدماه في الركابين وشد اللجام ولكن الفرس لم يتجاوب معه، اضطرب وتسمّر في مكانه ففقد ابن حوزة توازنه ووقع على رأس الفرس، فزع الفرس وضربه بسقف رأسه وهو يصهل وشب عاليا فاعتلت صرخة من صدر ابن حوزة وطار جسده إلى الوراء وأفلتت قدمه اليمنى من الركاب وبقيت اليسرى معلقة، شدّ عليه مسلم بن عوسجة وهوى بسيفه اللامع على رجله اليمنى التي كانت ترتفع عاليا بعد أن انقلب جسده رأسا على عقب، وأصبح على طرف واحد من الفرس فبراها، صرخ ابن حوزة من الألم صرخة أرعبت كل من معه، عدا به الفرس وأصبح رأسه يرتطم بالأرض ضارباً كل حجر فيها مع كل حركة يأتي بها الفرس، وهو يصرخ مولولاً إلى أن ارتطم رأسه بصخرة كبيرة اختفى صوته وسكنت مقاومته، ظل الفرس يجري ساحبا معه الجسد والرأس يخط خطا من الدماء على التربة المخبوزة من حرارة الشمس إلى أن وصل إلى خندق النار خلف المعسكر وسقط الجسد مختفياً بين ألسنة اللّهب المستعرة.

اصفرّ وجه مسروق بن وائل الحضرمي من الخوف وجفّ حلقه وسالت قطرات من العرق على ظهر رقبته وأصبح قلبه ينبض بشدة "أرأيت؟ أرأيت؟ انظر إلى الحسين بن علي ساجدا على التراب يحمد الله ويشكره على استجابة دعائه بهذه السرعة والله إن لهذا الرجل منزلة عند الله." حدّث نفسَه مسروقٌ وظل يراقب الحسين بن علي بعد أن أسر كل حواسه وسمعه، رفع الحسين بن علي رأسه من السجود ورفع يديه عاليا إلى السماء يقول "اللّهم إنّا أهل بيت نبيك وذريته وقرابته فاقصم من ظلمنا وغصبنا حقنا إنّك سميع قريب."

قال محمّد بن الأشعث ولم يزل الحسين بن علي رافعا يديه "أي قرابة بينك وبين محمد."

لم ينظر إليه الحسين بن علي وظل رافعاً يديه إلى السماء مخاطباً الله تعالى "اللّهم إن محمّد بن الأشعث يقول ليس بيني وبين حبيبك ورسولك محمّد قرابة، اللّهم أرني فيه هذا اليوم ذلاً عاجلاً."

غضب محمّد بن الأشعث غضباً عارماً وجرى بفرسه عائدا إلى معسكره ومسروق لا يزال يراقب ما يحدث، "والله إن لأهل هذا البيت حرمة ومنزلة عند الله." فكر مسروق وعاد إلى المعسكر، لم يظل في المقدمة بل تراجع قليلا وهو يراقب محمّد بن الأشعث، لم يعد يكترث بما يدور حوله من مجازر ولم ينتبه إلى غزارة الدماء التي تروي التراب وظل يراقب محمّد بن الأشعث يريد أن يرى ما الذي سيحصل له فمع ما حصل بابن حوزة، قرر مسروق التراجع عن هدفه بأن يكون أوّل من يحمل رأس الحسين بن علي إلى عبيد الله بن زياد وأصبح يتعلل الخروج للقتال، انصرف لعلاج الجرحى والذي كانت أعدادهم هائلة وانشغل بأصوات آهاتهم ولم يستطع أن يبقي محمّد بن الأشعث تحت ناظره لخروج الأخير للقتال.

أنهى ما كان مشغولاً به من مساعدة الجرحى ثمّ جال بنظره في المعسكر باحثاً عن محمّد بن الأشعث ولم ير له من أثر، توجّه إلى مكان تواجد جثث القتلى ومسح المساحة الواسعة المغطاة بأجسادهم، لم يجد جثة محمّد بن الأشعث بينهم ولم يصل إليه مصاباً أو جريحاً فهذا يعني انه لا يزال على قيد الحياة، ركب فرسه وصار يحث الفرس على الهرولة باحثاً عنه وصوت طنين السّيوف تملأ أذنيه، وصل إلى شاطئ الفرات

وعلا صوت جريان مياهه على أصوات المعركة، لم يكترث باقترابه أي من الجنود الواقفين ليمنعوا الحسين بن علي وأصحابه من الوصول إلى الماء لأنّهم عرفوه بأنه من معسكرهم، تظاهر بأنه يسقي فرسه ثمّ عاد أدراجه إلى أرض المعركة ولم ير في حياته دماء بكثرة الدماء التي سالت و أجساداً بكثرة الأجساد التي قطعت بأي معركة من المعارك وأشاح بفكرة البحث عن محمّد بن الأشعث من رأسه وعاد إلى ساحة مداواة الجرحى مرة أخرى وانهمك بمساعدتهم.

ارتفعت الشمس إلى كبد السماء أراد أن يقضي حاجته، سأل رفاقه عن المكان المخصص لذلك فأشاروا له إلى نقطة تكاد لا ترى لبعدها، اعتلى فرسه وانطلق بها، علم بأنه وصل إلى المكان من الرائحة النتنة التي تملئ الهواء، نزل من على فرسه وجال بنظره باحثا عن بقعة جافة، تسمّرت عيناه على منظر، تبخّرت من رؤيته كل سوائل جسده وليس فقط ما في مثانته، شعر بألم في رأس معدته واقشعرّ بدنه وفقد اتزانه، ألقى بذراعيه على ظهر الفرس لكي لا يسقط أرضا، جسد محمّد بن الأشعث عارٍ من الأسفل، متورم من قفاه المكشوف، عورته بادية للعيان، كان متكوّراً معتصراً بطنه، ووجهه مغموس بالخراء، عقرب أسود منتصب على فخذه العاري المتورم الذي أصبح لونه أحمر مزرق من أثر السم، اعتلى مسروق بن وائل الحضرمي فرسه وعاد إلى أرض المعركة وقد نسي بأنه قد جاء ليقضي حاجته، غير قادرٍ على نسيان ما رآه من الذل الذي لحق بابن الأشعث.

خروج برير بن خضير إلى القتال

عفيف بن زهير بن أبي الأخنس من معسكر عمر بن سعد حرّك فرسه مع مجموعة من الفرسان وعلى رأسهم يزيد بن معقل، اقترب من معسكر الحسين بن علي وصار يصيح باسم برير بن خضير، ظهر برير بن خضير على ظهر فرسه وقال ليزيد بن معقل "ما عندك؟"

توقفت الخيول وظلّ يزيد بن معقل يجول بفرسه حول فرس برير بن خضير، عفيف بن زهير ينظر إلى برير بن خضير نظرة احترام وتقدير على الرغم من أنّه من معسكر الخصوم، فبرير بن خضير هو الشيخ

الذي علّمه قراءة القرآن في المسجد المعظم وكيف يرتل آياته بشكل صحيح ومتقن، وهذا الأمر لا يخفى على أغلب من حوله.

قال يزيد بن معقل "يا برير بن خضير كيف ترى الله صنع بك" وعلى وجهه ابتسامة ساخرة.

أجاب برير بكل جدية "صنع الله والله بي خيراً وصنع الله بك شراً."

أجاب يزيد بن معقل "كذبت وقبل اليوم ما كنت كذّاباً" وشد رسن فرسه حتّى جمد مقابل برير "هل تذكر يا برير وأنا كنت أماشيك في بني لوذان وأنت تقول إن عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفا وأن معاوية بن أبي سفيان ضال مضل، وأن إمام الهدى والحق علي بن أبي طالب."

رفع برير رأسه وابتسم ابتسامة فخر وقال بصوت مليء بالثقة وكأنه يريد إثبات ما يقول بكل حواسه "أشهد أن هذا رأيي وقولي."

قال يزيد بن معقل مغتاظاً من هدوء برير وثباته على رأيه على الرغم من كل ما يمر به هو وأصحابه "فإنّي أشهد أنّك من الضالين."

لمعت عينا برير بن خضير وحرّك فرسه مقترباً أكثر ممن كان مع يزيد بن معقل وقال موجهاً كلامه له وناظراً إليهم "هل لك فلأباهلك ولندع الله أن يلعن الكاذب وأن يقتل المبطل، ثمّ أخرج فلأبارزك."

وافق يزيد بن معقل وتحرك حتّى صار مقابل برير بن خضير وأفسح المجال كل من حولهما حتّى شكّلوا حلقة من الخيول على ظهورها فرسانها، اقترب المزيد من المحاربين ليراقبوا ما الذي يحدث، رفع كل من يزيد بن معقل وبرير بن خضير ايديهما إلى السماء داعيين الله تعالى أن يلعن الكاذب منهما، وأن يقتل المحقُ المبطلَ منهما، عمّ الصمت المكان إلّا من همسهما وهما ناظران إلى صفحة السماء الصافية التي لا يشوبها شائبة وكفّاهما مرفوعان في الهواء ويدعوان الله تعالى بأن يظهر الحق ويبطل الباطل، بمجرد أن ارخيا كفّيهما سلّا سيفيهما ورفعاها عاليا في السماء حتّى خطف بريقهما أنظار المتجمعين، هوى السيفان بيدين من حديد كلّ على رأس الآخر، ضربة واحدة إن لم ترها العين تسمعها الأذن، فصوت ارتطام حد السّيف بمغفرة المحارب

المؤلفة من طبقات من الحديد والنحاس وجلد الماشية، وقطع السّيف لها ثمّ ولوجه في جمجمة الرجل، أشبه بصوت الرعد في عاصفة هوجاء.

سقط يزيد بن معقل من على فرسه وسيف برير بن خضير لا يزال عالقاً في جمجمته شدّ السيف معه برير بن خضير الذي لم يزل قابضا على مقبضه، اختل توازنه وسقط على التراب وعندما وصل إلى الأرض قام مسرعا وشدّ قبضته على السّيف ليسحبه، قفز عليه من الخلف رضيّ بن منقذ العبدي معتنقه من الخلف، وقع برير على التراب وفوق ظهره رضي واضعاً يديه حول رقبته محاولاً خنقه، وبرير يحاول جاهداً أن يفلت من قبضته، أصبح وجهه أحمر داكناً لعدم تمكنه من التنفس، حرّك يديه إلى خلف رأسه محاولاً القبض على رأس رضي بن منقذ ولكن الأخير أبعد رأسه وزاد من ضغط ساعديه حول رقبة برير، سحب برير رجليه حتّى صارت ركبتيه تحته فارتفع جسد رضي بن منقذ مسافة مكّنت برير بن خضير من قلبه إلى ناحية اليسار وأصبح رضي تحته ولا زال محكماً ذراعيه حول رقبة برير، وبرير فوقه ولكنه مستلقٍ على ظهره، رفع برير يده اليمنى وحركها إلى أقصى جهة اليسار ليقلب جسده ولكنه لم يستطع، أرخى كفه وقبض قبضة من التراب ورماها إلى الخلف على وجه رضي الذي كان تحت رأسه فغطى التراب عيني وفم رضي بن منقذ، أرخى قبضته الحجرية لجزء من الثانية كانت كفيلة بأن يتحرر برير بن خضير ويقلب جسده ويجثو على صدر رضي بن منقذ، كان برير بن خضير يلهث بصوت عال محاولاً أن يعوض ما نقصه من الهواء.

صرخ رضي بن منقذ العبدي مستنجداً بأصحابه "أين أهل المصاع والدفاع؟" فرفع كعب بن جابر بن عمرو الأزدي رمحه يريد أن يضرب بريراً من الخلف على ظهره فقال عفيف بن زهير له "إن هذا برير بن خضير القارئ الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد" فنظر كعب بن جابر بن عمرو الأزدي إلى عفيف بن زهير نظرة المندهش وكأنه تكلم بلغة غريبة لا يعرفها وتجاهله، هوى بالرمح على ظهر برير فسقط رأس برير على رأس رضي بن منقذ وقبض على أنفه بأسنانه وعضّه فصرخ رضي صراخ الحامل من شدّة الألم، رفع برير رأسه وقطعة من أنف رضي بين أسنانه، رفع كعب بن جابر بن عمرو الأزدي سيفه بكلتا قبضتيه

وهوى به على ظهر برير بن خضير، انغرس نصله بظهره وسقط جسد برير على الأرض من على صدر رضي بن منقذ، كعب بن جابر ترك الرمح نابتاً من ظهر برير بن خضير وسحب سيفه وصار يغرسه بجسد برير حتّى فارق الحياة، قام رضي بن منقذ العبدي والدماء تسيل من أنفه على لحيته وفمه وقال بصوت خافت يشوبه الألم "أنعمت علي يا كعب نعمة لن أنساها أبدا."

اقترب أصحاب كعب ورفعوا جثة يزيد بن معقل وارتفع سيف برير بن خضير الذي لا يزال مغروسا في جمجمته كالراية وعادوا بها إلى معسكرهم وعاد معهم عفيف بن زهير الذي لم يشك لحظة بأنّ من سينتصر بالمباهلة هو معلمه برير بن خضير.

مسلم بن عوسجة

هجم عمرو بن الحجاج وأصحابه مرة أخرى على ميمنة معسكر الحسين بن علي بعد أن شهدوا ما حدث لابن حوزة، فاندفع إليهم مسلم بن عوسجة بن سعد بن ثعلبة الأسدي السعدي، وكان شيخاً وقوراً كثير الصّلاة والعبادة معروفاً بشجاعته وشهامته، كان سيفه اللامع بيده لا يزال يقطر من دماء فخذ ابن حوزة، شدّ عليه مسلم بن عبد الله الضبابي وعبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي من جيش عمر بن سعد، انهمكا بمبارزة مسلم بن عوسجة الذي أثار حفيظة الأرض التي يطؤها خيله لشدة قوّة ضرباته، فنفثت غبرة عظيمة سلبت وضوح الرؤية لدى هذا الشيخ الشجاع واستطاع سيفا مسلم بن عبد الله الضبابي وعبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي أن ينالا من جسده الطاهر ويرميانه صريعاً على التراب مضرجاً بدمائه .

عندما انجلت الغبرة وتبين جسد مسلم بن عوسجة على التراب غارقاً بدمائه تحرّك الفريقان، فمن الفريق الأوّل توجّه الحسين بن علي ومعه حبيب بن مظاهر إلى الجسد الممدد على التراب، ومن الفريق الثاني أسرع ثلّة من أصحاب عمرو بن الحجاج وهم يصرخون بكل بهجة وسرور "قتلنا مسلم بن عوسجة، قتلنا مسلم بن عوسجة، قتلنا مسلم بن عوسجة" فقابلهم شبث بن ربعي والدهشة تعلو وجهه وقال لهم "ثكلتكم أمّهاتكم، أيقتل مثل مسلم بن عوسجة وتفرحون؟" فصمت الفرسان وتوقّفوا قبالته مستنكرين استقباله لهم

بهذا الكلام وقد أكمل مبرراً "أما والّذي أسلمت له، لربّ موقف له قد رأيته في المسلمين كريم، لقد رأيته يوم أذربيجان وقد قتل ستّة من المشركين قبل أن تلتئم خيول المسلمين، أفيقتل منكم مثله وتفرحون" وانفضّوا من حوله دون أن ينبسوا ببنت شفّة.

كان جسد مسلم بن عوسجة ملقى على التراب ولا يزال فيه رمق من الحياة، جثا الحسين بن علي بجانب وحبيب بن مظاهر في الجانب الآخر من رأسه، قال الحسين بن علي "رحمك الله يا مسلم، بسم الله الرّحمن الرّحيم -مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا - صدق الله العظيم."

قال له حبيب بن مظاهر "عزّ عليّ مصرعك يا مسلم، أبشر بالجنة."

همس مسلم بن عوسجة بصوت خافت لا يكاد يسمع من شدّة وهنه مما اضطرّ حبيب بن مظاهر إلى إخفاض رأسه ووضع أذنه بجانب شفتيه "بشّرك الله بخير."

رفع حبيب بن مظاهر رأسه وقال "لولا أعلم أنّي في الأثر لاحق بك من ساعتي هذه، لأحببت أن توصيني بكلّ ما أهمّك حتّى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدّين."

تحركت كف مسلم بن عوسجة اليمنى باذلاً جهداً ليرفعها وأشار إلى الحسين بن علي وفاضت عيناه دموعاً وسالت مختلطة بدمائه وهمس في أُذن حبيب الذي أرخى رأسه مرّة أخرى "أوصيك بهذا رحمك الله، أن تموت دونه."

رفع حبيب رأسه وقال بصوت يملؤه التصميم والعزم والإصرار وكأن ما قاله مسلم أثار حماسه "أفعل وربّ الكعبة ولأنعمنّك عينا" فكست شفتي مسلم ابتسامة رقيقة هي آخر ما صدر منه قبل أن تفيض روحه وتصعد إلى أعالي السّماء.

عمرو بن قرظة

عمرو بن قرظة، وعلي بن قرظة الأنصاريان أخوان، ولكنّهما في أرض هذه المعركة خصمان، فعمرو بن قرظة في جيش الحسين بن علي، وعلي بن قرظة في معسكر عمر بن سعد.

خرج عمرو بن قرظة بعد أن استأذن الحسين بن علي وقاتل قتال المشتاقين إلى الجزاء، وبالغ في خدمة سلطان السماء، حتّى قتل جمعا كثيراً من حزب ابن زياد، ظل يقاتل ويحوم حول الحسين بن علي، فكان لا يأتي سهم باتجاه الحسين بن علي إلّا سارع إلى صدّه بدرعه أو بيده أو حتّى بصدره، ولا سيف نازلاً على الحسين بن علي إلّا تلقّاه بمهجته، فحرص بأن لا يصل إلى قائده وإمامه الحسين بن علي سوء، إلى أن أثخن جسده بالجراح وسقط على التراب وتمتم بكلمات سمعهن الحسين بن علي على الفور "يا بن رسول الله أوفيت؟"

اقترب منه الحسين بن علي وقال له "نعم أنت أمامي في الجنّة، فأقرئ رسول الله صلّى الله عليه وآله عنّي السّلام وأعلمه أنّي في الأثر" فابتسم عمرو وفارقت روحه جسده والرّضا يملأ نفسه.

صدر صوت صراخ من أحد جنود معسكر عمر بن سعد والذين شاهدوا ماحلّ بعمرو بن قرظة "يا حسين."

رفع الحسين بن علي رأسه ونظر إلى جهة صدور الصوت فرأى علي بن قرظة أخو عمرو يقترب والغيظ يملأ معالم وجهه دافعاً الجنود من أمامه عندما أدرك علي بن قرظة بأنّ الحسين سمع نداءه قال "يا كذّاب بن الكذّاب أضللت أخي وغررته حتّى قتلته."

أجابه الحسين بن علي "إنّ الله لم يضلّ أخاك ولكنّه هدى أخاك وأضلّك."

صرخ علي بن قرظة بصوت غاضب "قتلني الله إن لم أقتلك أو أموت دونك" وهجم باتجاه الحسين بن علي ينوي طعنه، اعترضه نافع بن هلال المرادي وطعنه برمحه فوقع من على فرسه وتدحرج على التراب، هجم أصحابه باتجاهه واستنقذوه قبل أن يطعنه نافع مرة أخرى فيقتله وحملوه عائدين به إلى المعسكر.

الحر بن يزيد الرياحي

انتشر الهرج والمرج بين جنود معسكر عمر بن سعد عندما شاهدوا الحر بن يزيد الرياحي قادماً من جهة معسكر الحسين بن عي على جواده، من خيرة الجياد عندما يسير إلى الأمام يكون رأسه ورقبته مائلان قليلاً إلى جهة اليمين.

صرخ الحر في صوته غضب عارم "يا أهل الكوفة." وصمت وظل يتقدم وهو ينظر إلى وجوه الجنود الناظرة إليه، منهم من كان محتاراً لم يدرك ما الذي فعله الحر منتظراً ليسمع كلامه، ومنهم من أدرك فعلة الحر بانتقاله من معسكر ابن سعد إلى معسكر الحسين بن علي فامتلأت عيونهم غضباً وظهر حقدهم من قلوبهم فكسا وجوههم.

تابع الحر عندما خفت الهرج والمرج بين الجنود "يا أهل الكوفة، لأمّكم الهبل والعبر إذا دعوتم هذا العبد الصالح حتّى أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنّكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثمّ عدوتم عليه لتقتلوه، وأمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمه، وأحطتم به من كل جانب، ومنعتموه من التوجّه في بلاد الله العريضة حتّى يأمن هو وأهل بيته" اعتلت غصّة حلقه وغابت كلماته عندما تذكّر ما فعله بالحسين بن علي وأهل بيته عندما منعهم من دخول الكوفة وأجبرهم على الانحراف حتّى وصلوا إلى هذه البقعة القفرة فابتلع غصّته وأجبر نفسه على الكلام "فأصبح كالأسير في أيديكم، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرّاً، وحلأتموه ونساءه وصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهود والنصارى والمجوس وتمرّغ فيه خنازير السواد وكلابها، وهاهم قد صرعهم العطش، بئسما خلّفتم رسول الله محمّداً في ذريته، لا سقاكم الله يوم الظمأ، إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا وساعتكم هذه."

كان جواب القوم له بأن رموه بالحجارة فأصابت فرسه فاهتاج واستطاع الحر جاهدا السيطرة عليها وعاد متوجّها إلى معسكر الحسين بن علي عندما أدرك بأن هؤلاء القوم قد طبع على قلوبهم، فلا شيء يمكن أن ينحيّهم عما جاؤوا من أجله.

وصل الحر إلى المعسكر وقابل الحسين بن علي وكانت تعابير وجهه كافية لإيصال الرسالة بردة فعل معسكر ابن سعد.

نافع بن هلال الجملي

نافع بن هلال الجملي كان سيّداً في قومه شريفاً، شجاعاً، قارئاً للقرآن، من أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حضر معه حروبه الثلاثة في العراق، خرج للقاء الحسين بن علي ومسلم بن عقيل لا يزال في الكوفة لم يقتل بعد، التقى به في الطريق وظلّ مصاحبه إلى هذا اليوم.

كان رامياً معروفا بدقّة إصابته لأهدافه واعتاد أن ينقش اسمه على سهامه، السّهام التي يحملها اليوم مسمومة وعليها اسمه ولم يوفر منها سهماً بل أطلقها كلها حتّى أفشت سمومها في صدور أعدائه، وعندما نفذت سهامه جرّد حسامه وغار على القوم وبدأ يشبع عطش حسامه بدمائهم وقاتل قتال الشجعان، وردّوا عليه ردّ الجبناء بأن رموه بالحجارة التي أصابت جسده من رأسه إلى رجليه فسقط على الأرض.

هجموا عليه يضربونه بقضبان وعصي، فتكسرت عضداه، وسحبه الجنود ومعهم الشمر بن ذي الجوشن أسيراً إلى المعسكر وهو يتأرجح بين الوعي واللاوعي من شدّة آلامه، رفعوه بين يدي عمر بن سعد والذي قال له "ويحك يا نافع، ما حملك على ما صنعت بنفسك؟"

أجاب نافع بصوت يمتزج مع الألم "إن ربي يعلم ما أردت."

كانت الدماء تسيل على وجهه وتغطي لحيته، فأشار رجل ممن شارك في كسر عضديه إلى وجهه ولحيته وقال "أما ترى ما حل بك؟"

ابتسم نافع على الرغم من شدّة الألم والعطش وقال "والله لقد قتلت منكم اثني عشر سوى من جرحت وما ألوم نفس على الجهد، ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني."

نظر الشمر بن ذي الجوشن إلى عمر بن سعد وقال "اقتله أصلحك الله."

نظر عمر بن سعد إلى الشمر ويده على شاربه يفتل طرفه ثمّ قال "أنت جئت به فإن شئت فاقتله."

سحب الشمر بن ذي الجوشن سيفه يريد أن يطعنه فقال له نافع بن هلال الجملي "أما والله يا شمر، لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا، فالحمد لله جعل منايانا على يد شرار خلقه."

غضب الشمر لسماع ذلك ورفع سيفه وهوى به على رقبة نافع ليفصل الرأس عن الجسد، الضربة الأولى لم تؤدّ المهمة وظلّ الرأس معلقا بالجسد، فقبض الشمر على الرأس من الشعر بيده اليسرى، وبدأ بجزّ رقبة نافع بسيفه بيده اليمنى حتّى فصل الرأس عن الجسد ورماه إلى الأرض.

الهجوم على ميسرة جيش الحسين بن علي

هجم الشمر بن ذي الجوشن ومعه قرابة المئة فارس على ميسرة معسكر الحسين بن علي، والتي لم تقل صلابة واستعداداً عن الميمنة ولم يكن له فرصة باختراقها. ومن بين المحاربين في ميسرة جيش الحسين بن علي كان عبد الله بن عمير الكلبي والذي لم يمت بالمبارزة الفردية في البداية وفقط قطعت أصابع كفه، غاص في جموع آلاف العساكر يروي عطش سيفه بدماء أعدائه فقاتل قتال الأبطال، واصطبغت ثيابه بدمائه ولقي حتفه بسيفي هانئ بن ثبيت الحضرمي وبكير بن حي التيمي بن تيم الله بن ثعلبة وسقط صريعاً على التراب.

كانت زوجته تراقبه من باب خيمتها ويدها تعتصر قلبها وما إن سقط صريعاً على الأرض والتهى عنه الجنود ركضت خارجة من الخيمة ورمت نفسها على جسده، وضعت رأسه على حضنها وغابت بنوبة بكاء ونحيب وهي تمسح الدماء من على جبينه وتنكت التراب من لحيته وتقبّل خدوده غير مكترثة بالدماء التي غطت وجهها.

كان الشمر بن ذي الجوشن على فرسه عندما رأى أم وهب جاثمة على جسد زوجها وهي تبكي فنظر حوله ورأى غلامه رستم بالقرب منه، رمى له عموداً كان في يده والذي تلقاه بيده اليمنى بكل خفّة وبراعة ولم يحتج أكثر من إيماءة من رأس سيّده ليفهم ما يريد، فرفع الرمح واتجه باتجاه أم وهب وهوى به على

رأسها من الخلف وانشدخ رأسها من عزم الضربة وتطاير دماغها على التراب، سقطت جثة هامدة فوق جسد زوجها وكانت هي أوّل امرأة تقتل من معسكر الحسين بن علي.

نظر رستم إلى الشمر بن ذي الجوشن ليتلقى المديح على سرعة تنفيذه للأوامر وإتقانه عمله بقتلها من الضربة الأولى، و كان الرد هو الابتسامة على وجه سيده تعبيرا عن إعجابه بما فعله الغلام وكانت مشبِعة لرغبة رستم بكسب قبول من حوله، رمى الرمح وأمسك بالخنجر الذي رماه الشمر بن ذي الجوشن إليه وأمره بقطع رأس الرجل ورميه إلى ناحية معسكر الحسين بن علي، اسرع رستم بكل همّة ونشاط وأمسك برأس عبد الله ابن عمير من شعره وأنزل نصل الخنجر على رقبته من الجانب وبدأ يحزّ الرقبة يقطع أوصالها والدماء تفور منها، قام رافعاً الرأس بيده اليسرى ولا يزال الخنجر باليمنى والابتسامة تعلو محيّاه وهو ينظر إلى سيده الشمر الذي كان يراقبه، جرى رستم بسرعة وهو يلوح بالرأس بشكل دائري باتجاه معسكر الحسين بن علي ورمى به.

طار الرأس عاليا ونزل على التراب مصدراً صوتاً كتيماً وتدحرج حتّى توقف عند رجلي سيدة عجوز واقفة على وجهها أقسى علامات الجزع، انحنت والتقطت الرأس وهي تنظر إليه نظرات معانيها بألف كلمة ملفوظة، رفعت يدها وأعادتها إلى الخلف ورمت الرأس بقوة ليست فقط من عضلات يدها بل بقوة الغضب المتفجر من جوفها، طار الرأس عاليا ونزل كالصخرة على رأس أحد الجنود فسقط صريعا وسقط الرأس على الأرض بجانبه وعيناه مفتوحتان وكأنّهما تنظران إلى المرأة الغاضبة التي رمته، وتوجهت إلى عمود خيمتها وسحبته فهبطت الخيمة وكأنّها تريد أن تقول بأنّ أركان بيتها تهدّمت بمقتل ابنها، حملت العمود وجرت بكل ما تملك من قوّة إلى معسكر ابن سعد وأصبحت تضرب بالعمود بكل ما أوتيت من عزم وقوّة فخبطت رأس جندي من الأمام حتّى تهشم أنفه وتشوهت معالم وجهه فسقط على وجهه صريعاً وضربت رجلاً آخر على أسفل رأسه من الخلف فخر صريعاً وأرادت أن تضرب الثالث وهي مندهشة من القوة التي اكتست يداها، حاصرها عدة جنود وهم يلوحون بسيوفهم يريدون الانقضاض عليها لكن الحسين بن علي وصل إليها

وفرّق الجنود من حولها وقال لها "جزيتم من أهل بيت نبيكم خيراً، ارجعي رحمك الله فإنّ القتال مرفوع عن النساء."

رمت العمود ورجعت إلى الخيام وهي تقول "إلهي لا تقطع رجائي."

قال لها الحسين بن علي "لا يقطع الله رجاءك، أنت وولدك مع رسول الله وذريته في الجنة."

كان عدم إمكانية اختراق الشمر لميسرة معسكر الحسين واضحة لكل عساكره فأراد تشتيت انتباههم فضرب فرسه وتوجّه ناحية خيام الحسين بن علي، رمى الرمح عالياً باتّجاهها فسقط على خيمة تجلس بداخلها النساء واخترقها، سمع جمع غفير صوت النساء يتصايحن وعلا صوت صراخ الأطفال.

صاح الشمر بن ذي الجوشن بصوت عال مسموع للجميع لساكني الخيام من أهل الحسين بن علي وللجنود من حوله "عليّ بالنّار لأحرق هذه البيوت على أهلها" فزاد صراخ وبكاء الأطفال.

وصل الحسين بن علي كاللّيث الهائج وبيده سيفه وقال للشمر بن ذي الجوشن بصوت غاضب "يابن ذي الجوشن، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي، أحرقك الله بالنار."

تراجع الشمر بن ذي الجوشن وتقدّم من معه ليحجبوا الحسين بن علي من الوصول إليه وكان منهم حميد بن مسلم فأدار وجهه ونظر إلى الشمر وقال "سبحان الله، يكفيك في إرضاء الأمير قتل الرجال، ولا يصلح لك أن تجمع إلى ذلك الإحراق بالنار وقتل العيال والأطفال"

قال شبث بن ربعي وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة "يا شمر أمرعباً للنساء صرت؟ ما رأيت مقالاً أسوأ من مقالتك، ولا موقفاً أقبح من موقفك."

تغيّر لون وجه الشمر بن ذي الجوشن وكساه الاحمرار من الإحراج وهمّ بالانصراف عندما هجم عليه ومن معه زهير بن القين على رأس عشرة فرسان وكأنّهم أسود غاضبة، غاب الفريقان بجولة قتال وأجبروهم على الابتعاد عن معسكر الحسين بن علي والتراجع بعد أن قتلوا منهم أبا عزرة الضبابي، وكان عمر بن سعد يراقب من بعيد فأرسل عزرة بن قيس على رأس خمسمئة فارس لدعم الشمر ومن معه، وانضمّ مجموعة من

الفرسان من معسكر الحسين بن علي إلى العشرة الذين مع زهير بن القين، يقاتلون ما يفوق الخمسمئة فارس برئاسة عزرة بن قيس احتدم القتال واستعرت السّيوف لكثرة اصطكاكها فأصبحت تكوي قبل أن تقطع، وعلى الرغم من قلّة عدد فرسان معسكر الحسين بن علي إلّا أنّ النقص بدا واضحاً في فرقة فرسان عزرة بن قيس، فأرسل عبد الرّحمن بن حصين إلى عمر بن سعد طالباً زيادة المدد من الفرسان.

وصل عبد الرّحمن بن حصين إلى عمر بن سعد والذي كان واقفاً وحوله بعض قادة الجيش وشبث بن ربعي، قال لعمر بن سعد "عزرة بن قيس يقول أما ترى ما تلقى الخيل من هذا العدد القليل مع الحسين بن علي، أرسل إليه الرجال والرماة."

نظر عمر بن سعد إلى عبد الرّحمن بن حصين نظرة شك وريبة وكأنّه لم يصدق الخبر ثمّ أدار وجهه ناحية شبث بن ربعي وقال "ألا تقدم إليهم؟"

نظر شبث بن ربعي إلى عمر بن سعد وقال غاضباً ويده على مقبض سيفه "سبحان الله، أتعمد إليّ وأنا شيخ مصر وسيد أهل المصر عامة فتبعثني في الرماة ولم تجد من تندب لهذا الأمر إلّا أنا ويجزي عنك غيري من هو أقلّ منّي."

قال عمر بن سعد "يا شبث أنت خير القادة لدي ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك."

قال شبث ورفضه لأداء المهمة أصبح واضحاً ليس فقط بكلماته بل بلغة جسده أيضاً "لا يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبدا ولا يسدّدهم لرشد" ثمّ نظر إلى كلّ من حول عمر بن سعد موجها كلامه للجميع "ألا تعجبون أنّا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه الحسن من بعده آل أبي سفيان خمس سنين ثمّ عدونا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية ويزيد ابن سمية الزانية" والتفت إلى عمر بن سعد وقال "ضلال يالك من ضلال" وأدار ظهره وانسحب غاضباً.

تغيّر لون وجه عمر بن سعد وعيناه تقدح شرراً من شدّة الغضب، صرخ بالحصين بن تميم الذي كان واقفاً معهم وأمره بقيادة خمسمئة من الرماة والتوجّه فوراً لمساندة عزرة بن قيس برمي معسكر الحسين بن علي بالنبل.

وصل الرماة وتمركزوا قبالة معسكر الحسين بن علي وبدؤوا برشقهم بالسهام من كافة الجهات ولكن جنود الحسين بن علي استطاعوا أن يحموا أنفسهم بالمتاريس ولم يستطيعوا أن يحموا أجساد خيولهم كلها فعقرت السّهام أغلبها وبقي معظم الفرسان رجالة بلا خيول.

عندما عجز جموع الفرسان والرجالة من جيش عمر بن سعد من تقويض معسكر الحسين بن علي وخيامه لتقاربها، أرسل لهم عمر بن سعد يأمرهم بأن يبدّلوا أسلوب حربهم، فصاروا يهجمون على الخيام فرادى من كل الجهات ويتخلّلون بينها محاولين نهبها أو قتل من يجدونه خارجها، ولكنّ أصحاب الحسين بن علي صاروا يشدّون على الرجل وهو يحاول أن ينهب الخيام فيقتلونه أو يرمونه إلى خارج المعسكر فتتكسر عظامه، دبّ الرعب بصفوف عساكر عمر بن سعد ولم يجرؤ أحد على الدخول أكثر بين الخيام، وعندها أرسل عمر بن سعد يأمرهم بإضرام النار فيها، اقترب العشرات من الخيالة وبأيديهم المشاعل ورموها على الخيام المحيطة واشتعلت النيران فيها، تعالت صيحاتُ النساء وصراخُ الأطفال وبكاؤهم وعندها توجّه الحسين بن علي وأمر أصحابه بعدم منع جنود ابن سعد من رمي المشاعل وذلك بأنّ النّار ستستعر فقط بالخيام الخارجيّة وستمنع الجنود من الولوج إلى داخل المعسكر، ثمّ توجّه إلى النساء والأطفال وجمعهم في الخيام الموجودة في المركز بعيداً عن الأطراف التي اشتعلت بها النيران.

صلاة الظهر

عمر بن عبد الله بن كعب المعروف بأبي ثمامة الهمداني الصائدي، تابعيّ من أشجع فرسان العرب ومن أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، والمخلصين له ومن الذين رافقوه وشهدوا معه كافّة حروبه،

وبعدها صحب ابنه الحسن عليه السلام وبقي في الكوفة وكان ممّن كاتب ابنه الحسين وطلب منه المجيء إلى العراق بعد موت معاوية بن أبي سفيان.

عندما جاء مسلم بن عقيل إلى الكوفة كان هو من يقبض الأموال ويشتري العتاد والسلاح، وكان قائد ربع تميم وهمدان في الجيش الذي شكّله مسلم بن عقيل لمواجهة عبيد الله بن زياد بعد أن أسرَ هانئ بن عروة في قصره في الكوفة.

بعد مقتل مسلم بن عقيل اختفى واشتدّ طلب عبيد الله بن زياد له خرج من الكوفة هو ونافع بن هلال الجملي متخفيين ولقيا الحسين بن علي في طريقه من مكّة إلى الكوفة وبقيا معه إلى هذه اللحظة.

كانت الشمس قد شمخت في قمة قبة السماء، ودخل وقت فرض صلاة الظهر وكان أوّل من أخبر بزوالها هو أبو ثمّامة الصائدي بعد أن راقب خيال ما حوله ومن حوله فنظر إلى الحسين بن علي وقال "نفسي لك الفداء يا سيدي يا أبا عبد الله، إنّي أرى هؤلاء قد اقتربوا منك أكثر وأكثر، ووالله لا تقتل حتّى أقتل دونك إن شاء الله وأخضب بدمي، وأحب أن ألقى ربي وقد صلّيت معك هذه الصّلاة التي دنا وقتها."

قال الحسين بن علي له "ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أوّل وقتها" كان حوله جمعٌ من الفرسان فقال لهم "سلوا القوم أن يكفّوا عنّا حتّى نصلي."

حبيب بن مظاهر

تقدم حبيب بن مظاهر إلى معسكر عمر بن سعد وهو شيخ كبير عمره خمس وسبعون عاماً آنذاك ورفع عقيرته فيهم وصاح: "يا بن سعد، أنسيت شرائع الإسلام؟! هلاّ أوقفت الحرب وتركتمونا نصلّي وتصلّون، ثم قاتلونا إن شئتم."

صرخ الحصين بن نمير عالياً "صلّ يا حسين فإن صلاتك لا تقبل."

صاح حبيب بن مظاهر "زعمت أنّها لا تقبل من آل رسول الله وتقبل منك يا حمار."

فهجم الحصين بن نمير على حبيب بن مظاهر، وضرب حبيب وجه فرسه بالسيف، فشب به الفرس ووقع الحصين على الأرض وعندما هم حبيب للاقتراب منه، منعه أصحابه، قسم منهم حمل الحصين بعيداً عن حبيب والقسم الآخر بدؤوا قتال حبيب بن مظاهر والذي قاتل قتال الأبطال على الرغم من أنّه شيخ كبير، فأدهش من حوله لقوّته وشدّة بأسه وقتل منهم الكثير وكلّما سقط جسدٌ صريعٌ على الأرض تطايرت الدماء لغزارتها.

بينما كان يقاتل حمل عليه رجل من بني تميم يدعى بدل بن صريم ولقي مصرعه بضربة من سيف حبيب على رأسه ثمّ جاءت ضربة من رمح رجل من بني تميم أيضاً على رأس حبيب من الخلف فوقع على الأرض، عندما هم ليقوم هجم الحصين بن نمير عليه وضربه على رأسه ضربة بالسيف أسقطته صريعاً يخور بدمه ونزل التميمي الذي طعنه بالرمح واحتزّ رأسه وفصله عن جسده ورفعه عالياً وهو يتباهى بأنّه هو من قتله.

اقترب الحصين بن نمير منه يريد أن يسحب الرأس من يده ودفع الرجل من بني تميم وقال له "أنا من قتله" فنهض الرجل من بني تميم وهجم على الحصين ابن نمير وهو يقول "بل أنا من قتله واحتزّ رأسه."

فقال الحصين بن نمير "إنّي لشريكك في قتله."

أجابه التميمي ولا يزال يشتعل غضبا "والله ما قتله غيري."

قال الحصين بن نمير "أعطينه أعلّقه في عنق فرسي كيما يرى النّاس ويعلموا أنّي شركت في قتله، ثمّ خذه أنت بعد ذلك وامض به إلى عبيد الله بن زياد فلا حاجة لي فيما تعطاه على قتلك إياه."

رفض التميمي وهجم عليه الحصين وهمّ الاثنان يتصارعان لولا أن اندفع أصحابهما ومنعوهما من الصراع، وأقنعوهما بأن من قتل حبيباً كلاهما ووافق التميمي بأن يأخذ الرأس إلى عبيد الله بن زياد بنفسه في الكوفة وأن يعلق الحصين بن نمير الرأس على رقبة فرسه ليرى كل من بالمعسكر بأنه شريك في قتل حبيب بن مظاهر.

ثلاثة عشر سهماً

وقف سعيد بن عبد الله الحنفي وتحته ظلّه، بكامل لباسه الحربي والخوذة على رأسه ودرعان على ظهر ذراعيه ثابتاً كالجبل في وجه السّهام الماطرة من جهة معسكر عمر بن سعد، يصدّها عن الوصول إلى جسد الحسين بن علي الذي وقف ليؤدي صلاة الظهر. كان الحسين بن علي طلب من معسكر ابن سعد أن يتوقّفوا عن القتال ريثما يصلي هو وأصحابه صلاة الظهر. عمر بن سعد رفض ذلك فمن الخطر رؤية جيشه للحسين بن علي وأصحابه يقيمون الصّلاة، ويؤدّونها على وقتها، فهذا سيهزّ عزيمة جنوده، الذين خرجوا إلى قتال رجل مارق متمرد قام على أميره يزيد، لا شيخ وقور يخاف الله ويتّبع تعاليمه ويؤدي الصّلاة ويقيم حدود الله ولا يخالف أوامره فظلّت المعركة قائمة وأمر عمر بن سعد أمهر رماته بأن يتجهّزوا ليرموا الحسين بن علي وكل من معه ويمنعوهم من أداء الصّلاة بأي ثمن.

كبّر الحسين بن علي تكبيرة الإحرام، الله أكبر، وهو يعني ما يقول، فالله أكبر مما كان وما يكون، وبدأ صلاته وهو يعلم بأنّها وفادة إلى الله ووقوف بين يديه، فتراه في صلاته يقف مقام الذليل الراغب الراهب الخائف الراجي المسكين المتضرّع المعظِّم، واستغرق في تلاوته لسورة الفاتحة ذائباً في عوالم راقية انتشلته مما حوله من اقتتال.

خرج جمع من أصحاب الحسين بن علي يحاولوا إلهاء جيش الأعداء عنه وهو يصلي، ولكن الفارق الكبير بالأعداد جعل خروجهم بلا جدوى، وصارت السّهام تُرمى بغزارة باتجاه الحسين بن علي ومن معه، وبكل براعة وخفّة يحرّك سعيد بن عبد الله الحنفي الدرعين ليصدّها، فبالدرع الأيسر يغطي وجهه، ويناور بالدرع الأيمن، ليمنع أي سهم من الوصول إلى الحسين بن علي، فهدف الرماة من منع الحسين بن علي من إكمال صلاته لن يتم إلّا بإزاحة سعيد بن عبد الله الحنفي من أمامه، فوجّهوا سهامهم بدقّة محاولين إصابته، ولكنّه كان متيقظاً بكل حواسه، استطاع صد أغلب السّهام التي كانت موجّهة لتصيبه بأماكن مميتة من جسده بكل براعة وخفّة، أدرك الرماة أن إصابة سعيد بن عبد الله الحنفي مباشرة ليس ممكناً، فبدّلوا الهدف

وصاروا يوجّهون السّهام إلى الحسين بن علي، ولو كان جسده غير مكشوفٍ لهم، فيتشتّت تركيز وانتباه سعيد بن عبد الله الحنفي فإن لم يصيبوا الحسين بن علي يتمكّنون من سعيد بن عبد الله الحنفي.

إذا كان الحسين بن علي واقفاً وجّه الرماة السّهام إلى رأسه، وإذا كان راكعاً استهدفوا كتفيه، وإذا سجد أرادوا أن يصيبوا ظهره، وفي كل المحاولات استطاع سعيد بن عبد الله الحنفي أن يخيّب أمل السهام، بسلبها حركتها وجعلها ساكنة جامدة إمّا على درعه أو في جسده.

كان الحسين بن علي ينحني للركوع، فوجّه رامٍ سهماً إلى طرف وجهه، ولكنّ سعيد بن عبد الله الحنفي كان أسرع فرفع الدرع بيده اليمنى وصدّ السهم انكشف إبطه وطرف جذعه الأيمن للحظات كانت كافيه ليصيبه سهم تحت أضلاعه، لم ينغرس جزء كبير من السهم داخل اللحم لسماكة رداء الحرب الجلدي، ولكن اختراق فقط رأس السهم لجسده كان كفيلاً بإخراج أنّة ألم من فمه، أحسّ بلزوجة الدم وحرارته يسيل على خاصرته.

كان الحسين بن علي راكعاً عندما وجّه رامٍ سهمه إلى قبّة كتفه، لم يسمح سعيد بن عبد الله الحنفي للسهم بالوصول، ولكن شريك الرامي قد أتقن الدور وأطلق سهمه فوراً بعد سهم زميله، مستغلّاً انشغال سعيد بن عبد الله بصدّ السهم الأول انغرس السهم الثاني في خاصرة سعيد بن عبد الله الحنفي تحت إصابته الأولى مباشرة كان الألم يسري بجسده كحبال من نار تحرق جوفه، بدأ العرق يقطر من جبينه على حاجبيه وخدّيه ولحيته وهو لا يزال يحمي وجهه بدرعه الأيسر.

رفع الحسين بن علي رأسه من الركوع، وأطلق رامٍ سهماً موجهاً إلى رأسه، ولكن سعيد بن عبد الله الحنفي كان له بالمرصاد على الرغم من شدّة الألم إذا حرّك ذراعه اليمنى، رفع يده وهو يعضّ بشدة على شفته السفلى، أصاب السهم طرف الدرع وانحرف إلى الأعلى ليتجاوز الحسين بن علي ويسقط على التراب خلفه.

نزل الحسين بن علي إلى السجود، فأرخى سعيد بن عبد الله الحنفي طرفه العلوي، وشكّل حاجباً من الدرعين معاً، فصدّ سهماً موجّهاً إلى ظهر الحسين بن علي بدرعه، وأصاب سهم موجّهٌ إلى كتف الحسين بن

علي ساقه اليسرى، انغرس السهم في ساقه مخترقا عضلاتها وبرز رأسه من الطرف الآخر، أصدر سعيد بن عبد الله الحنفي آهةً من شدّة الألم أصبح تنفسه لهاثاً وتسارعت دقات قلبه، حاول عدم وضع ثقله على ساقه ليخفّف الألم، وشعر بحرارة الدم يسيل من ساقه ليمتزج بالتراب الذي يغطيها.

رفع الحسين بن علي رأسه من السجود، فوجّه رامٍ سهمه إلى المكان الذي سيكون فيه رأسه عندما يجلس، سعيد بن عبد الله الحنفي حرّك الدرع الأيسر ليصدّ السهم، ورفع الدرع الأيمن ليحمي وجهه، أصابه سهم في بطنه عندما رفع يده اليمنى، فصدر صوت قرقرة من حلقه وكأنّه يريد أن يخرج ما في بطنه، أدرك أن هذا الصوت سببه امتلاء حلقه دماً عندما سال من طرفي فمه، استغلّ الرامي انكشاف وجه سعيد بن عبد الله الحنفي، فأطلق سهماً إلى وجهه ولكنّه لم يصبه في عينه أو خدّه، لأن سعيد بن عبد الله الحنفي حرّك رأسه إلى اليسار في اللحظة الأخيرة، فشرط السهم طرف رأسه الأيمن وشقّ أذنه مسببا له طنين متواصل.

لم يعد قادراً على سماع صوت الحسين بن علي الحنون بوضوح بأذن واحدة وهو يقرأ القرآن أو يسبّح في صلاته، أصبح من غير الممكن أن يتابع حركات صلاته معتمداً على أذنيه، ولن يستطيع متابعته بعينيه لكيلا يغيب عن مراقبة السّهام القادمة نحوه، لم يخف سعيد بن عبد الله الحنفي أو يحبط لفقدانه السمع بأذنه اليمنى بل أصبح أكثر إصراراً وتصميماً ليصدّ كل ما يأتي نحوه من سهام ليس بدرعيه فقط بل بجسده كاملا.

عندما رفع الحسين بن علي رأسه من السجدة الثانية، اخترق سهم كتف سعيد بن عبد الله الحنفي، وسهم باطن فخذه الأيسر، كل ما كان يسمعه سعيد بن عبد الله الحنفي هو دقّات قلبه المتلاحقة، ولهاثه المتعالي، ولم يعد يتأوّه ألماً، ففمه كان مليئاً دماً يسيل على ذقنه. أصاب سهم خاصرته اليسرى، وسهم أعلى فخذه الأيسر، مما أجبره على الانحناء وجعل ثقل جسده على ساقه اليمنى، لم يعد يستطع تحريك ذراعيه بحريّة، لشدّة الألم وكثرة الدماء التي سالت من جسده، وأحسّ بأن الدنيا تدور من حوله.

الحسين بن علي كان واقفاً في صلاته، رمى سعيد بن عبد الله الحنفي الدرعين ووقف فاتحاً ذراعيه ليكون جسده الدرع الذي سيصدّ السّهام عن الوصول إلى جسد الحسين بن علي، أرخى رأسه فصدّت خوذته سهماً كان من المفترض أن يصيب منتصف وجهه، أصاب أعلى ركبته اليمنى سهم فلم يعد يستطع إبقاء كامل ثقل جسده على ساقه اليمنى فمال بجسده يساراً ولكن الألم كان لا يحتمل.

كان الحسين بن علي يرفع رأسه من الركوع، ثمّ نزل للسجود عندها سقط سعيد بن عبد الله الحنفي على ركبتيه، ودخل سهم في عينه اليسرى جعلت بريق ضوء النهار يختفي منها، صار كل ما يراه بعينه اليمنى هو لون الدم لتلوثها طينا ممزوجاً بدمائه اضطرب سعيد بن عبد الله الحنفي لأنّه لم يعد يستطع رؤية السّهام القادمة ليصدّها بجسده، وهو في غمرة قلقه واضطرابه من أن ينسل سهم ويتجاوز جسده ليصيب جسد الحسين بن علي، دخل سهم في أسفل بطنه فانحنى إلى الأمام وتساقطت الدماء التي تملأ فمه على التراب أمامه وضع كفّه على الطين المكوّن من التراب المخلوط بدمه، وانزلقت كفّه وسرعان ما وضع الكف الأخرى ليتقي السقوط على التراب بكامل جسده حاول أن يمسح الدم من على عينه اليمنى ولكن لا جدوى بسبب الطين على يده، حاول أن ينصت بأذنه اليسرى علّه يستطيع أن يسمع صوت السهم وهو يشق صفحة الهواء فهو يريد أن يحمي بجسده جسد الحسين بن علي ولن يضعف أو يوهن لحظة، وهو في غمرة تفكيره وقلقه انغرس سهم تحت الوريد على رقبته وأصبح الدم يتطاير من الجرح وسقط جسده على الأرض، قال بصوت خافت لا يكاد يسمع "اللّهم العنهم لعن عاد وثمود، اللّهم أبلغ نبيّك عنّي السلام، وأبلغه ما لقيت من الجراح فإنّي أردت بذلك ثوابك في نصرة ذرية نبيك محمّد صلى الله عليه واله."

توقّفت السّهام بمجرد أن أنهى الحسين بن علي صلاته، اقترب من رأس سعيد بن عبد الله الحنفي ورفعه على كفه، أحسّ سعيد بن عبد الله الحنفي بحنان يد الحسين بن علي وابتسم على الرغم من شدّة آلامه وكثرة جراحاته وعطشه وجوعه وإرهاقه وسأله "أوفيت يابن رسول الله؟" ولا يدرك معنى ابتسامته

سوى العاشق الولهان والذي يتحمّل كل آلام الدنيا في سبيل حماية معشوقه ويضحّي بروحه في سبيل الحفاظ على روح محبوبه.

أجابه الحسين بن علي "نعم أنت أمامي في الجنّة" وفارق سعيد بن عبد الله الحنفي الحياة وفي جسده الدامي غُرِسَ ثلاثةَ عشرَ سهماً.

الحملة الجماعية

التفت الحسين بن علي الى أصحابه وأهل بيته من الرجال بعد أن أنهى صلاته، تكلّم معهم بصوت يملأه الحماس والعنفوان، على الرغم من كل الجراح التي لقيها قلبه بمقتل أصحابه، وعلى الرغم من شدّة عطشه، وعلى الرغم من أهوال هذا اليوم، فقال "يا كرام هذه الجنّة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها وأينعت ثمارها وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يتوقعون قدومكم ويتباشرون بكم، فحاموا عن دين الله ودين نبيه وذُبّوا عن حرم الرسول."

صرخوا جميعا وكأنهم أسود تزأر "نفوسنا لنفسك الفداء ودماؤنا لدمك الوقاء فوالله لا يصل إليك وإلى حرمك سوء وفينا عرق يضرب."

كان حماس الفرسان الذين انطلقوا من معسكر الحسين بن علي يشعّ من أجسادهم حتّى غمر خيولهم فاندفعت كالوحوش الكاسرة معكّرة صفو الهواء بسحابة من التراب وراءها، حماس لم يستطع أي جندي من جنود ابن سعد أن يفهمه، فكل جندي مع الحسين بن علي يقابله ألف جندي من معسكر ابن سعد، وكل خطوة يخطوها هؤلاء الفرسان هي خطوة تقربهم أكثر من الموت مقطعين بالسيوف أو مطعونين بالرماح، فما هو سر هذا الإقدام على الموت الذي لابدّ منه فقط ليحاموا عن الحسين بن علي وعائلته؟!

غاص المقاتلون داخل جيش عمر بن سعد مشكلين زوابع رياحها سيوفهم مقتلعة كل ما حولها من جنود، فتطايرت الأيدي وتقطّعت الأرجل وانفصلت الرؤوس عن الأجساد، حتّى تثلمت سيوفهم، وتكسّرت

رماحهم، وأصبحت حركة خيولهم تعوقها أكوام الأجساد حولها أو عدم رؤيتها لما حولها بسبب الدماء التي غسلت أجسادها كاملة وجفّت على عيونها.

أدرك جنود عمر بن سعد بأنّهم لا يحاربون مقاتلين عاديين بل يواجهون أبطالاً حقيقيين لا نيّة لهم إلّا الشهادة بعد أن يرسلوا أكبر عدد منهم إلى حتفهم، فتجنّبوا المواجهة واعتمدوا أسلوب الرمي والطعن من البعد، فلجؤوا إلى سهامهم ورماحهم ورموها من بعيد على أجساد هؤلاء الفرسان فاخترقتها وسلبتهم أعمارهم وحقّقت لهم أمنياتهم بالشهادة دفاعا عن كلمة الحق.

انجلت الغبرة بعد ساعة من القتال وكشفت عن انتقال خمسين فارس من فرسان الحسين بن علي من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الأبدية بعد أن سببوا عاصفة دموية بجيش عمر بن سعد خلفت مئات من القتلى على الأرض التي امتزج ترابها بدمائهم فأصبحت زلقة تسببت بانزلاق عدة خيول بفرسانها.

انشغل معسكر الحسين بن علي بإحصاء عدد قتلاهم وإعادة تعبئة باقي المقاتلين وتضميد جروح المصابين وتصبير النساء والأطفال على شدّة عطشهم وجوعهم وخوفهم وجزعهم على حماتهم من الرجال.

الحسين بن علي على فرسه يجول ومعه إخوته حوله يتفقد أجساد القتلى من أصحابه.

رفع يده وضرب لحيته ضربة خفيفة وقال "اشتدّ غضب الله تعالى على اليهود إذ جعلوا له ولداً واشتدّ غضب الله تعالى على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتدّ غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتدّ غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم، أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتّى ألقى الله وأنا مخضب بدمي."

خروج الحر بن يزيد الرياحي إلى أرض المعركة

انتصب الحصين بن نمير من معسكر عمر بن سعد على فرسه الأسمر مدججاً بسلاحه ومختبئا تحت لباس حربه، نظر إلى الحر بن يزيد الرياحي مندفعاً على فرسه من معسكر الحسين بن علي إليهم على هيئة القتال،

التفت إلى يزيد بن سفيان التميمي بمحاذاته على فرسه بنفس الجاهزية العسكرية والذي قال له عندما انشق الحرّ من معسكرهم لمعسكر الحسين بن علي "لو أنّي كنت أعلم بما يريد لأصميته بسهم حتّى أرديه."

قال الحصين بن نمير "يا يزيد بن سفيان، هذا الحر الذي كنت تتمنى قتله، فهل لك به؟"

قال يزيد بن سفيان التميمي "سأطلب مبارزته" وضرب فرسه متوجهاً إلى الحر بن يزيد الرياحي بأقصى سرعته.

التقى الرجلان ولمع بريق السّيوف تحت أشعّة الشمس، اعتلى صوت اصطكاكها، تطاير الشرر مع كل ضربة تهوي بها سواعد الفارسان، كان الحر بن يزيد الرياحي معروف بين العرب بأنه يعدل ألف فارس فلم يستطع سيف يزيد ابن سفيان التميمي صد كل ضربات سيفه، فاخترق سيف الحر رقبته وسقط رأسه على الأرض وأصدر صوتاً كتيماً وتدحرج باتجاه القوم الواقفين يراقبون المبارزة ولا تزال الدهشة تعلو وجوههم ولا زال جسد يزيد بن سفيان على الفرس يقذف دما إلى الأعلى ملطخاً وجه فرسه ووجه فرس الحر.

كان عمر بن سعد يراقب الحر وكأن روح يزيد كانت بيده ولم يمهله حتى قتله، اقترب من صفوان بن حنظلة وكان مشهورا بالبسالة والشجاعة بين العسكر، قال له "لابدّ من خروجك لمبارزة الحرّ وذكّره بخيانته للجيش واضرب عنقه."

اقترب صفوان بن حنظلة من الحر على فرسه وقال "يا حر، لقد أتيت أمراً قبيحاً حيث حوّلت وجهك عن يزيد وهو الخليفة بحق!"

قال الحر بن يزيد الرياحي " أي صفوان، كنت عندي رجلاً عاقلاً ولقد عجبت اليوم من قولك الغثّ هذا، أتأمرني بترك الامام الحسين بن علي عليهم السلام والتحوّل إلى يزيد الخمور والفجور؟"

غضب صفوان وهجم على الحر فاستقبله بشجاعة وثبات وتحاش ضرباته وطعنه بالرمح طعنة نجلاء خرجت الى الجانب الآخر من جسده. وكان لصفوان ثلاثة إخوة نظائر له في الشجاعة والفروسيّة فخرجوا

يطلبون بثأره وحملوا على الحر، فتناول الحر أحدهم من أسفل بطنه واقتلعه من صهوة فرسه وجلد به الأرض وقضى نحبه، وضرب الثاني بالسيف فقتله وهرب الثالث وولّى الحرّ ظهره، فحمل عليه الحر وغرس الرمح في قفاه وألحقه بأخويه، ثم هجم على المعسكر شاهرا سيفه فطارت الرؤوس والأيدي.

أيوب ابن مشرح الخيواني رفع سهمه ووجّهه إلى فرس الحر فعقره وشب الفرس من الألم فوثب الحر من على ظهر الفرس كالليث وسيفه بيده وأكمل القتال على رجليه فاجتمع حشد من المقاتلين حوله.

فارس بألف فارس راجلٌ على قدميه بيده سيفه يشقّ الهواء شقّاً ويقطع كل ما يعوق حركته، ظل يقاتل مغتنما كل ذرة قوة في جسده غير آبه بالسهام التي اخترقته أو الرماح التي أصابته إلى أن خارت قواه وتثلّم حد سيفه ولم يعد قادرا على قص ما يعيقه، واحتوشوه الجنود كالكلاب الضارية حتّى أصبحت السّيوف تخترق جسده من كل جانب وسقط على التراب مغلفا بدمائه.

اندفع أصحاب الحسين بن علي مجموعين إلى حيث يفترش جسد الحر بن يزيد الرياحي التراب وحملوه عائدين إلى معسكرهم ووضعوه داخل خيمة كانت اصطفّت بها أجساد الأصحاب ممدين كأنهم نائمين بعد عناء يوم شاق بمحاذاة بعضهم الكتف على الكتف لحافهم دمائهم ولا حاجة لشيء ليوسدوا رؤوسهم عليه لأن أجسادهم بلا رؤوس.

جلس الحسين بن علي بجانب الحر مضرجاً بدمائه لا يزال به رمق من الحياة صار يمسح بكفّه الدماء والتراب من على وجه ولحية الحر فتح عينيه عندما أحس بكفّ الحسين بن علي على وجهه، ثمّ ابتسم عندما سمعه يقول له "أنت الحر كما سمتك أمّك، أنت الحر في الدنيا وأنت الحر في الآخرة" وفارقت روح الحر جسده وصدى كلمات الحسين بن علي تؤنس رحلتها إلى أعلى عليين.

خروج زهير بن القين

صار الأصحاب يسارعون إلى القتل بين يدي إمام زمانهم، وكلّ من أراد القتال يتقدم إليه فيودّعه ويقول "السّلام عليك يا بن رسول الله."

يجيبه الحسين بن علي "وعليك السّلام ونحن خلفك، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً."

خرج للقتال زهير بن القين وتوغّل في معسكر ابن سعد كالنمر المفترس ولم يصمد أمامه أحد، فقتل منهم الكثير، وغطّت دماؤهم المتطايرة جسده إلى أن لقي حتفه على يدي كثير بن عبد الله الشعبي والمهاجر بن أوس التميمي.

وصل الحسين بن علي إلى جسد زهير بن القين المضرج بالدماء وقال "لا يبعدنّك الله يا زهير، ولعن الله قاتلك لعن الذين مسخوا قردة وخنازير."

الغفاريان والجابريان

عبد الله وعبد الرّحمن ابنا عزرة الغفاريان من أهل الشرف والشجاعة، وأصحاب الهيمنة والنفوذ، من شيعة أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام، جدّهم يدعى حرّاق الغفاري من أصحاب أمير المؤمنين وملازمي ركابه في الجمل وصفّين والنهروان، قالا للحسين بن علي "يا أبا عبد الله عليك منّا السّلام، لقد أحاط بنا العدو من كل جانب ونريد أن نقتل بين يديك نمنعك وندفع عنك."

أجاب الحسين بن علي "مرحبا بكما ادنوا مني" وامتثلا لأوامره وظلّا يقاتلان بالقرب منه إلى أن نالا الشهادة في سبيل الدفاع عن حرم رسول الله وأهل بيته.

وخلال المعركة اقترب من الحسين بن علي سيف بن الحارث بن سريع ومالك ابن عبد بن سريع وهما ابنا عم معروفين بالجابريان، دموعهما تجري على خدّيهما غزيرة وعيناهما حمراوان من البكاء.

سألهما الحسين بن علي "أي ابني أخي ما يبكيكما؟ فوالله إنّي لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري عين."

قالا "جعلنا الله فداك، لا والله ما على أنفسنا نبكي ولكنا نبكي عليك، نراك قد أحيط بك ولا نقدر أن نمنعهم عنك."

قال الحسين بن علي "جزاكما الله يا ابني أخي بوجدكما من ذلك ومواساتكما إيّاي بأنفسكما أحسن جزاء المتقين."

قالا "عليك السّلام يا بن رسول الله." واندفعا إلى ساحة المعركة يقاتلان لا هدف لهما سوى الشهادة في سبيل الله وحقّقا مناهما بعد أن ثلما ثلمات في جيش عمر بن سعد.

حنظلة بن أسعد الشبامي

ممن لازم الحسين بن علي وظلّ يقاتل حوله حنظلة بن أسعد الشبامي، برز منادياً جنود معسكر عمر بن سعد بأعلى صوته - يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ -

يا قوم لا تقتلوا حسيناً - وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ -

سمعه الحسين بن علي وقال له "رحمك الله يا بن أسعد، إنّهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين."

قال حنظلة "صدقت جعلت فداك يابن رسول الله، أفلا نروح إلى ربّنا ونلحق بإخواننا؟"

قال له الحسين بن علي "رح إلى ما هو خير لك من الدنيا وما فيها، وإلى ملك لا يبلى."

فقال حنظلة "السّلام عليك يابن رسول الله، صلّى الله عليك وعلى أهل بيتك، وعرّف بيننا وبينك في الجنّة."

قال الحسين بن علي "آمين."

ثمّ تقدم حنظلة أكثر في أرض المعركة وقاتل قتالاً دامياً أرسل العشرات ممن حوله من الجنود إلى حتفهم وظلّ يقاتل حتّى سقط صريعاً على أرض كربلاء.

خروج عابس وشوذب إلى أرض المعركة

عابس بن أبي شبيب الهمداني الشاكري من قبيلة شاكر بن ربيعة بن مالك رجلٌ رئيسٌ في قومه شجاعٌ خطيب ناسكٌ متهجدٌ، ظلّ ملازماً لقافلة الحسين بن علي حتّى بعد توصيل رّسالة مسلم بن عقيل من الكوفة ومعه مولاه شوذب والمعروف بشوذب مولى شاكر، كان من الفرسان المعدودين لشجاعته بين العرب، كلاهما اشتهرا بإخلاصهما في ولائهما لآل بيت رسول الله.

تقدم عابس من شوذب وسأله "يا شوذب، ما في نفسك أن تصنع؟"

أجاب شوذب مندهشاً من السؤال "ما أصنع؟" ثمّ نظر إلى آلاف المقاتلين المحيطين بهم وقال بكلّ حزم "أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله حتّى أقتل."

قال عابس "جزاك الله خيراً يا شوذب، ذلك الظن بك، اذهب تقدم بين يدي أبي عبد الله حتّى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه، وحتّى أحتسبك أنا، فإنّه لو كان معي الساعة أحد أنا أولى به منّي بك لسرّني أن يتقدّم بين يديّ حتّى أحتسبه، فإنّ هذا يوم تطلب فيه الأجر بكل ما تقدر عليه، فإنّه لا عمل بعد اليوم وإنما الحساب."

تقدم شوذب بين يدي الحسين بن علي وتوغّل في جموع الجنود من جيش عمر بن سعد بعد أن حصل على الإذن بالقتال.

ثمّ تقدم عابس من الحسين بن علي وقال "يا أبا عبد الله، والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عليّ ولا أحبّ إليّ منك، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعزّ عليّ من نفسي ودمي لفعلت، السّلام عليك يا أبا عبد الله، أشهد الله أنّي على هداك وهدى أبيك وجدّك."

فابتسم الحسين بن علي على الرغم من شدّة العطش ودعا لعابس بالخير ثمّ انطلق عابس كاللّيث إلى ميدان المعركة وكان على جبينه ضربة من الجولات السابقة.

ربيع بن تميم من بني عبد من همدان من جنود جيش عمر بن سعد، يعرف عابساً حقّ المعرفة ويعرف مدى شجاعته فقد شاهده في المغازي وكان من أشجع النّاس، صرخ بالجنود عندما رآه يتقدم نحوهم "هذا أسد الأسود، هذا ابن أبي شبيب لا يخرجنّ إليه أحد منكم" فأفشى كلامه الرعب بينهم ولم يتقدم أحد إليه، وصل عابس قبالتهم ولاحظ عدم خروج أحد لقتاله فنادى" ألا رجل؟" ثمّ انتظر ونظر إلى جموعهم، آلاف الفرسان بثيابهم المغبرّة، لم يلق أي جواب فنادى مرة أخرى "ألا رجل؟" لم يخرج إليه أحد وعندها رفع عابس يده وأزال خوذته من على رأسه ورماها على الأرض ونادى "ألا رجل؟" ولم يجبه أحد ثمّ نزع درعه من على صدره ورماه أرضا ونزع ما تحته حتّى بان لحم صدره وصرخ "ألا رجل؟"، صرخ أحد جنود عمر بن سعد عندما رآه عاري الصدر متقدما إلى القتال دون خوذة أو درع "أجننت يا عابس؟"

فصرخ عابس بغضب "نعم حبّ الإمام الحسين أجنني."

أثّرت جرأة عابس بالجنود أكثر فمن كان يفكر بالتقدم والمبارزة عدل عن الفكرة.

شاهد عمر بن سعد ما يجري فصرخ بالجنود "أرضخوه بالحجارة."

سرعان ما استجاب له جنوده وبدأت أكوام من الحجارة تقذف على عابس، هجم باتّجاه الجنود بسيفه غير مكترث بالحجارة التي أسالت الدماء من رأسه وجسده العاري متجاهلاً الألم الفظيع الناتج عن إصاباته وصار يقاتل قتال الأبطال، على الرغم من أن المعركة لم تكن عادله فعابس وحيد عاري الصدر وحوله مئات الجنود المدججين بسلاحهم وعتادهم ولكن حبّ الحسين بن علي هو من دفعه لمحاربتهم غير مكترث بعددهم أو عتادهم، سقط عابس صريعاً على تراب كربلاء المخبوز من حرارة الشمس مضرجاً بدمائه.

إحتزّ رأسه جندي ورفعه فقفز آخر وصرخ "أنا قتلته" وأخذ الرأس من يده ثمّ جاء ثالث وصرخ "بل أنا قتلته" وخطف الرأس وتخاصموا وكادوا يرفعوا سيوفهم في وجه بعضهم البعض فأمرهم قادة الجيش بالتّوجه إلى عمر بن سعد ليقرّر من قتل عابس وعندما وقفوا أمامه قال "لا تختصموا" وأشار بعود كان في يده باتجاه رأس عابس "هذا لم يقتله إنسان واحد" وفرّق بينهم بقوله هذا.

جون مولى أبي ذر

جون بن أبي مالك كان خادماً لأبي ذر الغفاري وقد كان الفضل بن عبّاس بن عبد المطّلب مولاه، فاشتراه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ووهبه لأبي ذر الغفاري. بقي جون في خدمة أبي ذر حتّى نفاه عثمان إلى الربذة فذهب معه إلى الربذه إلى أن توفّي أبو ذر عاد إلى المدينة وعاش مع أمير المؤمنين وبعد استشهاده عاش مع ابنه الحسن وبعد استشهاده عاش مع أخيه الحسين، وخرج مع قافلة الحسين بن علي من المدينة الى مكّة ومنها إلى كربلاء. كان جون خبيراً في أمور السلاح وإصلاحه وترميمه وكان عبداً شديد السّواد تقدم ليأخذ الإذن بالقتال فقال له الحسين بن علي "أنت في إذن منّي فإنّما تبعتنا طلبا للعافية فلا تبتلِ بطريقنا."

طأطأ جون رأسه وملأت الدموع مقلتيه وقال "يابن رسول الله أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدّة أخذلكم!، والله إن ريحي لنتن وإن حسبي للئيم ولوني لأسود فتنفس علي بالجنة فتطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض وجهي، لا والله لا أفارقكم حتّى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم."

أذن له الحسين بن علي بالقتال وتوغّل جون في صفوف الأعداء وقتل منهم الكثير إلى أن لمع سواد جلده من الدماء التي تكسوه وسقط صريعاً على التراب، توجّه الحسين بن علي إلى مكان سقوطه ووقف على مصرعه ورفع يديه إلى السماء وقال "اللّهم بيّض وجهه وطيّب ريحه واحشره مع الأبرار وعرّف بينه وبين محمّد وآل محمد."

خروج أبو الشعثاء الكندي

يزيد بن زياد بن المهاصر أبو الشعثاء الكندي من بني بهدلة كان رجلاً شريفاً شجاعاً فاتكاً خرج من الكوفة وانضم الى قافلة الحسين بن علي قبل أن تلتقي بالحر بن يزيد الرياحي وكان من أمهر الرماة وأشهرهم بين العرب فنادراً ما يرمي سهما يخطئ هدفه، وبعد حملة السّهام من رماة عمر بن سعد عُقرت فرسه فأصبح

بلا فرس فجثا على ركبتيه قريبا من الحسين بن علي يوجّه سهامه إلى أعدائه وكان كلّ ما رمى سهماً يقول "أنا ابن بهدلة فرسان المرجلة" ويدعو له الحسين بن علي "اللّهم سدّد رميته واجعل ثوابه الجنّة."

نهض أبو الشعثاء الكندي لما نفذت سهامه ونظر إلى الحسين بن علي وقال "لقد رميت مئة سهم ما سقط منها خمسة أسهم" ثمّ سحب سيفه من غمده وجرى باتجاه معسكر ابن سعد ليشارك زملاءه القتال، غرس سيفه في صدور أعدائه بعد أن بقر بطونهم بسهامه ولم يكن سيفه بأقل دقّة ومهارة من سهامه، فقتل منهم جماعة وظلّ يطعنهم حتّى آخر نفس خرج من صدره وسقط صريعاً على التراب.

خروج أنس بن الحارث الأسدي الكاهلي

ثمّ خرج بعد ذلك أنس بن الحارث الأسدي الكاهلي وكان شيخاً طاعناً في السن عصب حاجبيه بعصابة ليرفعها عن عينيه وشدّ عمامته على وسطه وأثار خروجه للقتال على هذه الحالة حزن الحسين بن علي فذرف دموعا عندما رآه وهو من أصحاب جدّه رسول الله ممّن رآه وسمع حديثه وطالما أعاد على أسماع من معه في المعسكر ما سمع عن رسول الله عندما كان الحسين بن علي طفلٌ صغير جالسٌ على حجره "إنّ ابني هذا يقتل بأرض من العراق، ألا فمن شهده فلينصره" وكان أوّل ما فعله أنس بن الحارث الأسدي الكاهلي بأن التحق بركب الحسين بن علي عندما رآه خارجا في طريقه إلى العراق.

قال له الحسين بن علي بعد أن منحه الإذن بالخروج للقتال "شكر الله سعيك يا شيخ" وانطلق أنس بن الحارث الأسدي الكاهلي ليسطر بحدّ سيفه ملحمة بطولية خالدة، أدهش من حوله لشدّة صولته على أرض المعركة فقتل على كبر سنّه العديد من العساكر إلى أن تخضبت شيبته بدمائه وسقط قتيلا على التراب.

خروج اليزني والمازني وقرة الغفاري وابن مطاع

ثمّ برز عبد الرّحمن بن عبد الله اليزني وبعده يحيى بن سليم المازني وبعده قرة بن أبي قرّة الغفاري إلى أرض المعركة بعد أن أخذوا الإذن من قائدهم الحسين بن علي وقاتلوا إلى أن سقطوا مضرّجين بدمائهم صرعى على التراب.

ثمّ خرج عمر بن المطاع الجعفي بعد أن أخذ الإذن بالقتال وقاتل حتّى وقع مضرّجاً بدمائه على أرض المعركة.

خروج الحجاج بن مسروق الجعفي

الحجاج بن مسروق بن مالك بن ثقيف بن سعد المذحجي الجعفي من الموالين لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والمخلصين له والذين صحبوه في الكوفة، لمّا سمع بخروج الحسين بن علي من المدينة إلى مكّة، خرج من الكوفة إلى مكّة والتحق بقافلة الحسين بن علي وكان هو المؤذّن في أوقات الصّلاة طوال فترة مرافقته له.

خرج الحجاج بن مسروق بعد أن أذن له الحسين بن علي للقتال وقاتل بعنفوان الشباب على الرغم من كبر سنّه وتلوّنت لحيته البيضاء بدماء جروحه وعاد إلى الحسين بن علي وقال له "اليوم ألقى جدّك الرسول الأعظم محمّداً وأباك الوصي أمير المؤمنين علياً."

فابتسم له الحسين بن علي وأجابه "وأنا ألقاهما على أثرك."

عاد الحجّاج بن مسروق إلى أرض المعركة ولم يوفّر شهيقا إلّا واستهلكه في سبيل الدفاع عن الحسين بن علي وآل بيته إلى أن سقط على التراب مضرّجاً بدمائه.

خروج الأصبحي وابن المهاجر

ثمّ خرج أنيس بن معقل الأصبحي إلى أرض المعركة بعد أن أخذ الإذن بالقتال، وبعده خرج يزيد بن المهاجر، وكلاهما قاتلا حتّى النفس الأخير، وسقطا صريعين على تراب كربلاء.

عمرو بن جنادة

زوجة جنادة بن كعب بن الحارث الأنصاري الخزرجي، لم تظهر أي علامة من علامات الجزع أو الانهيار عندما قُتل رجلها جنادة في الحملة الجماعية التي قتل فيها خمسين رجلاً، كانت ترفع طرف باب الخيمة وتراقب ما يجري على أرض المعركة فبعد أن شهدت مقتل زوجها بأم عينيها صارت تراقب الحسين بن علي وإخوته الأبطال وكأنّها تريد أن تحميهم بعينيها من سيوف الأعداء، تتمنّى لو أنّها كانت رجلاً لتقاتل وتدافع عن الحسين وأهل بيته ولكن القتال مرفوع عن النساء.

أسدلت طرف باب الخيمة وصارت تسير في الخيمة جيئةً وذهاباً على الرغم من صغر المساحة، والغضب يملأ صدرها، لتكاثر الأعداء على الحسين بن علي، ولقلّة حيلتها عادت إلى باب الخيمة ورفعت طرفه ولاحظت بأن أطراف أبواب الخيام كلّها مرفوعة والنسوة كلّهن ينظرن ويراقبن ما يجري بأرض المعركة، كل واحدة تراقب إمّا زوجاً لها أو ابنا أو أخاً، إلّا السيدة زينب أخت الحسين بن علي، تحتار من تراقب، فستّة من إخوانها في المعركة وابنها عون أيضاً وأبناء أخويها الحسن والحسين وأبناء عمها عقيل بن أبي طالب.

دمعت عيناها عندما أدركت بأن خسارتها لا تساوي شيئاً مقارنة بخسارة السيدة زينب، ثمّ خطر على ذهنها الزهراء أم زينب والحسين حدّثت نفسها "أتثكل فاطمة الزهراء بابنها الحسين وأنا لا أُثكل بابني، أوتثكل السيدة زينب بنت فاطمة الزهراء بابنها عون وأنا لا أُثكل بابني، ومن أنا مقارنة ببضعة الرسول محمّد حتّى هي تثكل بولدها وأنا لا أُثكل بولدي، أو حتّى لا أضحي بكل ما أملك في سبيل نصرة ابنها الإمام الحسين."

التفتت إلى ابنها عمرو، عمره أحد عشر عاماً، ونادته فأجاب مطيعاً، وألبسته لامة حرب زوجها بعد أن عدّلتها لتصبح أصغر، ووضعت بيده سيفاً، وقالت له دون أن تظهر أدنى أثر لجزع أو حزن أو خوف "يا بني، اخرج وقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله."

لم يعترض عمر بن جنادة ولم يظهر أي تردّد أو خوف، بل خرج على الفور من الخيمة وكأنه خارجٌ للعب مع أولاد الحي وليس خارجاً ليقاتل وحوش ملأت قلوبهم الكره والحقد.

اقترب من الحسين بن علي وطلب منه الإذن بالقتال فأبى بأن يأذن له وقال "يا عمرو إن أباك قتل في المعركة، ولعلّ أمّك تكره خروجك."

أجاب عمرو بن جنادة دون تردد "إنّ أمّي هي التي أمرتني بالخروج والقتال بين يديك."

كانت أم عمرو تراقبه وهو يستأذن إمامه وقائده الحسين بن علي للقتال وتلاحظ حركات وجه الحسين بن علي وحركات وجه ابنها عمرو محاولة فهم الكلام الملفوظ والذي لم تستطع سماعه لبعد المسافة ولكنّها استبشرت عندما رأت عمرو يتوجّه إلى ساحة المعركة وهو رافعاً سيفه.

قاتل عمرو بن جنادة قتالاً لا يوحي بأنّه لا يزال صبياً في الحادية عشر من العمر بل بدا كرجلٍ شجاع، كانت نظرات عيني أمه تراقبانه إلى أن تمكّنت منه سيوف الغدر وأسقطته صريعا ولم تكتفِ بقتله بل جثا أحد جنود ابن سعد وفصل رأس عمرو بن جنادة عن رأسه ورماه بكامل قواه باتجاه معسكر الحسين بن علي.

كان هذا الرأس الثاني الذي يرمى هكذا باتجاه معسكر الحسين بن علي بعد رأس عبد الله ابن عمير الكلبي، خرجت أمه ودموعها تسيل على خدّيها لا حزناً بل فرحاً على استشهاد ابنها لنصرة إمامه الحسين بن علي وحملت الرأس وصارت تمسح التراب من على خدوده والتي لا تزال تشع حرارة، الدماء امتزجت بعرق جبينه الذي بلّل شعره الناعم فالتصق على جبهته، عيناه لا تزالان مفتوحتان تنظران إلى عينيها وكأنّهما تسألانها أرضيت يا أماه؟، وكانت تردد "أحسنت يا بني يا سرور قلبي ويا قرّة عيني."

توجّهت إلى الخيمة ووضعت رأس ولدها برفق داخل الخيمة وجذب انتباهها لمعان سيف من سيوف زوجها، دخلت وقبضت على مقبضه ورفعته إلى مستوى عينيها ونظرت إلى انعكاس خيال وجهها على السيف خرجت من الخيمة وتوجّهت بكل ما تملك من قوّة باتجاه أرض المعركة تنوي القتال والدفاع عن

الحسين بن علي وأهل بيته فهي ضحّت بزوجها وولدها والآن تريد أن تضحّي بنفسها ولكن الحسين بن علي أرسل إليها من يعيدها إلى المخيّم ودعا لها بالخير.

خروج أسلم بن عمرو التركي

أسلم بن عمرو كان مولى للحسين بن علي وقد كان غلاماً تركياً، خرج مع قافلة الحسين بن علي من مكّة ولزم ركابه ونزل معه في كربلاء، وقد انتهل من أخلاق ونهج سيده حتّى صار بمرتبة عالية من الصلاح والسداد ومن قرّاء القرآن الكريم، استأذن للخروج والقتال فأذن له سيده وانطلق وتوغّل في جموع جنود جيش عمر بن سعد وقاتل قتال الشجعان حتّى تكاثروا عليه وكفّنوه بدماه واستغاث بإمامه الحسين بن علي.

أقبل الحسين بن علي كالصقر المنقض وأزاح مِن حول الغلام الجنود وكأنّه يزيح كومة من الغبار ثمّ جثا واعتنق الغلام ووضع خدّه الميمون على خدّ الغلام وبكى، كان الغلام يلفظ أنفاسه الأخيرة ففتح عينيه وشاهد وجه الحسين بن علي وتبسّم وقال مفتخراً "من مثلي وابن رسول الله الإمام الحسين واضع خدّه على خدّي" وفاضت روحه والابتسامة لا تزال على شفتيه.

خروج أبو ثمامة الصائدي

ثمّ خرج أبو ثمامة الصائدي ووقف قبالة الحسين بن علي وقال "يا أبا عبد الله، إنّي قد هممت أن ألحق بأصحابي، وكرهت أن أتخلّف وأراك وحيداً من أهلك قتيلاً."

قال له الحسين بن علي "تقدّم فإنّا لاحقون بك عن ساعة."

فانطلق إلى ساحة المعركة وتوغّل في صفوف الأعداء وشكّ سيفه في صدورهم وظلّ يحارب حتّى أثخن جسده بالجراح ووهن من شدّة العطش ولكنّه أبى الاستسلام وظلّ يقاتل كالأبطال، لمحه ابن عم له مع جيش عمر بن سعد يدعى قيس بن عبد الله، كان بينهما عداوة قديمة فانطلق نحوه وطعنه بالسيف فكان حتفه على يديه، سقط مضرجاً بدمائه على الأرض الملتهبة من حرارة الشمس.

خروج ابن دودان وابن حصين والهاشمي

ثمّ خرج مالك بن دودان بعد أن استأذن الحسين بن علي للقتال وقاتل حتّى سقط شهيداً.

ثمّ خرج إبراهيم بن الحصين الأسدي وبعده أحمد بن محمّد الهاشمي بعد أن استأذنا من الحسين بن علي بالقتال فأذن لهما وانطلقا واحداً تلو الآخر إلى جموع جنود معسكر عمر بن سعد، لم يؤخّرهما عطشهما الذي لا يقاس أو رؤية أصحابهم مقطعين مذبوحين على التراب الملتهب عن أداء واجبهما بالدفاع عن ذريّة رسول الله، قاتلا قتالاً كان سبباً لموت العشرات من جنود عمر بن سعد حتّى احتوشهما جموع الجنود واستشهدا وهما مغلّفان بدمائهما المخلوطة بالتراب وكأنّ الأرض تعانقهما.

بان النقص الشدّيد في معسكر الحسين بن علي فلم يبقَ معه من أصحابه سوى ثلاثة أشخاص بالإضافة إلى أهل بيته والذين جهّزوا أنفسهم ليبذلوها في سبيل الله.

الضحّاك بن عبد الله المشرقي

كان الضحّاك من الثلاثة الباقين مع الحسين بن علي فكان يقاتل في أرض المعركة وكان الحسين بن علي يقول له "لا تشل، لا يقطع الله يدك، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيّك صلّى الله عليه وآله" وقتل رجلين وقطع يد آخر وعندما لاحظ أنّه آخر من بقي من أصحاب الحسين بن علي مع سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي، وبشير بن عمرو الحضرمي، انسحب من أرض المعركة وتوجّه إلى الحسين بن علي وقال "يا بن رسول الله قد علمت ما كان بيني وبينك، قلت لك أقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أجد مقاتلاً فإنّي في حلّ من الانصراف، فقلت لي نعم."

أجابه الحسين بن علي "صدقت" ثمّ نظر إلى جحافل جيش عمر بن سعد وسأله "وكيف لك بالنجاة؟" ثمّ نظر إلى الضحّاك "إن قدرت على ذلك فأنت في حل."

سلّم الضحّاك على الحسين بن علي وتوجّه إلى فرسه، وكان أدخلها إلى خيمة وخبّئها من سهام رماة معسكر عمر بن سعد عندما عقروا خيل أصحابه وصار يقاتل راجلاً وهو في نيّته الانسحاب عندما تحين

الفرصة، استوى على متن الفرس وضربها فصهلت صهيلاً عاليا وأرخى رأسه وانطلق بأقصى ما للفرس من قدرة على الجري مخلّفة وراءها سحابة من الغبار، افسح له من أمامه مجبورين لا طائعين وسرعان ما أفاقوا من دهشتهم، لحقه خمسة عشر فارساً على خيولهم بأقصى سرعتهم، ظلّ الضحّاك يضرب الفرس بكل ما أوتي من قوّة والفرس يجري بكل ما أوتي من قدرة وظلّ الفرسان يجرون وراءه، كان التراب المتطاير خلف خمسة عشرة خيلا تجري بأقصى سرعتها عكّر صفو الفراغ بين السماء والأرض حتّى أصبح أثرهم يرى من بعد مئات الأمتار.

اختفى كل أثر للمعسكرين ولم يبطئ الضحّاك أو يتباطئ حتّى وصل إلى قرية على شط الفرات، أبطأ سرعته بين بيوتها وأدار وجهه محاولا التعرّف على من كان يلحقه.

عَرِفَه كثير بن عبد الله الشعبي، وأيوّب بن مشروح الخيواني، وقيس بن عبد الله الصائدي، فقال أيوّب "هذا الضحّاك بن عبد الله المشرقي."

ثمّ قال كثير لمن معه من جنود "هذا ابن عمّنا ننشدكم الله لما كففتم عنه."

كان معهم جندي من بني تميم التفت إلى باقي العساكر وقال "بلى والله لنجيب إخواننا وأهل دعوتنا إلى ما أحبّوا من الكفّ عن صاحبهم" ثمّ أدار الجميع ظهورهم وتركوا الضحّاك والذي نجا بنفسه وغادر عائداً إلى الكوفة.

بشر بن عمرو الحضرمي

كان آخر من بقي مع الحسين بن علي من الرجال من أصحابه غير أهل بيته، بشر بن عمرو الحضرمي، وسويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي الأنماري، تقدّم بشر إلى القتال بعد أن إذن له الحسين بن علي وظلّ يقاتل حتّى استشهد ثمّ خرج بعده سويد وقاتل حتّى سقط على الأرض مغمياً عليه دون أن تفارق روحه جسده إلى ما بعد انتهاء المعركة قتله عروة بن بطار التغلبي وزيد بن رقاد الجنبي.

علي الأكبر بن الحسين بن علي

استعر تراب الأرض من شدّة حرارة الشمس حتّى جفّت الدماء التي سالت أنهاراً وخلّفت فيه لونها الأحمر وفي الهواء رائحتها الثقيلة، كان هذا يوماً فظيعاً طبعت أحداثه بصمة حزن في قلوب آل بيت محمّد وكل من يحبّهم إلى يوم القيامة.

جيش عمر بن سعد يبلغ ثلاثمائة ضعف جيش الحسين بن علي، ومعسكر عمر بن سعد لم ينقطع لحظة عن شرب ماء نهر الفرات البارد الذي يثلج القلب في هذا الجو الصحراوي الجاف الحارق، أمّا معسكر الحسين بن علي فممنوع من الاقتراب من الفرات.

الأطفال في الخيام يكوي جوفهم العطش حتّى الدموع تبخّرت من عيونهم، النساء حولهم يحاولن تصبيرهم بضمّهم والتربيت على ظهورهم والتسلية عنهم على الرغم من أنهنّ أنفسهن بحاجة لمن يصبرهنّ على مصابهنّ، فرجالهن وحماتهن يقتلون ويقطّعون وهنّ ناظرات إليهم، ليس بإمكانهن فعل شيء سوى الصبر والدعاء، فالقتال مرفوع عن النساء في الإسلام.

ولكن الحال لم تبق هكذا بين النساء، فصبرهنّ نفذ وحِلمهن طار، وصرخت قلوبهن قبل ألسنتهن، عندما طلب علي بن الحسين والملقّب بالأكبر من أبيه الإذن بالقتال، قلن له "ارحم غربتنا ولا تستعجل إلى القتال، فلا طاقة لنا في فراقك" وبالأخص عمّاته وأخواته درن به كالفراشات تدور على مشعل النور، الله أكبر، إن الحجر الصوّان يتفتت لرؤية هذا المشهد المريع.

لم يعبأ بهنّ علي بن الحسين الأكبر ولم يزل يطلب الإذن من أبيه حتّى أذن له، فهو ينظر إلى إمام زمانه مكسورا لا ناصر له أو معين وقد اجتمع عليه الأعداء لسفك دمه الطاهر، فمن أولى بالدفاع عن الدّين وعن أهل الدّين سوى الابن البار.

كان عمر علي الأكبر سبعاً وعشرين عاماً، لقبه أبو الحسن. وهو جميل الصورة، فقد كان صلت الجبين، أزج الحاجبين، أدعج العينين، سهل الخدّين، درّي المقلتين، ياقوتيّ الشفتين، بعيد ما بين المنكبين، أفرج

الثنايا، أقنى الأنف، مدوّر الهامة، مربوع القامة، عنقه بصفائها و نورها كأنها من الفضة المصقولة، وجهه أقمر، و جبينه أزهر، و ريحه أزكى من المسك الأذفر، وجنتاه غير ناتئتين، فمه حسن البيان لا هو بالكبير ولا بالصغير، أسنانه بيضاء و برّاقة، لا يجرّ قدميه اذا مشى، مشيه غاية في الوقار، اذا كلّمه أحد أو كلّم أحدا لا ينظر إليه بمؤخر عينيه بل يقابله، و في كثير من الأحوال يرمق الأرض بطرفه عند الكلام، و نظره الى الأرض أكثر من نظره إلى السماء، يبدأ من يراه السلام، دائم الفكرة، لا يخلو من الاشتغال بالتفكير، لا يتكلّم إلا لحاجة، و لديه جوامع الكلام فألفاظه قليله بدلالات كبيرة، ليس فظّا في أخلاقه و ليس فيه غلظة و لا يحتقر أحدا، و تعظم في عينيه النعم القليلة، لم يذمّ نعمة قطّ، إذا أشار أشار بيده لا بالغمز، ضحكه التبسم و قلّما يسمع صوت ضحكه، يعطي ذا الفضل على قدر فضله، و يوقّر كريم كلّ قوم ، لا يؤاخذ الناس بما بدر منهم من خطأ، يواسي الناس، و لا يتبرّم منهم، و لا يتخلى عن البِشر والطلاقة، أعماله بين الإفراط و التفريط، أعظم الرجال عنده أعظمهم عوناً و خدمة و مواساة للناس، ليس له مجلس خاصّ يجلس به، و يعامل الناس معاملة يظنّ كلّ واحد منهم أنّه الأعلى عنده، إذا جالس أحدا لا يقوم حتّى يقوم، و من سأله حاجة قضاها له أو سعى في قضائها ، يوقّر الكبير و يرحم الصغير، لا يملّه من جالسه، لم يؤنب أحدا و لم يرفع صوته في وجه أحد، و لا يلتمس لأحد عيبا، و كان جواداً سخيّاً شجاعاً مقداماً في الحروب، قوي الإيمان نافذ البصيرة متفانياً في نصرة كلمة الحق وعلى ثقة واطمئنان عميقين من دينه. وهذه من صفات جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فهو أشبه النّاس بجدّه رسول الله في الخَلق والخُلق والمنطق، فكان كلّما اشتاق أبوه الحسين أو عمّه الحسن لجدّهما رسول الله نظرا إليه.

أم علي الأكبر هي ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي وأمها ميمونه ابنة ابي سفيان.

تربّى علي الأكبر في حِجر عمّه الحسن وأبيه الحسين، فتأدّب بآدابهما وانتهل العلم والمعرفة منهما اللذان انتهلاها من أبيهما باب مدينة العلم علي بن أبي طالب الذي نهل علومه من مدينة العلم رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ودّع علي الأكبر أباه وأعمامه وعمّته زينب والبقية من بني هاشم وامتطى جواد تدعى (لاحق) وانطلق إلى الميدان كالليث الغاضب وهو يقول:

أنا علي بن الحسين بن علي

نحن وبيت الله أولى بالنبي

والله لا يحكم فينا ابن الدعي

أطعنكم بالرمح حتّى ينثني

أضربكم بالسيف أحمي عن أبي

ضرب غلام هاشمي علوي

نظر الحسين بن علي إلى ابنه نظر آيس منه، وأرخى عينيه وسالت دموعه وقلبه يحترق حزناً كما جوفه يحترق عطشاً، رفع شيبته الرطبة من الدموع إلى السماء وقال بصوت يكسر القلوب "اللّهم اشهد على هؤلاء، فقد برز إليهم أشبه النّاس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك محمّد وكنّا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيّك نظرنا إليه، اللّهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضي الولاة عنهم أبداً، فإنّهم دعونا لينصرونا فعدوا علينا يقاتلوننا."

ثمّ أرخى رأسه ونظر باتجاه معسكر عمر بن سعد فوقعت عينه على عمر بن سعد وقال بصوت مسموع "مالك يا بن سعد، قطع الله رحمك ولا بارك الله لك في أمرك، وسلّط عليك من يذبحك بعدي على فراشك، كما قطعت رحمي ولم تحفظ قرابتي من رسول الله." ثمّ رفع صوته وتلا قوله تعالى - إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ - ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ -

في الميدان خرج ثلّة من الفرسان لمواجهة علي الأكبر فأرسلهم إلى برزخهم بحسامه البتّار بوقت قصير فتراجع الجنود ولم يجرؤ أحد على الخروج إليه، فلم ينتظر الأكبر فهجم عليهم وغاص بين جموعهم فضجّوا

لكثرة ما قتل منهم، فصاروا يفرّون منه كلّما حمل عليهم كقطيع من الأغنام يتفرقون في كل الاتجاهات عندما يحاول الراعي أن يلتقط إحداها، حتّى داس بعضهم بعضا ومات منهم الكثير تحت حوافر الخيول.

كان علي الأكبر يحمل على جيش عمر بن سعد فيقتل كل من يتجرّأ على البقاء في وجهه حتّى يصل إلى آخره بعد أن يكون الجيش قد انقسم إلى قسمين ثمّ يحمل مرّة أخرى ثمّ مرّة أخرى إلى أن أصبح عطشه يعيقه أكثر من ضربات سيوفهم وكأنّه خنجر يطعنه في جوفه فرجع إلى المعسكر.

استبشر الحسين بن علي عندما رآه يقترب عائداً ودماء القوم على خيله ودروعه تشهد على كثرة ما قتل منهم وكان أوّل من قابله ترجّل علي الأكبر وأمسك بكف أبيه الحسين بن علي بكلتا كفّيه وقال بصوت مبحوح لشدّة جفاف حلقه "يا أبه، العطش قد قتلني وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل أتقوى بها على الأعداء؟"

فاضت عينا الحسين بن علي بالدموع حتّى سالت على خديه وقال "بني، قاتل قليلاً فما أسرع ما تلقى جدّك رسول الله، فيسقيك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً."

عاد علي الأكبر إلى القتال وهو مسرور بخبر قرب لقائه بجدّه رسول الله وقاتل وحمل عليهم حملات عدة وقتل الكثير منهم. كان ممن يقف ويراقب ما يجري مُرّة بن منقذ بن النعمان العبدي الليثي وغاظه كثرة كر علي الأكبر على الجيش مسبباً موت الكثير من الجنود وعدم تمكّنهم منه، فقال لمن حوله "علي آثام العرب إن ظلّ يفعل بالجيش ما يفعل ولم أثكل أباه به."

انتظر مُرّة حتّى حمل علي الأكبر على الجيش مرة أخرى، وانشغل بمن أمامه من الجنود، فهو يعلم بأنّه لا أمل بالنجاة إن قابله وجهاً لوجه، والحل الوحيد أن يغدر به من الخلف، انطلق إلى أن أصبح على مقربة منه، رفع رمحه إلى الأعلى بيده اليمنى وكان ماهراً برماية الرماح وإصابتها الهدف، وصار يهز يده إلى الأمام والخلف منتظراً الفرصة المناسبة والتي ينكشف فيها ظهر علي الأكبر ويكون هدفاً سهلاً لنصل رمحه ولم يطل الانتظار ورمى مُرّة بن منقذ العبدي رمحه.

اخترق الرمح ظهر علي الأكبر واندفع جسده إلى الأمام ممّا أدّى إلى رجوع رأسه للخلف من شدّة الضربة فانكشفت رقبته للحظات كانت كافية لرامٍ من معسكر ابن سعد أن يرمي سهماً يخترق رقبته فمال بجسده على رقبة الخيل وكأنه يعتنقها والدماء تشخب من رقبته.

اقترب مُرّة بن منقذ العبدي يتبختر وابتسامة تعلو شفتيه وسيفه بيده، لاحظ حركات شفاه علي الأكبر فاقترب منه أكثر ليستمع ما يقول، كان علي الأكبر يقول بصوت خافت مغمضاً عينيه "يا أبتاه، عليك منّي السلام، هذا جدّي رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبدا، ويقول لك العجل العجل فإنّ لك كأساً مذخورة حتّى تشربها الساعة" صرخ مُرّة بن منقذ العبدي صرخة مرعبة وكأنّ الذي سمعه شتيمة فرفع السّيف وضرب علياً الأكبر على مفرق رأسه فشهق شهقة كانت روحه فيها وهو لا يزال معتنقاً فرسه والذي هاج وانطلق متوغلاً بين المقاتلين، أصابت جسده ضربات مئات السّيوف على الرّغم من أنّه فارق الحياة وكأنّهم ينتقمون من جسده لعدم قدرتهم على قتاله حياً فقطعوه إرباً إرباً.

كان الحسين بن علي واقفاً في المعسكر يراقب ما يجري على ابنه علي الأكبر والنساء من فتحات الخيام يراقبن معالم وجه الحسين بن علي خصوصاً أخته زينب ولا صوت في المعسكر صوى صوت بكاء الأطفال وخصوصاً طفل الحسين بن علي الرضيع ذو الشهور الستة والذي لم يتوقف عن البكاء طوال الليل لشدة عطشه فالحليب في صدر أمّه الرباب قد جفّ ولا يوجد ماء لتشربه فيدر حليبها.

ظلّ وجه الحسين بن علي هادئاً إلّا من حركات عينيه تتابعان علياً الأكبر إلى أن أصابه رمح مُرّة بن منقذ العبدي غدراً فصاح "واولداه."

كانت صرخة الحسين بن علي إشارة كافية للنساء بأنّ علي الأكبر قد أصيب، فتعالى صوت بكائهن من داخل الخيام امتطى الحسين بن علي فرسه واندفع كالأسد إلى معسكر الأعداء، وهو يقول بصوت مسموع "ولدي علي، ولدي علي."

كشف الحسين بن علي جموع الأعداء ولم يجد جسد ابنه علي الأكبر، بل وجد أشلاء جسد مقطع فرمى بنفسه وأخذ الرأس فوضعه في حجره وجعل يمسح الدم والتراب عن وجهه وهو يبكي بصوت مسموع، فكانت هي المرة الأولى يسمع فيها صوت بكاء الحسين بن علي عالياً.

أرخى رأسه ووضع خدّه على خدّ ولده حتّى امتزجت دموعه بدمائه والتراب العالق عليه وقال "يا بني قتل الله قوماً قتلوك، وما أشدّ جرأتهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول."

كانت جموع الجنود مجتمعة مشكلة حلقة واسعة حول الحسين بن علي تراقب ما يجري فمنهم لم يستطع النظر أكثر فانصرف ومنهم علت الابتسامة وجوههم لرؤيتهم الحسين بن علي بهذه الحالة.

إخوة الحسين بن علي لحقوه إلى مصرع علي الأكبر وقلوبهم قبل عيونهم باكية على مصرع ابن أخيهم والذي لا يزال يبكي معتنقاً الرأس وهو يقول "على الدنيا بعدك العفا يا بني، أمّا أنت فقد استرحت من الدنيا وضيمها وقد صرت إلى روح وريحان وبقي أبوك لهمّها وغمّها وما أسرع لحوقه بك!"

كادت روحه تفارق جسده لقسوة مرأى جسد فلذة كبده مقطّعاً هكذا وهو أشبه الخلق برسول الله.

نهض الحسين بن علي وأشار لمن معه فجمعوا أشلاء الجسد وحملوها راجعين إلى المعسكر.

عبد الله بن مسلم بن عقيل

جاء عبد الله بن مسلم بن عقيل إلى الحسين بن علي وكان يحبّه حبّاً جمّاً وله فيه تعلّق خاص لأنه ابن أخته رقيّة بنت الإمام علي عليه السلام، عانقه الحسين بن علي ثم نظر إليه ولا تزال كفّاه على كتفيه وكأنه يريد أن يقول له بأن ذكرى مسلم بن عقيل لم تزل في قلوبنا فكيف آذن لك بالخروج.

قال عبد الله بن مسلم "بأبي أنت وأمي لست ممن يترك الآخرة الباقية للدنيا الفانية، فأنا أسألك أن ترضى بروحي لتكون فداء لك."

ثمّ خرج بعد أن أذن له الحسين بن علي بالقتال ودخل ساحة القتال وهو يرتجز ويقول:

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي

وفتية بادوا على دين النبي

ليسوا بقوم عرفوا بالكذب

لكن خيار وكرام النسب

من هاشم السادات أهل النسب

حمل عليهم ثلاث حملات، لم يستطع أحد الوقوف في وجهه، كان كاللّيث الغضبان، ما ظهر أمامه مقاتل إلّا فراه بحد سيفه، وكما العادة أدرك المعسكر بأنّ من مع الحسين بن علي لا يقتلون بالمواجهة، والسبيل الوحيد لقتلهم إمّا غدراً من الخلف، أو رميهم بسهم من بعيد، فوجّه عمرو بن صبيح الصيداوي سهمه إلى رأس عبد الله بن مسلم والذي انتبه له فرفع يده ليتقي السهم فدخل السهم بكفه وثقبها ودخل بجبينه فتسمّرت كفّه على جبينه وحاول أن يزيلها فلم يستطع وقال بصوت مسموع "اللّهم إنّهم استقلّونا واستذلّونا فاقتلهم كما قتلونا."

استغلّ أسد بن مالك الحضرمي انشغال عبد الله بن مسلم بيده فرفع رمحه، ووجّهه إلى قلب عبد الله بن مسلم ورماه بكل ما أوتي من عزم فاخترق قلبه وفارقت روحه جسده لتلتحق بروح أبيه مسلم بن عقيل في عليين، وفي الوقت ذاته وجّه يزيد بن رقاد سهمه إلى قلب عبد الله بن مسلم ورماه به فاخترق صدره وكان مفارقاً الحياة، وسقط عبد الله بن مسلم على الأرض جسداً مكفّناً بدمائه.

اقترب يزيد بن رقاد وسحب السهم من قلب عبد الله بن مسلم ففار دمه من قلبه، مسح السهم بثيابه وأمسك بالسهم الذي في جبهته وحاول إزالته فلم يستطع، أمسك بكف عبد الله بن مسلم المسمرة إلى جبهته بيده اليسرى وطرف السهم بيده اليمنى وظل يحرّكه إلى أن انسحب عوده وبقي النصل في جبهة عبد الله بن مسلم.

عون ومحمد أبناء عبد الله بن جعفر

حمل آل أبي طالب حملة واحدة بعد مقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل وصاح بهم الحسين بن علي "صبرا على الموت يا بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم."

أحاط بهم الجنود من كل الأطراف واحتدم القتال واغبرّ الهواء وكأن عاصفة هبت ومن الذين خرجوا عون بن عبد الله بن جعفر وأمّه زينب بنت علي بن أبي طالب.

شجّعت زينب بنت علي ابنها عون على الخروج والذب عن حرم رسول الله وأهل بيته، فهي تفدي الحسين بن علي بروحها وجسدها ومالها وأولادها وكل ما تملك، ولم تكن لتفعل ذلك من شفقة أو التزام فحبّها لأخيها لم يكن وليد اللحظة بل كان نتاج دروسٍ تجرعتها ومواقف عاشتها في حياة جدّها الرسول محمّد وأمّها فاطمة الزهراء بنت الرسول وأبيها علي بن أبي طالب، فحبهم للحسين لم يكن مجرد إحساس بل كان أسلوب حياة ومنهج عيش أوضح للناس منزلته الراقية في قلوبهم، فلطالما قال جدّها رسول الله "حسين منّي وأنا من حسين أحبّ الله من أحب حسيناً"، و كما أن عون عزيز على قلبها فهو فلذة كبدها، علي الأكبر عزيز على قلبها أيضاً كعون، وعلي السجاد العليل في داخل الخيمة عزيز على قلبها، وأبناء أخيها الحسن الأربعة أعزاء على قلبها، وإخوة الحسين الستة أعزاء على قلبها وطفل الحسين الرضيع ذو الأشهر الستة والذي لم يتوقف لحظة عن البكاء لشدة جوعه وعطشه عزيز على قلبها.

دخل عون الميدان وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا ابن جعفر

شهيد صدق في الجنان أزهر

يطير فيها بجناح أخضر

كفى بهذا شرفاً من معشر

وقاتل قتال الأبطال وقتل منهم الكثير إلى أن قتله عبد الله بن قطبة الطائي والنبهاني.

وخرج أخوه محمّد وأمّه الخوصاء بنت حفصة بن ثقيف من بكر بن وائل وبرز إلى الميدان وهو يرتجز ويقول:

اشكو إلى الله من العدوان

فعال قوم في الردى عميان

قد تركوا معالم القرآن

ومحكم التنزيل والتبيان

واظهروا الكفر مع الطغيان

وقاتل قتال الأبطال وقتل الكثير منهم وسقط قتيلاً على يد عامر بن نهشل التميمي.

أبناء عقيل بن أبي طالب

ومنهم جعفر بن عقيل ودخل الميدان وهو يرتجز ويقول:

أنا الغلام الأبطحي الطالبي

من مشعر في هاشم من غالب

ونحن حقّا سادة الذوائب

فينا حسين أطيب الأطايب

وقاتل قتال الأبطال ولقى مصرعه على يد بشر بن حوط الهمداني، وعبد الله بن عروة الخثعمي.

ومنهم عبد الرّحمن بن عقيل وقد دخل الميدان وهو يرتجز ويقول:

أبي عقيل فاعرفوا مكاني

من هاشم وهاشم اخواني

كهول صدق سادة الاقران

هذا حسين شامخ البنيان

وسيد الشيب مع الشبان

وقاتل قتال الأبطال إلى أن قتله عثمان بن خالد بن أسير الجهني، وبشر بن سوط الهمداني القانصي، وسقط على تراب أرض كربلاء مضرّجاً بدمائه.

ومنهم عبد الله الأكبر بن عقيل وكان يرتجز عندما دخل الميدان ويقول:

خلوا عن المصحر دون الغيل

خلوا عن الواضح من عقيل

يمنع عن صريخة الرسول

بسيفه المهند المصقول

وقاتل قتال الأبطال وقتل من أعداؤه مقتلة كثيرة وكان مقتله على يد عثمان بن خالد الجهني.

ومنهم محمّد بن مسلم بن عقيل ولم تقل حملاته وصولاته على أرض كربلاء شجاعة عن صولات أخيه عبد الله، وقاتل وقتل من الأعداء الكثير إلى أن قتله أبو مريم الأزدي، ولقيط بن إياس الجهني.

عبد الله الأكبر ابن الحسن بن علي

خرج مع الحسين بن علي من أبناء أخيه الحسن بن علي أربعة هم عبد الله الأكبر والملقّب بأبي بكر، والقاسم، وعبيد الله الأصغر، والحسن المثنى، وأوّل من خرج منهم إلى ميدان المعركة هو أبو بكر وكان يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا ابن حيدره

ضرغام آجام وليث قسورة

على الاعادي مثل ريح صرصرة

أكيلكم بالسيف كيل السندره

وقاتل قتال الأبطال فهو يرث شجاعة أبيه الحسن بن علي، لم يثنه عطش أو جوع أو تعب، فالدفاع عن عمّه الحسين بن علي وحرمه واجب عليه وهو يؤدي واجبه بكل إخلاص، حتّى قُتل على يد عبد الله بن عقبة الغنوي، واختلطت دماؤه بتراب أرض كربلاء وسرعان ما اقترب منه الأعداء وحزّوا رقبته وفصلوا رأسه عن جسده.

القاسم ابن الحسن بن علي

تقدم أخوه القاسم بن الحسن وله من العمر أربعة عشر عاماً إلى عمّه الحسين بن علي، وكان له بمثابة الولد، فعندما كان في الرابعة من العمر توفي أبوه فتكفّل به الحسين بن علي وربّاه وكان يحبّه حباً شديداً. عندما اقترب يطلب الإذن بالقتال اعتنقه الحسين بن علي ولم يتمالك نفسه فصار يبكي بكاءً شديداً، وصار القاسم يبكي، ولم يفلته الحسين بن علي حتّى ابتلت كتفه من الدموع، وأبى أن يأذن له، ولم يزل القاسم يتوسّل إليه حتّى أذن له وبرز إلى الميدان ولا يزال باكياً ووجهه كشقّة قمر طالع ويرتدي قميصاً وإزار وعلى رأسه عمامة من عمائم أبيه الحسن بن علي، كان عمّه الحسين بن علي قد عدّلها له قبل خروجه، دخل الميدان وهو يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا نجل الحسن

سبط النبي المصطفى والمؤتمن

هذا حسين كالأسير المرتهن

بين أناس لا سقوا صوب المزن

كان على الرغم من صغر سنّه وشدّة عطشه وجوعه، كالوحش الكاسر يضرب بذراع من حديد فلا يقف سيفه بجسد من أمامه إلّا بعد أن يقطعه، احتوشه الكثيرون وعلى الرغم من كثرتهم أبقوا مسافة أمان بعيداً عن سيفه البتّار، وأثناء مناورته انقطع شِسع نعله اليسرى وأبى ابن النبي الأعظم أن يحتفي في الميدان، فقرفص ليشدّ شِسع نعله وهو لا يزن الحرب إلّا بمثله غير مكترث بكثرة من احتوشه.

كان عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي يقف بجانب حميد بن مسلم وهما من معسكر ابن سعد ويراقبان ما يجري وعندما قرفص القاسم قال عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي "والله لأشدنّ عليه."

أجابه حميد بن مسلم "سبحان الله، ما تريد بذلك، فوالله لو ضربني ما بسطت له يدي، يكفيك هؤلاء الذين تراهم قد احتوشوه."

هجم عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي على القاسم متجاهلاً قول حميد بن مسلم وقال صارخاً "والله لأشدنّ عليه."

كان القاسم بن الحسن لا يزال مقرفصاً عندما ضرب عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي رأسه بسيفه ففلقه فصاح القاسم "يا عمّاه" وسقط على الأرض مضرجاً بدماء رأسه.

انقضّ الحسين بن علي على عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي كالصاعقة، وثارت الغبار لسرعته فكانت كالستار مخفية ما يحدث، وضربه بالسيف فحاول عمرو أن يصدّها بساعده فانقطعت من المرفق، وصرخ صرخة عظيمة سمعها العسكر، وهبّت مجموعة من الفرسان على خيولها ليستنقذوه من الحسين بن علي، ولكن بسبب الغبار المتطاير وطؤوه بحوافر الخيل ومات بين حوافرها.

كان الحسين بن علي قائماً على رأس القاسم بن الحسن وهو يفحص برجليه التراب، فهو لا يستطيع الرؤية بسبب الدماء على عينيه، جثا الحسين بن علي ورفع رأس القاسم المفلوق بين يديه وعيناه تذرفان دموعاً وقال "يعزّ والله على عمّك أن تدعوه فلا يجيبك أو يجبيك فلا يعينك، أو يعينك فلا يغني عنك، بعداً لقوم قتلوك، هذا يوم كثر واتره وقلّ ناصره" وفارق القاسم الحياة حزيناً لفراق الحسين بن علي وحيداً غريباً لا ناصر له ولا مغيث.

رفع الحسين بن علي جسد القاسم بن الحسن واعتنقه وجعل صدره على صدر القاسم وتوجّه إلى الخيام وكانت رجلا القاسم تخطّان التراب وهو يحمله على الرغم من الفرق بين طول الحسين بن علي وطول القاسم ولكنه كان محني الظهر.

وصل الحسين بن علي إلى المخيّم ومدّد جسد القاسم بجانب جسد ولده علي الأكبر المقطع أشلاء أشلاء، ثمّ رفع طرفه إلى السماء وقال بصوت يكاد لا يسمع لجفاف حلقه من شدّة العطش "اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً ولا تغفر لهم أبداً" وأرخى طرفه وكأنّه يكلّم من بقي معه من الرجال صبراً يا بني عمومتي صبراً أهل بيتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً.

الحسن المثنى وعبيد الله الأصغر أبناء الحسن بن علي

خرج الحسن المثنى بن الحسن بن علي إلى ساحة القتال بعدما رأى أخاه القاسم مضرّجاً بدمائه ممدّداً جسداً لا يتحرك في خيمة شهداء بني هاشم، وقاتل بشجاعة لا تقلّ عن شجاعة أخويه قبله، وثلم في جيش عمر بن سعد ثلمات إلى آخر ذرة طاقة في جسده وسقط على تراب كربلاء، وعندما اقتربوا لقتله وقطع رأسه أبعدهم عنه أسماء بن خارجة الفزاري وهو من أخواله وهو مع عمر بن سعد، جثا بجانب الجسد ورفع الرأس وكان لا يزال به رمق فأمر الجنود بحمله إلى المعسكر واستشفع له، ولم يقتلوه وكان ينوي الرجوع به إلى الكوفة بعد انتهاء الواقعة.

أراد عبيد الله الأصغر الأخ الرابع الخروج والقتال وكان عمره إحدى عشرة سنةً ولكن الحسين بن علي لم يأذن له.

إخوة الحسين بن علي

خرج محمّد بن علي بن أبي طالب وبعده أبو بكر بن علي بن أبي طالب بعد أن ودّعوا أختهم زينب بنت علي واستأذنوا من أخيهم الحسين بن علي، قاتلا قتال الأبطال حتّى استشهدا على تراب كربلاء.

عبد الله وعثمان وجعفر إخوة الحسين بن علي

نادى العبّاس بن علي إخوته الثلاثة عبد الله وعثمان وجعفر، وأمّهم فاطمة بنت حزام بن خالد بن ربيعة بن عامر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وكانت تكنّى بأم البنين، وآباؤها وإخوانها من أشجع

سادات العرب وزعمائهم، وهي من أفضل النساء العارفات بفضل آل بيت الرسول محمّد منذ نشأتها في بيت أبيها الذي كان زعيماً كبيراً وهو بيت كرم وشجاعة وفصاحة ومعرفة.

بعد أن فارقت الدنيا فاطمة الزهراء أم الحسن والحسين، قال علي بن أبي طالب لأخيه عقيل بن أبي طالب وهو من نسّابة العرب وأعرفهم بأحسابها وعاداتها "ابغني امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوّجها فتلد لي غلاما فارساً."

فأجاب عقيل بن أبي طالب "أين أنت عن فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابيّة."

تزوجها علي بن أبي طالب وأنجبت له بدل الفارس، أربعة فرسان، العبّاس وعبدالله وعثمان وجعفر.

قال العبّاس بن علي لإخوته "تقدّموا يا بني أمّي حتّى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله، فإنّه لا ولد لكم."

فأوّل من خرج، عبد الله بن علي بعد أن طلب الأذن من أخيه الحسين بن علي وودّع أخته زينب بنت علي وكان عمره خمساً وعشرين عاما آنذاك ودخل الميدان وهو يرتجز ويقول:

أنا ابن ذي النجدة والإفضال

ذاك علي الخير في الأفعال

سيف رسول الله ذو النكال

في كل يوم ظاهر الأهوال

وقاتل قتال الأبطال على الرغم من شدّة عطشه حتّى سقط شهيدا على تراب أرض كربلاء.

ثمّ خرج أخوه عثمان بن علي بعد أن استأذن من أخيه الحسين بن علي وودّع أخته زينب بنت علي وكان آنذاك ابن واحد وعشرين عاما ودخل الميدان وهو يرتجز ويقول:

إني أنا عثمان ذو المفاخر

شيخي علي ذو الفعال الطاهر

أخي حسين خيرة الأخاير

وسـيد الكبـار والأصاغـر

بعد الرسول والوصي الناصر

وقاتل قتال الشجعان الأبطال فلم يبطئه العطش الشديد ولم يستطع الأعداء إسقاطه أرضاً بسيوفهم فرموه بسهم أصابه في جبينه وسقط شهيداً على تراب أرض كربلاء واقترب من جسده رجل من أبان بن دارم واحتزّ رأسه وفصله عن جسده وأخذه.

ثمّ خرج بعده أخوه جعفر بن علي بعد أن استأذن الحسين بن علي وودّع أخته زينب بنت علي، كان آنذاك ابن تسع وعشرين عاماً وهو فتيّ سمح الوجه عريض الكتفين شديد الساعدين قد ورث شجاعة آبائه وأجداده ودخل الميدان وهو يرتجز ويقول:

إني أنا جعفر ذو المعالي

ابن علي الخير ذي النوال

حسبي بعمي شرفا وخالي

أحمي حسينا ذا الندى المفضال

وكان كأخوته قاتل قتال الأبطال الشجعان ولم يستطع العسكر إسقاطه بسيوفهم بعد أن قتل منهم الكثير فرموه بسهم دخل في رأسه من عينه وسقط شهيداً على تراب أرض كربلاء.

قمر بني هاشم أبو الفضل العباس ابن علي بن أبي طالب

قُتل معظم الرجال من أصحاب وأهل بيت الحسين بن علي، وتحوّلت الدموع الصامتة للنساء إلى بكاء يقطع نياط القلوب، وصار بكاء الأطفال صراخاً وعويلاً لشدّة خوفهم بالإضافة إلى عطشهم وجوعهم، وانكسر قلب العبّاس بن علي وهو يرى أخاه وسيّده حجّة الله في ذلك الزمان مكسوراً قد انقطع عنه المدد. اقترب من أخيه وطلب منه الإذن بالقتال، فأجابه الحسين بن علي "أنت صاحب لوائي" وكان كل من بالمعسكر مطمئناً طالما ينظرون إلى لواء الجيش مرفوعاً.

قال له العبّاس بن علي "لقد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين وأريد أن آخذ ثأري منهم."

دمعت عينا الحسين بن علي وظل صامتاً ينظر إلى وجه أخيه والذي يلقّب بقمر بني هاشم لجماله وكمال جسده، ولم يشوب صمتهما سوى بكاء الأطفال وصراخهم فقال الحسين بن علي "إذاً اطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء."

اتجه العبّاس إلى معسكر عمر بن سعد ممتطياً فرسه يلحقه خياله لانحراف الشمس باتجاه الغرب رافعا كفّه الأيمن مظهراً أن اقترابه منهم ليس ليقاتلهم إنّما لأمر آخر فرفع عمر بن سعد يده آمراً الجيش بعدم الرمي على العبّاس لمعرفة ما يريد.

كان مظهر جنود جيش عمر بن سعد يختلف عمّا كان عليه فجراً عندما حاججهم الحسين بن علي، فثياب حربهم ممزّقة ملطّخة بدماء جافة، وعلى وجوههم أقنعة من غبار، خيولهم مصابة، وعقولهم متعبة قبل أجسادهم، فعلى الرغم من قلّة عدد من كان مع الحسين بن علي إلّا أنّهم استطاعوا أن يوسموا كل بيت من بيوت الكوفة بقتيل واحد على الأقل.

بدأ العبّاس بن علي حديثه بصوت عال واضح تملؤه الثقة والثبات ووعظهم وحذّرهم غضب الله الجبار، ثمّ نادى بصوت عال "يا عمر بن سعد" فالتفت عمر ابن سعد والذي كان يتظاهر بعدم الاستماع إليه، وتابع العبّاس "هذا الحسين ابن بنت رسول الله، قد قتلتم أصحابه وأهل بيته وهؤلاء عياله وأولاده عطاشى، فاسقوهم من الماء قد أحرق الظمأ قلوبهم وهو يقول لكم دعوني أذهب إلى الرّوم أو الهند وأخلي لكم الحجاز والعراق."

قاطع الشمر بن ذي الجوشن العبّاس "يابن أبي تراب لو كان وجه الأرض كلّه ماء وهو تحت أيدينا لما سقيناكم منه قطرة إلّا أن تدخلوا في بيعة الخليفة يزيد بن معاوية"

غضب العبّاس بن علي وعاد إلى أخيه وأخبره بما سمع ثمّ رفع رأسه إلى السماء وقال "إلهي وسيدي، أريد أن أعتد بعدتي، وأملأ لهؤلاء الأطفال قربة من الماء."

أخذ العبّاس بن علي قربة ومعه سيفه ولواء الجيش واندفع نحو شط الفرات فصار العلم يرفرف فوقه لسرعة جريانه ولكن لم يستطع الوصول إلى الشط بسرعة فعمرو بن حجاج الزبيدي على رأس أربعة آلاف فارس يحرسون شاطئ الفرات ليمنعوا الحسين بن علي وأصحابه من الاقتراب، وانتشروا في مساحة فيها نخيل تفصل ساحة الحرب عن شط الفرات، لم يعبأ العبّاس بن علي بهم ولم ترهبه كثرتهم بل هجم عليهم وقتل منهم العديد حتّى انكشفوا عن شط الفرات واجتازهم.

نزل العبّاس بن علي من على فرسه وغرز اللواء في التراب ليبقى شامخاً يرفرف في عنان السماء، لم يصدر صوتٌ لخطواته وهو يقترب من شط الماء لرطوبة التراب تحت قدميه اللتين تركتا آثاراً عليه، ما إن لامست قدماه المياه حتّى سرت قشعريرة في كامل جسده من برودتها ولعطشه الذي لا يقاس، بل لعطش كل ذرة من ذرات جسده، كان صوت خرير المياه يطرب الآذان وهي تجري بلا توقّف أو إبطاء، قرفص وغمس القربة في المياه فبدأت فقاعات الهواء تخرج من فوهتها بعد أن احتلت المياه جوفها رويداً رويداً، ابتسم العبّاس بن علي عندما فكّر كم سيفرح الأطفال بهذا الماء البارد وكيف ستعود الابتسامة إلى وجوههم والتي كساها الحزن والتعب والإرهاق منذ أيام

كوّن العبّاس بن علي بكفّيه تجويفاً كافياً لجرعات من الماء تسد عطشه، غمسهما في الماء الجاري الذي لم يهدأ ثمّ أخرجهما مليئتين وقطرات من الماء البراقة تسيل من بينهما عائدة إلى النهر لتكمل مسيرها بعد أن لامست كفّيه، نظر إلى بريق الماء في كفّيه كبريق الفضة السائلة يلمع خاطفاً الأبصار، وكانت كل ذرّة من ذرّات جسده تصرخ العطش العطش، فشفتاه تشققتا كالتربة الجافة ولسانه كالخشبة اليابسة وجوفه يتلظى من الظمأ، فمنذ ثلاثة أيّام لم تلامس شفتاه قطرة ماء ثلاثة أيّام بلياليها وبحرقة شمس نهارها مضاف لها المجهود الذي بذله منذ الصباح الباكر في جولات قتاله، وها هو الآن في قلب النهر بمياهه الباردة المنعشة النقية على بعد أقل من ذراع منها وماهي إلّا ثوان وعطشه سينطفئ.

كانت عينا العبّاس بن علي ترى ماء في جوف كفّيه، ولكن روحه ترى الحسين بن علي وقد هدّه العطش، وزينب بنت علي وقد أرهقها الظمأ، والأطفال وقد بحّت أصواتهم من البكاء، وطفل الحسين الرضيع قد تشقّقت شفتاه وشحب لونه وخفت أنينه.

قرّر العبّاس بن علي بأنّه لن يتذوق بارد المياه قبل أن يشرب أخوه الحسين بن علي وعياله وأطفاله وترتوي أكبادهم، فرمى ما بكفّيه من مياه وقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني

وبعده لا كنت أن تكوني

هذا الحسين وارد المنون

وتشـربين بـارد المعين

تالله ما هذا فعال ديني

نهض العبّاس بن علي ورفع القربة الذي صار وزنها ثقيلاً لامتلائها بالماء كبطن جمل، وربط فتحتها ليضمن عدم تسرّب المياه منها في طريق عودته إلى المعسكر، حملها على كتفه الأيمن بواسطة الحبل الموصول بين فتحتها في أعلاها وزاوية نهايتها، وهو يحس ببرودة المياه في داخلها، ونزع اللواء من التراب وامتطى فرسه وانطلق عائدا إلى المعسكر ليروي عطش الأطفال.

وجد الأربعة آلاف فارس بانتظاره منتشرين على مساحة واسعة عريضة على خيولهم مدججين بأسلحتهم يتطاير الشرّ من أعينهم فهم لا ينوون السماح له بالمرور، كثرتهم وغزارة عتادهم وسلاحهم لم ترهبه ولم يتردّد لحظة بقتالهم، فهجم عليهم كالأسد الغضبان، وأذاب حد سيفه بعظامهم، فتطايرت رؤوس، وتناثرت أطراف، وكبت خيول، وتكسّرت رماح، وهو يرتجز ويقول:

لا أرهب الموت إذ الموت رقى

حتى أوارى في المصاليت لقا

نفسي لسبط المصطفى الطهر وقا

إني أنا العبّاس أغدو بالسقا

ولا أخاف الشر يوم الملتقى

انتشرت جثث الفرسان حوله وتراجع المحاربون من أمامه مبتعدين تاركين مسافة أمان بينهم وبين سيفه البتّار عارفين بأن من يقترب سيذوق الموت، هجم العبّاس بن علي نحوهم ولكنّهم تراجعوا وانكشفوا من أمامه فانطلق مرة أخرى باتجاه المخيّم لإكمال مهمته بإيصال الماء للأطفال والعيال.

كان الأسلوب الوحيد الذي سيمكّنه من العبّاس بن علي هو الرمي من بعد أو الغدر من الخلف، فكّر زيد بن رقاد الجهني، فاختبأ وراء جذع نخلة وانتظر فرس العبّاس بن علي ليقترب، صوت حوافر الفرس تقترب بسرعة، ضغط زيد بكفّيه بقوة أكبر على مقبض سيفه، نظر بطرف عينه إلى العبّاس يقترب، وعندما كانت المسافة كافية، رفع السّيف بكلتا كفّيه وكأنّه يرفع فأساً وخرج من وراء النخلة وهوى به على يد العبّاس بن علي اليمنى بكل ما أوتي من عزم وقوّة وبسرعة خاطفة فقطعها من المعصم وطارت وهي لا تزال قابضةً على مقبض السيف.

صار الدم يخرج رشقات واندهش زيد بن رقاد الجهني عندما رأى أنّ الألم والدماء المتطايرة لم تبطئ العبّاس بن علي عن انطلاقته والذي كان يرتجز ويقول:

والله إن قطعتم يميني

إنّي أحامي أبدا عن ديني

وعن إمام صادق اليقين

نجل النبي الطاهر الأمين

قرّب العبّاس بن علي ما بقي من ذراعه اليمنى إلى جنبه مانعا القربة من السقوط، وكان اللواء ولجام فرسه بكفّه اليسرى، ويحث فرسه على الإسراع بكعبي قدميه، ظلّ الفرس يجري مطيعاً لسيده بلا إبطاء أو تلكّؤ على الرغم من الدماء المتناثرة على رأسه ورقبته.

عندما رأى فرسان عمر بن حجاج الزبيدي ما حصل للعبّاس بن علي دبّ بهم الحماس واندفعوا للّحاق به وعدم السماح له بالوصول للمعسكر، وعندما أدرك العبّاس بن علي نيّتهم حثّ فرسه للإسراع أكثر وصار يناورهم ويصدّ ضربات سيوفهم بعمود اللواء، فاستغل حكيم بن الطفيل الطائي انشغاله، واختبأ وراء نخلة ليحذو حذو زيد بن رقاد الجهني، وعند اقتراب فرس العبّاس بن علي هوى بسيفه على كفه اليسرى فقطعها، وسقط اللواء مع كفّ العباس بن علي إلى الأرض، لم يكترث لشدة الألم وظلّ مندفعاً لإيصال القربة إلى الخيام ليروي عطش الأطفال وكان يرتجز ويقول:

يا نفس لا تخشي من الكفّار

وأبشري برحمة الجبّار

مع النبي المصطفى المختار

قد قطعوا ببغيهم يساري

فأصلهم يا رب حرّ النّار

ضم العبّاس بن علي ما تبقّى من ذراعه الأيسر إلى ما تبقى من ذراعه الأيمن وعانق القربة ولم يتوقّف أو يكترث لكثرة الدماء التي تدفقت من معصميه والتي أدّت إلى شعوره بالغثيان وضغط برجليه حول جسد الفرس ليمنع جسده من السقوط نتيجة حركة الفرس السريعة وخصوصا بأنّه لم يعد يستطع أن يمسك لجام الفرس.

وصل الخبر إلى عمر بن سعد وقوّاده بأنّ العبّاس بن علي يحمل الماء للمعسكر فجاء مسرعاً ولاحظ بأن العبّاس بن علي مستميتٌ لإيصال القربة فصرخ بأصحابه "ويلكم، ارشقوا القربة بالنبل، فوالله إن شرب الحسين بن علي من هذا الماء أفناكم عن آخركم."

تطايرت سهام الرماة كالمطر باتّجاه العبّاس بن علي، فأصابه سهم في صدره، وأصابه سهم في عينه اليسرى فانطفأت، وغطّت الدماء عينه اليمنى، فلم يعد يستطع الرؤية فعانق رقبة الفرس وحثّهُ على متابعة الجري، فلم يوقفه الألم الذي سبّبه اختراق نصول السّهام في جسده، وظلّ القوم يرشقونه سهاماً تكفي لقتل مئات الفرسان، وظلّ يجري إلى أن أصاب سهم قربة الماء، ونزفت المياه الباردة من القربة على ثيابه إلى جذع الفرس والذي أحسّ ببرودتها على ظهره فأبطأ جريانه إلى أن توقف وكأنّه فهم بأنّ المهمة لم تكتمل ولا سبب للرجوع إلى المعسكر بلا ماء، تساقطت المياه على تربة أرض كربلاء والتي امتصّتها بلحظات لشدّة جفافها وكأنّها تقول بأنّها ستروي أجسادهم العطشى بهذه المياه بعد أن يُدفنوا في جوفها.

رفع العبّاس بن علي رأسه وغصّة في حلقه، فهو الآن خجل من العودة إلى المعسكر بلا مياه، وكان قد وعد بنات أخيه الحسين بن علي سكينة ورقية بإحضار الماء لهنّ فلو لم يكن السهم في عينه، لجرت دموعه حزناً على أخيه وأهل بيته، كان غارقاً في عالم الحزن والألم عندما هجم الجنود عليه بسيوفهم ورماحهم وهو لا يقدر على الرؤية، ليحاول تفادي طعنات السّيوف وضربات الرماح، ولا يملك كفّين للدفاع عن نفسه بهما.

نالت من جسده سيوفهم ورماحهم وهو لا يزال على ظهر الفرس إلى أن ضربه رجل بعمود على قمّة رأسه ففلق هامته، وصرخ العبّاس بن علي "عليك منّي السّلام يا أخي أبا عبد الله الحسين" وهوى من على فرسه، فاستقبل الأرض بجبهته، وافترش تراب كربلاء، ولا يزال به رمق من الحياة عندما أتاه الحسين بن علي مسرعاً كالصقر إذا انحدر إلى فريسته، وفرّق الجنود عنه والذين كانوا قد نزلوا من على خيولهم

ينوون فصل الرأس عن الجسد، فقتل من وصل إليه سيفه وفرّ الباقون مبتعدين فصرخ بهم الحسين بن علي غاضباً "إلى أين تفرّون وقد فتتم عضدي."

عندما شاهد الحسين بن علي المنظر المهول لم يتمالك نفسه وانخرط بالبكاء، فجسد أخيه العبّاس مليء بالجراح حتّى لم يبق منه جزء سليم، وسهام عديدة تنبت من صدره، وكفّاه مقطوعتان، وقربة الماء مخروقة لا تزال معلّقة بكتفه الأيمن، وسهم نابت من عينه، ويغطي كاملَ وجهه ولحيته الدماء والتراب، ورأسه مشقوق من القمّة.

جلس بجانب الرأس ووضعه في حجره ولاحظ بأنّ به رمق من الحياة، تعالى صوت بكائه وجعل يمسح الدم والتراب عن وجه أخيه وعن لحيته، وهو يقول "الآن انكسر ظهري وقلّت حيلتي وشمت بي عدوّي" وصار يقبّل موضع ضربات السّيوف والسّهام، واعتنقه حتّى فارقت روحه الشريفة جسده الطاهر.

ترك الحسين بن علي جسد العبّاس مطروحاً على تراب كربلاء، وقام محني الظهر منكسراً حزيناً يكفكف دموعه بأكمامه وعاد الى المخيم.

استقبلته ابنته سكينة عندما وصل للمخيم ولاحظت احمرار عينيه، تسارعت دقّات قلبها خوفاً وكأنّها علمت بأنّ مكروهاً قد أصاب بطلها العباس بن علي فسألته عنه.

كانت أخته زينب بنت علي مشغولة في عيادة علي بن الحسين، وقامت مسرعة إلى باب الخيمة عندما سمعت اقترابه، كانت تنتظر جواب أخيها الحسين بن علي لابنته سكينة عن أخيها العباس بن علي.

عندما أخبر الحسين بن علي ابنته بمقتل العباس شعرت زينب بغصّة في حلقها وانفجرت بأكية وهي تقول بصوت حزين يفتّت الصخر "وا أخاه واعباساه وضيعتنا بعدك."

دخل الحسين بن علي إلى الخيمة عندما سمع صوتها وخلفه سكينة بأكية حزينة ولم يتمالك نفسه بل انخرط بأكيا بكاءً مريراً وبكى ولده علي السجاد وهو مستلقٍ على فراش المرض وبكى كل من بالمخيم لبكاء حفيد الرسول وحزنه ووحدته ووحشته وقلّة ناصريه وموت أصحابه وموت الرجال من أهل بيته.

كربلاء

ألا من ناصر ينصرنا

علي بن الحسين أنهكته الحمّى مستلقياً على نطع من الأديم سمع ما أوجب عليه النهوض في الحال. نظر حوله فلم يجد بالخيمة عمّته زينب والتي كانت تقضي معظم وقتها بجانبه لمساعدته، مهمّة النهوض بدونها ستكون شاقّة جدّا ولكن لا خيار لديه، فبعد محاولات عدّة وبعد جهد جهيد استطاع أن يرفع ثقل جسده على يديه وركبتيه، قبض على العصا التي يتكأ عليها كلما أراد النهوض لأداء الصلاة، أمسك بها بكلتا كفّيه ووضعها بشكل عامودي وكأنّه يطعن الأرض ورفع جذعه إلى الأعلى وجر ركبتيه معتمداً على قوّة شد كفيه فقط، شعر بألم شديد في مفاصل عظامه وتعرّق جبينه واضطربت دقّات قلبه وتسارعت أنفاسه، سكن عن الحركة لدقائق وهو جالس على ركبتيه وكفّيه تقبضان على العصا والدموع تجري على وجنتيه نتيجة خليط من المشاعر لا يقدر على فهمها سوى رجل مثل أبيه الحسين بن علي، فهو قد قرّر أن يخرج إلى ساحة المعركة على الرغم من ضعفه ومرضه عندما سمع أباه يصرخ بصوت رجل ينظر إلى نسائه وأطفاله يصيحون العطش العطش وليس لديه ماءٍ ليسقيهم، صوت رجل غاضب من الأعداء الذين لم يحترموا صلته وقرابته من رسول الله، صوت رجل ينظر إلى أجساد إخوته وأبناء إخوته وأبناء عمومته وولده مذبوحين على تراب أرض كربلاء فيشعر بالوحدة القاسية ويحترق قلبه لما ستلاقيه أخته زينب من إحساس بالوحدة بعد أن فقدت كل إخوتها.

قالها الحسين بن علي صرخة خرجت من فمه وعلقت بين الأرض والسماء لتظلّ بصمة تعيش إلى أبد الآبدين لتنبئ الأجيال المتوالية عن أن باب التضحية في سبيل نصرته مفتوح دائماً كلٍ في زمانه ومكانه وإمكاناته.

صرخ الحسين بن علي "هل من ذاب عن حرم رسول الله؟ هل من موحّد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا؟ هل من ناصر ينصرنا أهل البيت؟"

تمكّن علي بن الحسين من الوقوف بعد جهد كبير، مشى ببطء ذاباً بثقله على العصى إلى السّيف المعلّق على عمود الخيمة، أراد أن يحمله ولكنّه لم يستطع، فأمسك بمقبض السّيف وسحبه فانهار ثقل السّيف إلى الأرض، وجرّه لعدم استطاعته أن يرفعه.

خرج من الخيمة بخطوات قصيرة غير ثابتة وهو يتكئ على العصا بيد ويسحب السّيف بيد، فرآه والده الحسين بن علي ولم يستغرب خروجه من الخيمة، فابنه أكثر النّاس فهماً لمعنى وجوب طاعة أبيه، ولكنّ الحسين بن علي له هدف مقدّس من عدم السماح لولده هذا الخروج والقتال، فقال لأخته زينب "احبسيه يا أختاه لئلّا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمد" فاقتربت زينب لتساعده في الدخول إلى الخيمة مرة أخرى، فقال لها علي بن الحسين "يا عمتاه ذريني أقاتل بين يدي ابن رسول الله." فظلّت تمانعه حتّى أعادته إلى فراشه.

عبد الله الرضيع ابن الحسين بن علي

ثمّ توجّه الحسين بن علي إلى خيمته ليودّع طفله الرضيع، دخل إلى الخيمة وشاهد ولده عبد الله وعمره ستّة أشهر في حضن أمّه الرباب، صوت صراخه يثقب القلوب ووجهه أحمر كالدم، أخبرته الرباب بأنّه لمّا نادى ألا من ناصر ينصرنا نفض عبد الله الرضيع يديه من القماط، وقلب نفسه على مهده، ووقع على الأرض. أخذه الحسين بن علي من يدي الرباب وحمله وشمّه وقبّله وضمّه. أحسّ عبد الله الرضيع بدقات قلب أبيه فهدأ بكاؤه وصار يصدر أصواتاً من فمه وكأنّه يقول لأبيه ابق هنا معي بجانب المهد لكيلا أبكي من شدّة عطشي فخنانك أنساني عطشي وجوعي وألمي.

رفعه الحسين بن علي إلى الأعلى ونظر إليه، أحسّ بألم في صدره عندما لاحظ مدى شحوب وجهه، لعدم تناوله حليباً لثلاثة أيّام متواصلة، سالت دموع الحسين بن علي على خدّيه وقال له "ويلٌ لهؤلاء إذا كان جدّك المصطفى خصمهم" قرّبه الحسين إلى فمه وشمّه وقبّله وعانقه.

خرج الحسين بن علي ومعه ابنه عبد الله الرضيع من الخيمة وخرج معهما قلب أمّه الرباب، كان لا يرتدي على رأسه خوذة الحرب، فقط عمامته ممداً طفله على كفّيه أمامه ليظهر للقوم بأنّه لا يقترب محارباً، وعندما لاحظ عمر بن سعد اقتراب الحسين بن علي ومعه طفل رفع كفّه مانعاً الرماة من الرمي ليرى ما يريده.

تكلّم الحسين بن علي معهم طالباً الماء لابنه الرضيع، وضّح لهم بأنّ هذا الرضيع لا ذنب له، فإلا يريدون إحضار الماء ليشرب، فليأخذوه ويسقوه بأنفسهم ويعيدوه، وختم كلامه قائلاً "إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل."

انخرط جنود جيش عمر بن سعد بجدال، منهم من قال بأنّه يجب أن يعطوه ماء، ومنهم من قال بأن يأخذوا الطفل ويسقوه، ومنهم من قال بوجوب قتل كافّة أفراد أهل بيت الحسين بن علي صغيراً وكبيراً. لاحظ عمر بن سعد بأن جنوده بدؤوا جدالاً لا نهاية له، وبدأ الخلاف يتسرّب بينهم، نظر إلى حرملة بن كاهل الأسدي وكان من أمهر الرمّاة في ذلك الزمان، حرّك فرسه حتّى وصل إلى جانب فرس حرملة، ونظر في عينيه وقال له اقطع نزاع القوم.

كان هذا كافياً ليرفع حرملة سهمه ويضعه في كبد قوسه ويشدّ الوتر بأقصى ما استطاع من عزم، أمال رأسه حتّى صارت عينه اليمنى فوق السهم، بدأ النظر إلى الهدف وأغمض عينه اليسرى، وصار يبحث باليمنى عن نقطة يرمي إليها، كان الطفل ملفوفاً بخرقة ولا يظهر من جسده الصغير شيء، وجّه حرمله السهم إلى وسط الخرقة ليخترق قلبه ويقتله، وقبل أن يحرّر الوتر من أصابعه الثلاثة، تحرّكت الخرقة وانكشف رأس الطفل وبانت رقبته بيضاء تلمع كاللؤلؤ، فحرف القوس ووجّه السهم إلى بياض هذه الرقبة التي لا يتجاوز ثخانتها ثخانة ذراع أبيه الحسين بن علي وحرّر الوتر، فانطلق السّهم مخترقاً هواء كربلاء الجاف مصدراً صفيراً خافتاً ليمزق هدفه وينشر الذهول بين كل من كان يشهد الموقف من المعسكرين.

أحسّ الحسين بن علي بأنّ الطفل يزن أطنان، وبأن قدميه لا تقويان على حمله، أغمض عينيه فقطرت دموعه على خدّيه، وكاد يختنق بغصّة في حلقه، وكأنّ السهم قد اخترق قلبه ولم يخترق رقبة الطفل.

وضع كفّه اليمنى تحت رقبة الطفل فامتلأت دما ورمى الدم إلى السماء.

قال الحسين بن علي ويده ملطخة بدماء رضيعه "هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله." ثمّ نظر إلى السماء وقال "اللّهم لا يكن أهون عليك من فصيل (ناقة صالح)، اللّهم إن كنت حبست عنا النصر فاجعله لما هو خير منه وانتقم لنا من الظالمين واجعل ما حلّ بنا في العاجل ذخيرة لنا في الآجل."

رجع إلى الخيام ومعه طفله الرضيع مذبوحاً من الوريد إلى الوريد، فذهلت أمّه الرباب لمرآه وظلّت داخل الخيمة مدهوشة تنظر إلى جدارها لا تكلّم أحداً.

كان أثر رؤيته على قلب عمّته زينب بنت علي فظيعاً، شعرت كما لو أن هذا السهم مغروز في قلبها، ولم تملك كلمات توصف هول الموقف وأثره على قلب والديه، فأخذته من بين يدي أبيه وعانقته وذرفت دموعا لم تذرفها على موت ولدها عون.

حملة الحسين بن علي الأولى

ارتدى الحسين قلنسوة الحرب وتدثّر ببردة جدّه رسول الله محمّد وتدرّع بدرع جدّه رسول الله وحمل سيف جدّه رسول الله. ارتدى تحت ثياب حربه ثياب خرقه ممزّقة قديمة لأنه علم بأنّه مقتول مسلوب. طلب فرسه فجاءت به زينب أخته وسلّمته اللجام وعيناها تفيضان دموعاً. قبّل الحسين بن علي بناته ومسح على رأس بنت مسلم بن عقيل وشدّ على كف أخته زينب ثمّ اعتلى فرسه متوجهاً إلى المعركة.

خرج إلى القوم يعتلي فرسه بهيبة ووقار وطلب المبارزة فخرج إليه تميم بن قحطبة وهو من أمراء الشام.

قال تميم بن قحطبة "يا بن علي، إلى متى الخصومة؟ فقد قتل أولادك وأقرباؤك ومواليك فأنت بعد تضرب بالسّيف مع ثلاثين ألفاً."

فقال الحسين بن علي "أنا جئت إلى محاربتكم أم أنتم جئتم إلى محاربتي؟ أنا منعت الطريق عنكم أم أنتم منعتموه عنّي؟ وقد قتلتم إخواني وأولادي وليس بيني وبينكم إلّا السّيف فلا تكثر المقال، فتقدم إليّ حتّى أرى ما عندك."

لمع بريقا السّيفين وهما يصطكّان ويتصادمان والحسين بن علي ثابتٌ على خيله لا يتحرّك أما تميم بن قحطبة ظل يدور حوله ويضرب بأقصى ما عنده من عزم وقوّة وكانت ثقته قد تزعزعت عندما لاحظ مدى صلابة خصمه على الرغم من عطشه وكثرة ما مرّ به، فأراد أن يستعيد ثقته فصاح صيحة ورفع سيفه ولكن سيف الحسين بن علي كان أسرع ففصل رأسه عن جسده بضربة واحدة وطار الرأس مسافة خمسين ذراعاً وأصدر صوتاً كتيماً عندما سقط على التراب ليتدحرج مسافة لا بأس بها ويرتطم بقدم أحد الجنود، فرعب العسكر وجمدوا وهم ينظرون إلى رأس هذا البطل بين أقدامهم.

انتظر الحسين بن علي ليخرج له فارس آخر ولكن لم يخرج إليه أحد، ثمّ صاح بهم ليخرج له أحد يبارزه فكان الجواب هو صمت جنود عمر بن سعد، إلى أن صاح بهم يزيد الأبطح وقد كان مشهوراً بشجاعته "إنّكم عجزتم عن رجل واحد وتفرّون عنه" ثمّ تقدم على فرسه متبختراً واقترب من الحسين بن علي فأظهر جنود عمر بن سعد البشارة والسرور متيقنين بأن الحسين بن علي مقتول بسيف يزيد الأبطح.

دار الخيلان حول بعضهما دورة وقال الحسين بن علي "ألا تعرفني تجيء في قبالي كمن لا خوف له" فلم يجب يزيد الأبطح وسل سيفه وهجم على الحسين بن علي واحتدم القتال وتطاير الشرر من اصطدام السّيوف، لم يكن يزيد الأبطح بأصعب من تميم بن قحطبة على الحسين بن علي فانتهت الجولة بضربه بالسيف قطعت يده ثمّ جذعه ليصبح جسده قطعتين، وقع نصف جسد يزيد الأبطح الأعلى على الأرض وأصدر صوتاً كتيماً عند ارتطامه بالتراب والدماء لا تزال تنفر من أحشائه، وظل النصف الآخر على الفرس. ارتعد الجنود وتجنّبوا الخروج للمبارزة فرادى ليقينهم بموتهم بسيف الحسين بن علي البتّار.

ثمّ هجم الحسين بن علي على ميمنة جيشهم كالعاصفة المدمرة وهو يرتجز ويقول:

الموت أولى من ركوب العار

والعار أولى من دخول النار

كانت جموع عساكر جيش عمر بن سعد تموج كأمواج البحر في عاصفة هوجاء، فما ثبت أحد في وجه سيف الحسين بن علي إن أراد قتله، فبعض المحاربين كان الحسين بن علي يتجنّب قتلهم ولم يعلم أحد سبب تصرفه هذا، تطايرت الرؤوس والأقدام والأذرع، ومن لم يُقتل بسيف الحسين بن علي قُتل تحت حوافر الخيول وهي تفرّ من أمامه.

ثمّ هجم الحسين بن علي على ميسرة جيشهم بعد أن شغل الميمنة بكثرة قتلاها وهو يرتجز ويقول:

أنـا الحسين بن علي

آليـت ألا أنثنــي

أحمــي عيـالات أبي

أمضي على دين النبي

لم يكن حال ميسرة الجيش بأفضل من حال ميمنته، فصار الجنود يفرّون من أمامه فرار الخراف من الذئب في كل الجهات. لم تؤثّر شدّة العطش على قوّة سواعده، ولكن لكثرة من قتل ولكثرة ما قطع سيفه من أجساد وأطراف تثلّم حدّه، وصار يحطم جماجم ويكسر أطرافاً لقوّة ضرباته لم يرَ جنود عمر بن سعد مكثوراً، قد قُتل ولده وأهل بيته وصحبه، أربط جأشا منه، ولا أمضى جنانا، ولا أجرأ مقدما، فالمقاتلون كانوا يشدّون عليه فيشدّ عليهم، فينكشفون بين يديه انكشاف الخراف إذا شدّ فيها الذئب، وينهزمون من بين يديه، وكأنّهم الجراد المنتشر، ولم يثبت له أحد، ويعود إلى مركزه وهو يقول "لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم."

صاح عمر بن سعد "الويل لكم أتدرون من تقاتلون؟ هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن علي بن أبي طالب قتّال العرب، احملوا عليه من كل جانب" فهجم عليه الفرسان جميعاً ولم يتردد لحظة بمواجهتهم فكشفهم على كثرتهم.

جاء الشمر بن ذي الجوشن مع عدد من الرجال وحالوا بين الحسين بن علي وبين رحله وعياله.

صاح بهم الحسين بن علي "يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون."

صاح الشمر "ما تقول يا ابن فاطمة؟"

أجاب الحسين بن علي "أنا الذي أقاتلكم والنساء ليس عليهنّ جناح، فامنعوا عتاتكم عن التعرّض لحرمي ما دمت حياً."

قال الشمر "لك ذلك" وأشار بيده إلى كل الفرسان الذين شكلوا جداراً بشرياً فتراجعوا عن منعه من الوصول إلى رحله، ولكنّهم هجموا عليه جميعا، فقاتلهم قتالا تطايرت به الرؤوس والأطراف، اقترب جندي بسرعة وطعن الحسين بن علي في خاصرته وكان بمتناول يد الحسين بن علي ليفصل رأسه عن جسده ولكن الحسين بن علي لم يقتله وتركه فتعجّب كل من شهد الحادثة.

الحسين بن علي على شاطئ الفرات

كانت حرارة الشمس تصهر الجماجم حتّى باتت السّيوف تكوي الجلود إن لامسَتها، أحسّ الحسين بن علي بتعب وجهد فرسه، فحمل على الأربعة آلاف فارس الذين يمترسون على مشرعة الفرات بقيادة عمر بن الحجاج الزبيدي، قتل كل من تجرأ ووقف في وجهه حتّى تراجعوا، أراد الحسين بن علي الوغول في شط الفرات عندما صاح زرعة بن شريك التميمي "ويلكم حولوا بينه وبين الفرات ولا تمكّنوه من الماء." فهجم الجنود مرة أخرى وشكلوا سداً بشرياً منيعاً.

قال الحسين بن علي بصوت مسموع وهو ينظر إلى السّماء "اللّهم أمته عطشاً ولا تغفر له أبداً."

فغضب زرعة بن شريك التميمي ورمى الحسين بن علي بسهم أصاب حنكه وشرط شفته فسالت الدماء على لحيته البيضاء.

انتزع الحسين بن علي السهم ووضع كفه تحت الجرح حتّى امتلأت دماء فرماها إلى السماء، وقال "اللّهم، إنّي أشكو إليك ما يُفعل بابن بنت نبيك، اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً."

تجاهل الدماء النازفة من شفته ووغل في جموع الجنود حتّى غطى جسده الجراح ونبتت منه الكثير من السّهام، استطاع أن يكشفهم عن شط الفرات، ودخل وهو على فرسه إلى المياه، نزل من على الفرس ونظر إليه وخاطبه "أنت عطشان وأنا عطشان فلا أشرب حتّى تشرب."

رفع الفرس رأسه عالياً عندما سمع الحسين بن علي وكأنّه يقول لا أشرب حتّى تشرب أنت.

ربت الحسين بن علي بكفّه اليمنى على قمة رأس الفرس وقال له "اشرب فأنا أشرب" عندما أرخى الحسين بن علي كفّه أرخى الفرس رأسه إلى الماء.

على الرغم من عطش الحسين بن علي الذي لا يقاس إلّا أنّه أبى أن يذوق الماء وعياله عطاشى وإخوته استشهدوا والظمأ يكوي أحشاءهم.

الحسين بن علي يهيئ النساء للبلاء

صرخ جندي من جنود عمر بن سعد "يا حسين، أتلتذّ بشرب الماء وقد هتكت حرمك."

اعتلى الحسين بن علي فرسه وانطلق عائداً إلى الخيام كاللّيث الغضبان ووصل إليها فوجدها سليمة.

دخل إلى المعسكر، شاهدته أخته زينب وبناته بهذه الحالة، جراح تغطي جسده، وسهام مغروسة في جسمه، الدماء تصبغ لحيته وشفته مشروطة تنزف دماً لم يتمالكن أنفسهن، انخرطن بالبكاء، قلوبهن مفطورة من رؤية عماد أخبيتها، وسياج صونها، وحمى عزّها، ومعقد شرفها على هذه الحالة.

ثارت الأحزان والأشجان في نفس الحسين بن علي عندما راقب حرائر آل بيت الرسول وهن لا يعرفن إلّا سجف العزّ وحجب الجلال متعلّقات في أطرافه والهات من المصاب يطلبن الأمن والأمان.

قال إلى النسوة من أهل بيته "استعدّوا للبلاء، واعلموا أنّ الله تعالى حاميكم وحافظكم وسينجّيكم من شرّ الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير، ويعذّب عدوّكم بأنواع العذاب، ويعوّضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة، فلا تشكو ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من قدركم."

صاح عمر بن سعد بجنوده "ويحكم، اهجموا عليه ما دام مشغولاً بنفسه وحرمه، والله إن فرغ لا تمتاز ميمنتكم عن ميسرتكم."

صار الرماة يرمون الحسين بن علي بالسّهام حتّى تساقطت بين أطناب المخيّم كالمطر، واخترق بعضها جدران الخيام، وشك بعضها بأزر النساء، فدهشن وأرعبن وصحن وسارعن الدخول إلى الخيام وأنظارهن لا تزال معلّقة بالحسين بن علي يراقبن ما يفعل.

انتصار الدم على السيف

كر الحسين بن علي على القوم، وهم يفرّون من أمامه، وهو يكثر من قول "لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم."

صرخ جندي من جنود عمر بن سعد "يا حسين ألا ترى الفرات كأنّه بطون الحيّات، فلا تشرب منه قطرة حتّى تموت عطشاً."

فقال الحسين بن علي وهو ينظر إلى السماء "اللّهم أمته عطشاً."

رماه أبو الحتوف الجعفي بسهم أصاب جبهته، فنزعه الحسين بن علي وسالت الدماء تغطي سائر وجهه ولحيته وقال "اللّهم إنّك ترى ما أنا فيه من عبادك هؤلاء العصاة، اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تذر على وجه الأرض منهم أحدا ولا تغفر لهم أبداً."

ربط الجرح على جبهته وهجم عليهم فلا يلحق أحداً إلّا قتله بسيفه، وقال لهم بصوت سمعه كل من حوله "يا أمّة السّوء بئسما خلّفتم محمداً في عترته، أما إنّكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله فتهابوا قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إيّاي، وايم الله إنّي لأرجو أن يكرمني الله بالشهادة ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون."

قال الحصين بن مالك السكوني "وبماذا ينتقم لك منّا يا ابن فاطمة؟"

قال الحسين بن علي "يلقي بأسكم بينكم ويسفك دماءكم ثمّ يصب عليكم العذاب الأليم."

أعيا الحسين بن علي كثرة نزف الدماء، وكثرة الجراح في جسده، فوقف ليستريح، فرماه رجل بحجر أصاب جبهته ونزفت الدماء منها، أخذ بطرف ثوبه ليمسح الدماء عن وجهه وعينيه، فرماه حرملة بسهم له ثلاثة رؤوس وكان مسموماً، فاخترق صدر الحسين بن علي فضاق نفسه وصارت كل شهقة تؤلمه وكأنّها خناجر في صدره وقال "بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله." ثمّ رفع رأسه إلى السّماء وقال "إلهي إنّك تعلم أنّهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيره" ثمّ أمسك بعود السهم وسحبه، فنفر الدم كالميزاب، وضع كفّه تحت الجرح وامتلأت دماً فرمى به نحو السماء، وقال "هوّن علي ما نزل بي أنّه بعين الله."، وضع كفّه مرة أخرى تحت الجرح الذي يشخب دماً، فامتلأت فلطّخ به رأسه ووجهه وقال "هكذا أكون حتّى ألقى الله وجدّي رسول الله وأنا مخضوب بدمّي وأقول يا جدّي قتلني فلان وفلان."

أوهنه أثر السّم ومال برأسه إلى الأمام، انتبه الفرس بأنّ سيّده سيقع على الأرض فحنا قائمتيه الأماميتين ولاصقت ركبتاه الأرض، مال الحسين بن علي بجسده ناحية اليمين فالتوى سرج الفرس، وقع الحسين بن علي على الأرض مستقبلاً التراب بخدّه الأيمن وكفّاه المفتوحتان تحت صدره في هيئة السجود. في هذه الأثناء تحرك الفرس.

صرخ عمر بن سعد بأصحابه "عليكم بالفرس فإنّها من خيرة جياد رسول الله."

هجم الرجال ليقبضوا على الفرس، فصار يصهل ويشب عالياً فيضرب بنعليه صدور الرجال فيقتلهم ويرفس بقائمتيه مَن خلفه ليقذفه في الهواء.

صرخ عمر بن سعد "تريّثوا لنرى ما هو فاعل" فابتعدوا عنه بعد أن قتل بعضهم وظلّوا يراقبون حركاته لينتهزوا الفرصة وينقضوا عليه مرة أخرى، ولكن الفرس اقترب من الحسين بن علي الذي لا يزال ساجداً فعفر جبهته ورأسه بالدماء السائلة من الجراح ورفع رأسه وصهل عالياً ثمّ أعاد تعفير رأسه بدماء الحسين بن علي ورفع رأسه وصهل مرة أخرى.

ثمّ جرى بسرعة إلى مخيّم الحسين بن علي، حاول الجنود أن يسدّوا الطريق عليه لكنه قفز عالياً فرعبت الخيول وابتعدت عن طريقه، صهل الفرس عندما وصل إلى المعسكر، فخرجت النساء من الخيام لظنهن بأن الحسين بن علي قد عاد وكانت مصيبة المصائب عندما رأين الفرس بتلك الحالة بلا فارس والسرج ملوياً ومخضباً رأسه بالدماء فصرخن وبكين ولطمن وجوههن وصدورهن.

أسرعت زينب بنت علي إلى خيمتها وتأزّرت بإزار أمّها فاطمة الزهراء، أرادت الخروج للبحث عن أخيها الحسين بن علي، عندها لمحت عبد الله ابن أخيها الحسن خارجاً يركض باتجاه أرض المعركة حاولت منعه فهو صبي لم يبلغ الحلم بعد، ولكنّه لم يستجب واستطاع الإفلات من عمّته وقال مبتعدا "لا والله لا أفارق عمّي."

اقترب مالك بن النسر من الحسين بن علي وشتمه، رفع الحسين بن علي رأسه محاولاً النهوض، ولكن مالك ضربه بالسيف على رأسه فأوقعه أرضا وامتلأ البرنس الذي يغطيه دماً فرفعه الحسين بن علي ورماه وبقيت القلنسوة على رأسه.

كان يدير بطرفه تجاه مخيّمه وعياله فشاهد عبد الله بن أخيه الحسن راكضاً من المخيّم يقترب منه، في تلك الأثناء اقترب أبحر بن كعب ورفع السّيف يريد ضرب الحسين بن علي، فصاح عبد الله بن الحسن به "ويلك يا بن الخبيثة، أتقتل عمي" ومدّ يده ليقي عمّه ضربة السّيف فقطعت وظلت معلقة بالجلد فصاح "ياعمّاه" ورمى بنفسه على صدر الحسين بن علي، فضمّه عمّه إلى صدره وقال له "يا بن أخي، اصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فإنّ الله تعالى يلحقك بآبائك الصالحين" وكان عبد الله لا يزال يعانقه ولا يريد أن يتركه عندما رماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم دخل في رقبته وذبحه على صدر عمّه فرفع الحسين بن علي بصره إلى السماء، وقال "اللّهم إن متّعتهم إلى حين، ففرّقهم فرقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضي الولاة عنهم أبداً، فإنّهم دعونا لينصرونا فعدوا علينا يقاتلوننا.

خرج من بين الخيم محمّد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب وهو طفل، حاولت أمّه منعه لكنّه أفلت منها وصار يجري باتجاه أرض المعركة وبيده عمود، وكان يلتفت يميناً وشمالاً باحثاً عن الحسين بن علي، تقدّم هانئ بن ثبيت الحضرمي بسرعة على فرسه وضرب الطفل بالسيف ضربة فصل رأسه عن جسده، ظل الجسد يجري خطوات بعد انفصال الرأس عنه ثمّ سقط على الأرض، أمّه أصيبت بالدهشة لرؤيتها مقتل طفلها أمام عينيها.

كان الحسين بن علي ممدّداً رجليه متكئاً على كوعيه الأيمن والأيسر، يحاول رفع رأسه والجميع ينظرون إليه، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه لقتله، فكل قبيلة ترمي بثقل هذه المهمة على القبيلة الأخرى.

على هذه الحال خرجت كلمات حزينة من فمه يناجي ربّه بهذه الساعة العصيبة وهو ينظر إلى السّماء "اللّهم متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غنياً عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادراً على ما تشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريباً إذا دُعيت، محيطاً بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادراً على ما أردت، تدرك ما طلبت، شكوراً إذا شُكرت، ذَكوراً إذا ذكرت، أدعوك محتاجاً وأرغب إليك فقيراً وأفزع إليك خائفاً وأبكي مكروباً" واختنق بعبرته وسالت دموعاً من عينيه شكلت مجرى دقيقاً في الدماء التي تلطّخ وجهه وأكمل "و أستعين بك ضعيفاً، وأتوكّل عليك كافياً، اللّهم احكم بيننا وبين قومنا فإنّهم غرّونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمّد صلى الله عليه و آله وسلم الذي اصطفيته بالرّسالة وائتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً يا أرحم الرّاحمين، صبراً على قضائك يا رب، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين، مالي رب سواك ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك، يا غياث من لا غياث له، يا دائما لا نفاذ له، يا محيي الموتى، يا قائماً على كل نفس بما كسبت، احكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين.

كانت زينب بنت علي تبحث عن أخيها الحسين بعد أن انقطعت آثار شجاعته من الميدان كغياب الإعصار من العاصفة وكانت تنادي "يا حبيبي يا حسين."

عندما سمع صوتها مدّد جسد عبد الله بن الحسن على التراب، واتكأ على كفّيه واستطاع النهوض، وسار خطوة واحدة ثمّ وقع مرّة أخرى على وجهه، وعندما سمع أخته زينب مرة اخرى تنادي "أين أنت يا أخي يا أبا عبد الله." نهض مرّة أخرى وسار خطوة واحدة ثمّ وقع على وجهه، ثمّ سمع أخته زينب تقسم عليه قائلة "أقسم عليك بأمّنا الزهراء إلا ما أجبتني" أحس بغضب عارم ونهض مرّة ثالثة وسار خطوتين قبل أن يسقط على وجهه للمرة الثالثة وقال بصوت واهن "لبّيكِ يا زينب" لمحته أخته زينب وتوجّهت مهرولة إليه.

كان جنود عمر بن سعد يراقبون ما يجري وصاح أحدهم "يا حسين والله لا تذوق الماء حتّى ترد الحامية فتشرب من حميمها."

التفت إليه الحسين بن علي ممداً على ظهره وقال بصوت واهن خافت "يا ويلك أنا لا أرد الحامية ولا أشرب من حميمها، بل أرد على جدّي رسول الله وأسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأشرب من ماء غير آسن، وأشكو إليه ما ارتكبتم منّي وفعلتم بي"

غضب الجنود حوله وثاروا وانقضّوا عليه كالوحوش المفترسة، اقترب سنان بن أنس النخعي وطعنه بالرمح فاخترق ترقوة كتفه الأيمن وقذف رأس الحسين بن علي إلى الوراء، ولم يُبقِ الرمح في جسده بل أمسك به وسحبه بكل ما أوتي من عزم فخرج من الكتف وخرج معه دماء وأشلاء، ورفع الرمح مرة أخرى وأراد أن يغرزه في صدره ليقتله ولكنّه أشاح بوجهه عندما وقعت نظراته على عيني الحسين بن علي ولم يستطع النظر فيهما فانغرس الرمح في بواني صدر الحسين بن علي، ترك الرمح مغروزا وتراجع، اقترب صالح بن وهب المزني ورفع رمحه وغرسه في خاصرة الحسين بن علي، مما أدّى إلى أن رفع الحسين بن علي رأسه إلى الأعلى وهوى بقوة على التراب، ضربه نصر بن حرشة بالسيف على جذعه، ورماه الحصين بن تميم بسهم اخترق جسده، ضربه زرعة بن شريك التميمي على كفّه الأيسر بالسيف فقطعها، وخرّ الحسين بن علي على التراب بلا حراك فظن القوم بأن روحه فارقت جسده.

شاهدت زينب بنت علي المشهد الفظيع الذي كان عليه أخوها الحسين بن علي، وجنود عمر بن سعد مجتمعون ينظرون إلى جسده منقوعاً بدمائه على تراب الأرض. أحسّت بأن ركبتيها ضعفتا وتسارعت دقات قلبها وجثم همّ ثقيل على صدرها وغصّت بعبرتها وقالت بصوت خافت "واجدّاه واممّداه، واأباه واعليّاه، واأمّاه وافاطمتاه،" ونظرت إلى الجنود حوله وشاهدت عمر بن سعد واقفاً ينظر إلى الحسين بن علي مرملاً بدمائه فقالت "أي عمر" فالتفت عمر بن سعد إليها "ويحك أيقتل حفيد رسول الله أبو عبد الله الحسين وأنت تنظر إليه." فصرف عمر بن سعد بوجهه عنها ودموع تسيل على وجهه ولحيته، ثمّ نظرت إلى كافّة الجنود وقالت بصوت مسموع "ويحكم، أما فيكم مسلم؟" فلم يجبها أحد.

ظل جسد الحسين بن علي ساكناً بلا حراك لفترة ليست بقصيرة ولا أحد يجرؤ على الاقتراب حتّى تحرّك رأسه فجأة ولا تزال عيونه مغلقه وقال بصوت خافت "صبراً على قضائك يا رب لا إله سواك يا غياث المستغيثين" ثم فتح عينيه وأمال رأسه باتجاه مخيمه فرأى خيالاً متشحاً بالسواد وغصّ بعبرته عندما فكّر بما سيجري على عياله بعده.

انتبه الجنود من ذهولهم عندما صرخ بهم عمر بن سعد "ويحكم، انزلوا إليه فأريحوه."

أوّل من نزل يريد قطع رأس الحسين بن علي هو شبث بن ربعي وبيده سيفه المحدودب، فجثا ليحتزّ الرأس فوقعت نظرات عينيه على عيني الحسين بن علي فانتفض وقام ونظر إلى ابن سعد وقال "ويحك يابن سعد تريد أن تكون بريئاً من قتل الحسين بن علي وإهراق دمه، وأكون أنا مطالباً بدمه؟ معاذ الله أن ألقى الله بدمك يا حسين."

سنان بن أنس النخعي كان يراقب ما يجري فاقترب من شبث بن ربعي وقال له "ثكلتك أمّك وعدموك قومك لمَ رجعت عن قتله؟"

أجابه شبث بن ربعي "يا ويلك إنّه فتح عينيه في وجهي وكأنّهما عينا جدّه رسول الله، فاستحييت أن أقتل شبيهاً برسول الله."

قال سنان بن أنس النخعي بصوت يملؤه الكره والبغض وكأنّه لم يسمع ما قاله شبث بن ربعي "يا ويلك هلمّ إليّ بالسّيف فأنا أحقّ منك بقتله" وأخذ السّيف واقترب ونظر إلى عيني الحسين بن علي وهو لا يزال واقفاً فارتعدت يداه وسقط السّيف من يده وكأن أحداً ضربه على كفّه وابتعد مرعوباً.

اقترب خولي بن يزيد الأصبحي يريد أن يقتل الحسين بن علي وحصل له ما حصل لشبث بن ربعي وسنان بن أنس النخعي ولم يقو على الحراك فشاهده الشمر بن ذي الجوشن وقال له "فتّ الله في عضدك مالك ترعد؟"

اقترب الشمر بن ذي الجوشن وأبعد خولي، وأراد الجلوس على صدر الحسين بن علي، فصار ينزع السّهام والرماح المغروسة في صدر الحسين بن علي وجلس على صدره وهو يقول "لا أظن أنّي كمن أتاك، فلست أرد عن قتلك يا حسين."

فتح الحسين بن علي عينيه لتقع بعيني الشمر وقال له "من أنت؟ فلقد ارتقيت مرتقى عظيماً، طالما قبّله جدّي رسول الله."

فقال الشمر "أنا الشمر بن ذي الجوشن الضبابي."

قال الحسين بن علي بصوت خشن لجفاف حلقه وواهناً لشدة إعيائه "أما تعرفني؟"

قال الشمر وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة "بلى أنت الحسين بن علي بن أبي طالب وأمّك فاطمة الزهراء وجدّك رسول الله محمّد المصطفى وجدّتك خديجة الكبرى وأقتلك ولا أبالي."

قال الحسين بن علي "عرفتني فلم تقتلني؟"

قال الشمر بن ذي الجوشن "أطلب بقتلك الجائزة عند يزيد بن معاوية."

قال الحسين بن علي له بصوت خافت "أيّما أحبّ إليك شفاعة جدّي رسول الله أو جائزة يزيد؟"

أجاب الشمر بن ذي الجوشن وعيناه تشعّان غضباً وحقداً "دانق من جائزة يزيد أحبّ إليّ من شفاعة جدّك وأبيك" وعندما لاحظ أن الحسين بن علي يلوك لسانه من شدّة عطشه وجفاف حلقه قال له "يا

بن أبي تراب ألست تزعم أن أباك على الحوض يسقي من أحب، اصبر حتّى يسقيك أبوك" وكانت نظرات الكره تشع من مقلتيه وقال "بعد أن تذوق الموت غصّة بعد غصّة وجرعة بعد جرعة."

رفع الشمر بن ذي الجوشن رأس الحسين بن علي إلى الأعلى من لحيته بيده اليسرى، فقال له الحسين بن علي بصوت خافت "أنت الكلب الأبقع الذي رأيته في منامي."

غضب الشمر بن ذي الجوشن وقال: "أتشبّهني بالكلاب يا بن فاطمة؟" رفع كفّه وهو قابض على سيفه وضرب رأس الحسين بن علي بكعب سيفه اثنا عشرة ضربة حتّى تطايرت الدماء يميناً ويساراً ثمّ شد رأس الحسين بن علي من لحيته ورفع نصل سيفه وقرّبه من رقبته كان الحسين بن علي ينظر في عيني الشمر بن ذي الجوشن، أراد الشمر أن يغرس حد السّيف وهو ينظر إلى عيني الحسين بن علي ولكنه ضعف ورجفت يده، حاول مرة أخرى ولم يستطع، فقام وقلب جسد الحسين بن علي حتّى صار ملقى على بطنه وقد كان منقوعاً بالدماء التي سالت من جروحه. وضع الشمر بن ذي الجوشن ركبته اليمنى على ظهر الحسين بن علي وغرس حد السّيف بلحم رقبة الحسين بن علي من الخلف، وأعاقت عظام رقبة الحسين بن علي سهولة حركة السّيف، ضغط الشمر بقوة حتّى تفككت فقرات رقبة الحسين بن علي وأُكمل حدّ السّيف تمزيقه لحم رقبة الحسين بن علي حتّى وصل إلى التراب وفصل كامل الرأس عن الجسد.

نهض الشمر بن ذي الجوشن واقفاً وحمل الرأس بيده اليمنى وأخذ عموداً من جندي بجانبه وغرسه في لحم رقبة الحسين بن علي الذي لا يزال يقطر دما ورفع العمود عالياً وقال "والله قد أبنت رأسك وأعلم أنّك ابن بنت رسول الله وخير النّاس جدّاً وأباً وأمّاً وخالاً وعمّاً" ثمّ صرخ بصوت عال "الله أكبر."

ضجّ معسكر عمر بن سعد بصوت كافة الجنود يصرخون ويرددون "الله أكبر الله أكبر الله أكبر."

هبت رياح تعبث بلحية الحسين بن علي المصبوغة بالدماء المخلوطة مع التراب وكانت عيناه تنظران إلى ناحية خيم عياله من فوق العمود.

الكتاب الثاني

ليلة الوحشة

أنا أُدعى عبد الله الراوي، في الخمسين من العمر من جنود عمر بن سعد، جالسٌ بجانب خيمتي أستريح من عناء الحرب، بيدي سيفي أشحذه بموس أخذته من خيمة الحدّاد أُنصتُ إلى صليل احتكاك السّيف بالموس، أنظر إلى مقبض السّيف الملوّث بالدّماء. أفكّر بمجريات المعركة منذ شروق الشّمس إلى هذه اللحظة من اقتتال وسفك دماء، وأطراف تطايرت، ورؤوس قطعت، تفاصيل يشيب لها رأس الرضيع. شَهدتُ معارك عديدة في حياتي كمعركة صِفّين، بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، ومعركة الجمل بين علي بن أبي طالب وعائشة بنت أبي بكر الصدّيق، ولكنّني لم أر معركة غير متكافئة كهذه المعركة في كربلاء، فعددنا أكثر من ثلاثين ألف مقاتل وجيش الحسين بن علي لا يتجاوز المئة.

أذكر دائمًا نصائح جدّي وقد حارب مع رسول الله حروب عديدة، كان يقول لي إذا لم تكن المعركة متكافئة فلا تقاتل، فليست الشجاعة بكثرة العدد والمدد، ودائمًا اعفُ عن الأسارى بعد انتهاء الحرب، وإيّاك ثم إيّاك أن تضرب امرأة أو طفل. رحمك الله يا جدّي كنت تقاتل في صفوف رسول الله، وأنا الآن أقاتل حفيده الحسين بن علي، كم هي غريبة هذه الدنيا!

علا صوت صراخ الجنود الله أكبر الله أكبر الله أكبر لم أستطع رؤية ما يجري من مكان جلوسي، نهضتّ واتّجهت إلى أرض المعركة. كان الجنود متجمهرين حول الشمر بن ذي الجوشن، بيده عمود على قمّته رأس الحسين بن علي، منظر لن يمحي من ذاكرتي أبداً.

جسد الحسين بن علي بلا رأس ممددٌ على التراب الذي اختلط بدمائه، حوله الجنود مشغولون بسلبه. إسحاق بن حيوة الحضرمي سلب قميصه وكان يقطر دما وممزقا من كثرة السهام والرماح التي اخترقته. بحر بن كعب التميمي سلب سراويله وتحتها كانت خرق لم يطمع بها أحد. الأسود بن خالد كان مشغولا بسلب النعلين. بجدل بن سليم الكلبي يحز إصبع يد الحسين بن علي اليمنى ليقطعه ليسلب خاتمه بعد أن حاول عدّة مرات إخراجه من الإصبع ولم ينجح. أشحت بنظري عن بجدل ورأيت أخنس بن مرثد بن علقمة الحضرمي

يبتعد ويحمل في يده عمامة الحسين بن علي، أهو أخنس أم جابر بن يزيد الأزدي؟ لم أستطع تبين شخصه من الخلف.

هبّت رياح أثارت الغبار في كل مكان وصارت الرؤية متعذرة على عجوز مثلي، اقتربت أكثر لأرى بوضوح فرأيت عمر بن سعد يسلب درع الحسين بن علي البتراء. خيال جندي أخذ السّيف وابتعد، ثم وقف يتباهى بأنّه سلب سيف الحسين بن علي وهو غير سيف ذو الفقار والذي كان لعلي بن أبي طالب، كأنّه جميع بن خلق الأزدي أو هو الأسود بن حنظلة من بني تميم؟ آه من الغبار الذي جعل الرؤية متعذرة.

تعالى صوت صراخ النساء من معسكر الحسين بن علي أو ما تبقى من المعسكر. التفتت ولكن لم أستطع رؤية أي شيء بسبب التراب والغبار المتطاير اقتربت أكثر من الخيام. العساكر هجموا على الخيام كذئاب هجمت على فريستها. عرق جبيني فلا يجوز لنا قتل النساء في الحرب. اقتربت أكثر لأرى ما ينوون فعله. كانوا يسلبون ما في الخيام، النساء يتصايحن ويبكين ويخرجن من الخيام لتفادي العساكر، والأطفال يبكون ويصرخون من الذعر.

رفعت خوذتي وأسدلت طرف العمامة لأتلثّم بها لتفادي الغبار والتراب، سيّدة جليلة مكلّلة بالسّواد واقفة على باب خيمتها، تنظر تارة إلى الداخل وتارة إلى الخارج، أمعنت النظر اليها، إنّها زينب بنت علي أخت الحسين. دخل خيمتها خولي بن يزيد الأصبحي وقد كان معروف بعينيه الزرقاوين. اقتربت من باب الخيمة وصرت أنظر إلى خولي ما يفعل، حمل كلّ ما وجد في الخيمة، ولم يبق في الخيمة إلاّ شاب مريض هزيل الجسد مطروح على نطع من الأديم، وهو ما كانت تنظر إليه زينب بنت علي تارة وتارة إلى النساء والأطفال يتصارخون ويهربون من الجنود بالخارج. نزل خولي وسحب النطع من تحت المريض فرماه أرضاً وأخذ النطع وخرج من الخيمة.

لفتَ انتباهي صراخ امرأة تتكلّم بغضب في خارج المعسكر، خرجت وتوجّهت إلى مصدر الصوت وأمعنت النظر، كانت ترتدي السواد ولكن ملابسها نظيفة بدون آثار غبار أو تراب، عكس باقي النسوة

من معسكر الحسين بن علي، بيدها سيف تلوّح به عاليا وهي تتكلم، حولها بعض الجنود من معسكرنا اقتربت أكثر لأسمع ما تقول، أدركت أنّها امرأة من بني بكر بن وائل من معسكرنا وليست من النساء من معسكر الحسين بن علي، وكأنّ الحميّة دبّت بقلبها عندما رأت الجنود اقتحموا خيام معسكر الحسين بن علي والنساء و الأطفال يهربون من خيمة إلى خيمة وهم يبكون ويصرخون.

"يا آل بكر أتسلب بنات رسول الله؟ لا حكم إلّا لله، يالثارات رسول الله." اقترب منها زوجها وهو من أصحاب عمر بن سعد وسحب السّيف من يدها وجرّها إلى خيامه.

خرج قيس بن الأشعث من خيمة الحسين بن علي، وبيده قطيفة على ما يبدو كان يجلس عليها الحسين. خرج من الخيم الرحيل بن خثيمة الجعفي وهاني بن شبيب الحضرمي وجرير بن مسعود الحضرمي وبيدهم الحلل والجواهر وكذلك قوس الحسين بن علي. كل محتويات خيام معسكر الحسين بن علي قد سلبت وكذلك الخيول والجمال.

اقترب الشمر على رأس مجموعة من العساكر، واتجه إلى الخيمة التي بها زينب بنت علي والشاب المريض. دخلوا إلى الخيمة ودخلت خلفهم لأرى ما يريد أن يفعله. كان الجدال دائراً بين عساكر الشمر، بعضهم يريد قتل الشاب المريض المطروح أرضاً، والبعض الآخر يقول بأنّه مريض ولا فائدة من ذبحه، الشمر كان ممن يريد ذبح الشاب المريض.

زينب بنت علي تحمي الشاب المريض بجسدها لكيلا يجرؤوا على الاقتراب منه وهي تقول "والله لا يقتل حتّى أقتل."

صرخ الشمر "قد صدر أمر الأمير عبيد الله بن زياد بأن أقتل جميع أولاد الحسين بن علي."

عندما لم تتحرك زينب بنت علي، لتمنعهم من الوصول إلى الشاب العليل، أخرج الشمر السوط، وصار يجلدها بكل ما أوتي من عزم وقوة كانت تتلقى الضربات بجسدها لتحمي الجسد النحيل للشاب المريض.

صمت كل من في الخيمة ولم يبق إلّا صوت ارتطام السوط بجسد زينب بنت علي وهي لم تتأوّه أو تئن. لم أستطع أن أنظر أكثر فأغمضت عيني ولم أفتحها إلّا عندما سمعت صوت حميد بن مسلم معترضاً.

توقف الشمر عن جَلد زينب بنت علي وصار يجادل حميد بن مسلم.

دخل عمر بن سعد إلى الخيمة وسأل عن الأمر، فأخبروه بنيّة الشمر.

التفت إليه عمر بن سعد وقال "أما تستحي من الله تريد أن تقتل هذا الغلام المريض؟" ثم نظر إلينا جميعا وقال "لا يتعرض لهذا المريض أحد" وخرج من الخيمة ولحقه الشمر وعساكره وخرجت خلفهم.

رأيت جندياً على فرسه يلحق فتاة، وهي تركض حافية هاربة منه غير مكترثة بالجروح التي سببتها الحجارة الخشنة أسفل قدميها، ضربها بكعب رمحه بين كتفيها فارتمت على وجهها وتدحرجت مسافة لا بأس بها حتّى تمزقت ثيابها وغطتها الأتربة. نزل من على فرسه وسلبها غطاء رأسها ومد يده إلى قرط في أذنها فسحبه وشق أذنها، صرخت الفتاة صراخاً رهيباً من الألم وصارت تبكي والدماء تسيل من أذنها. نهض الجندي وغادر. زينب بنت علي أتت مسرعة تجري إليها، جثت بجانبها تنفض عن ثيابها التراب وتحاول التخفيف عنها، صرخت الطفلة "عمتاه" وضمتها، إنّها بنت الحسين بن علي.

صرخ عمر بن سعد "من ينتدب للحسين فيوطئ الخيل ظهره وصدره؟"

تقدم عشرة على خيولهم، أعرفهم كلهم وهم اسحاق بن حيوة الذي سرق قميص الحسين، وأخنس بن مرث، وحكيم بن الطفيل السنبسي، وعمر بن صبيح الصيداوي، ورجاء بن منقذ العبدي، وسالم بن خثيمة الجعفي، وواحظ بن ناعم، وصالح بن وهب الجعفي، وهانئ بن شبت الحضرمي، وأسيد بن مالك.

شكّلوا صفاً واحداً، وبدؤوا يطؤون صدر الحسين بن علي خيلاً بعد خيل، الخيل التي تطؤه تعود إلى آخر الصف لتطأه مرة أخرى، طحنوا عظامه وصار صدره طرياً، قلَبَه أحد الجنود بكعب رمحه، وصاروا يطؤون ظهره حتّى لم يبق عظمة سليمة في جسده. كانت النساء وخصوصاً زينب بنت علي ينظرن إلى هذا المشهد المروع ويتألمن مع كل خطوة تخطوها حدوة فرس على جسد الحسين بن علي، وكأن حوافر الخيول

تصعد على أجسادهن. عيونهن حمراء كالدم لكثرة البكاء يجبرن أطفالهن على غض النظر بضمهم الى صدورهن جالسات أو أحضانهن واقفات.

الهواء ثقيل مشبع برائحة الدماء التي تفوح من التراب الذي انقلب لونه إلى الأحمر الداكن لكثرة ما امتصّ منها. بدأ العسكر بتجهيز أجساد القتلى للصلاة عليهم ودفنهم، بالطبع من معسكرنا فقط أما قتلى الحسين بن علي، فأمر عمر بن سعد بفصل كافة الرؤوس عن أجسادهم وتنظيفها لإرسالها إلى عبيد الله بن زياد، وكانت اثنان وسبعون رأساً دون رأس الحسين بن علي.

أمر عمر بن سعد بأن تحرق خيام معسكر الحسين بن علي، وسارع الجنود بتنفيذ أوامره غير مكترثين بالنساء والأطفال الذين كانوا يحاولون الاختباء داخلها. تصاعد الدخان وبدأت النيران بالتهام الخيام بشراهة دون رحمة أو رأفة.

أمر عمر بن سعد خولي بن يزيد الأصبحي وحميد بن مسلم الأزدي أن يحملوا رأس الحسين بن علي بلا تأخير أو مماطلة ويتوجهوا إلى الكوفة ويسلّموه إلى عبيد الله بن زياد. ووزع باقي الرؤوس على القبائل للتقرب بها من عبيد الله بن زياد.

أعطى قبيلة بني كندة ورئيسهم قيس بن الأشعث ثلاثة عشر رأساً، وأعطى قبيلة هوزان ورئيسهم الشمر بن ذي الجوشن اثنا عشر رأساً، وأعطى قبيلة بني تميم سبعَة عشر رأساً مع الحصين بن نمير، وأعطى قبيلة بني أسد ستة عشر رأساً مع هلال الأعور، وأعطى قبيلة مذحج سبعَة رؤوس، والباقي فرّقها على باقي القبائل.

كأنّ هذا اليوم لن ينتهي أبداً، زاد على حرارة الشمس الكئيبة في آخر ساعاتها حرارة النار المستعرة بالخيام. كانت حالة الذعر والتشتت التي فيها النساء والأطفال مثيرة للشفقة. النساء في كل مكان يتصارخن ويبكين ويبحثن عن أولادهن، الجنود يجلدوهنّ ويضربوهنّ ليجبروهنّ على التجمع في مكان واحد.

بحثت عن زينب بنت علي بينهنّ لأرى ما الذي تفعله، لم تكن بينهن نظرت حولي فلم أجدها، توجّهت إلى حيث خيام المعسكر المستعرة أو ما تبقى منها.

وجدتها متّشحة بالسواد من رأسها إلى قدميها، تركض ممسكة بيدها اليمنى طفلاً لم يبق في عيونه دمع من شدة عطشه، تجري إلى حيث كان مجموعة من النسوة يجلسن. على ما يبدو تحاول تجميع النسوة والأطفال في مكان واحد، أجلست الطفل وتحدّثت مع إحدى النسوة كلمات ثم عادت إلى الخيام مرة ثانية.

أحسست بالفضول لمعرفة عدد الأطفال، فعددتهم، كانوا ثمانية أطفال جالسين، عودة زينب بنت علي إلى الخيام المشتعلة ينبئ بأن هناك مزيداً من الأطفال ضربت فرسي وعدت ناحية الخيام.

كانت ترخي وجهها إلى الأسفل لتجنّب حرارة وهج النار الحارقة وهي تجري بين الخيام، بيدها اليسرى تسحب طفلة، الطفلة تصرخ وصوت صراخها لا يُسمع لعلو صوت النار المستعرة والتي تلتهم كل من يجرؤ على الاقتراب منها، تحاول جاهدة إيجاد ممر بين النيران لتخرج الطفلة وتوصلها إلى المكان التي جمعت فيه باقي الأطفال.

بمجرد وصولها إلى بقعة تجمع النسوة والأطفال، لاحظَت بأنهن مرتبكات وواقفات ينظرن إلى الحراس، أخبرنها بأصوات هي مزيج من الصراخ والبكاء بأن طفلة جرت مبتعدة ولكن الحراس لم يسمحوا لهن باللحاق بها، أخبرنها بالاتجاه التي ركضت إليه الطفلة.

ربطت زينب بنت علي رداءها وانطلقت راكضة بعد أن حملت جذع شجرة جاف كان ملقى على الأرض بنفس الاتجاه الذي اختفت فيه الطفلة.

تَبعتها دون أن أثير ضجّة، وهي متوجّهة إلى كومة على الأرض أنا ظننتها صخرة كان الإرهاق واضحاً عليها لأنها كانت تجر قدميها الداميتين جراً، وصلت إلى الكومة الصغيرة على الأرض، جثت وضمّت الطفلة التي كانت تبكي بحرقة وضعت يدها على رأس الطفلة، والتي كانت تغطي أذنها اليمنى بكفّها الصغيرة، تلطخت يدها بدماء الطفلة التي تسيل من أذنها، قربّت رأسها لترى مصدر الدماء أخبرتها الطفلة بكلمات مختلطة

بصوت النحيب بأن الحارس سرق القرط الذي في أذنها ولم ينتظر لتفكّه له بل سحبه سحباً ليشق لها طرف أذنها ضمّت الطفلة بشدّة، وكانت دموعها تجري على خدودها.

قامت وعدّلت رداءها الأسود واتّجهت وبيدها الطفلة إلى حيث باقي الأطفال، وصلت وأجلستها وتكلمت كلمات مع باقي النسوة، ثم توجّهت مرة أخرى إلى الخيام لتجمع باقي الأطفال. اشتدّت النيران أكثر حتّى صار المرور بين الخيم المحترقة أكثر صعوبة وأكثر خطورة، لم تكترث لحرارة النيران ولطرف ثوبها الأسود الذي اشتعل أو للدماء التي تسيل من قدميها ممزوجة بتراب الأرض، سحبت طرف ردائها الأسود وأهالت عليه قبضة من التراب حتّى خمدت النيران، وقفت ولفّت الرداء على ذراعها التي تحاول حماية وجهها بها من اللّهب ودخلت بين الخيام المستعرة.

أردت الدخول ولكن وهج النار جعل فرسي تصهل وتبتعد، أمعنت النظر أحاول أن أرى ما تفعله، كلّما غابت عن ناظري تحركت بفرسي علّي ألمحها من بقعة أخرى.

كانت جاثية بجانب طفلة بين الحياة والموت، التقطتها ورفعتها بين يديها مما أدى إلى نزول الرداء الذي يغطي وجهها، رفعت يدها لتقي وجهها حرارة النار وانحنت لتلتقط الرداء وتغطي رأس الطفلة به جرت مبتعدة عن جبل النار الذي كان قبل ساعات خيمة الحسين بن علي.

داست على شيء على الأرض لم أستطع تبيان ما هو من هذه المسافة، عرقلها فوقعت على الأرض وانقذفت الطفلة من بين يديها معفرة بتراب الأرض، قامت وركعت واضعة كفّها على ركبتها وكأنها تتحسس جرحا بها من أثر السقوط.

أحسست بالقلق، أريدها أن تنهض وتحمل الطفلة وتخرج قبل أن تلتهما النيران.

رفعت رأسها إلى السماء ونظرت وكأنها تنظر إلى شيء محدد، حملت الطفلة مرة أخرى واندفعت جارية حتّى خرجت من بين الخيام المستعرة باتجاه الأطفال.

ضربت فرسي ورجعت إلى مكان الأطفال والنسوة.

مددت زينب بنت علي الطفلة على التراب بجانب باقي الأطفال التفّوا حولها، واحد ينفض التراب عن ثيابها المشققة، وأخرى تحاول الكلام معها، وطفلان ضمّاها بشدة، فوالله أنا لمحت أثار ابتسامة حنونة على وجهها على الرغم من كل ما يحدث. التفتت مرة اخرى باتّجاه كومة النار التي تصل ألسنتها إلى عنان السماء لعظمتها، ووقفت وجرت مسرعة باتّجاهها، على ما يبدو هناك أطفال آخرين.

وجَدت على التراب رداء مرمى يبدو أنه كان لاحد الفرسان الذين حضروا معها، رفعت الرداء ولفّت به نفسها، واندفعت بين الخيم المشتعلة، وأنا اراقبها من بعيد.

لمّا طال غيابها شعرت بقلبي تتسارع دقاته، وضربت فرسي متوجهاً إلى كومة النار هل من الممكن بأنّها اشتعلت وماتت؟ أم من الممكن أنّها انهارت من التعب والارهاق؟ صرت أجول بفرسي حول النيران علّي ألمح أثرها أو حتّى أثر جسدها ملقى على الأرض، أمعنت السمع علّي أستطيع التقاط صوت صراخها أو صوت بكائها، ولكن صوت النيران المستعرة ابتلع كل صوت آخر.

اندفعت كتلة من النار من بين الخيام المستعرة إلى الخارج، ورمت الرداء التي التقطته منذ قليل لتغطي به جسدها لتتقي حر النيران وقد كان مشتعلاً، ولكن لم يكن معها أي طفل أو طفلة التفتت إلى حيث توزّعت الأجساد مقطعة على التراب قالت بصوت لا يكاد يسمع "يا علي بن أبي طالب."

صرخة طفل علت، التفتت زينب وانطلقت تجري بالاتجاه الذي صدرت منه الصرخة بسرعة ولهفة.

تبعتها ولم أعد أكترث إن سمعتني أو لاحظتني، أريد أن أعرف ما الذي ستفعله.

طفلان جالسان على التراب يعانقان بعضهما وصوتهما مبحوح لكثرة البكاء والصراخ نهضا كالمجانين عندما رأياها وجريا إليها بسرعة، ارتميا عليها حتّى سقطت على التراب وضمتهما وصارت تقبل رأسيهما ليهدأا. بعد أن هدّأت من روعيهما نهضت وأمسكت بيديهما واتجهوا ناحية باقي الأطفال.

كنت مشغول الفكر كيف ستستطيع زينب بنت علي أن تنقذ من تبقى من الأطفال فحرارة النار بلغت مبلغا تشوي الوجوه من بعد أمتار.

وصلت زينب بنت علي إلى الأطفال المكوّمين على التراب وأجلست الطفلين، وكان مجموعهم اثني عشر طفلا وطفلة جلست بينهم وصارت تتحدث معهم ولم أستطع سماع ما تقوله ولكنني أدركت بأنّها جمعت كل الأطفال.

الشمس غابت وكست الموجودات زرقة داكنة، عمر بن سعد حثّنا على الاستعجال بتغسيل وتكفين ودفن قتلانا، أمضينا قسماً كبيراً من الليل ندفن قتلانا وكل ما نحتاجه من نور، قادم من النار العظيمة التي تلتهم خيام معسكر الحسين بن علي.

عدت إلى المخيم ودخلت الخيمة وخلعت ثياب الحرب وتمددت لأنام، ولكنني لم أستطع أن أغفو فصورة زينب وهي تنقذ الأطفال ظلت عالقة في رأسي، ظللت أتقلّب في فراشي حتّى بزوغ الفجر، قمت وتوجهت إلى الفرات واغتسلت، ثم تسللت بهدوء باتجاه النسوة والأطفال والذين ناموا يفترشون التراب ويلتحفون السماء لأرى ما يفعلون، كانوا جميعا نساء وأطفال منهمكين بالصلاة وقراءة القرآن.

السبي إلى الكوفة

أشرقت شمس اليوم الحادي عشر من محرم، أذّن بالناس حميد بن بكير الأحمري بأمر من عمر بن سعد للاستعداد للرحيل إلى الكوفة. إلى أن صار جيشنا جاهزاً للانطلاق كانت الشمس قد زالت من قمة السماء وانحرفت. أُركبت النساء والأطفال من معسكر الحسين بن علي على جمال نحيلة دون أي محامل أو هوادج أو أي شيء يفصل أجسادهم المرهقة عن أجساد النياق الهزيلة وتم ربط أيديهم وأرجلهم بالحبال والسلاسل. تم وضع السلاسل الجامعة للشاب المريض ابن الحسين بن علي، وهي خمس حلقات تصل فيما بينها سلسلة واحدة، للرأس حلقة ولليدين حلقتين وللرجلتين حلقتين.

تحركت الجمال وأمر عمر بن سعد حادي الجمال بأن يمر بجانب أجساد القتلى قبل أن ينطلقوا إلى الكوفة، وتعالت أصوات النساء والأطفال بالبكاء عندما وقعت أعينهم على أجساد القتلى، ولن أنسى ما حييت ما قالته زينب بنت علي عندما رأت جسد أخيها الحسين بن علي على التراب، "يا محمّداه يا محمّداه صلّى عليك

ملائكة السماء، هذا حسين بالعراء مرمل بالدماء مقطع الأعضاء مقطوع الرأس من القفا، يا محمّداه وبناتك سبايا وذريتك مقتّلة تسفي عليها الصبا" كلامها أبكى كل من سمعها.

طوال الطريق إلى الكوفة كنت أراقب الشمر بن ذي الجوشن ومن معه من الحراس، في أيديهم الرماح والسياط، يضربون بها كل طفل أو امرأة علا صوته بالبكاء أو النحيب، وما أكثر ما بكى الأطفال من العذاب على ظهر هذه الجمال العجف. علي بن الحسين الشاب المريض لم يكن يقدر على تثبيت جسده فوق الناقه لشدة مرضه، ربط الحراس قدميه ببعضهما من تحت بطن الجمل مما أدّى إلى انسلاخ جلد رجليه وسيلان الدماء منهما.

كانت المسافة بين كربلاء والكوفة ما يقارب السبعين كليو مترا وكنا نستطيع الوصول الى الكوفة في الليل من نفس اليوم إذا سرنا بجد، ولكن عمر بن سعد أصرّ على ان نمضي ليلتنا في منطقة تدعى الحنانة وفي الصباح تابعنا المسير حتى وصلنا الى مشارف الكوفة.

توقف الموكب خارج أسوار المدينة المزينة بمئات الرايات ترفرف احتفالاً بقدومنا. الآلاف من الناس رجالاً ونساء وشيوخاً وأطفالاً تجمهروا خارج المدينة وبينهم عدد وافر من العسكر يراقبونهم بعيون كعيون الصقور.

رأيت امرأة من الكوفيات اقتربت من النسوة ونادت "من أي الأسارى أنتم؟"

أجابتها واحدة من النسوة "من أسارى آل محمّد."

غابت المرأة بين الجموع ثم عادت واقتربت من القافلة وبيدها كومة لا بأس بها من الملاء والإزار، وصارت توزعها على الأسيرات ليسترن وجوههنّ بها.

عندما لاحظ علي بن الحسين العليل الناس المتجمهرة ينوحون ويبكون قال بصوت ضعيف "تنوحون وتبكون لأجلنا، فمن الذي قتلنا؟"

خطبة السيدة زينب بنت علي على أبواب الكوفة

أشارت زينب بنت علي بيدها، فارتدّت الأنفاس وسكنت الأجراس وكسا الصمت المئات من الرجال والنساء يستمعون لما ستقوله لهم والله تذكّرت بلاغة وفصاحة أبيها علي بن أبي طالب وهي تتكلم.

"الحمد لله والصلاة والسلام على أبي، محمّد وآله الطيبين الأخيار، أمّا بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر والخذل أتبكون؟ ألا فلا رقأت العبرة، ولا هدأت الزفرة، إنّما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم، ألا وهل فيكم إلاّ الصلف النطف، والصدر الشنف، والكذب، وملق الإماء، وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة، أو كفضّة على ملحودة، ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون."

كان كل من وقف يستمع يبكي حتّى أنا عيوني بدأت تذرف الدموع من كلامها، مع شدّة تعجّبي من بلاغتها وهي على هذه الحال.

تابعت "أتبكون وتنتحبون؟ إي والله فابكوا فإنكم أحرياء بالبكاء، فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا، فلقد ذهبتم بعارها، ومنيتم بشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوّة، ومعدن الرسالة، وسيّد شباب أهل الجنة، وملاذ حربكم، ومعاذ حزبكم، ومقر سلمكم، وأسى كلمكم، ومفزع نازلتكم، والمرجع إليه عند مقاتلتكم، ومدرة حججكم، ومنار محجتكم، ألا ساء ما قدمتم لأنفسكم وساء ما تزرون ليوم بعثكم.

«فتعسا تعسا، ونكسا نكسا، لقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة. أتدرون ويلكم أي كبد لمحمّد فرثتم، وأي عهد نكثتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي حرمة له هتكتم، وأي دم له سفكتم، - لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا -تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا - خرقاء، شوهاء، كطلاع الأرض، وملاء السماء، فأعجبتم أن مطرت

السماء دما؟ ولعذاب الآخرة أشد وأخزى وأنتم لا تنصرون، فلا يستخفنكم المهل فانه عز وجل لا يحفزه البدار ولا يخاف فوت الثار، كلا إن ربكم لبالمرصاد فترقبوا أول النحل وآخر صاد.»

قال علي بن الحسين بصوت ضعيف "يا عمة اسكتي ففي الباقي عن الماضي اعتبار، وأنت بحمد الله تعالى عالمة غير معلمة فهمة غير مفهمة، إن البكاء والحزن لا يردان من قد أباده الدهر."

الناس من حولي، الرجال يبكون حيارى كالسكارى واضعين أيديهم في أفواههم، والنساء على التراب يضربن وجوههن وينثرن التراب على شعورهن، كان هناك شيخ قريب منّي قد ابتلّت لحيته من كثرة بكائه سمعته يقول "صدقتِ بأبي وأمي كهولكم خير الكهول، وشبّانكم خير الشبان، ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل."

بقينا في هذه البقعة خارج أسوار الكوفة بانتظار أوامر عبيد الله بن زياد للدخول. حرارة الشمس تصهر الرؤوس، وكل دقيقة تحت أشعتها تمضي ببطء شديد وكأنها ساعات، الناس من حولنا لا يزالون يبكون وينوحون وقد ازدادت أعدادهم أضعافاً مضاعفة، وخصوصاً بعد أن انتشر خبر وصولنا في كافة أحياء الكوفة.

خطبة علي بن الحسين السجاد على أبواب الكوفة

أومأ علي بن الحسين إلى الناس ليسكتوا فسكتوا وعلى الرغم من مرضه وضعفه استطاع الكلام وإيصال صوته إلى كافة الموجودين نساء ورجالا:

"أيّها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين المذبوح بشط الفرات من غير ذَحل ولا تِرات، أنا ابن من انتهك حريمه، وسلب نعيمه، وانتهب ماله، وسبي عياله، أنا ابن من قُتل صبراً فكفى بذلك فخراً أيّها الناس ناشدتكم بالله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقاتلتموه وخذلتموه، فتبّاً لكم ما قدمتم لأنفسكم وسوءة لرأيكم، بأيّة عين تنظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول لكم قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي فلستم من أمتي."

صرخ رجل بالناس المتجمهرة "هلكتم وما تعلمون" فزاد بكاء الرجال ولطم النساء وجوههن.

قال علي بن الحسين "رحم الله امرؤ قبل نصيحتي وحفظ وصيتي في الله وفي رسوله وفي أهل بيته، فإن لنا في رسول الله أسوة حسنة"

قالت جماعة منهم "نحن كلنا يابن رسول الله سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك فمرنا بأمرك رحمك الله فإنّا حرب لحربك وسلم لسلمك، فنأخذن ترتك ممن ظلمك وظلمنا."

أجاب علي بن الحسين "هيهات هيهات، أيها الغدرة المكرة، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إلي كما أتيتم إلى آبائي من قبل، كلاّ ورب الراقصات فإن الجرح لما يندمل من قتل أبي بالأمس وأهل بيته معه، فلم ينسني ثكل رسول الله صلى الله عليه و اله وسلم وثكل أبي وبني أبي وجدّي شق لهازمي ومرارته بين حناجري وحلقي وغصصه تجري في فراش صدري، ومسألتي ألا تكونوا لنا ولا علينا."

خطبة السيدة فاطمة بنت الحسين بن علي على أبواب الكوفة

وبعده قامت فاطمة بنت الحسين، وخطبت بالناس قائلة "الحمد لله عدد الرمل والحصى، وزنة العرش إلى الثرى، أحمده وأؤمن به وأتوكّل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله وأنّ أولاده ذبحوا بشطّ الفرات من غير ذحل ولا ترات، اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن أفتري عليك الكذب وأن أقول خلاف ما أنزلت عليه من أخذ العهود لوصيّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام المسلوب حقّه، المقتول من غير ذنب، كما قتل ولده بالأمس، في بيت من بيوت الله تعالى وبها معشر مسلمة بألسنتهم، تعساً لرؤوسهم ما رفعت عنه ضيماً في حياته، ولا عند مماته، حتّى قبضته إليك، محمود النقيبة، طيب العريكة، معروف المناقب، مشهور المذاهب، لم تأخذه فيك لومة لائم ولا عذل عاذل، هديته يا ربّ للإسلام صغيراً، وحمدت مناقبه كبيراً، ولم يزل ناصحاً لك ولرسولك صلواتك عليه وآله حتّى قبضته إليك زاهداً في الدّنيا، غير حريص عليها، راغباً في الآخرة، مجاهداً لك في سبيلك، رضيته فاخترته وهديته إلى طريق مستقيم.

أمّا بعد: يا أهل الكوفة، يا أهل المكر والغدر والخيلاء، إنّا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا، فجعل بلاءنا حسناً وجعل علمه عندنا، وفهمه لدينا، فنحن عيبة علمه، ووعاء فهمه وحكمته، وحجّته في الأرض في بلاده لعباده، أكرمنا الله بكرامته، وفضّلنا بنبيّه محمّد صلى الله عليه و اله وسلم على كثير من خلقه تفضيلا بيّنا، فكذّبتمونا وكفّرتمونا، ورأيتم قتالنا حلالاً، وأموالنا نهباً، كأنّا أولاد الترك أو كابل كما قتلتم جدّنا بالأمس، وسيوفكم تقطر من دمائنا أهل البيت لحقد متقدّم، قرّت بذلك عيونكم، وفرحت قلوبكم اجتراءً منكم على الله، ومكراً مكرتم والله خير الماكرين، فلا تدعوكم أنفسكم إلى الجذل بما أصبتم من دمائنا، ونالت أيديكم من أموالنا، فإنّ ما أصابنا من المصائب الجليلة، والرزايا العظيمة - فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ -

تباً لكم فانتظروا اللّعنة والعذاب فكأن قد حلّ بكم، وتواترت من السماء نقمات فتسحتكم بما كسبتم، ويذيق بعضكم بأس بعض، ثمّ تخلدون في العذاب الأليم يوم القيامة بما ظلمتمونا، ألا لعنة الله على الظالمين.

ويلكم أتدرون أيّة يد طعنتنا منكم؟ أو أيّة نفس نزعت إلى قتالنا؟ أم بأيّة رجلٍ مشيتم إلينا تبغون محاربتنا؟ والله قست قلوبكم، وغلظت أكبادكم، وطبع على أفئدتكم، وختم على سمعكم وبصركم، وسوّل لكم الشيطان وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة، فأنتم لا تهتدون. تباً لكم يا أهل الكوفة كم ترات لرسول الله صلى الله عليه واله وسلم قِبَلكم، وذحول له لديكم؟ ثم غدرتم بأخيه علي بن أبي طالب عليه السلام جدّي، وبنيه عترة النّبي الطيبين الأخيار، وافتخر بذلك مفتخر من الظالمين فقال:

نحن قتلنا عليّاً وبني عليّ

بسيوف هنديّة ورمـاح

وسبينا نساءهم سبي ترك

ونطحناهـم فـأيّ نطـاح

بفيك أيّها القائل الكثكث، ولك الأثلب، افتخرت بقتل قوم زكّاهم الله وطهّرهم وأذهب عنهم الرّجس، فاكظم وأقع كما أقعى أبوك، وإنّما لكل امرئ ما كسبت وما قدّمت يداه، حسدتمونا ويلاً لكم على ما فضّلنا الله عليكم.

فما ذنبنا إن جاش دهراً بحورنا

وبحرك ساج لا يواري الدعامصا

- ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ - وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ -

صرخ رجل من الواقفين وهو يبكي "حسبك يا ابنة الطيبين فقد أحرقت قلوبنا وأنضجت نحورنا وأضرمت أجوافنا."

كنت مذهولاً من حسن خطاب هذه الفتاة رغم ما بها من آلام السبي.

علا صوت الأبواق فعلمنا بان أمر عبيد الله بن زياد قد جاء للدخول الى الكوفة.

الدخول إلى الكوفة

قبل الدخول من بوابة الكوفة جيء برأس الحسين بن علي على رمح طويل، خلفه باقي الرؤوس كل رأس يعلو رمحاً، وصار حاملوها يمشون في مقدمة موكب الجمال، عندما وقعت عيون النساء والأطفال على الرؤوس لم يتمالكون أنفسهم فضجّوا بالبكاء والعويل، وصار الشمر يضربهم بالسوط لإسكاتهم.

أذن عبيد الله بن زياد للناس إذنا عاماً ليأتوا ويتفرجوا على النساء والأطفال السبايا. كانت أوامره باستنفار آلاف العساكر داخل المدينة ومنع أي شخص من أن يحمل سيفاً او أي نوع من السلاح، تفاديا لأي تصرف نابع عن غيرة او حمية من أي شخص في حال رأى الحالة التي عليها النسوة من الأسر والسبي. كانت الأسواق مغلقة بأمر من الأمير، والشوارع مزينة بزينة العيد، وطبالو القصر يطبلون ويتغنون انتصار الخليفة على خصومه.

مضت ساعات ونحن نسير ببطء شديد في سكك الكوفة تحت أشعة الشمس الحارقة، الرؤوس بالمقدمة والنساء على المطايا خلفهم. أنا وحدي شربت من الماء الكم الكثير وكنت مندهشاً من قدرة هؤلاء النسوة على البقاء على قيد الحياة بدون ماء في هذا الجو الحارق.

عندما وصلنا الى قصر الإمارة في الكوفة جاءت القبائل وأخذت أسراها من النسوة، ولم يبق معنا إلا عشرون امرأة واثنا عشر طفلاً وطفلة من آل بيت الحسين بن علي. كانت أوامر عبيد الله بن زياد بأن تظل الرؤوس على الرماح على باب القصر لينظر لها عامة الناس، وأن ندخل فقط رأس الحسين بن علي، والسبايا من النساء والاطفال.

بذلت مجهوداً كبيراً للوصول الى المجلس وكان الناس على طرفي المجلس يتزاحمون ويتسابقون ليكونوا أقرب من الأمير عبيد الله بن زياد، ورأس الحسين بن علي على طبق بين يديه. بحثت بعيني عن النسوة الأسرى فوجدت زينب بنت علي نأت بنفسها مع باقي النسوة والأطفال إلى الطرف البعيد من المجلس وجلسوا جميعهم حولها وكانت ثيابهم رثة مغبرّة.

ظللت واقفاً في منتصف المسافة بين مكان جلوس عبيد الله بن زياد، ومكان جلوس زينب بنت علي وحولها إماؤها وباقي النسوة، لأستطيع أن أرى وأسمع كلّ ما يجري، فالجمع غفير، والحدث فريد، والله أعلم كم من مفاجئات يحمل لنا هذا اليوم.

عبيد الله بن زياد كان يبتسم، وبيده قضيب يضرب به شفتي الحسين بن علي بكل ما أوتي من عزم وقوة حتّى تكسّرت الأسنان داخل الفم، أدرت رأسي لأنظر إلى زينب بنت علي والنساء لأرى ما ردود أفعالهن على تصرف عبيد الله بن زياد، وكان كما توقّعت، عيونهم تبرق من الدموع حزناً.

علا صوت عبيد الله بن زياد "إنّه كان حسن الثغر."

أنس بن مالك رجل طاعن في السن ممن عاش في أيام رسول الله وصاحبه، كان جالسا ينظر لما يفعله عبيد الله بن زياد وقال بصوت حزين له "أما والله لاسوأنك، لقد رأيت رسول الله يقبل موضع قضيبك من فمه."

زيد بن أرقم رجل عجوز ممن عاش مع رسول الله وصاحبه، كان أيضا من الجالسين يرى ما يحدث، قام وقال غاضبا "اعل بهذا القضيب عن هاتين الشفتين، فوالذي لا إله غيره إنّي رأيت رسول الله واضعا شفتيه على هاتين الشفتين يقبلهما" وصار يبكي بصوت عال.

قال عبيد الله بن زياد له "أبكى الله عينيك، يا عدوّ الله، لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك."

قال زيد بن أرقم وهو يبكي "لأحدثنّك حديثا هو أغلظ عليك من هذا، رأيت رسول الله أقعد حسناً على فخذه اليمنى وحسيناً على فخذه اليسرى، فوضع يده على يافوخ كل واحد منهما وقال اللّهم إنّي أستودعك إياهما وصالح المؤمنين. فكيف كان وديعتك لرسول الله يابن زياد؟"

أمر عبيد الله بن زياد حرّاسه بأن يطردوه فرفع صوته بالبكاء وخرج وهو يقول "ملك عبدٌ حرّاً، أنتم يا معشر العرب عبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم ابن مرجانه حتّى يقتل خياركم ويستعبد أحراركم، رضيتم بالذل فبعدا لمن رضى."

قال عبيد الله بن زياد يشير الى زينب بنت علي "من الجالسة؟" فالتفتنا جميعنا إليه بعدما كنا مشغولين بسماع زيد بن أرقم، لم يجبه أحد فأعادها ثانية "من الجالسة؟" ولكنه لم يتلق أي رد من زينب بنت علي أو أي من النسوة معها.

قال أحد الرجال من حوله "انها زينب بنت عليّ بن أبي طالب."

نهض عبيد الله واقترب من مكان جلوسها في آخر المجلس مع باقي النسوة والأطفال، وعيوننا شاخصة عليه، وآذاننا واسعة لسماع ما يقول.

نظر إلى حيث النسوة ووجّه كلامه لزينب بنت علي "الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم."

رفعت زينب بنت علي رأسها ونظرت إليه وقالت بصوت حاد ولم تبال بجبروته وكثرة مرافقيه وعبيده: "الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه و اله وسلم وطهرنا من الرجس تطهيرا، إنما يُفتضح الفاسق، ويُكذّب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله."

قال عبيد الله بن زياد "كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟"

أجابت زينب بنت علي، "ما رأيت إلّا جميلا، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاجّ وتُخاصَم، فانظر لمن يكون الفلج يومئذ ثكلتك أمّك يا بن مرجانه."

غضب عبيد الله بن زياد، ورمى بالقضيب من يده بكل ما أوتي من قوة، فابتعد بعض المتجمّعين تفاديا للقضيب.

رأيت على وجه زينب بنت علي الرضا والاطمئنان وكأن القلق لم يعرف سبيلاً الى قلبها.

قال له عمرو بن حريث "أيّها الأمير، إنّها امرأة، والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها ولا تذمّ على خطابها."

قال عبيد الله بن زياد موجها كلامه لزينب بنت علي، "قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة من أهل بيتك."

قالت زينب بنت علي بصوت حزين "لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فان يشفك هذا فقد اشتفيت." وكسى وجهها الحزن.

قال عبيد الله بن زياد ناظراً الى الواقفين "هذه سجّاعة ولعمري لقد كان أبوها سجّاعاً شاعراً." عادت بي الذكرى إلى الماضي عندما كنا نصلّي خلف أبوها علي بن أبي طالب في مسجد الكوفة ونحضر خطبه وقد سحرنا بيانه وخطفتنا بلاغته.

أجابت زينب بنت علي، "ما للمرأة وللسجاعة، إن لي عن السجاعة لشغلاً، ولكن صدري نفث بما قلت."

التقتنا الى ناحية علي بن الحسين عندما قال لعبيد الله بن زياد بصوت غاضب "إلى كم تهتك عمتي بين من يعرفها ومن لا يعرفها؟ قطع الله يديك ورجليك."

"ومن أنت؟" سأل عبيد الله بن زياد.

"أنا علي بن الحسين."

سأل عبيد الله بن زياد "أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟"

أجاب علي بن الحسين "قد كان لي أخ اسمه علي قتله النّاس."

قال عبيد الله بن زياد "بل الله قتله."

أجابه علي بن الحسين بآية من القرآن فأغضبه -اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا-

صرخ عبيد الله بن زياد غاضبا، "وبك جرأة على جوابي؟ وفيك بقية للردّ علي؟" التفت إلى الحراس وصرخ بهم "اذهبوا به فاضربوا عنقه."

أذهلتني زينب بنت علي عندما تعلّقت بابن أخيها علي بن الحسين وبدا عليها حرصٌ غريب على بقائه سالماً، قالت لعبيد الله بن زياد، "يابن زياد حسبك من دمائنا" ثم اقتربت أكثر من ابن اخيها وقالت "والله لا أفارقه، فإن قتلته فاقتلني معه."

قال علي بن الحسين موجها كلامه لابن زياد "أبالقتل تهددني يابن زياد؟ أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة."

كنت أنظر إلى الحرّاس، ينتظرون أوامر عبيد الله بن زياد، وأترقّب ما ستكون أوامره هل من الممكن أن يأمر الحراس بقتل علي بن الحسين وعمته زينب بنت علي معا؟

قال عبيد الله بن زياد "عجبا للرحم، والله إنّي لأظنها ودّت إنّي قتلتها معه، دعوه فإني أراه لما به مشغول."

أمر عبيد الله بن زياد الحراس أن يضعوا النّساء والأطفال في دار في جنب المسجد المعظم.

ثم كتب كتابا إلى يزيد بن معاوية في الشام يعلمه بقتلنا الحسين بن علي وسبينا لعياله. وكتب أيضاً كتابا إلى عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يخبره بذلك.

وأمر الطبّالين التوجّه إلى سكك الكوفة وإخبار الناس بالحضور للمسجد المعظم في الحال ثم طلب من الجالسين في مجلسه بالتوجه إلى المسجد.

توجّهت إلى المسجد وجلست بمكان قريب من المنبر لأسمع ما سيقوله عبيد الله بن زياد بوضوح.

عبد اللّه بن عفيف الأزدي

بدأت الجموع بالحضور حتّى صار المسجد مكتظّا، وللناس فيه هدير عالٍ. دخل رئيس الشرطة وأشار للجميع بالسكوت فسكتنا. ودخل عبيد الله بن زياد وعلى رأسه عمامة فيها زمردة ضخمة، وعلى كتفيه عباءة من المخمل الأحمر القاني أطرافها مطرزة بخيوط الذهب.

صعد المنبر وبدأ بالحديث وتمجيد يزيد بن معاوية وعندما قال "الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين وأشياعه وقتل الكذّاب ابن الكذّاب وشيعته."

نهض عبد الله بن عفيف الأزدي وقد كان كفيفاً خسر عينه اليسرى في معركة الجمل مع علي بن أبي طالب، وخسر عينه اليمنى في معركة صفين مع علي بن أبي طالب، وأكثر ما أعرف عنه بأنّه يمضي لياليه في المسجد يعبد ويتهجد، وولاؤه الشديد لعلي ابن أبي طالب، قال بصوت عالٍ بلا خوف أو تردد متحدياً عبيد الله بن زياد، "يابن مرجانه، رضّ الله فاك ولعن جدك وأباك، وعذّبك وأخزاك وجعل النار مثواك، إنّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه، يا عدوّ الله، أتقتلون أولاد النبيين وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين ما كفاك قتل الإمام الحسين بن علي عن سبّهم على المنابر؟ ولقد سمعت رسول الله قال: من سبّ علياً فقد سبني، ومن سبني فقد سبّ الله ومن سبّ الله أكبّه على منخريه في النّار يوم القيامة، أتسب علياً وأولاده؟"

كان وجه عبيد الله بن زياد أحمر من شدّة الغضب، التفت إلى رئيس شرطته وهو يشير بإصبعه إلى الرجل الأعمى، وقال "من هذا المتكلم؟"

قال عبد الله بن عفيف الأزدي "أنا المتكلم يا عدوّ الله."

حدثت نفسي يا إلهي كم هو جسور هذا الاعمى، أحسست بأن دقات قلبي تسارعت في صدري بالتأكيد سيقتله عبيد الله شر قتله في نفس هذا المكان.

تابع عبد الله بن عفيف الأزدي "أتقتل الذرية الطّاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس وتزعم أنّك على دين الإسلام، واغوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار لا ينتقمون من طاغيتك اللعين بن اللعين على لسان محمّد رسول رب العالمين."

نظرتُ إلى عبيد الله بن زياد، عروق رقبته ستنفجر من الغضب، وصرخ "عليّ به" وفي لحظات عشرات الحراس اتّجهوا إلى مكان جلوسه ليسحبوه ولكن عبد الله بن عفيف الأزدي صرخ شعار قومه الأزد "يامبرور."

عشرات بل مئات الرجال من الأزد قاموا فجمد الحراس في أرضهم، ثم الأزديين حملوا عبد الله بن عفيف الأزدي وخرجوا من المسجد.

بالقرب مني كان عبد الرحمن بن مخنف الأزدي واقفاً قال بصوت خافت "ويح نفسك يا عبد الله أهلكتها وأهلكت قومك."

نظرت إلى المنبر وقد كان خالياً والناس تخرج من المسجد، سارعت للخروج ودخول القصر لأرى ما الذي سيحدث.

داخل القصر كان عبيد الله بن زياد يقول للجالسين في مجلسه وهو يسير غاضباً جيئة وذهاباً شابكاً كفّيه خلف ظهره "أرأيتم ما صنع هؤلاء القوم؟"

قال رجل طاعن في السن "رأينا أصلح الله الأمير، إنما فعل ذلك الأزد، فشد يدك بساداتهم فهم الذين استنفذوه من يدك."

كنت واقفاً مع الجميع لا نجرؤ على الجلوس، وعبيد الله يجول دون توقّف، أحرّك عيني يميناً ويساراً أينما تحرك.

التفت عبيد الله بن زياد إلى رئيس الشرطة وعدّد له أسماء رؤساء الأزد، وأمره بإحضارهم على الفور.

خرج رجال الشرطة وعندها جلس عبيد الله بن زياد على عرشه وجلس بعده الحاضرون، عندما جلس الجميع جلست، واستمعت إلى أحاديث الحاضرين وامتداحهم لإنجازات عبيد الله بن زياد في كربلاء.

ماهي إلا ساعة حتّى أُدخل إلينا جماعة من رؤساء الأزد لا أعرف منهم سوى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي. أمرهم عبيد الله بن زياد أن يسلّموه عبد الله بن عفيف الأزدي فأبوا، أمر بسجنهم ثم أشار إلى رئيس الشرطة وهمس في أذنه كلمات غاب رئيس الشرطة ساعة ثم عاد ومعه عمرو بن الحجّاج الزبيدي، وشبث بن ربعي.

قال عبيد الله بن زياد "اذهبوا إلى هذا الأعمى الذي أعمى الله قلبه كما أعمى عينيه فأتوني به" ثم التفت إلى رئيس الشرطة، وقال "أرسل معهم خمسمئة فارس."

ظللت جالساً ممتعاً أذني بكلام من في المجلس، وعيني بالنّظر إلى الجاريات ممشوقات القوام يخدمنَ الضيوف، ولساني بالشراب البارد في هذا الصيف الحارق، بدأت الشمس بالمغيب وأُدخلت القناديل الزجاجية اللامعة بأعداد كبيرة. آه، كم هو ساحر هذا المكان، خيالاتنا تتراقص خلفنا، وخيالات شعل القناديل تتراقص داخل مقل عيوننا كنت أحدق بشعلة قنديل قريب منّي، وأحسست باختفاء كل ما حولي إلا شعلته، وكأنّها تحدّث روحي، لا أدري لماذا تخيّلت الشعلة تحوّلت إلى صورة زينب بنت علي، أيقظني من خيالاتي دخول واحد من الجنود الذين ذهبوا لجلب عبد الله بن عفيف الأزدي.

الجندي أخبر عبيد الله بن زياد بأن قبيلة الأزد تحمي منزل عبد الله بن عفيف الأزدي وانضم لها مئات من الفرسان من قبائل من اليمن. أمر عبيد الله بن زياد رئيس الشرطة بإرسال مقاتلين من قبائل مُضر لينضمّوا إلى الخمسمئة فارس ليعتقلوا عبد الله بن عفيف الأزدي، وأرسل رسالة مع شابا يؤنب فيها شبث بن ربعي ويضعّفه لأنه طلب منه المدد، وبعد ساعة عاد الشاب وقد قال له شبث بن ربعي بأن يقول للأمير عبيد الله بن زياد "أيّها الأمير إنّك بعثتنا إلى أسود الآجام فلا تعجل" عندها نظر عبيد الله بن زياد إلينا وطلب منّا الذهاب والانضمام إلى القتال وعدم الرجوع دون عبد الله بن عفيف الأزدي.

عندما وصلت أدركت بأنّي وصلت إلى أرض معركة، بسبب عدد القتلى الكبير المطروحين أرضاً. وفي تلك الأثناء كسروا باب بيت عبد الله بن عفيف ودخلوا، سارعت إلى الانضمام إليهم داخل المنزل، كانت له ابنة واقفة خلف الباب، قالت لأبيها "أتاك القوم من حيث تحذر."

قال لها عبد الله بن عفيف الأزدي "لا عليكِ، قولي لي القوم عن يمينك وشمالك وخلفك وأمامك."

وصار يقاتل وهو يرتجز:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطّاهر

عفيف شيخي وابن أمّ عامر

كم دارع من جمعكم وحاسر

وبطـل جدّلتـــه مغاور

سمعت ابنته ترشد أباها الأعمى من أين يأتيه المقاتلون.

"جاؤوك يا أبتِ من اليمنى."

"جاؤوك يا أبتِ من ناحية التنور."

"جاؤوك يا أبتِ من الأمام."

لم أشارك في القتال فهذا الأعمى لن يصمد طويلا خصوصاً بعد أن قُتل كل من كان معه. نظرت إليه يحاول جاهدا صدّ ضرباتهم، أدركت بأنّه لن يستطع النجاة وكأن ابنته سمعت ما كنت أفكّر به، سمعتها تقول لأبيها "ليتني كنت رجلاً فأقاتل بين يديك هؤلاء الفجرة، قاتلي العترة البررة" كلامها جعلني أفكّر، هل أنا من الفجرة التي تكلّمَت عنهم؟

صراخها أعادني إلى أرض الواقع عندما هجموا على أبيها وثبتوه أرضاً "واذلّاه، يُحاطُ بأبي، وليس له ناصر يستعين به."

والله لو يكشف لي عن بصري

ضاق عليكم موردي ومصدري .

هجم عليهم من الخلف رجل كبير في السن وهو يقول "إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أخذوا والله عبد الله بن عفيف، فقبح الله العيش بعده." وصار يقاتل، وعندما أمعنت النظر، أدركت أنّه جندب بن عبد الله، وهو أزدي أيضا، وما أعرفه عنه أنه من أصحاب رسول الله.

خرجت من المنزل غير آبه بما يفعلوه بجندب بن عبد الله، لأنّنا أمسكنا عبد الله بن عفيف الأزدي، وتوجهنا عائدين به إلى القصر، وكل الطريق عبد الله بن عفيف الأزدي يقول:

»و الله لو يكشف لي عن بصري

ضاق عليكم موردي ومصدري «.

أدخلناه إلى القصر يداه مربوطتان خلفه، وجروحه تشخب دما، ابتعد الخواص لكيلا تتلوّث ثيابهم.

عبيد الله بن زياد قال عندما رآه "الحمد لله الذي أعمى عينيك وأخزاك."

قال عبد الله بن عفيف الأزدي "الحمد لله الذي أعمى قلبك وفتح عينيك، يا عدوّ الله، بماذا أخزاني، والله لو يكشف لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري."

عبيد الله بن زياد سأله سؤال أدهشنا كلّنا "ما تقول في عثمان؟"

أجابه عبد الله بن عفيف الأزدي "يابن مرجانه، يابن سمية، يا عبد بني علاج، ما أنت وعثمان؟ أحسن أم أساء، وأصلح ام أفسد. الله وليّ خلقه يقضي بينهم بالعدل والحق، ولكن سلني عنك وعن أبيك، وعن يزيد وأبيه."

قال عبيد الله بن زياد "والله لا سألتك عن شيء أو تذوق الموت غصّة."

قال عبد الله بن عفيف الأزدي "الحمد لله رب العالمين، كنت أسأل الله أن يرزقني الشهادة قبل أن تلدك أمّك مرجانه، وسألت الله أن يجعل الشهادة على يدي ألعن خلقه وأشرهم وأبغضهم إليه، ولمّا ذهب بصري آيست من الشهادة، أمّا الآن فالحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها، وعرّفني الاستجابة منه لي في قديم دعائي."

أمر عبيد الله بن زياد الحراس بضرب عنق عبد الله بن عفيف الأزدي وصلبه في السبخة.

ثم أدخل الحراس جندب بن عبد الله وقد كانت جروحه أسوأ حالا من جروح عبد الله بن عفيف.

نظرنا كلنا إلى جندب بن عبد الله عندما قال له عبيد الله بن زياد "ياعدوّ الله ألست صاحب علي بن أبي طالب يوم صفين؟"

قال جندب بن عبد الله وهو ينظر متحدياً لعبيد الله بن زياد "نعم، ولا زلت له وليّا ولكم عدوّا، لا أبرأ من ذلك إليك ولا أعتذر في ذلك وأتنصل منه بين يديك."

قال عبيد الله بن زياد "أما أني سأتقرّب إلى الله بدمك."

قال جندب بن عبد الله "والله، ما يقربك دمي إلى الله، ولكنه يباعدك منه، وبعد، فإني لم يبق من عمري إلاّ أقلّه وما أكره أن يكرمني الله بهوانك."

أدهشني ما فعله عبيد الله بن زياد عندما لم يأمر بقتله بل قال للحراس "أخرجوه عني، فإنّه شيخ قد خرف وذهب عقله."

زوجة خولي الأصبحي

عدت بعد هذا اليوم الطويل إلى المنزل، كان الليل في منتصفه، ووجدت زوجتي لا تزال مستيقظة، كعادتها تريد أن تسمع مني ما حدث، وكانت أيضا متحمسة لتخبرني عما جرى مع جارتنا النوار زوجة خولي الأصبحي، كعادتها لا تستطيع النوم إن لم تستغب كل نساء الحي.

قالت لي "نوار زوجة خولي، أتعرفها؟"

بالطبع أعرفها ولكني إن قلت لها أعرفها ستبقيني مستيقظاً طوال الليل تحقق معي من أين لي بمعرفتها "لا لا أعرفها ومن هي وما بها؟"

قالت مبتسمة وكأنها أحسّت بالسرور لأنّي لا أعرفها "نوار المضرية زوجة خولي الأصبحي من فرسان الأمير عبيد الله بن زياد."

قلت لها ضجراً "أعلم من يكون خولي الأصبحي، كنا معا في المعركة."

أكملت وكأنها لم تسمعني " نوار المضرية غادرت زوجها خولي، وأقسمت بأن لا تنام على فراشه ابدا."

قلت لها حذراً لعلمي بمكرها " ما الجرم الذي اقترفه خولي لتعاقبه تلك العقوبة القاسية؟"

قالت "خولي في الأمس ليلا، أحضر رأس الحسين بن علي إلى منزله، لأنه وصل وكان باب القصر مقفلا، ولهذا السبب هجرته وأقسمت بعدم العودة له."

أخرجت نفساً من أعماقي وقلت لها "وما شأني بهذا الامر إن هجرت النوار خولي أم لم تهجره، قومي واجلبي العشاء أريد أن آكل قبل أن أنام."

مضت أيام أحاول استطلاع أمر زينب بنت علي والنساء السبايا والشاب المريض علي بن الحسين معهم، وكل ما استطعت معرفته أنهم محبوسون لأن عبيد الله منتظرٌ الخبر من يزيد بن معاوية من الشام بما يفعل بهم.

في الطريق إلى الشام

وصل أمر يزيد بن معاوية من الشام إلى عبيد الله بن زياد بأن أرسل السبايا والرؤوس إلينا. جهّز عبيد الله بن زياد قافلة من ألف وخمسمئة فارس وأنا كنت أحدهم. من فرسان القصر أرسل زجر بن قيس، وجعله المسؤول عن تسليم رأس الحسين بن علي ليزيد بن معاوية، وخولي الأصبحي، وشمر بن ذي الجوشن، وبردة بن عوف الأزدي، وطارق بن أبي ظبيان، وشبث بن ربعي، وعمرو بن الحجاج. جعل المسؤول عن باقي الرؤوس محفر بن ثعلبة العائذي.

كان هناك طريقان من الكوفة الى الشام، هما الطريق السلطاني وهو الطريق الطويل وطريق عرب عقيل وهو الطريق القصير والسريع، وعبيد الله بن زياد أمرنا بأن نسير إلى الشام مع السبايا من أهل بيت الحسين بن علي سالكين الطريق الطويل وأن نشهّر بهم في البلدان. وكما قدمنا من كربلاء إلى الكوفة، ربطنا أيدي النساء والأطفال بالسلاسل والحبال، ووضعنا القيود المعدنية الجامعة في رقبة علي بن الحسين ويديه ورجليه.

بدأ الموكب يسير شرقاً وقطعنا أكثر من سبعة فراسخ بقليل حتى وصلنا إلى القادسيّة وكانت أول محطة لنا، ومنها إلى شرقي الجصاصة، ثم انحرفت جهة مسيرنا شمالا متجهين إلى مدينة تكريت.

كما فعل عندما خرجنا من كربلاء وقف الشمر ومن معه حول الجمال العجفاء يضربون بالرماح او يجلدون بالسياط كل طفل يجرؤ على البكاء والعويل من شدة التعب والإرهاق. كان المشهد مثيراً للشفقة فإلى الآن قطعنا مساحات شاسعة تزيد عن الخمس وسبعين فرسخاً ونحن الرجال الأقوياء فوق سرج الخيول المريحة مع ما نريد من ماء وطعام في أي وقت، نشعر بالإعياء والإرهاق الشديد وأخذ التعب منا كل مأخذ. على مقربة من تكريت كتب خولي إلى عاملها ليتلقانا بالزاد والعلوفة فإنّ معنا رأس الحسين بن علي.

استقبلنا والي تكريت خارجها، وأخبرنا بأنّ المدينة مزيّنة بالأعلام، وأخبر كل من الشمر وخولي بأنّه قال لأهل المدينة بأنّ الرأس هو رأس خارجيّ خرج على يزيد بن معاوية، وقتله عبيد الله بن زياد وأنفذ برأسه إلى يزيد بن معاوية. وبينما نحن نسير في طريقنا إلى المدينة، إذ سمعنا نواقيس الكنيسة تطرق وما هو بوقت نواقيس. تحرّكنا لنرى ما الخبر، فوجدنا مجموعة من الرهبان اجتمعوا في ضيعة تسمى الخضراء وفي أيديهم النواقيس والصلبان، متوجهين إلى السماء ويرددون، إلهنا في السماء إنّا براء من أمّة قتلت ابن بنت نبيّها عطشان وأهله وصحبه وشيعته. أكملنا طريقنا في البرّ دون دخول المدينة خوفا من انقلاب الناس علينا ثم وصلنا إلى الأعمى وبعدها دير عروه وبعدها صليتا ثم وصلنا الى وادي النخلة وبتنا هناك إلى الصباح.

كنّا دائما نتجنب الطرق الرئيسية المعروفة وذلك لطمع كثير من الناس في الهجوم علينا وتخليصنا رأس الحسين بن علي، كنا نضعه في صندوق طوال مسيرنا ونخرجه فقط عندما نصل إلى محطة من المحطات للتشهير بالسبايا وجعل الناس ينظرون لهم كأعداء للخليفة قد انتصر عليهم. ولكن الحالة التي كانوا بها حالة تبكي الحجر فالنساء مرهقات والأطفال دائمو العويل والبكاء وعلي بن الحسين ينزف دماً من رقبته، والجنود دائمو الضرب للنساء والأطفال لإسكاتهم فكل من يشهد هذا المنظر يستعر غضباً، فهذه الطريقة في التعامل مع الأسرى مرفوضة قطعاً في الإسلام حتى لو كان الأسرى مجوساً، وكيف ستكون ردود فعل الناس لو علموا بأن الأسرى الذين نعاملهم بهذه الطريقة الوحشية هم أحفاد رسول الله.

في الصباح تحركنا شمالاً ووصلنا إلى أرمينا أو لينا كما كان يدعوها جدي، وكانت عامرة بالناس، ولكنّهم لم يكونوا مرحبين بنا، فخرجت النساء والشيوخ والشبان ينظرون إلى رأس الحسين بن علي ويترحّمون عليه ويلعنون قاتليه، ويصرخون فينا يا قتلة الأنبياء اخرجوا من بلدنا. سارعنا بالخروج ومررنا

بموضع يعرف بالكحيل ثم وصلنا جهينة ونزلنا بها وكتب خولي إلى عامل الموصل يطلب منه أن يتلقّانا فإن معنا رأس خارجي.

على مسافة فرسخان من الموصل استقبلنا العامل عليها، وابتهج برؤيتنا وأخبرنا بأن المدينة مزيّنة لاستقبالنا، وقبل تحرّكنا لدخول المدينة جاء أحد عيونه وأخبره بأن أهل المدينة اجتمعوا بثلاثين ألف فارس من الأوس والخزرج لقتالنا وتخليصنا رأس الحسين بن علي ليدفنوه. عدل الشمر وخولي عن دخول الموصل، وكنّا قد سرنا مسافة تزيد عن ستّة وأربعين فرسخاً، وحل الليل واخذ التعب والجوع منا كل مأخذ. فبتنا ليلتنا خارج المدينة على بعد فرسخ، وعندما أسند حامل الرمح رأس الحسين بن علي على صخره، قطر منه قطرة دم واحدة على تلك الصخرة. كان البرد في الليل قارسا يقسم الحديد لشدته ولكن الجنود والحرس لم يأبهوا بإعطاء النساء والأطفال اغطية ليتقوا البرد القارس.

صباحاً واصلنا المسير غرباً وسرنا أكثر من خمسة عشر فرسخا، فمررنا بتل أعفر وهي مدينة قديمة تشتهر بقلعتها التي بنيت في العهد الآشوري. وتابعنا المسير غربا مسافة سبعة عشر فرسخاً فوصلنا إلى جبل سنجار والذي فيه بعض القرى يسكنها السريان المسيحيون ويحيط به القبائل العربية. وتابعنا المسير عشرين فرسخا ووصلنا إلى نصيبين وهي مدينة قديمة عامرة على جادة القوافل في بلاد الرافدين بين الشام وأرض الترك تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد ولها تاريخ عريق في المسيحية وذكرت في الكتاب المقدس وفيها مدرسة لاهوتية معتبرة. أعلن خولي بأننا سوف نبيت فيها، وكان أميرها منصور بن الياس، خرج إلينا مبتهجاً وأمر بتزيين البلدة بالمرايا، وعرضنا الرؤوس والسبايا وصارت زينب بنت علي تبكي لما رأت رأس أخيها على الرمح.

في الصباح تابعنا سيرنا، كان الجو بارداً جداً حتى خلال النهار في هذه البقاع الشمالية، فالبرد القارس جعل شفاه الأطفال الذابلة قريبة للأزرق المخضر، وجلودهم شاحبه وكأنها خالية من الدم، وجلودهم تقشرت. كنا متجهين غرباً وقطعنا مسافة عشرين فرسخ حتى وصلنا إلى عين الورد.

وتابعنا عشرين فرسخاً أخرى حتى وصلنا الى مدينة حرّان والتّي يقال بأن النبي إبراهيم قد استقر بها في قديم الزمان. ثم بدأنا الانحراف جنوباً متجهين إلى حلب. قبل أن نصل إلى حلب أرسل خولي يخبر عاملها بقدومنا، بعد أن قطعنا مسافة أكثر من ستة وأربعين فرسخاً وجدنا عاملها بانتظارنا وقد قام بتجهيز الأبواق والطبول لاستقبالنا. دخلنا من بابٌ يدعى باب الأربعين، ونصبنا الرمح الذي عليه رأس الحسين بن علي في الرحبة من الظهر إلى العصر، وأهلها منهم من يبكي لعلمهم بأن الرأس رأس الحسين بن علي، ومنهم من يضحك لأنّ عبيد الله بن زياد انتصر على خارجي كما أخبرهم والي المدينة، وأغلب العسكر أمضوا ليلهم يشربون الخمر إلى الصباح.

في الصباح تابعنا سيرنا وفوجئنا بجيش من المحاربين بقيادة أبي الأسود الدؤلي، وحنظلة ابن جندله الخزاعي، ومعهم مئات من شيعة علي بن أبي طالب، وبينما نحن مذهولون بعدد المقاتلين حتّى قفزت امرأة ملثمة على حامل رأس العباس بن علي وطعنته بخاصرته فمال الرمح وقبل أن يسقط الرأس استقبلَته ولم تَدعه يصل إلى الأرض ووضعته على صخرة عالية.

بينما حامل الرأس المصاب يحاول تضميد جرحه وهو يصرخ من الألم، انطلقت هذه الملثّمة إلى الجمال التي تحمل السبايا، فطعنت شكار ابن عم محمّد بن الاشعث في صدره فأخرجت السنان من ظهره فانجدل صريعاً، ثم عطفت على مراد بن شداد المذحجي بطعنة أخرجت بها قلبه فوقع يخور بدمه، واستمرّت حتّى قتلت أحد عشر فارساً من أبطالنا، وعندما هجم عليها الفرسان هجم قومها لنجدتها والتحمنا في معركة طاحنة، وبينما الجنود مشغولون بالقتال، أنا تظاهرت بمساعدة أحد الجرحى وصرت أراقب ما يجري فقط. رأيت القاسم بن سعد توجه إلى خيام النساء السبايا وسحبهم ونزل بهم إلى الوادي وجنودنا مشغولون بالقتال. وماهي إلاّ ساعة حتى سيطروا على الرؤوس أيضاً، فبقينا بلا سبايا وبلا رؤوس، وعلمت من القوم بأنّ المرأة الشجاعة تدعى درة الصدف.

أرسل خولي رسائل إلى أمير حلب ليرسل لنا الدعم، وأمضينا يومنا وليلتنا ونحن نقاتلهم محاولين استعادة الرؤوس والسبايا، ولكن دون جدوى إلى أن وصل الدعم من حلب ستّةُ آلاف فارس قلبت الموازيين من خلال معركة استمرت ثلاثة أيام، استطعنا قتل درة الصدف وتغلبنا عليهم واستعدنا الرؤوس والسبايا وأكملنا طريقنا جنوباً.

قطعنا مسافة خمسة فراسخ ووصلنا إلى قنسرين وهي مدينة أثرية سكانها من السريان والأرثودوكس وفيها مدرسه لاهوتية مسيحية تضاهي بأهميتها مدرسة نصيبين، ولكنّ أهلها أغلقوا الأبواب في وجوهنا.

قال لهم خولي "ألستم تحت الطاعة؟"

جاءنا صوت من الداخل "نعم ولكن لو قتل كبيرنا وصغيرنا ما عبر رأس الحسين ابن بنت رسول الله من وسط بلدنا."

تحرّكنا جنوباً اثني عشر فرسخا إلى أن وصلنا إلى معرّة النعمان، استقبلنا أهلها بالفرح والسرور، وفتحوا لنا الأبواب، وذبحوا الذبائح، وقدّموا لنا الطعام والشراب، وبتنا ليلتنا فيها.

في الصباح واصلنا المسير حتى وصلنا إلى كفر طاب وهي حصن صغير وأهلها أغلقوا أبوابه في وجوهنا.

صرخ خولي بهم من خارج أبواب الحصن "ألستم في طاعتنا؟ اسقونا ماءا."

جاءه جواب من الداخل "والله لا نسقيكم قطرة واحدة وأنتم منعتم الحسين بن علي وأصحابه الماء."

تابعنا مسيرنا حتى وصلنا إلى قرية شيرز والتي كانت معروفة بقلعتها وتسمى قلعة سيجر، ومنذ أن غادرنا المعرة قطعنا مسافة اثني عشر فرسخا تقريباً. كان أهل قرية شيرز متأهبين لقتالنا إن دخلناها. لا أدري لماذا أصرّ خولي على الدخول مما أدى إلى معركة بيننا وبينهم، خلّفت عدداً من القتلى من الطرفين، وطال جداله معهم، وتوعّدهم.

تابعنا المسير جنوبا حتّى وصلنا إلى سيبور، وفي سيبور هجم علينا فرسانها، واقتتلنا معهم حتّى مات من عساكرنا الكثير قبل أن نتابع سيرنا مسافة خمسة فراسخ حتى وصلنا إلى حماه، سدّ أهلها الأبواب في وجهنا ولم يسمحوا لنا بالدخول فتابعنا مسيرنا متوجّهين إلى حمص.

قبل أن ندخل حمص، أرسل خولي إلى عاملها خالد بن النشيط أنّ معنا رأس الحسين بن علي، وسرنا مسافة تسعة فراسخ تقريبا حتى بانت لنا أطراف مدينة حمص.

عندما وصلنا على مشارف حمص كان واليها بانتظارنا مع ثلّة من حرّاسه وخواصه، أخبرنا بأنّه أمر بتزيين المدينة إكراماً لنا، ولكن عندما دخلنا المدينة بدأت الحجارة تُرمى علينا وبعضها أصاب رؤوس بعض الجنود، وتجمّع حول دار خالد بن النشيط عدد كبير من المقاتلين ينوون قتالنا وسرقة رأس الحسين بن علي منّا. خرجنا مسرعين وسرنا مسافة واحدٍ وعشرين فرسخا حتى وصلنا مدينة بعلبك.

قبل أن ندخل بعلبك أرسل خولي إلى عاملها بأن معنا رأس الحسين بن علي، ولم يقصّر عاملها بإكرامنا، أمر بالجواري ليضربن الدفوف، ونشر الزينة والأعلام، ونفخت الأبواق، وصاروا يوزعون الحلويات، وبتنا فيها إلى الصباح، والعساكر ثملوا طوال ليلهم.

في الصباح خرجنا من بعلبك وتابعنا مسيرنا إلى أن أدركنا المساء بقرب صومعة راهب، بتنا بجانبها وكنّا قد أسندنا الرمح الذي عليه رأس الحسين بن علي على حائط الصومعة. في الصباح عندما هممنا بالرحيل خرج الراهب من صومعته وقال "من زعيمكم؟" فأشرنا إلى خولي.

ذهب الراهب ناحيته وقال له "ما الذي معكم؟"

أجابه خولي بحذر "رأس خارجي خرج بأرض العراق قتله عبيد الله بن زياد."

سأل الراهب "ما اسمه؟"

أجاب خولي والشك واضح في كلماته "وما شأنك باسمه؟"

قال الراهب مترجيا "أرجوك أخبرني ما اسمه؟"

أجاب خولي وبدأ يتأفف من أسئلة الراهب "الحسين بن علي."

سأل الراهب "أمه فاطمة بنت محمّد المصطفى رسول الإسلام؟"

أجاب خولي "نعم."

صفق الراهب يديه وقال "لاحول ولا قوة إلّا بالله، صدقَت الأخبار، يقولون إذا قتل هذا الرجل أمطرت السماء دماً عبيطاً، ولا تبكي السّماء إلّا لنبي أو وصيّ نبي، واعجباه من أمّة قتلت ابن بنت نبيها، بئس القوم أنتم، لو كان للمسيح ولد لأسكناه أحداقنا."

سحب عدد من الجنود سيوفهم منتظرين خولي ان يأمرهم بقطع رأسه.

نظر الراهب إلى خولي وقال "أرني الرأس لأنظر إليه."

قال خولي "اغرب أيها الخرف."

قال الراهب متوسلا "اطلب أي جائزة تريد."

قال خولي "ما أكشفه إلّا بين يدي يزيد بن معاوية وآخذ منه الجائزة."

سأل الراهب "كم هي الجائزة؟"

أجاب خولي "بدرة فيها عشرة آلاف درهم."

قال الراهب "أنا اعطيك ذلك."

نظر خولي اليه نظرات شك ثم قال "أحضر ما ذكرت."

غاب الراهب لدقائق وعاد يحمل جيب قماشي يكاد يتمزق من ثقل ما به وأعطاها لخولي.

سلّمه خولي الرأس ولا يزال على الرمح وانشغل بالجيب المليء بالدراهم.

أمسك الراهب الرأس بين يديه وضمّه وقبّله وأدهشني عندما قال "يعز علي يا أبا عبد الله ألا أكون قتيلا بين يديك، ولكن إذا كان في الغد فاشهد لي عند جدّك أني أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمّد رسول الله." وردّ الرأس ودموعه جارية، وكلّنا ناظرين إليه مذهولون.

فجأة لاح في خاطري قول الله تعالى - لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

تابعنا مسيرنا بعد تلك الحادثة متوجهين الى مدينة دمشق وكنا قد قطعنا مسافة تزيد عن ثلاث مئة وخمسين فرسخا.

الدخول إلى دمشق

استقبلتنا مئة وعشرون راية على أبواب مدينة دمشق. الشمر كان قد أمرنا بوضع الرؤوس على الرماح قبل أن ندخل المدينة، وأن يكون حاملو الرماح بين الجمال التي تحمل النساء- لكي ينظر إليهن الناس ويشعرن بالحرج والخزي. كان يحمل رأس العباس ثعلبة بن مرّة الكلبي، وخلفه رأس جعفر بن علي يحمله نمير بن أبي جوشن الضبابي، وبعده رأس محمّد بن علي يحمله أنيس بن الحرث البعجي، ثم خلفه رأس علي الأكبر بن الحسين وهو غير علي العليل الأسير معنا، بل أخوه الكبير ويحمله مرّة بن قيس الهمداني، وبعده رأس عون ابن زينب بنت علي يحمله جابر السعدي، وبعده رأس أحد أولاد علي بن أبي طالب لا أدري ما اسمه يحمله عمير بن شجاع الكندي، وبعده رأس عبد الله بن عقيل يحمله قيس بن أبي مرة الخزاعي، وبعده باقي الرؤوس، وآخر رأس كان رأس الحسين بن علي.

"يا أهل الشام هؤلاء سبايا أهل البيت الملعون."

هذا ما كان يصيح به رجال قصر الخليفة أوّل ما دخلنا مدينة دمشق.

كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها مدينة دمشق، و يالها من مدينة رائعة الجمال فهي مطردة الأنهار كثيرة الأشجار دخلنا إليها من باب يدعى باب الساعات أو باب الخيزران و هو من أبعد الأبواب عن قصر الإمارة، كانت جنبات المدينة مزيّنة بالحلي والمرايا والسطور والحجب والديباج، وكانت كساحة المحشر من كثرة الخلق التي يموج بعضها ببعض يهلّلون مبتهجين، فالناس خرجوا مع الطبول والصنوج والبوقات، وكان

الشبّان والفتيات يرقصون ويضربون بالدف والصنج والطنبور، كانوا يرتدون أجمل الثياب بألوانها الرائعة، ويتزيّنون بالكحل والخضاب، وكانت الأسواق معطلة وكأنّ في دمشق عيداً لا نعرفه.

كانت رقبة عليّ بن الحسين تنزف دما بسبب الجامعة الحديدية، والنسوة جميعهنّ أعناقهنّ وأيديهنّ مربوطة بالحبال والحبال موصولة فيما بينهن، كان منظرهنّ يكسر القلب بثيابهن الرثة، وقيودهن المحكمة، راكبات فوق جمال نحيلة بدون محامل أو هوادج، وأشعة الشمس حارقة تشوي الرؤوس، والضجيج حولنا لا يحتمل، وابتهاج أهل الشام حولنا يحرق القلب، بينما كنت أفكّر بحالة هؤلاء النسوة، كم هي مثيرة للشفقة، اقترب رجل من جمل في المقدمة وتكلم مع الفتاة عليه "يا جارية، من أنت؟"

أجابت الفتاة "أنا سكينة بنت الإمام الحسين."

"ألك حاجة إليّ؟ أنا سهل بن سعد ممن رأى جدك رسول الله وسمع حديثه."

قالت سكينة بنت الحسين "يا سهل قل لصاحب هذا الرأس أن يقدم الرأس أمامنا حتّى يشتغل الناس بالنظر إليه ولا ينظرون إلى حرم رسول الله."

رأيت سهل يقترب من حامل رأس الحسين بن علي ويهمس في أذنه كلمات، ونظر له حامل الرأس ثم أجابه بشيء ما دفع سهل أن يضع يده في جيبه ويخرج صرة دنانير أعطاها له، بعدها ابتعد حامل الرأس عن السبايا وانشغل الناس بالنظر إليه عن النظر إليهن.

استمر الهرج والمرج وابتهاج الناس ورقص الفتيات والصبيان وشماتة أهل الشام بهؤلاء الأسرى، اقترب رجل عجوز منهن وقال بصوت مسموع "الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وأراح البلاد من رجالكم وأمكن أمير المؤمنين منكم."

نظرت إليهنّ متوقعاً أن يرددن عليه ولكنهنّ لم يتكلّمن، بل تكلّم علي بن الحسين دون أن يدير رأسه لناحية المتكلم لعدم قدرته على ذلك فكل حركة يقوم بها تسبّب له آلام في رقبته بسبب الجروح تحت الجامعة الحديدية "يا شيخ هل قرأت القرآن؟"

أجاب الرجل العجوز "نعم."

قال علي بن الحسين «هل قرأت الآية - قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ-

أجاب العجوز "نعم قد قرأت ذلك."

قال علي بن الحسين "فنحن القربى يا شيخ."

ارتعد الشيخ من جوابه.

وأكمل علي بن الحسين «فهل قرأت في سورة بني إسرائيل - وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ-

قال العجوز "قد قرأت."

قال علي بن الحسين "فنحن القربى يا شيخ."

حدّق الشيخ برقبة علي بن الحسين وكأن الكلام يخرج منها وأكمل علي بن الحسين "فهل قرأت الآية - وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ-"

"نعم" قال الرجل العجوز وعلى وجهه نظرة ذعر.

قال علي بن الحسين "فنحن القربى يا شيخ..... فهل قرأت الآية -إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا – "

"قد قرأت ذلك" قال الرجل العجوز وقد أرخى نظره إلى الأرض.

قال علي بن الحسين "فنحن أهل البيت الذين خصصنا الله بآية التطهير يا شيخ."

صمت الشيخ وظل صافناً دون أن يتكلّم وعلي بن الحسين ظل ساكتا إلى أن قال الشيخ بصوت ضعيف "بالله إنّكم هم؟"

قال علي بن الحسين "تالله إنّا لنحن هم من غير شك، وحق جدنا رسول الله إنّا لنحن هم."

بكى الشيخ ورمى عمامته على الأرض وكأنّه ندم على ما قال، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال "اللّهم إنّي أبرأ إليك من عدو آل محمّد من الجن والإنس" نظر إلى علي بن الحسين وسأله "هل لي من توبة؟"

قال علي بن الحسين دون أن يقدر على أن يلتفت "نعم إن تبت تاب الله عليك وأنت معنا في الجنة."

قال العجوز "أنا تائب" ثم رفع رأسه مرة أخرى وقال "اللّهم إنّي أتوب إليك، اللّهم إنّي أتوب إليك، اللّهم إنّي أتوب إليك، اللّهم إنّي أبرأ إليك من عدوّ آل محمّد ومِن قتلة أهل بيته، لقد قرأت القرآن فما شعرت بما أشعر به اليوم."

ومع انتهاء كلامه انقضّ عليه اثنان من الحراس وسحباه، لم أتبيّن إلى أين أخذوه ولكنّي أعتقد بأنّهم سمعوه يتبرأ من الخليفة لأنه قتل آل محمّد فأخذاه ليلقناه درسا.

كانت حركتنا بطيئة جدّا لكثرة الناس المتجمهرة، وأصابني الإرهاق الشديد من الازدحام والضجيج بعد أن سرنا في معظم سكك المدينة ومررنا بكلّ أبوابها، وصلنا إلى درج على باب المسجد الكبير، وهو الدرج الذي يترك فيه سبايا المعارك من الروم والترك وغيرهم، وهناك أوقفنا السبايا لساعات لينظر إليهن الناس.

الدخول إلى القصر الأخضر

جاء أمر يزيد بن معاوية بإدخال الرؤوس والسبايا إلى قصر الخضراء. كنت متحمّساً جداً لدخول هذا القصر في دمشق ولطالما سمعنا عنه قصصاً وحكايات أشبه بقصص الخيال.

استغرق بنا السير من الدرج على باب المسجد إلى باب القصر أكثر من ساعة وهو يحتاج إلى أقلّ من دقيقة لملاصقة القصر بالمسجد. دخلنا بعد أن تم إنزال السبايا من على الجمال، وهم لايزالون مقيدين بالحبال، وفي حال تخلفت إحداهن في السير أو أبطئت يضربها الحراس بالسوط أو يدفعها بكعب الرمح لتعاود المسير.

باب القصر الخارجيّ من الخشب المطعم بالصدف وراءه مصطبتان تعلوان مسافة قدم عن ممر بالمنتصف، على المصاطب ديباج أحمر وعشرات من الحراس بلباس يخطف الألباب لروعته وإتقانه. في نهاية الممر باب دخلناه لنجد درجات قليلة توصلنا إلى دهليز فيه عواميد، على جانبيه دكّتان عليها فرش من حرير وديباج، الحيطان مليئة بدروع وسيوف حتّى لم تبق مساحة صغيرة لتعليق أي شيء آخر على

الحيطان، على الفرش فوق الدكّتين عدد لا بأس به من الحُجّاب، بمجرد أن رأونا وقفوا ليتفرجوا علينا. في نهاية الدهليز باب يقود إلى دهليز آخر بعواميد أطول من التي قبلها وفيه دكّتان على اليمين واليسار مفروشتان ببساط من الإبريسم الأصفر، ووسائد من الديباج، عليها غلمان يكتسون الحرير، فوق رؤوسهم خدم صبيان يروحونهم بمراوح من ذهب. بعد أن اجتزنا هذا الدهليز دخلنا دهليز آخر فيه دكّتان عليهما فرش من الديباج، وصفّان من الغلمان واقفين على طرفي الدهليز في أيديهم طشوت من الذهب لنضع لهم الرؤوس عليها وفعل الحراس ذلك، في آخره درج إلى الأعلى حيث بيت يزيد بن معاوية، وبوّابة إلى المجلس جهة اليمين وكانت الجواري على البوابة يرتدين الديباج الأحمر، ويلبسن الأخفاف من الأديم الأسود، في أيديهن مباخر من الفضة تتصاعد منها الأبخرة من العود، رفعن الحجب الحريرية ودخلنا إلى مجلس يزيد بن معاوية.

الدخول إلى مجلس يزيد بن معاوية

كانت هذه المرّة الأولى التي تقع فيها عيني علي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. كان أجعد الشعر أحور العين بوجهه آثار جدري أصابه في صغره، له لحية خفيفة حسنة، ضخم الجثمان مرتفع القامة. يتربّع على عرشه، يرتدي ثوباً ديبقياً محلول الأزرار كاشفاً صدره، على رأسه تاج من ذهب مكلل بالدرر والياقوت، في رجليه نعلان من ذهب شراكهما من اللؤلؤ الرطب والفضة البيضاء ومبطنتان بالحرير، في قبضته قضيب خيزران مكتوب عليه لا إله إلّا الله محمّد رسول الله يزيد أمير المؤمنين.

على يمين العرش الذي يتربع عليه منصة يجلس فوقها قرده أبو قيس والذي وصل الى مسامعي بأن يزيد بن معاوية طالما ادّعى بانه شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئة فمسخ، عليه قباء من الحرير الأحمر والأصفر، على رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق. لقد كان يصل الى مسامعنا بأن يزيد بن معاوية صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب. كان حول العرش الكثير من الخدم،

لباسهم من الديباج، يلفّ خصر كل منهم نطاق من ذهب، وفي أيديهم خواتم الأحجار النفيسة، ومهمتهم الوحيدة خدمة أميرهم يزيد بن معاوية وتلبية احتياجاته.

يفرش المجلس بساط كان وصلة واحدة يحتاج لأيام من التأمل لملاحظة الكواكب والنباتات والحيوانات المنقوشة عليه. الفرش التي يجلس عليها الحاشية من سادات قريش مغلّفة بالحرير الشفاف المحشو بريش النعام، فوق رأس كل منهم جارية وغلام بمرواح من ذهب، وأمام كل منهم دكّة من ذهب عليها الخمر وما لذّ وطاب من الفاكهة، عند أقدام كلّ منهم جارية تدلّكها لهم بزيت اللّوز. طيور ملوّنة بألوان لم أرَ مثلها طوال حياتي، أحجامها مختلفة تطير هنا وهناك لتقف على أكتاف الجلوس أو أيديهم ليطعموهم من طعام الطيور. جوارٍ بمباخر من ذهب يقفن في زوايا المجلس، كان الجو منعشا رائحته خليط من رائحة زيت اللوز وبخور العود وماء الورد.

نظرت الى وجوه الجالسين من الأشراف ولم أعرفهم كلهم، كان بينهم الصحابي أبو برزة الأسلمي وزيد بن الأرقم، وسمرة بن جندب. والي الكوفة المخلوع النعمان بن بشير كان جالساً. كبار آل أمية كيحيى بن الحكم وعبد الله بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم. وبعض من أتى معنا مثل زحر بن قيس وشمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد ومحقن بن ثعلبة وأبو بردة بن عوف الأزدي وطارق بن أبي ظبيان الأزدي وربيعة بن عمر والعذري بن ربيعة بن عمرو الجرشي وعبد الله بن ربيعة الحميري والغار بن ربيعة الجرشي وروح بن زنباع. ظلّ معظمنا من الحرس والعسكر واقفين لكثرتنا، وكذلك الأسارى كانوا لا يزالون مقيدين بالحبال وعلي بن الحسين في رقبته الجامعة.

كان مروان بن الحكم بين الجالسين فقال سائلاً زجر بن قيس وهو يشير إلى السبايا "كيف فعلتم بهم؟"

أجاب زجر بن قيس "ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا أو ينزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام، فغدونا عليهم من شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية، حتّى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام

القوم وجعلوا يهربون إلى غير وزر ويلوذون منا بالآكام والحفر لوذاً كما يلوذ الحمام من الصقر، فوالله يا أمير المؤمنين ما كانوا إلّا جزر جزور قائل حتّى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم مرملة، وخدودهم معفّرة، تصهرهم الشمس، وتسفى عليهم الرياح، زوّارهم الرخم والعقبان، فهذه رؤوسهم أحضرناها معنا وهذه سباياهم جلبناها على المطايا."

دخل مخفر بن ثعلبة العائذي وبيده طشت من ذهب وعليه رأس الحسين بن علي فوقه منديل ديبقي، وضعه بين يدي يزيد بن معاوية ونادى بصوت سمعه الجميع "جئنا برأس أحمق الناس وألأمهم."

أجابه يزيد بن معاوية "ما ولدت أم مخفر أحمق وألأم." ثم رفع المنديل الديبقي الذي يغطي الرأس وتطاولت الأعناق لتنظر له.

كان بيد يزيد خيزرانة فصار ينكت ثغر وأسنان الحسين بن علي بها، ثم ردد البيت السادس من قصيدة للحصين بن الحمام المري الشاعر الجاهلي:

نفلّق هاما من رجال أعزة

علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

كان بين الجلوس أبو برزة الأسلمي قال بحدة "ويحك يا يزيد أتنكت بقضيبك ثغر الحسين ابن فاطمة؟ أشهد لقد رأيت النبي يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول أنتما سيّدا شباب أهل الجنة، فقتل الله قاتلكم ولعنه وأعد له جهنم وساءت مصيرا."

صدرت عدة شهقات من الجواري واقترب الحراس من يزيد منتظرين أوامره، فكلّ الحاضرين لاحظوا تغيّر لون وجهه والغضب الذي اكتساه فأشار بيده لهم فجاؤوا وسحبوا أبو برزة الاسلمي إلى خارج المجلس سحباً.

ثم نظر يزيد إلى الجلوس من قومه وقال وهو يشير بخيزرانته إلى رأس الحسين بن علي فوق طشت الذهب "إنّ هذا كان يفخر علي ويقول أبي خير من أبي يزيد، وأمّي خير من أم يزيد، وجدّي خير من جد

يزيد، وأنا خير من يزيد، فهذا الذي قتله، فأمّا قوله بأن أبي خير من أبي يزيد فلقد حاج أبي أباه فقضى الله لأبي على أبيه، وأمّا قوله بأن أمّي خير من أم يزيد، فلعمري لقد صدق إنّ فاطمة بنت محمّد خير من أمّي، وأمّا قوله جدي خير من جد يزيد، فليس أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يقول بأنه خير من محمّد، وأمّا قوله بأنه خير مني فلعلّه لم يقرأ الآية -قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ -

التفتنا جميعا إلى علي بن الحسين ولا تزال الجامعة في رقبته التي تنزف دماً عندما قال "أنشدك الله يا يزيد، ما ظنك برسول الله لو رآنا على هذه الحالة."

فأشار يزيد بن معاوية إلى الحرّاس من حوله وطلب منهم أن تُفكّ قيود النساء عنهن، ثم أمر بمبرد من حديد، وعندما جاء المبرد أخذه وقام بنفسه إلى علي بن الحسين وصار يبرد الجامعة الحديدية من على رقبته، وقال بصوت عال ليسمعه الجالسون "يا علي أتدري ما الذي أريد بذلك؟"

أجاب علي بن الحسين "تريد ألا يكون لأحد عليّ منّة غيرك."

قال يزيد بن معاوية "هذا والله ما أردت." ثم انشغل ببرد الجامعة وتوقّف للحظات ونظر إلى عيني علي بن الحسين، وقال له "يا علي أراد أبوك أن يدعى بأمير المؤمنين فقطع الله شأفته ومنحنا أعناقكم، فأخذت اموالكم، وقتلت رجالكم، وسبيت نساءكم، وأبطلت أحدوثتكم -وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ-

قال علي بن الحسين "كلّا ما هذه فينا نزلت، إنّما نزلت فينا - مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ - لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ - فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما آتانا منها"

انكسرت الجامعة وصار الدم ينزف غزيراً من رقبة علي بن الحسين. أمر يزيد الحراس ليقتربوا ونادوا الطبيب ليضمد رقبة علي بن الحسين النازفة، جاءت الجواري على الفور لتنظيف أيدي يزيد وبأيديهن ماء الورد والمسك، عاد يزيد وجلس في مجلسه فنعق غراب من الطيور الكثيرة فوق رؤوسنا فأنشد يزيد بن

معاوية أبيات عبد الله بن الزبعرى شاعر قريش من الجاهلية وكان شديداً على المسلمين، وقد أنشدها يوم أحد لمّا استشهد حمزة عمّ النبي وجماعة من المسلمين:

يا غراب البين ما شئت فقل

انما تندب امرا قد فعل

كل ملك ونعيم زائل

وبنات الدهر يلعبن بكل

ليت أشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الاسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحا

ثم قالوا يا يزيد لا تشل

لست من خندف إن لم انتقم

من بني أحمد ما كان فعل

لعبت هاشم بالملك ولا

خبر جاء ولا وحي نزل

قد أخذنا من علي ثأرنا

وقتلنا الفارس الليث البطل

وقتلنا القرم من ساداتهم

وعدلناه ببدر فاعتدل

خطبة السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب في مجلس يزيد بن معاوية

علا صوت زينب بنت علي متحدثة بكل حزم «الحمد لله رب العالمين والصلاة على جدي سيد المرسلين، صدق الله سبحانه كذلك يقول: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ - أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تساق الأسارى، أن بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة؟ وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسرورا، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا، وخلص لك سلطاننا، مهلا مهلا، لا تطش جهلا، أنسيت قول الله تعالى وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ - أمِنَ العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت سترتهن، وأبديت وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والغائب والشهيد، والشريف والوضيع، والدنيّ والرفيع، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حماتهن حمي، عُتوّاً منك على الله، وجحودا لرسول الله، ودفعا لما جاء به من عند الله، لا غرو منك ولا عجب من فعلك، وأنّى يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه بدماء الشهداء، ونصب الحرب لسيد الأنبياء، وجمع الأحزاب، وشهر الحراب، وهزّ السيوف في وجه رسول الله أشدّ العرب جحودا، وأنكرهم له رسولا، وأظهرهم له عدوانا، وأعتاهم على الرب كفرا وطغيانا، ألا إنها نتيجة خلال الكفر، وصب يجرجر في الصدر، لقتلى يوم بدر، وكيف يُستبطئُ في بغضنا أهل البيت من كان نظره إلينا بالشنف والشنآن، والإحن والأضغان؟ يظهر كفره برسول الله، ويفصح ذلك بلسانه وهو يقول فرحا بقتل ولده وسبي ذريته غير متأثّم ولا مستعظم:

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً

ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منتحيا على ثنايا أبي عبد الله سيّد شباب أهل الجنة، تنكتها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك؟ ولقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذرية محمّد، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنّك تناديهم، فلتَرِدنّ وشيكا موردهم، ولتودنّ أنّك شللت وبكمت، ولم تكن قلت ما قلت، وفعلت ما فعلت. اللّهم خذ لنا بحقنا وانتقم ممن ظلمنا وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا.

«فوالله ما فريت إلاّ جلدك، ولا جزرت إلاّ لحمك، ولتردنّ على رسول الله بما تحملت من سفك دماء ذريته، وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ -وحسبك بالله حاكماً، وبمحمّد خصيماً، وبجبرئيل ظهيراً، وسيعلم من سوى لك ومكّنك من رقاب المسلمين أن بئس للظالمين بدلا، وأيّكم شر مكاناً وأضعف جنداً.

"ولئن جرت علي الدواهي مخاطبتك إنّي لأستصغر قدرك، واستعظم تقريعك، واستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرّى، ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الأيدي تنطف، والأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفّرها أمهات الفواعل، ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلاّ ما قدمت يداك، وما ربّك بظلّام للعبيد، فإلى الله المشتكى وعليه المعول، فكد كيدك واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلّا فند، وأيّامك إلّا عدد، وجمعك إلّا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين.

«فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة إنه رحيم ودود وحسبنا الله ونعم الوكيل"

قال يزيد بن معاوية:

يا صيحة تحمد من صوائح

ما أهون الموت على النوائح

كان الصمت يخيم على رؤوسنا جميعا وهذا ما يحدث في كل مرة تتكلم فيها زينب بنت علي وكأن في كلامها سحر معين. كنت في غاية الدهشة وأنا أتأمّل تلك المرأة الصلبة الصابرة تقف كالجبل الأشم في وجه ملك شديد البطش لمعارضيه، تقول كلمتها المرتجلة وكأنّها محضّرة مسبقاً ببلاغة لم يسمع لها نظير بين النساء المتكلّمات، حقاً ما أعجب حال المرأة التي قتل أهلها وسندها وسبعة من أخوتها وابنها وأبناء اخوتها وتقف في مجلس يزيد بن معاوية وتتحدّاه بهذا الشكل.

قطع الصمت رجل شامي أحمر الشعر طلب من يزيد بن معاوية أن يهبه واحدة من بنات الحسين بن علي كجارية وهو يشير إليها "يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية."

تعلقت بثياب عمتها زينب بنت علي وقالت بصوت مسموع للجميع "أُبيعت وأُستخدم؟"

مسحت زينب بنت علي على رأس الفتاة، وابتسمت لها ابتسامة دافئة ثم رفعت رأسها، وكلّمت الشامي بصوت حاد، وعيون كعيون صقر "كذبت ولؤمت والله ما ذلك لك ولا له" وأشارت إلى يزيد بن معاوية.

قال يزيد بن معاوية غاضبا "كذبت والله، إن ذلك لي لو شئت أن أفعل لفعلت."

قالت زينب بنت علي "كلاّ والله ما جعل الله لك ذلك إلّا أن تخرج من ملّة الإسلام وتدين بغيرها."

استطار وانتفض يزيد بن معاوية من الغضب وقال "إيّاي تستقبلين بهذا؟ إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك."

قالت زينب بنت علي "بدين الله ودين أبي ودين أخي اهتديت أنت وأبوك وجدك إن كنت مسلما."

صرخ يزيد بن معاوية "كذبت يا عدوّة الله."

قالت زينب بنت علي "أنت أمير تشتم ظالما وتقهر بسلطانك."

التفت يزيد إلى الشامي وقال غاضبا "وهب الله لك حتفا قاضياً."

ثم أمرنا يزيد بوضع السبايا في خربة بجانب القصر لا تقي حراً ولا برداً، وقمنا بذلك.

خطبة علي بن الحسين في المسجد الجامع

بعد عدّة أيام، أمر يزيد بن معاوية الناس بالاجتماع في المسجد الكبير، وأمرنا أن نحضر علي بن الحسين، وطلب من الخطيب أن يصعد المنبر ويخبر الناس بمساوئ الحسين وأبيه علي بن أبي طالب وما فعلاه، على مسامع علي بن الحسين.

صعد الخطيب المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم أكثر الوقيعة في علي والحسين وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد فذكرهما بكل جميل، فصاح به علي بن الحسين "ويلك أيها الخاطب اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوأ مقعدك من النار" ثم التفت إلى يزيد وقال له "يا يزيد ائذن لي حتّى أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات، لله فيهنّ رضا، ولهؤلاء الجلساء فيهن أجر وثواب."

فأبى يزيد بن معاوية فقال أحد حاشيته مستصغر علي بن الحسين "يا أمير المؤمنين ائذن له فليصعد المنبر فلعلنا نسمع منه شيئا."

قال يزيد بن معاوية "إنه إن صعد لم ينزل إلّا بفضيحتي وبفضيحة آل أبي سفيان."

ضحك بعض حاشيته من الجلوس في الصفوف الأولى من مقالة يزيد وقال أحدهم "يا أمير المؤمنين وما قدر ما يحسن هذا؟"

أجابه يزيد بن معاوية بحدّه "إنّه من أهل بيت قد زقّوا العلم زقّا."

ولازالوا يجادلون يزيد بن معاوية حتّى أذن لعلي بن الحسين بصعود المنبر.

بدأ علي بن الحسين خطبته بالحمد والثناء لله وتابع "أيّها الناس أعطينا ستاً وفضّلنا بسبع: أعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين، وفضّلنا بأنّ منّا النبيّ المختار محمّداً، ومنّا الصدّيق، ومنّا الطيّار، ومنّا أسد الله وأسد رسوله، ومنّا سبطا هذه الأمّة، ومنّا مهديّ هذه الأمّة، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي.

أيّها الناس أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبّى، أنا ابن من حمل على البراق في الهواء، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمّد المصطفى، أنا بن عليّ المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتّى قالوا: لا إله إلّا الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه واله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيّين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكّائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسين رسول رب العالمين، أنا ابن المؤيد بجبرئيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأوّل من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين، وأوّل السابقين، وقاصم المعتدين، ومبيد المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، وناصر دين الله، ووليّ أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبة علمه، سمحٌ، سخيٌّ، بهيٌّ، بُهلولٌ، زكيٌّ، أبطحيٌّ، رضيٌّ، مِقدامٌ، هُمامٌ، صابر، صوّام، مهذّب، قوّام، قاطع الأصلاب، ومفرّق الأحزاب، أربطهم عناناً، وأثبتهم جناناً، وأمضاهم عزيمة، وأشدّهم شكيمة، أسد باسل، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنّة وقربت الأعنّة طحن الرحا، ويذرهم فيها ذرو الريح الهشيم، ليث الحجاز، وكبش العراق، مكّيٌّ، مدنيٌّ، خيفيٌّ، عقبيٌّ، بدريٌّ، أُحدي، شجريٌّ، مهاجري، من العرب سيّدها، ومن الوغى ليثها، وارث المشعرين، وأبو السبطين الحسن والحسين، ذاك جدّي عليّ بن أبي طالب."

إنّها المرة الأولى في حياتي التي أسمع فيها كل تلك الصفات لعلي بن أبي طالب في جلسة واحدة، أحسست بعيني تذرفان دموعا لا أدري ما السبب، كل من في المسجد كانوا يبكون، كلماته أثّرت بهم كما أثّرت كلمات زينب بنت علي بالناس قبل أن ندخل الكوفة.

أكمل علي بن الحسين "أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيدة النساء، أنا ابن المذبوح من القفا، أنا ابن العطشان حتّى قضى، أنا ابن من منعوه من الماء وأحلوه على سائر الورى، أنا ابن محمّد المصطفى، أنا ابن صريع كربلاء، أنا ابن من راحت أنصاره تحت الثرى، أنا ابن من غدت حريمه أسرى، أنا ابن من ذبحت أطفاله من غير سوء، أنا ابن من أضرم الأعداء في خيمته لظى، أنا ابن من أضحى صريعاً بالعرا، أنا ابن من لا له غسل ولا كفن يرى، أنا ابن من رفعوا رأسه على القنا، أنا ابن من هتكت حريمه بأرض كربلاء، أنا ابن من جسمه بأرض ورأسه بأخرى، أنا ابن من لا يرى حوله غير الأعداء، أنا ابن من حريمه إلى الشام تهدى، أنا ابن من لا ناصر له ولا حمى...

ظل علي بن الحسين يقول أنا، أنا، ولكن لم أستطع أن أسمع أكثر فصوت بكاء الناس قد علا وعندها أشار يزيد للمؤذن فبدأ بالأذان فأسكت علي بن الحسين.

قال المؤذن "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر."

قال علي بن الحسين "كبّرت كبيراً، وعظّمت عظيماً، وقلت حقاً."

بعد أن أنهى المؤذن قول "أشهد أن لا إله إلّا الله."

قال علي بن الحسين "شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي."

بعد أن أنهى المؤذن قول "أشهد أنّ محمّد رسول الله."

التفت علي بن الحسين إلى يزيد بن معاوية وسأله "محمّد هذا جدّي أم جدك يا يزيد؟ فإن زعمت أنّه جدك فقد كذبت وكفرت، وإن زعمت أنّه جدّي فلم قتلت عترته؟"

انتفض يزيد بن معاوية من مجلسه وقام، وقام خدمه ولحقوه إلى قصره، وصوت بكاء الناس لازال يملأ فضاء المسجد.

عندما نزل علي بن الحسين من على المنبر اقترب منه رجل عجوز طاعن في السن، نظرت إليه لأستطلع من هو، إنه مكحول صاحب رسول الله وسأل علي بن الحسين "كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟"

أجاب علي بن الحسين "ويحك كيف أمسيت؟ أمسينا فيكم كهيئة بني إسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبنائهم، ويستحيون نسائهم، وأمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمّداً منها، وأمست قريش تفتخر على العرب بأنّ محمّد منها، وأمسى آل محمد مقهورين مخذولين، فإلى الله نشكو كثرة عدوّنا، وتفرق ذات بيننا، وتظاهر الأعداء علينا."

رسول ملك الروم

في يوم من تلك الأيام التي كان يزيد بن معاوية يفرح ويمرح في مجلسه، والرأس على طشت الذهب قبالته كان لديه رسول ملك الروم قيصر وكان من أشراف الروم وعظمائهم، فأثار فضوله رأس الحسين بن علي على طشت الذهب.

قال الرومي "يا ملك العرب هذا رأس من؟"

قال يزيد بن معاوية له "مالك ولهذا الرأس؟"

قال الرومي "إنّي إذا رجعت إلى ملكنا يسألني عن كل شيء رأيته، فأحببت أن أخبره بقصة هذا الرأس وصاحبه، حتّى يشاركك في الفرح والسرور."

قال يزيد بن معاوية "هذا رأس الحسين بن علي بن أبي طالب أمه فاطمة بنت محمّد."

قال الرومي "أف لك ولدينك، لي دين أحسن من دينك" ثم سأل "هل سمعت حديث كنيسة الحافر؟"

قال يزيد بن معاوية "قل حتّى أسمع."

قال الرومي "بين عمان والصين بحر مسيرة سنة ليس فيها عمران إلّا بلدة واحدة في وسط الماء طولها ثمانون فرسخا في ثمانين فرسخا ما على وجه الأرض بلدة أكبر منها، ومنها يحمل الكافور والياقوت، وأشجارهم العود والعنبر، وهي في أيدي النصارى لا ملك لأحد من الملوك فيها سواهم، وفي تلك البلدة كنائس كثيرة أعظمها كنيسة الحافر، في محرابها حقة من ذهب معلقة، فيها حافر يقولون إن هذا حافر حمار كان يركبه عيسى وقد زينوا حول الحقة بالذهب والديباج، يقصدها في كل عام عالم من النصارى ويطوفون حولها ويقبلونها ويرفعون حوائجهم إلى الله عندها، هذا شأنهم ودأبهم بحافر يزعمون أنّه حافر حمار كان يركبه عيسى نبيهم، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيكم، فلا بارك الله فيكم ولا في دينكم."

أشار يزيد بن معاوية إلى أحد حراسه وهمس في أذنه كلمات.

فقال الرومي "أتريد أن تقتلني؟"

قال يزيد بن معاوية "نعم لئلا تفضحني في بلادك."

قال الرومي "اعلم أني رأيت البارحة نبيكم في المنام يقول لي يا نصراني أنت من أهل الجنة فتعجبت من كلامه، وأنا الآن أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّد رسول الله." وقام واقترب من الرأس وضمه إلى صدره وصار يقبله وجاءه الحراس وأخذوا الرأس من يده وأخرجوه إلى حتفه.

رأس الجالوت

في يوم آخر دخل على يزيد بن معاوية رأس الجالوت وهو من أحبار اليهود، فرأى رأس الحسين بن علي على الطشت فسأل "أيها الخليفة هذا رأس من؟"

قال يزيد بن معاوية "هذا رأس الحسين بن علي بن ابي طالب."

قال رأس الجالوت "من أمّه؟"

قال يزيد بن معاوية "فاطمة بنت محمّد."

قال رأس الجالوت "فيم استوجب القتل؟"

قال يزيد بن معاوية "إنّ أهل العراق دعوه وأرادوا أن يجعلوه خليفة فقتله عاملي على الكوفة عبيد الله بن زياد."

قال رأس الجالوت "ومن أحق منه بالخلافة وهو ابن بنت نبيكم؟ فما أكفركم اعلم يا يزيد أن بيني وبين داود مئة وثلاثون جداً، واليهود يعظموني ولا يردن التزويج إلّا برضاتي ويأخذون التراب من تحت أقدامي ويتبركون به، وأنتم بالأمس كان نبيكم بين أظهركم واليوم وثبتم على ولده وقتلتموه! فتبّاً لكم ولدينكم."

قال يزيد بن معاوية "لولا أن بلغني عن رسول الله أنّه من قتل معاهداً كنت خصمه يوم القيامة لقتلتك لتعرّضك لي."

قال رأس الجالوت ساخرا "كون رسول الله خصماً لمن قتل معاهداً ولا يكون خصماً لمن قتل ولده؟"

ثم قام رأس الجالوت وحمل الرأس وقبّله وقال "اشهد لي عند جدك، أنا اشهد ان لا إله إلّا الله وأشهد أن محمّد رسول الله."

الوزير النصراني

في يوم آخر جاء نصرانيّ لزيارة يزيد بن معاوية وكنا في مجلسه وكان رأس الحسين بن علي على طشت الذهب، بمجرد أن وقعت عينا النصراني على الرأس حتّى ضج بالبكاء وكلنا اندهشنا من بكائه فهو نصراني، سأله يزيد بن معاوية ما به فروى لنا قصته وقال:

"اعلم يا يزيد أنّي دخلت المدينة تاجراً في أيّام حياة النبي، وقد كنت شابا وقد أردت أن آتيه بهدية.

فسألت من أصحابه أيّ شيء أحبُّ إليه من الهدايا؟

فقالوا: الطيب أحبُّ إليه من كل شيء، وإن له رغبة فيه.

فحملت له من المسك فارتين، وقدرا من العنبر الأشهب وجئت بها إليه وهو يومئذ في بيت زوجته أم سلمة، فلما شاهدت جماله ازداد لعيني من لقائه نوراً ساطعاً، وزادني منه سروراً، وقد تعلق قلبي بمحبته، فسلمت عليه ووضعت العطر بين يديه.

فقال: ما هذا؟

فقلت: هدية محقرة أتيت بها إلى حضرتك.

فقال لي: ما اسمك؟

فقلت: اسمي عبد الشمس.

فقال لي: بدّل اسمك فأنا أسميك عبد الوهاب إن قبلت مني الإسلام قبلت منك الهدية.

فنظرته وتأمّلته، فعلمت أنه نبي وهو النبي الذي أخبرنا عنه عيسى عليه السلام حيث قال: إنّي مبشر لكم برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.

فاعتقدت ذلك وأسلمت على يده في تلك الساعة ورجعت إلى الروم وأنا أخفي إسلامي، ولي مدّة من السنين وأنا مسلم مع خمس من البنين وأربع من البنات، وأنا اليوم وزير ملك الروم وليس لأحد من النصارى اطلاع على حالنا.

واعلم يا يزيد أنّي يوم كنت في حضرة النبي وهو في بيت أم سلمة رأيت هذا العزيز، الذي رأسه وضع بين يديك مهينا حقيرا، قد دخل على جدّه من باب الحجرة والنبي فاتح باعه ليتناوله وهو يقول مرحبا بك يا حبيبي، حتّى أنّه تناوله وأجلسه في حجره، وجعل يقبل شفتيه، ويرشف ثناياه. وفي اليوم الثاني كان النبي يعلمني تعاليم الإسلام في المسجد عندما أتاه الحسين مع أخيه الحسن وقال: يا جدّاه قد تصارعت مع أخي الحسن ولم يغلب أحدنا الآخر، وإنما نريد أن نعلم أيّنا أشد قوة من الآخر.

فقال لهما النبي: حبيبيّ يا مهجتي إن التصارع لا يليق بكما، ولكن اذهبا فتكاتبا، فمن خطه أحسن كذلك تكون قوته أكثر.

فمضيا وكتب كلّ واحد منهما سطرا وعادا فأعطياه اللوح ليقضي بينهما، فنظر النبي ولم يرد أن يكسر قلب أحدهما، فقال لهما: تعالا معي إلى أبيكما ليحكم بينكما وينظر أيّكما أحسن خطاً.

فذهبوا إلى علي بن أبي طالب ودخلوا جميعا منزل فاطمة.

أنا كنت أتحرّق لمعرفة ما حكم علي لهما، فما كان إلّا ساعة والنبي وسلمان الفارسي مقبلان، وكان بيني وبين سلمان صداقة، فسألته كيف حكم علي؟ وخط أيّهما أحسن؟

فقال سلمان إنّ علي لم يجبهما بشيء، لأنّه تأمّل أمرهما وقال: لوقلت خط الحسن أحسن كان يغتم الحسين ولو قلت خط الحسين أحسن كان يغتم الحسن.

فأرسلهما إلى فاطمة قائلا لهما، امضيا إلى أمكما فهي تحكم بينكما.

فأتيا إلى أمهما وعرضا عليها ما كتبا في اللوح، وقالا: يا أمّاه إن جدنا أمرنا أن نتكاتب ومن كان خطه أحسن تكون قوّته أكثر، فتكاتبنا وجئنا إليه، فوجّهنا إلى أبينا، فلم يحكم بيننا ووجّهنا إليكِ فتفكّرت فاطمة بأنّ جدهما وأباهما ما أرادا كسر خاطرهما، وهي ماذا تصنع؟ وكيف تحكم بينهما؟ فقالت لهما: يا قرتي عيني إنّي أقطع قلادتي على رأسكما فأيكما يلتقط من لؤلؤها أكثر كان خطه أحسن وتكون قوته أكثر.

وكان في قلادتها سبع لؤلؤات، ثم فاطمة قطعت القلادة على رأسهما، فالتقط الحسن ثلاث لؤلؤات، والتقط الحسين ثلاث لؤلؤات، وسقطت الأخرى، فأراد كلٌ منهما تناولها، فانقسمت فجأة وأخذ كل منهما نصف.

فقال لي سلمان بأنه سأل النبي ما الذي حصل فأجابه بأن الله تعالى أمر جبرئيل بنزوله إلى الأرض ويقصم اللؤلؤة نصفين فأخذ كلّ منهما نصف.

فانظر يا يزيد كيف رسول الله لم يدخل على أحدهما ألم ترجيح الكتابة ولم يرد كسر قلبيهما، وكذلك علي وفاطمة وكذلك رب العزة لم يرد كسر قلبيهما بل أمر من قسم اللؤلؤة لجبر قلبيهما، وأنت هكذا تفعل بالحسين، أف لك ولدينك يا يزيد."

وظل يزيد بن معاوية صامتاً وخرج النصراني من المجلس دون أن زيادة اي كلمة.

رقية بنت الحسين بن علي

كنت نائما في هدوء وطمأنينة في الجناح الذي خصّصه لنا يزيد بن معاوية في قصره نحن العسكر الذين قدمنا مع السبايا من الكوفة، وكان جناح فيه كل ما تشتهي النفوس من الطعام والشراب وأنواع الفرش الحريرية والديباج والخدم فوق رؤوسنا كل الوقت.

استيقظت على صوت صراخ الأطفال وبكاء النساء من الخرابة المجاورة للقصر، والتي وضع بها يزيد بن معاوية السبايا من أهل بيت الحسين بن علي، فقمت لأستطلع ما الأمر فقط من دافع الفضول لا أكثر، فأنا لم أكن المسؤول عن متابعة هؤلاء السبايا أو حراستهم.

عندما خرجت وجدت الحرس محتارين في أمرهم فيما يفعلون ليسكتوا هؤلاء النسوة والأطفال قبل أن يصل صوتهم إلى مضجع الخليفة المريح والهادئ فبينما هم في حيرة وإذا بحاجب يزيد بن معاوية قد خرج غاضباً، ونهرهم وأخبرهم بأن الخليفة قد استيقظ بسبب الضجيج وسأل ما سبب الصراخ والبكاء.

أخبر الحرّاس الحاجب بأن طفلة صغيرة للحسين بن علي قد رأته في المنام وأفاقت وهي تبكي وتريد أن يحضروا لها أبوها الساعة فصرن يبكين لصراخها.

لم يتكلم الحاجب بأي كلمة بل دخل إلى القصر وغاب لفترة وجيزة وعندما خرج كان بين يديه الطشت الذهبي وعليه الرأس مغطى بمنديل ديبقي وأعطاه للحراس وقال لهم "أمير المؤمنين يزيد أمرني بإعطاء الرأس للطفلة لتتسلى به."

فكّرت كم سيكون قاسياً هذا التصرف، وليس بوسع الحراس الاعتراض فهذا أمر الخليفة ويجب عليهم تنفيذه، ثم أدخل أحدهم الرأس إلى الداخل.

اقتربت من حائط الخربة الذي لا يقي من برد أو حر وقربت رأسي لأسمع ماذا ستقول الطفلة، لم يمانع أي من الحراس عندما رأوني وذلك لعلمهم بأني من الضيوف في قصر الخليفة.

كانت الطفلة تبكي وتقول "يا عمة إني لست بجائعة ولم أطلب طعاماً، إنّما طلبت أن أرى أبي الحسين" على ما يبدو بأنها تخاطب عمتها زينب بنت علي.

لم أتبين ما قالته لها عمتها زينب بنت علي فصوتها كان خافتاً وعلى ما يبدو كانت تبكي ولكن من الصراخ الذي خرج من فم الطفلة أيقنت بأنها رفعت الغطاء من على رأس أبيها الحسين بن علي.

لم أستطع تمالك نفسي ودموعي كانت تسيل من عيني والطفلة تصرخ "أبتاه من ذا الذي خضب لحيتك بالدماء، أبتاه من الذي أيتمني على صغر سني، أبتاه."

لم أستطع سماع ما تقوله الطفلة لأن صوتها أصبح كتيماً، وكأنها تتكلم وهي واضعة شيئاً على فمها، لم أدر كم من الوقت مضى وأنا واقف على هذه الحالة والنساء لم يهدأ أنينهن وبكاؤهن والحراس لم يقتربوا مني أو يمنعوني من الوقوف او حتّى يسألوني عن سبب بكائي.

خرج صوت علي بن الحسين "عمة ارفعي رأس الطفلة من على الرأس الشريف."

فاستأذنته زينب بنت علي بأن يتركوها نائمة على رأس أبيها بكل طمأنينة وسكون.

علي بن الحسين صار يبكي بحرقة وقال لها "لقد فارقت الطفلة الحياة وصارت عند العلي الأعلى برفقة والدي الحسين في أعلى عليين" علا صراخ النساء وبكائهن عندما سمعن ذلك.

لم أستطع الوقوف أكثر من ذلك، عدت إلى القصر متفكراً بما حدث منذ لحظة خروجي من الكوفة إلى كربلاء لحرب الحسين بن علي، ثم مرافقتي لأهل بيته في رحلة السبي إلى الشام، والآن ما أراه منهم من صبر وتحمل.

العاصفة بعد الهدوء

تم تغسيل الطفلة ودفنها بنفس الخربة التي قضت بها. انتشر خبر ما حدث لرقية طفلة الحسين بن علي في أرجاء المدينة، وكان هذا الحدث له الأثر الكبير كما فعلت خطبة علي بن الحسين في المسجد، والتي أوضحت للناس بأن الرأس على الرمح ليس برأس رجل خارجي كما ادّعينا نحن جنود يزيد بن معاوية، بل

هو رأس الحسين بن علي حفيد رسول الله، وموت رقية بنت الحسين بن علي هو الحدث الذي قلب الموازيين وغير آراء الناس عما يحدث فصار الكثير من الناس يتكلمون عن أن ما يفعله يزيد بن معاوية شيء ليس بقليل ويجب عليهم بأن يتحركوا أو على أقل تقدير عدم البقاء صامتين.

بدأ الهمس بين الناس يتحول إلى حديث جهوري بجرأة بلا خوف أو تردد. ونفر من يزيد بن معاوية أهل الشام، وانتشرت الأخبار بأن جمع من الناس ينوون أن يهجموا على قصره، وكأن الناس كانوا نياماً فانتبهوا، فعطلوا الأسواق، وجدّدوا العزاء، وأظهروا المصيبة لأهل العباء، وقالوا والله ما علمنا أنه رأس الحسين بن علي حفيد رسول الله، وإنّما قيل رأس خارجي خرج بأرض العراق. عندما وصلت الأخبار إلى مسامع يزيد بن معاوية، أمر بنشر أجزاء من القرآن في المسجد يريد من الناس إذا صلّوا وفرغوا من صلاتهم وضعوها بين أيديهم ليشتغلوا بها عن ذكر مصيبة الحسين بن علي، ولكن الناس لم يشغلهم عن ذكره شيء، وحينئذ مالهم حديث إلّا حديث الحسين بن علي، وصار الرجل ليقول لصاحبه أرأيت ما فعل يزيد بن معاوية بابن بنت نبينا. فبلغ ذلك يزيد بن معاوية، فأمر بنقل السبايا إلى منزل أفضل من هذه الخربة، وسمح لهن بإقامة العزاء على الحسين بن علي لسبعة أيام، ونادى موظفي القصر بالناس أن يحضروا إلى الجامع فحضروا من كل جانب ومكان، وقام يزيد خطيباً وقال "يا أهل الشام أنتم تقولون أنّي قتلت الحسين بن علي، أو أمرت بقتله، وإنما قتله ابن مرجانه، والله لاقتلن من قتله."

ثم دعانا إلى القصر كل من حضر من الكوفة الى دمشق مع الرأس وشارك في معركة كربلاء، وكان قلبي ينبض بشدة وكأنه يريد الهروب من صدري، وحلقي جاف، ووجهي مصفرّ.

نظر يزيد بن معاوية وهو متربع على عرشه الذهبي إلى شبث بن ربعي وقال له "ويلك أنت قتلت الحسين بن علي أو أنا أمرتك بقتله؟"

أجاب شبث دون أن يجرؤ على النظر في عيني يزيد "أنا والله ما قتلته ولعن الله من قتله، بل قتله مصابر بن الرهيبة."

التفت يزيد بن معاوية إلى المذكور وقال "ويلك أنت قتلت الحسين بن علي أم أنا أمرتك بقتله؟"

أجاب مصابر بصوت مرتجف "لا والله، بل قتله قيس بن الربيع."

التفت يزيد بن معاوية إلى قيس وقال "أنت قتلت الحسين بن علي أم أنا أمرتك بقتله؟"

قال قيس بن الربيع "لا" ولم يضف كلمه فسأله يزيد بغضب "فمن قتله؟"

أجاب قيس بن الربيع وهو ينظر الى ناحية الشمر بن ذي الجوشن "قتله الشمر بن ذي الجوشن."

التفت يزيد بن معاوية إلى الشمر وصرخ "أنت قتلت الحسين أم أنا أمرتك؟"

أجاب الشمر "لا."

فسأله يزيد بن معاوية "فمن قتله؟"

أجاب الشمر بن ذي الجوشن "سنان بن أنس النخعي."

نظر يزيد بن معاوية إلى سنان وقال "أنت قتلت الحسين بن علي أم أنا أمرتك؟"

أجاب سنان بن أنس النخعي "لا بل قتله خولي بن يزيد الأصبحي."

التفت يزيد بن معاوية إلى خولي وقال "أنت قتلت الحسين بن علي أم أنا أمرتك بقتله؟"

أجاب خولي "لا."

انتفض يزيد بن معاوية من عرشه وصرخ غاضبا وكادت عروق رقبته تنفجر "ويلكم، يحيل بعضكم على بعض، وأرى ينظر بعضكم بعضا."

قال أحد الواقفين لم أستطع تبين وجهه لعدم جرأتي على تحريك رأسي أو رفع نظري "قتله قيس بن الربيع."

التفت يزيد بن معاوية ولا يزال هائجا وصرخ في وجه قيس "أنت قتلت حسينا؟"

أجاب قيس بن الربيع "ما قتلته."

صرخ يزيد بن معاوية فقفز معظمنا لعلو صوته "ألا ويلكم، من قتله؟"

كنت صامتاً شأني شأن جميع العساكر ننظر إلى بعضنا البعض إلى أن تكلم قيس بن الربيع وقال "يا أميرنا أنا أقول لك من قتله ولي الأمان؟"

قال يزيد بن معاوية وقد خفض صوته "نعم."

قال قيس بن الربيع "والله ما قتل الحسين بن علي إلّا الذي عقد الرايات وفرّق الأموال وبذل العطايا وصبّ المال على الأنطاع وسيّر الجيوش جيشاً بعد جيش."

قال يزيد بن معاوية "ومن ذاك؟"

أجاب قيس دون أن يجرؤ على النظر مباشرة الى عيني يزيد بن معاوية "أنت والله."

غضب يزيد بن معاوية من قول قيس وكأنه ندم بإعطائه الأمان وقام ودخل الى داره في القصر.

ثم خرج ودعا الحرم واعتذر عندهن وقال لهن "أيّنا أحب إليكن، المقام عندي والجائزة السنيّة، أو المسير إلى المدينة؟" فأجبنه النسوة بأنّهن يحببن أن ينحن على الحسين بن علي، فأمر أن يهيئوا لهن كل شيء يحتجن إليه لإقامة العزاء، وجعلن ينحن على الحسين بن علي، فلم يبق في دمشق قرشية إلّا لبست السواد، وظللن يبكين على الحسين بن علي لسبعة أيام، فلما كان اليوم الثامن عرض يزيد بن معاوية عليهن وخيرهن بين المقام عنده والسير إلى المدينة المشرفة فاخترن السير إلى المدينة."

كان يزيد بن معاوية لا يجلس على مائدة غداء أو عشاء إلّا ويطلب بأن يحضروا علي بن الحسين، ويجلسه معه، وفي إحدى تلك المرّات سأله يزيد بن معاوية ونحن على مسمع منه "يا علي اذكر حاجاتك الثلاث اللاتي وعدتك بقضائهن."

أجابه علي بن الحسين "أن تريني وجه أبي الحسين فأتزود منه وأنظر إليه وأودّعه، وأن ترد علينا ما أخذ منا، وإن كنت عزمت على قتلي وجّه مع النسوة من يردهن إلى حرم جدهن رسول الله."

أجابه يزيد بن معاوية "أمّا وجه أبيك فلن تراه أبدا، وأمّا قتلك فقد عفوت عنك، وأنت من سيردّ النساء إلى المدنية، وأمّا ما أخذ منكم فأنا أعوّضكم عنه أضعاف قيمته."

قال علي بن الحسين "أمّا مالك فما نريده وهو موفر عليك وإنّما طلبت ما أخذ منا لأن فيه مغزل فاطمة بنت محمّد ومقنعتها وقلادتها وقميصها" نظرت الى وجهه وأدركت أنّ لجدته الزهراء مكانة في قلبه لا تنازعها امرأة في الوجود.

فأمر يزيد بن معاوية أحد وزراءه برد ذلك لعلي بن الحسين، وأرسل في طلب النعمان بن البشير وبينما ننتظر قدومه قال لعلي بن الحسين "لعن الله ابن مرجانة أما والله لو كنت أنا صاحب أبيك ما سألني خصلة أبدا إلّا أعطيته إيّاها، ولدفعت عنه الحتف بكل ما قدرت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن قضى الله ما رأيت."

حضر النعمان بن البشير قال له يزيد بن معاوية "جهّز هؤلاء النسوة بما يصلحهم، وابعث معهم رجلا من أهل الشام أميناً صالحاً وابعث معهم خيلاً وأعواناً إلى أن يصلوا إلى مدينة جدهم رسول الله."

تم تجهيز الركب وكنت أنا من الذين اختارهم النعمان بن بشير لمرافقة النساء إلى المدينة وفي يوم رحيلنا كان يزيد حاضراً وكانت المحامل مفروشة بفرش الديباقي وبالإبريسم وقال يزيد لزينب بنت علي "خذي هذه الأموال عوضا عن الحسين بن علي واحسبي ما كان قد مات."

أجابته زينب بنت علي بحزم "ما أقسى قلبك يا يزيد تقتل أخي وتعطيني عوضه مالاً، والله لا كان لك ابدا."

العودة إلى المدينة

كان القائد الموكل علينا حسن المعاملة مع النساء، كنّا نتقدم تارة، ونتأخر تارة أخرى، لمنحهم الخصوصية والراحة، وعند مفترق الطرق إلى الكوفة أو الحجاز طلبن منه أن يمر بنا إلى كربلاء لتجديد الحزن على الحسين بن علي وأجابهم القائد بكل صدر رحب.

كان الفرق شاسعاً بين رحلتهم هذه ورحلة السبي عندما قدمنا من الكوفة إلى الشام منذ أسابيع. ففي تلك الرحلة كانت كل امرأة أو طفل يتلقون الإجابة بالسياط والضرب في حال تجرؤوا على طلب أي أمر، وإن بكين حزناً على فراق أحبتهن أيضاً كان خولي أو الشمر يأمران جلاوزتنا بضربهن وسؤالهن بأن يصمتن.

عندما وصلنا إلى كربلاء لم تكن كما تركناها فالقتلى كانوا مدفونين والقبور واضحة المعالم وهناك جماعة من بني هاشم مجتمعون يزورونها، ومعهم كان جابر بن عبد الله الأنصاري، وقد كان كفيفاً لا يرى ويقوده خادمه.

كان جابر بن عبد الله الأنصاري واقفا على قبر الحسين بن علي وهو ينادي بصوت حزين "يا حسين، يا حسين، يا حسين."

"حبيب لا يجيب حبيبه، وأنّى لك الجواب وقد شحطت أوداجك على أثباجك، وفرق بين رأسك وبدنك، فأشهد أنَّكَ ابن خاتم النبيين، وابن سيد المؤمنين، وابن حليف التقوى، وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيد النقباء، وابن فاطمة الزهراء سيدة النساء، ومالك لا تكون كذلك وقد غذّتكَ كفُّ سيد المرسلين، وربيت في حجر المتقين ورضعت من ثدي الايمان، وفطمت بالإسلام، فطبت حياً وطبت ميتاً غير أن قلوب المؤمنين غير طيبة بفراقك، ولا شاكّة في الخيرة لك، فعليك سلام الله ورضوانه، وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا."

ثم نظر جابر بن عبد الله الأنصاري حول القبر وقال "السلام عليكم أيتها الأرواح التي حلت بفناء الحسين وأناخت برحله، أشهد أنكم أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتى اتاكم اليقين."

"والذي بعث محمداً بالحق نبيّاً، لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه."

قاطعه دليله وخادمه عطيّة العوفي قائلاً "كيف شاركناهم؟ ولم نهبط وادياً ولم نعل جبلاً ولم نضرب بسيف والقوم قد فرق بين رؤوسهم وأبدانهم وأُيتمت أولادهم وأرملت نسائهم."

قال جابر لعطية "إنّي سمعت حبيبي رسول الله يقول: (من أحب قوماً كان معهم ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم) والذي بعث محمداً بالحق نبياً إن نيتي ونية أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه."

كان لقاء علي بن الحسين مع جابر بن عبد الله الأنصاري بالبكاء والحزن واللطم. بقينا في كربلاء ثلاثة أيام أمضوها كلها بمجالس العزاء على الحسين بن علي وفي اليوم الرابع تجهزنا للخروج من كربلاء وكان الفراق قاسياً على النساء فكأنما أجسادهن كانت على الجمال وأرواحهن بقيت في كربلاء.

تبدلت أحوال النسوة عندما اقتربنا من المدينة المنورة مدينة جدهم ومسقط رأسهم وموطن أحبتهم، كان واضحاً بأنّهنّ استصعبن الرجوع إليها، وهن على هذه الحالة، فعندما خرجن منها كان معهم أزواجهن وأبنائهن وإخوانهن وسيدهن الحسين بن علي واليوم عاد الركب من غير وجوده.

بصوت حزين مختلط بالبكاء انشدت إحدى النسوة:

مدينة جدّنا لا تقبلينا
فبالحسرات والأحزان جينا
ألا فأخبر رسول الله عنّا
بأنّا قد فجعنا في أبينا
وأنّ رجالنا بالطف صرعى
بلا رؤوس وقد ذبحوا البنينا
وأخبر جدّنا أنّا أسرنا
وبعد الأسر يا جدّا سبينا.
ورهطك يا رسول الله أضحوا
عرايا بالطفوف مسلّبينا
وقد ذبحوا الحسين ولم يراعوا

جنابك يا رسول الله فينا

فلو نظرت عيونك للأسارى

على أقتاب الجمال محمّلينا

رسول الله بعد الصّون صارت

عيون الناس ناظرة إلينا

وكنتَ تحوطُنا حتى تولت

عيونك ثارت الأعداء علينا

أفاطم لو نظرت الى السبايا

بناتك في البلاد مشتّتينا

أفاطم لو نظرت الى الحيارى

ولو أبصرت زين العابدينا

أفاطم لو رأيتينا سهارى

ومن سهر الليالي قد عمينا

أفاطم ما لقيتِ من عداكِ

ولا قيراط مما قد لقينا

فلو دامت حياتك لم تزالي

إلى يوم القيامة تندبينا

وعرّج بالبقيع وقف ونادِ

أيابن حبيب ربّ العالمينا

وقل يا عم يا حسن المزكّى

عيال أخيك أضحوا ضائعينا

أياعمّاه إنّ أخاك أضحى

بعيداً عنك بالرّمضا رهينا

بلا رأس تنوح عليه جهرا

طيور والوحوش الموحشينا

ولو عاينت يا مولاي ساقوا

حريماً لا يجدن لهم معينا

على متن النياق بلا وطاء

وشاهدت العيال مكشّفينا

مدينة جدّنا لا تقبلينا

فبالحسرات والأحزان جينا

خرجنا منك بالأهلين جمعا

رجعنا لا رجال ولا بنينا

وكنّا في أمان الله جهراً

رجعنا بالقطيعة خائفينا

ومولانا الحسين لنا أنيس

رجعنا والحسين به رهينا

فنحن الضائعات بلا كفيل

ونحن النائحات على أخينا

ونحن السائرات على المطايا

نشال على جمال المبغضينا

ونحن بنات يس وطه

ونحن الباكيات على أبينا

ونحن الطاهرات بلا خفاء

ونحن المخلصون المصطفونا

ونحن الصابرات على البلايا

ونحن الصادقون الناصحونا

ألا يا جدّنا قتلوا حسينا

ولم يرعوا جناب الله فينا

ألا يا جدّنا بلغت عدانا

مناها واشتفى الأعداء فينا

لقد هتكوا النساء وحمّلوها

على الأقتاب قهرا أجمعينا

وزينب أخرجوها من خباها

وفاطم والهٌ تبدي الأنينا

سكينة تشتكي من حرّ وجدٍ

تنادي الغوث ربّ العالمينا

وزين العابدين بقيد ذيل

وراموا قتله أهل الخؤونا

فبعدهم على الدنيا تراب

فكأس الموت فيها قد سقينا

وهذي قصّتي مع شرح حالي

ألا يا سامعون ابكوا علينا

التفتت فرأيت الدموع على خدود كل من سمعها. وماهي الا لحظات عندما أعلن علي بن الحسين نيته التوقف وعدم الدخول الى المدينة قبل تهيئة أهلها لقدومهم فتوقفنا وضربنا الفسطاط وأنزل النسوة.

هنا انتهت مهمتنا كمرافقين لهم وصار وقت رجوعنا فتقدمت من القائد وأخبرته بأني من فرسان عبيد الله بن زياد ولا بد لي من العودة إلى الكوفة فلن أرافقكم للشام ومنحني القائد الإذن. فصرت حراً أستطيع البقاء او الرجوع إن أردت وقد كنت أنوي البقاء لوقت أطول في المدينة لأرى ماذا سيفعل علي بن الحسين.

قال علي بن الحسين لبشير بن حذلم "يا بشير رحم الله أباك لقد كان شاعرا، فهل تقدر على شيء منه؟"

أجاب بشير بن حذلم "بلى يا ابن رسول الله إني لشاعر."

قال علي بن الحسين "فادخل المدينة وانعَ أبا عبد الله الحسين."

انطلق بشير بن حذلم وأنا لحقته على فرسي لأرى كيف سيكون استقبال أهل المدينة لنساء الحسين بن علي، ولا أعتقد بأنّهم لم يعلموا بمقتل الحسين بن علي إلى الآن.

كان الناس ينظرون الى بشير بن حذلم يتقدم على فرسه بسرعة والكثير منهم بدؤوا بالتجمهر عندما توقف عند مسجد الرسول وصار يبكي وينشد بصوت حزين:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها

قتل الحسين فأدمعي مدرار

الجسم منه بكربلاء مضرج

والرأس منه على القناة يدار

خرج الناس عند سماعهم لهذا الخبر جرياً باتجاه بشير وتجمعوا حوله، وكأنه لم يبق في المدينة مخدرة ولا محجّبة إلّا وبرزت بأكيات صارخات داعيات بالويل والثبور لقتلة الحسين بن علي.

تابع بشير بن حذلم "هذا علي بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم، ونزلوا بفنائكم وأنا رسوله إليكم أعرفكم مكانه."

قال أحد الرجال "أيها الناعي جددت حزننا بأبي عبد الله الحسين وخدشت قروحاً لما تندمل فمن أنت رحمك الله ؟"

أجابه "أنا بشير بن حذلم، وجّهني مولاي علي بن الحسين وهو نازل في موضع خارج المدينة مع عيال أبي عبد الله ونسائه."

لم ينتظر الناس ان يسمعوا أكثر، بدؤوا بالزحف مسرعين الى الموضع الذي دلّهم عليه بشير بن حذلم وكأنه يوم الحشر، حشود يخرجون من كل السكك والحواري حتى غصّ الطريق الى مكان فسطاط علي بن الحسين بسيل من البشر.

ضرب بشير فرسه وتوجه عائداً ولكنه لم يستطع التقدم على فرسه وكذلك أنا لم أستطع التقدم أكثر على فرسي فاضطررت للترجل والإكمال سيرا على الاقدام حتّى وصلنا إلى باب فسطاط علي بن الحسين.

كان الضجيج عاليا حول الفسطاط، أناس تبكي وأناس تتوسل بعلي بن الحسين ليخرج إليهم وأناس تندب الحسين بن علي والجو أشبه بيوم الحشر.

خرج علي بن الحسين وفي يده خرقة يمسح بها دموعه وخلفه خادم معه كرسي، فوضعه له وجلس عليه عندما سمع الناس عبراته وصوت بكائه ارتفعت أصواتهم وضجّ المكان ضجة شديدة، فأومأ علي بن الحسين بيده أن اسكتوا فسكتوا وسكنوا وقال:

"الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرّحيم، مالك يوم الدّين، بارئ الخلائق أجمعين، الذي بَعُدَ فارتفع في السماوات العلى، وقرب فشهد النجوى، نحمده على عظائم الأمور، وفجائع الدهور، وألم الفواجع، ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء، وعظيم المصائب الفاظعة، الكاظّة الفادحة الجائحة.

أيّها الناس، إنّ الله تعالى وله الحمد ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الاسلام عظيمة، قُتل أبو عبد الله الحسين وعترته، وسُبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان، من فوق عالي السنان، وهذه الرزيّة التي لا مثلها رزية.

أيها الناس، فأيّ رجالات منكم يسرّون بعد قتله؟ أم أي فؤاد لا يحزن من أجله؟ أم أيّة عين منكم تحبس دمعها، وتضنّ عن انهمالها؟ فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان في لجج البحار، والملائكة المقرّبون، وأهل السماوات أجمعون.

يا أيّها الناس، أيّ قلب لا ينصدع لقتله؟ أم أيّ فؤاد لا يحنّ إليه؟ أم أيّ سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الاسلام ولا يصم؟

يا أيّها الناس، أصبحنا مطرودين مشرّدين مذمومين وشاسعين عن الأمصار، كأنّنا أولاد ترك أو كابل، من غير جرم اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الاسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، إن هذا إلّا اختلاق.

والله لو أن النبي تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصاية بنا لما ازدادوا على ما فعلوا بنا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكظّها وأفظعها وأمرّها وأفدحها، فعند الله نحتسب فيما أصابنا وما بلغ بنا إنّه عزيز ذو انتقام."

ثم قام علي بن الحسين ليدخل الفسطاط والناس لا تزال تبكي.

جاء غلام يجري ووقف قبالة الفسطاط فالتفت له علي بن الحسين. صار الغلام يتحدث وهو يلهث وعرّف نفسه على أنه من غلمان محمد بن الحنفية "عندما علت الأصوات وضجيج الناس متوجهة للقائك سمعناه يقول "والله ما رأيت مثل هذه الزلزلة إلاّ يوم مات فيه رسول الله. وسأل ما هذه الصيحات؟

لم نجرؤ على إخباره الخبر لخوفنا عليه من الموت، وعندما ألح علينا بالسؤال كذبنا عليه وقلنا له "جعلنا فداك يا ابن أمير المؤمنين إن أخاك الإمام الحسين بن علي قد أتى أهل الكوفة وغدروا به وقتلوا ابن عمه مسلم بن عقيل فرجع عنهم وأتى بأهله وأصحابه سالمين"

"فسألنا لما لم يدخل علي أخي وسيدي الإمام الحسين بن علي."

"أخبرناه بأن الإمام الحسين بن علي أقام خارج المدينة ولم يدخلها بعد."

"رغم ممانعتنا له لمغادرة المنزل الا أنه أصر وما إن خرجنا برفقته يستند على أكتافنا أحس بالشر ولمح الأعلام السوداء وقال "إنّ فيها والله مصائب آل يعقوب عليه السلام." ولم يتمالك نفسه ووقع مغشياً عليه."

"وهو الآن ممدد على جانب الطريق."

انطلق علي بن الحسين مع الغلام باتجاه منزل محمد بن الحنفية وأنا كنت من جمهور الناس الذين تبعناه.

عندما لمح علي بن الحسين الجسد الممد هرول اليه وجلس بمحاذاته، حمل رأس عمّه محمد بن الحنفية ووضعه في حجره وكان هذا كافياً ليفيق عمّه وتلتقي عيناه بعين ابن أخيه.

قال محمد بن الحنفية وعيونه مليئة دموعا "أين أخي؟ أين ثمرة فؤادي؟ أين أخي الحسين؟ أين قرّة عيني؟ أين نور بصري؟ أين أبوك؟ أين خليفة أبي؟ أين خليفة أخي؟"

أجابه علي بن الحسين وهو يبكي "يا عمّاه، أتيتك يتيماً ليس معي إلّا نساء حاسرات في الذيول، عاثرات باكيات نادبات، وللمحامي فاقدات، يا عمّ لو تنظر إلى أخيك وهو يستغيث فلا يغاث، ويستجير فلا يجار، مات وهو عطشان."

علا صوت محمد بن الحنفية بالبكاء مع ابن أخيه حتى غشي عليه مرة أخرى.

أمضيت ليلتي في المدينة المنورة وفي الصباح الباكر شددت الرحال عائدا الى الكوفة.

الخاتمة

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

17 صفر 64 هجري

خرج يزيد بن معاوية صباحا مع عسكره وندمائه قاصدا الصيد.

لاحت له ظبية فوضع السهم في كبد القوس ليصوبه على قلبها، تحرك شيء بقرب الظبية فأدارت رأسها ونظرت باتجاه يزيد بن معاوية، أطلق السهم ولكنها كانت أسرع فقفزت وجرت مبتعدة بقفزات رشيقة وبجسد يلمع تحت أشعة الشمس. صمم يزيد بن معاوية اللحاق بها ولكن قبل أن ينطلق نظر إلى كل من معه وقال "لا يتبعني منكم أحد."

انطلق يسابق الريح وكلما لمحته الظبية زادت من قوة قفزاتها حتى صارت المسافة بينها وبين فرسه تتزايد. بعد مطاردة دامت لوقت لا بأس به تباطأت سرعة فرسه لإرهاقها وعطشها واختفت الظبية. نظر حوله ولاحظ بأنه لا يهتدي أين هو. استدار وانطلق وبعد ساعة من الجري والبحث عن حاشيته باءت بالفشل شد لجام الفرس واوقفه وصار ينظر حوله.

التفت الى صوت أقدام شخص تدوس أوراق الشجر الجاف فنظر ليجد أعرابيا يقترب منه بابتسامه على وجهه. رمى الاعرابي السلام وقال "أضال فأرشدك أم جائع فأطعمك أو عطشان فأسقيك؟"

أجاب يزيد دون ان ينزل من على فرسه "لو عرفتني لزدت كرامتي."

قال الأعرابي "من أنت؟"

أجاب " يزيد بن معاوية بن أبي سفيان."

كان للاسم أثر النار حين تلامس جلد الانسان، اختفت ابتسامة الاعرابي وأحس بغصة في حلقه. قال وخرجت كلماته كالفحيح من بين أسنانه التي كادت تنكسر لشدة ضغط فكه " لا مرحباً ولا أهلاً ما أقبح طلعتك وما أشنع سمعتك، ولله لأقتلنك كما قتلت الإمام الحسين بن علي حفيد رسول الله."

جذب سيفه يريد طعن يزيد بن معاوية الذي حاول جاهداً أن يتحكم بفرسه التي هاجت عندما انعكست أشعة الشمس الساقطة على نصل السيف وسقطت في عينيه وشب عالياً ففلتت يدي يزيد من الرسن وفلتت رجله اليمنى وبقيت رجله اليسرى عالقة بالرسن. انطلق الفرس وصار جسد يزيد يضرب بكل حجر وشجر.

عندما طال غياب يزيد بن معاوية استنفر معسكره باحثين عنه وبعد ساعات من البحث وقبل غروب الشمس وجدو فرسه واقفة وعالق بسرجها اليسرى رجل يزيد المقطوعة من أعلى الفخذ دون الجسد.

كانت تلك نهاية يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بعد ولاية دامت ثلاث سنين وعدة شهور في حواريين سنة أربع وستين للهجرة وكان ابن ثمان وثلاثين سنة.

و كان من أبرز الأحداث و أكثرها أثرها في نفوس المسلمين على مر العصور قتله حفيد رسول الله و استباحته للمدينة المنورة عندما طرد أهلها عماله فأرسل لهم جيش من الشام بقيادة مسلم بن عقبة المري و الملقب بالمسرف فاستباح المدنية المنورة في المعركة المعروفة بواقعة الحرة لثلاثة أيام و قتل أربعة آلاف من الأشراف و أجبر أهلها على مبايعته كعبيد ليزيد بن معاوية و بعد انتهائه من المدينة المنورة توجه الى مكة و في الطريق مات مسرف و كان قائدا للجيش بعده الحصين بن نمير فأتى مكة و حاصرها فعاذ ابن الزبير بالبيت الحرام و كان قد سمي نفسه العائذ بالبيتِ. نصب الحصين المجانيق والعرادات على مكة والمسجد الحرام من الجبال المحيطة ورمى البيت بالأحجار بالنار والنفط والكتان وانهدمت الكعبة واحترقت.

زينب بنت علي بن أبي طالب

15 رجب 65 هجري

عام 65 للهجرة كان عام مجاعة على الحجاز وكان الوالي آنذاك عبد الملك بن مروان. عبد الله بن جعفر الطيار زوج زينب بنت علي من أغنياء المدينة صعب عليه أن يظل فيها مع شدة الجدب وهو معروف بسيد الأجواد ومشهور بين الناس بقضاء حاجاتهم، اضطر الى المسير مع عائلته الى الشام حيث يملك ضياعاً فيها ولا تزال معروفة بالرخاء ووفور الخيرات فالمجامعة لم تصلها للاختلاف الكبير في المناخ بين الجزيرة وبلاد الشام. في الطريق تجددت الأحزان والأشجان في قلب زينب بنت علي من عهد السبي الذي حصل عليها من قبل يزيد بن معاوية فأصيبت بحمى طوال الطريق وحين وصلت مع زوجها الى ضيعته في قرية راوية في غوطة دمشق نفثت أنفاسها الطاهرة وغادرت الدنيا في الخامس عشر من شهر رجب من نفس العام.

علي السجاد بن الحسين بن علي

25 محرم 96 هجري

انتقل علي بن الحسين الى الرفيق الأعلى مسموماً على يد الخليفة في زمانه عن عمر يناهز السابعة والخمسين ودفن في المدينة المنورة في البقيع.

المصادر

يرجى الأخذ بالعلم بأن المصادر المذكورة مأخوذة من هوامش الكتب التي اعتمدت عليها لكتابة القصة وفي حال أراد القارئ التبحّر في قصة الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب يمكنه الرجوع إلى المصادر التالية على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر ونرجو المعذرة في حال سهوت عن ذكر أي مصدر أو كتاب.

تاريخ الطبري أحداث سنة ستين وسنة واحد وستين للّهجرة

الكامل في التاريخ أحداث سنة ستين وسنة واحد وستين للّهجرة

البداية والنهاية أحداث سنة واحد وستين للّهجرة

الفتوح لابن أعثم

كتاب تاريخ دمشق ترجمة مقتل الحسين بن علي

كتاب تاريخ الاسلام أحداث سنة واحد وستين للّهجرة

الوافي بالوفيات ترجمة الحسين بن علي

أنساب الاشراف للبلاذري باب مقتل الحسين بن علي

سير أعلام النبلاء في ترجمة الحسين الشهيد

تهذيب الكمال في ترجمة الحسين بن علي

المعجم الكبير: مسند الحسين بن علي

طبقات ابن سعد: ترجمة الحسين بن علي

كتاب المناقب: باب مناقب الحسين بن علي

تهذيب التهذيب: ترجمة الحسين بن علي بن أبي طالب

تاريخ اليعقوبي مقتل الحسين بن علي

مقاتل الطالبيين: مقتل الحسين بن علي

اللّهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس

مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب

مقتل الحسين للخوارزمي

الاخبار الطوال: نهاية الحسين

الإرشاد للشيخ المفيد

أعلام الورى للطبرسي

نهاية الارب للنويري

مقتل أبي مخنف

مقتل الامام الحسين للسيد بحر العلوم

اكسير العبادات في اسرار الشهادات للدربندي

مقتل الحسين للمقرم

فاجعة الطف محمّد سعيد الحكيم

نفس المهموم للشيخ عباس القمي

الفهرس

المقدمة _____ **2**

الكتاب الأول _____ **3**

المدينة المنوّرة _____ **4**

دمشق _____ **4**

وصول يزيد بن معاوية إلى دمشق _____ **6**

المدينة المنورة _____ **8**

رسالة يزيد بن معاوية إلى الوليد بن عتبة _____ 8

الحسين بن علي في مجلس الوليد بن عتبة _____ **11**

الحسين بن علي في المسجد _____ **13**

الحسين بن علي وجدّه رسول الله صلى الله عليه واله وسلم _____ **14**

الحسين بن علي ومحمّد بن الحنفية _____ **15**

خروج الحسين بن علي من المدينة إلى مكّة _____ **17**

الكوفة _____ **18**

الحسين بن علي في مكة _____ **20**

وصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة _____ **21**

رسالة الحسين بن علي إلى أهل الكوفة _____ **24**

النعمان بن بشير في مسجد الكوفة _____ **26**

في منزل عمر بن سعد _____ **28**

رسالة عمر بن سعد إلى يزيد بن معاوية _____ **30**

رسالة مسلم بن عقيل إلى الحسين بن علي _____ **31**

عابس وشوذب _____ **32**

دمشق _____ **34**

يزيد بن معاوية مع خادمه سرجون المسيحي _____ 34

مكّـة _____ **35**

البصرة _____ **35**

رسالة الحسين بن علي إلى يزيد بن مسعود النهشلي _____ 35

المنذر بن جارود وعبيد الله بن زياد _____ **38**

البصرة 40
وصول مسلم بن عمرو مع رسالة يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد 40
الكوفة 41
استقبال حافل 41
عبيد الله بن زياد في مسجد الكوفة 44
شريك بن الأعور على فراش المرض 46
أبو خليل الشامي 48
خطبة الحسين بن علي بجانب الكعبة في مكة 56
الحسين بن علي وعبد الله بن عباس 58
عبيد الله بن زياد وهانئ بن عروة في الكوفة 59
شريح القاضي 63
خروج الحسين بن علي من مكة 65
يحيى بن سعيد بن العاص يعترض قافلة الحسين بن علي 66
رسالة عبد الله بن جعفر إلى الحسين بن علي 67
الفرزدق 69
رسالة عمرو بن سعيد والي يزيد على مكة الى الحسين بن علي 70
خروج مسلم بن عقيل لينصر هانئ بن عروة في الكوفة 72
ضيف في منزل طوعة 75
عبيد الله بن زياد في المسجد 78
بلال ولد طوعة 79
جنود عبيد الله بن زياد حول منزل طوعة 81
مسلم بن عقيل خارج قصر الإمارة 84
مسلم بن عقيل وعبيد الله بن زياد 85
هانئ بن عروة في سوق الكوفة 88
التوقف في ذات عرق في الطريق من مكة إلى الكوفة 90
المدينة المنورة 91
رسالة الوليد بن عتبة إلى عبيد الله بن زياد 91
في الطريق بين مكة والكوفة وصول قافلة الحسين بن علي إلى الحاجر من بطن الرمة 91
على حدود الكوفة 92
في قصر الإمارة في الكوفة 93
وصول قافلة الحسين بن علي إلى مياه العرب في الطريق بين مكة والكوفة 95

لقاء الحسين بن علي مع زهير بن القين في الطريق بين مكة والكوفة _____ 96
ثلاثة مسافرين من قبيلة بني أسد في الطريق بين مكة والكوفة_____ 98
قافلة الحسين بن علي في منطقة الثعلبية في الطريق بين مكة والكوفة _____ 100
وصول قافلة الحسين بن علي الى منطقة زباله في الطريق بين مكة والكوفة _____ 102
وصول قافلة الحسين بن علي الى بطن العقبة في الطريق بين مكة والكوفة _____ 103
حبيب بن مظاهر _____ 104
وصول قافلة الحسين بن علي الى شراف في الطريق بين مكة والكوفة_____ 108
الحسين بن علي يسقي جيش أعداءه الماء _____ 110
قافلة الحسين بن علي وقافلة الحر بن يزيد الرياحي _____ 114
وصول قافلة الحسين بن علي إلى عذيب الهجانات _____ 115
قصر بني مقاتل _____ 118
ليلة ولود العام 61 للهجرة _____ 120
وصول قافلة الحسين بن علي إلى كربلاء _____ 122
وصول أول دفعة للجيش بقيادة عمر بن سعد إلى كربلاء_____ 127
صلاح الشامي في الكوفة _____ 130
يومي الخامس والسادس من محرم_____ 134
حبيب بن مظاهر في قرية بني أسد _____ 136
يوم السابع من محرم _____ 138
يوم الثامن من محرم_____ 145
يوم التاسع من محرم _____ 147
علي بن الحسين على فراش المرض_____ 152
الليل ما قبل اليوم العاشر _____ 154
يوم العاشر من محرم _____ 159
خطبة زهير بن القين_____ 162
خطبة برير بن خضير _____ 163
خطبة الحسين بن علي وهو يحمل القرآن _____ 164
الجنة أم النار _____ 166
طلب التوبة_____ 169
عمر بن سعد يبدأ الحرب _____ 170
عبد الله بن عمير الكلبي_____ 170

الفرسان الأربعة _____ 172
مسروق بن وائل الحضرمي _____ 172
خروج برير بن خضير إلى القتال _____ 177
مسلم بن عوسجة _____ 180
عمرو بن قرظة _____ 182
الحر بن يزيد الرياحي _____ 183
نافع بن هلال الجملي _____ 184
الهجوم على ميسرة جيش الحسين بن علي _____ 185
صلاة الظهر _____ 189
حبيب بن مظاهر _____ 190
ثلاثة عشر سهماً _____ 192
الحملة الجماعية _____ 196
خروج الحر بن يزيد الرياحي إلى أرض المعركة _____ 197
خروج زهير بن القين _____ 199
الغفاريان والجابريان _____ 200
حنظلة بن أسعد الشبامي _____ 201
خروج عابس وشوذب إلى أرض المعركة _____ 202
جون مولى أبي ذر _____ 204
خروج أبو الشعثاء الكندي _____ 204
خروج أنس بن الحارث الأسدي الكاهلي _____ 205
خروج اليزني والمازني وقرة الغفاري وابن مطاع _____ 206
خروج الحجاج بن مسروق الجعفي _____ 206
خروج الأصبحي وابن المهاجر _____ 206
عمرو بن جنادة _____ 207
خروج أسلم بن عمرو التركي _____ 209
خروج أبو ثمامة الصائدي _____ 209
خروج ابن دودان وابن حصين والهاشمي _____ 210
الضحّاك بن عبد الله المشرقي _____ 210
بشر بن عمرو الحضرمي _____ 211
علي الأكبر بن الحسين بن علي _____ 212

عبد الله بن مسلم بن عقيل _____ 217
عون ومحمد أبناء عبد الله بن جعفر _____ 219
أبناء عقيل بن أبي طالب _____ 220
عبد الله الأكبر ابن الحسن بن علي _____ 221
القاسم ابن الحسن بن علي _____ 222
الحسن المثنى وعبيد الله الأصغر أبناء الحسن بن علي _____ 224
إخوة الحسين بن علي _____ 224
عبد الله وعثمان وجعفر إخوة الحسين بن علي _____ 224
قمر بني هاشم أبو الفضل العباس ابن علي بن أبي طالب _____ 226
كربلاء ألا من ناصر ينصرنا _____ 234
عبد الله الرضيع ابن الحسين بن علي _____ 235
حملة الحسين بن علي الأولى _____ 237
الحسين بن علي على شاطئ الفرات _____ 240
الحسين بن علي يهيئ النساء للبلاء _____ 241
انتصار الدم على السيف _____ 242
الكتاب الثاني _____ 250
ليلة الوحشة _____ 251
السبي إلى الكوفة _____ 259
خطبة السيدة زينب بنت علي على أبواب الكوفة _____ 261
خطبة علي بن الحسين السجاد على أبواب الكوفة _____ 262
خطبة السيدة فاطمة بنت الحسين بن علي على أبواب الكوفة _____ 263
الدخول إلى الكوفة _____ 265
عبد الله بن عفيف الأزدي _____ 270
زوجة خولي الأصبحي _____ 276
في الطريق إلى الشام _____ 277
الدخول إلى دمشق _____ 284
الدخول إلى القصر الأخضر _____ 287
الدخول إلى مجلس يزيد بن معاوية _____ 288
خطبة السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب في مجلس يزيد بن معاوية _____ 293
خطبة علي بن الحسين في المسجد الجامع _____ 296

رسول ملك الروم _____ 299
رأس الجالوت _____ 300
الوزير النصراني _____ 301
رقية بنت الحسين بن علي _____ 304
العاصفة بعد الهدوء _____ 305
العودة إلى المدينة _____ 309
الخاتمة _____ 320
يزيد بن معاوية بن أبي سفيان _____ 320
17 صفر 64 هجري _____ 320
زينب بنت علي بن أبي طالب _____ 322
15 رجب 65 هجري _____ 322
علي السجاد بن الحسين بن علي _____ 322
25 محرم 96 هجري _____ 322
المصادر _____ 323
الفهرس _____ 325
للتواصل مع الكاتب _____ 330

للتواصل مع الكاتب

Misbahalhuda1@gmail.com

و الحمد لله رب العالمين